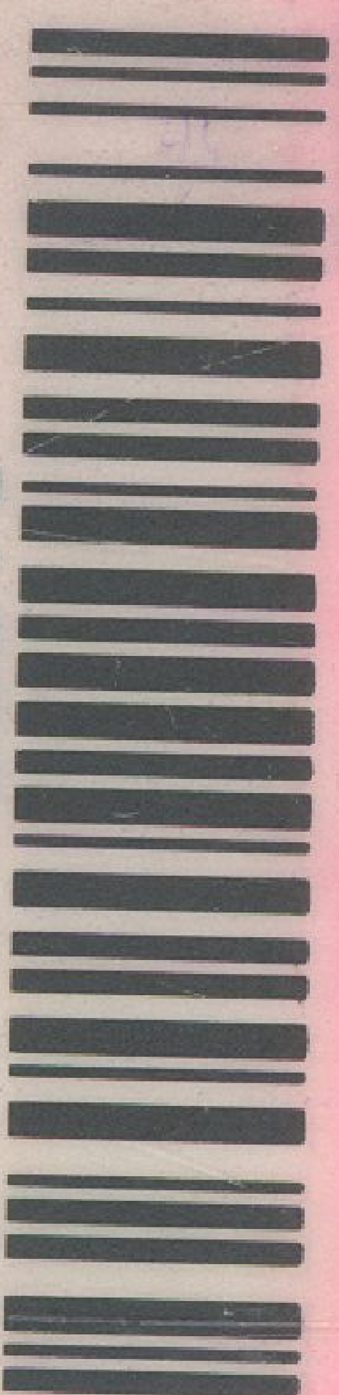



اقرأ

عباس محمود العقاد

الشيخ الرئيس

ابن سينا

الشيخ الرئيس

ابن سينا

عباس محمود العقاد

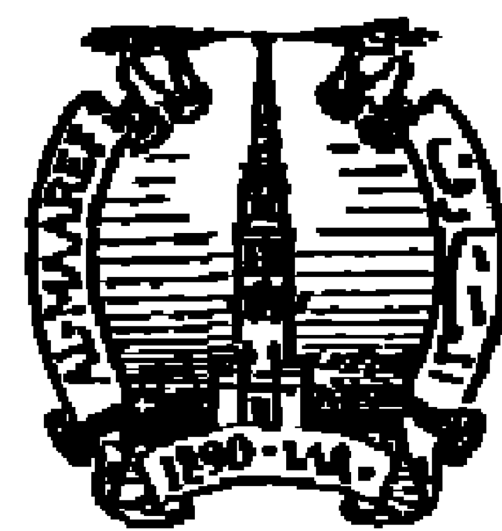
الشيخ الرئيس

ابن سينا

اقرأ ٤٦

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٤٦ — سبتمبر ١٩٤٦



الدولة والفلسفة

نشأ ابن سينا فى ظل الدولة السامانية بخراسان .

وكانت خراسان وأقاليم فارس جميعاً فى ذلك العصر مستقلة عن الخليفة العباسى ببغداد ، يحكمها الأمراء المتغلبون عليها ولا يدينون لخليفة بنى العباس بغير الخطبة باسمه على المنابر فى صلوات الجمع والأعياد .

ولم تكن خطبتهم له عن إيمان بحقه فى ولاية الأمر . لأنهم كانوا — أو كان أكثرهم على الأقل — يؤمنون بحق العلويين ويتشيعون لأئمتهم المستورين ، وإنما يخطبون لخلفاء العباسيين لأنهم أضعف شأناً من أن يجمعوا سلطان الحكم الفعلى إلى سلطان الخلافة الإسمية ، بعد أن تفرد الأمراء بالحكم فى جميع الأقاليم .

ومن أمثلة ذلك أن أحمد بن بويه عاهد المستكفى على تقسيم الأمر بينهما فيعترف المستكفي بلقب الخلافة ويعترف المستكفى له بلقب السلطان . ثم استكثر الخلافة على المستكفى فهم

بانتزاعها من العباسيين و إسنادها إلى العلويين ، فقال له بعض الدهاة من خاصة صحبه : « إنك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه . ولكنك إذا أقمت علويا فى الخلافة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته . فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك ... »

ولما تولى الطاهريون أمر خراسان من قبل المأمون فى إبان مجد الدولة العباسية كانت مصالحهم مع العباسيين وقلوبهم مع العلويين ، ويقال إنهم كانوا ينهزمون عمداً إذا حاربوا دعاة العلويين كما فعل سليمان بن عبد الله بن طاهر حين حارب الحسن ابن زيد فى طبرستان ، فانهزم اختياراً ليحتسب دماء الفاطميين.

وقد نشأت الدولة السامانية فى ظل الدولة الطاهرية ، لأن طاهر بن الحسين هو الذى ثبت نصر بن أحمد بن أسعد بن سامان على ولاية سمرقند ، ثم عقد له المعتمد العباسى على ما وراء النهر ، بتدأت به الإماره السامانية التى ولد ابن سينا فى ظلها بعد نيف ومائة سنة من نشأتها .

وقد كان الأمراء السامانيون يقاتلون العلويين فى طبرستان

وما جاورها كما كان يقاتلهم أبناء طاهر وأبناء بويه فى بعض المواقف السياسية ، ولكنهم ومن عاصرهم من أمراء فارس كانوا يعلمون أن رعاياهم يدينون بالولاء للعلويين ويرحبون بالدعوة العلوية فى كل مكان ، ولا سيا وراء النهر وخراسان ، ولا تمنعهم كراهة الغلاة من الباطنية أن يصمدوا على ذلك الولاء .

ومتى ذكرت الدعوة العلوية فقد ذكرت معها مباحث النظر ومذاهب الفلسفة ومدارس الحكمة والتصوف وكل دراسة يستعان بها على إنكار الظاهر المكشوف وتعزيز الباطن المستور . إذ كان العلويون من أنصار التجديد لأنهم خصوم السلطان القائم والحالة الواقعة ، وكانت الفلسفة بفروعها المختلفة قد امتزجت بالسياسة واشتبكت على الخصوص بمسألة الخلافة والملك والإمامة . فأصبح الإمام الحق شيئاً والسلطان الغاصب شيئاً آخر ، وليس من محض المصادفات أن الفارابى كتب فيما بين القرن الثانى والقرن الثالث يصف الإمام الصالح على سنة الفلاسفة فيجعله من الأتقياء المعرضين عن المادة المقبلين على لذات الأرواح ، ويقرن ذلك بما ينبغى له من قوة العارضة ونفاذ الفطنة ومضاء العزيمة ومناقب العدل والعفة والفضيلة . فإن الفارابى قد نشأ فيما وراء النهر حيث

استفحلت الدعوة العلوية ، وحضر الخلافة العباسية وهى شبح هزيل يؤذن بالزوال .

والذى أجمله الفارابى فى كلامه على فضلاء الأئمة قد فصلته رسائل إخوان الصفاء ورجعت به إلى نواميس الطبيعة فى المعادن والحيوان والنبات .

ورسائل الإخوان صريحة فى الدعوة إلى آل البيت حيث تقول : « اعلم ياأخى بأنا قد عملنا إحدى وخمسين رسالة فى فنون الآداب وغرائب العلوم وطرائف الحكم كل واحدة منها شبه المدخل والمقدمات والأنموذج لكيما إذا نظر فيها إخواننا وسمع قراءتها أهل شيعتنا وفهموا بعض معانيها وعرفوا حقيقة ما هو مقرون بها من تفضيل أهل بيت النبى لأنهم خزان علم الله ووارثوا علم النبوات تبين لهم تصديق ما يعتقدون فيهم من العلم والمعرفة »

فانتشار المباحث الفلسفية لا يستغرب على الخصوص فى عصر ابن سينا وفيما وراء النهر وخراسان . لأن الدعوة العلوية كانت على أقواها فى تلك الأطراف النائية ، ولأن الفلسفة لذة عقلية فى كل مكان أو زمان . أما فى تلك الأطراف النائية

فقد كانت فى ذلك الزمن مطلباً يستمد القوة من قوة الأشواق العقلية وقوة المساعى السياسية وقوة الإيمان بالدين ، وهى هناك على مقربة من الهند ومهد المانوية حيث آمن الناس قديما بحلول الروح الإلهى فى أجساد البشر وآمنوا بتناسخ الأرواح وقداسة النساك والزهاد فلا يستغربون ما ينسب إلى الأمام دون ذلك من الصفات أو من الأسرار والكرامات .

* * *

ومن الملاحظات التى لا تفوت المؤرخ فى هذا الصدد أن كبار الفلاسفة المشرقيين جميعاً كانوا من أنصار الشيعة ، وهم الكندى والفارابى وابن سينا . فقد كان جد الكندى — الأشعث ابن قيس — ممن قاتلوا مع على وشهدوا معه معركة صفين ، وكانت كندة كلها من خصوم الأمويين وشيعة الهاشميين ، وكان آباء الكندى ممن خرجوا على الدولة الأموية وجُردوا من مناصبها ولبثوا مغضوبا عليهم فى زمانها . أما الفارابى فقد جمع بين التشيع والتصوف وأوى إلى دولة بنى حمدان المتعصبة لآل البيت ، وحسبك من تشيع ابن سينا نشأته بين الإسماعليين واسمه الذى

يدل على نسب عريق في نصرة آل على وهو: أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على . . .

بل كان البيت الذى ولد فيه ابن سينا مركزاً من مراكز الدعوة الاسماعيلية والمباحث الفلسفية ، ولم يكن قصاراهم منها الإيمان بها وكفى . قال فيما رواه عنه تلميذه الجوزجانى : « وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين ويعد من الإسماعيلية ، وقد سمعت منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخى ... »

وقل أن ذكر فى ترجمة ابن سينا أمير أو وزير أو صاحب شأن إلا ذكر من شأنه أنه كان يقتنى مكتبة عامرة بأسفار العلم والحكمة، أو أنه كان من محبى هذه العلوم ، ويعنون بها علوم المنطق والنظر والدراسات الفكرية فيما وراء الطبيعة ، أو أنه كان يجلس فى يوم من الأيام للمناظرة والمساجلة ، أو أنه كان يفتح داره لمن يتوفر فيها على التأليف والتصنيف .

قال القفطى صاحب تاريخ الحكماء في ترجمة الأسكندر الأفروديسى روايةً عن يحيي بن عدى الفيلسوف : « إن شرح الإسكندر للسماع الطبيعى كله ولكتاب البرهان رأيتهما فى تركة

إبراهيم بن علىّ عبد الله . . وعرضا بمائة دينار وعشرين ديناراً فمضيت لأحتال بالدنانير وعدت وأصبت القوم قد باعوا الشرحين فى جملة كتب على رجل خراسانى بثلاثة آلاف دينار... وكانت هذه الكتب تحمل فى الكم . . . »

فإذا كان « رجل خراسانى » يشترى لفافة من الورق بهذا الثمن الضخم لأنها شروح فلسفية فقد علمنا إذن كيف كان شأن الفلسفة بين النكرات فضلاً عن الأعلام فى خراسان .



بعض العباقرة ينبغون فى وطن من الأوطان أو فى عصر من العصور فيستغرب نبوغهم فيه . أما ابن سينا فلا يستغرب نبوغه فى عصره ولا فى وطنه ولا فى بيته ، بل الغريب أن يكون العصر والموطن والبيت على تلك الحالة ثم لا يظهر فيه نابغ فيلسوف .

سيرة ابن سينا

كان عبد الله بن الحسين بن على من أهل بلخ فى بلاد الأفغان عاملا للدولة السامانية ، وكان يتولى من قبلها التصرف بأعمال قرية « خرمتين » من ضياع بخارى ، وكانت إلى جوار

مركزه فى عمله قرية أفشنة ، فكان يزورها و يتعرف إلى بعض أهلها ، ومنها تزوج فتاة تسمى ستارة كما جاء فى ابن خلكان ، وفيها ولد لهما ابنهما «الحسين» الذى اشتهر بكنيته العليا «ابن سينا» وأصبح اسمه أشهر الأسماء بين فلاسفة الشرق وأطبائه ، ثم أصبح لقب الشيخ الرئيس علماً عليه لاينصرف إلى سواه .

ولد في سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) ، وانتقل مع آله فى السنة الخامسة من عمره إلى بخارى ، وكان أبوه من طائفة الاسماعيلية وهى يومئذ صاحبة مذهب فى الخلق والوجود وتفسير الشرائع بالظاهر من ألفاظها والباطن من معانيها ، فنشأ الحسين الصغير وهو يستمع إلى المناقشات الفلسفية والتأويلات الدينية فى «النفس» و «العقل» وأسرار الربوبية والنبوة ، وحفظ القرآن وهو دون العاشرة من عمره ؛ وتعلم اللغة على أبى بكر أحمد بن محمد البرقى الخوارزمى ، وتعلم الفقه على إسماعيل الزاهد . ومر ببخارى أبو عبد الله الناتلى الذى كان يعرف بالمتفلسف لاشتغاله بالمنطق والرياضة ، فاستنزله الوالد فى منزله عسى أن ينتفع الناشئ النجيب بعلمه . فقرأ عليه الحسين كتاب «إيساغوجى» فى المنطق لصاحبه ملك الصورى المشهور بفرفريوس ، وكتاب المجسطى فى علم الهيئة والجغرافية

لبطليموس الجغرافى ، وظهرت باكورة الفيلسوف فى أوائل صباه فإذا هو يناقش أستاذه فى حد «الجنس» خاصة وهو من الحدود التى دار عليها مذهبه الفلسفى وكان له فيها رأى فاصل بين أفلاطون وأرسطو ، وعلم الأستاذ أن تلميذه قد تلقى عنه كل ما هو قادر على إعطائه فاستأذن منصرفا إلى مطافه بالبلاد على سنة الدراويش المتفلسفين فى ذلك الزمان ، واستتم الفيلسوف الصغير كل ما وجده بين يديه من علوم الحكمة والمنطق والرياضة ، فبلغ فيها الغاية وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، وكان فى أيام طلبه لا ينام ليلة بطولها ولا يلتفت بالنهار إلى عمل غير القراءة والتحصيل ، وربما غلبه النوم فإذا هو يحلم بتلك المسائل بأعيانها وتتضح له وجوهها فى منامه ، وهى حالة يعرفها الدارسون ولا تستغرب فى رأى العلم الحديث ، لأن الوعى الباطن يتنبه فى هذه الحالة فيتعاون العقلان ولا ينفرد العقل الظاهر بالتفكير .

ويعترف ابن سينا للفارابى بفضل كبير فى تحصيل المعارف الإلهية . فقال : « قرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس علىّ غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لى محفوظا وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به ،

وأيست من نفسي وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه ، وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين ، وبيد دلال مجلد ينادي عليه ، فعرضه علي فرددته رد متبرم معتقد أن لا فائدة من هذ العلم ، فقال لي : اشتر هذا مني فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه . فاشتريته فإذا هو كتاب أبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، ورجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته فانفتح علي في الوقت أغراض ذلك الكتاب ، بسبب أنه كان لي محفوظاً على ظهر قلب ، وفرحت بذلك ، وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء، شكراً لله تعالى .. » . ولا يبعد أن ابن سينا اطلع على مراجع الفلسفة والحكمة في اللغة اليونانية وأنه تعلم هذه اللغة في صباه من بعض الدعاة ، وإن لم يبلغ هذا الظن مبلغ الخبر اليقين .

وكان من عادته إذا تحير في مسألة أن يتردد إلى الجامع ويصلي ويبتهل إلى « مبدع الكل » حتى ينفتح له مغلقها ويتيسر عسيرها . ولم يعهد منه أنه ضاق بمسألة من المسائل في غير الفلسفة الإلهية أو مباحث ما بعد الطبيعة . أما العلوم الأخرى فكان يجيدها ويزيد عليها وينقح ما احتاج إلى التنقيح منها ، واتفق

له وهو دون الخامسة عشرة أنه اطلع على بعض مراجع الطب فتعلق بها وعكف على قراءتها ، وقال : «إن علم الطب ليس من العلوم الصعبة » فكان يعتمد على نفسه فى درسه تارة ويراجع أبا سهل المسيحى وأبا منصور الحسن بن نوح على ما جاء فى بعض الروايات تارة أخرى . فلم يبلغ السابعة عشرة حتى ترامت شهرته بالتطبيب والتعليم فى الآفاق الشرقية ، وجاءه المتقطعون لهذا العلم يسألونه ويقرأون عليه ، وكان يعلمهم ويعالج المرضى حباً للخير والاستفادة بالعلم لا للتكسب وجمع الحطام ، وعالج الأمير نوح بن منصور وهو فى السابعة عشرة فشفاه وأصاب حيث أخطأ مشاهير الأطباء ، فاستدناه الأمير وأذن له فى الاطلاع على دار كتبه «وكانت ذات بيوت كثيرة ، فى كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض» فرأى من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط وظفر بفوائدها وعرف مرتبة كل رجل فى علمه .

وكانت طريقته فى الاطلاع — بعد أن تمكن من العلم — أن يتصفح ولا يتتبع حتى يمتحن قدرة المؤلف بأصعب الموضوعات فى الكتاب .

ولم يكن أعجب من سرعته فى التحصيل غير سرعته فى التدوين . ففى الثامنة عشرة ألف كتاب « المجموع » إجابة لرجاء بعض مريديه وأودعه خلاصة علوم عصره ما عدا الرياضيات ، وقال فى كهولته : « كنت يومذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لى بعده شىء » .

أما سرعته فى التدوين والتأليف فمن أمثلتها كما روى تلميذه الأمين — الجوزجانى — الذى لازمه واستحثه على تأليف كتبه ونقل للخلف أصدق ما أثر عنه « إنه طلب منه إتمام كتاب الشفاء فاستحضر أبا غالب ، وطلب الكاغد والمحبرة فأحضرهما ، وكتب الشيخ فى قريب من عشرين جزءاً على الثُمن بخطه رؤوس المسائل ، وبقى فيه يومين . حتى كتب رؤوس المسائل كلها بلا كتاب يحضره ولا أصل يرجع إليه ، بل من حفظه وعن ظهر قلبه ، ثم ترك الشيخ تلك الأجزاء بين يديه ، وأخذ الكاغد فكان ينظر فى كل مسألة ويكتب شرحها ، فكان يكتب كل يوم خمسين ورقة حتى أتى على جميع الطبيعيات والإلهيات ما خلا كتابى الحيوان والنبات » .

بل ربما ألف الكتب فى معضلات الفلسفة وهو مسافر كما صنع فى تأليف بعض فصول النجاة .

وتولى أعمالاً جليلة فى الدول الشرقية فلم تشغله عن شىء من مألوفه فى التحصيل أو الكتابة أو اللهو والسماع . فكان يصرف أعمال الدولة بالنهار ، ويجلس للتدريس والكتابة بالليل . . . « فإذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم وهيئ مجلس الشراب بآلاته » ..

قال الجوزجانى : وكان الشيخ قوى القوى كلها ، وكانت قوة المجامعة فى قواه الشهوانية أقوى وأغلب ... فأثرت فى مزاجه ، وكان الشيخ يعتمد على قوة مزاجه حتى صار أمره فى السنة التى حارب فيها علاء الدولة تاش فراش على باب الكرخ إلى أن أخذه قولنج — أى مرض فى الأمعاء الغلاظ — ولحرصه على برئه إشفاقاً من هزيمة يدفع إليها ولا يتأتى له المسير فيها مع المرض حقن نفسه فى يوم واحد ثمانى كرات ، فتقرح بعض أمعائه ... »

وقد خوطب فى ذلك فقال : إنه يحب الحياة عريضة قصيرة ولا يحبها ضيقة طويلة !

***

وتمت لابن سينا هذه الأمنية – إن صح أن تسمى أمنية – لأنه مات فى نحو السادسة والخمسين بالسنين الشمسية ، وحفلت حياته بالحركة والعمل . كما حفلت باللهو والخطر . فلم تكن الحياة العريضة الحافلة مما يسره ويوافق مرامه فى جميع الأحوال، لأنه عاش فى عصر الانقسام والتنازع على الملك بين أمراء الأقاليم فى الرقعة الشرقية من الدولة العباسية ، وكانت شهرته بالطب وشهرته بالعلم تغريان الأمراء بتقريبه وتزيين مجالسهم باسمه وفضله . فدخل فى منازعاتهم ولحقه من تقلب أحوالهم ما أرادوه وتعمدوه وما لم يريدوه ولم يتعمدوه . فتعرض للقتل والسجن ونجا بنفسه غير مرة فى زى الفقهاء تارة وفى زى الدراويش تارة أخرى ، وكثرت رحلاته بين خراسان وأصفهان وهمدان والرى وجرجان، وكان بعض هذه الرحلات فى صحبة الأمراء والجند وهم يزحفون للقتال ، وبعضها فى خفية عن الأمراء والجند هربا مما يقصده به هؤلاء وهؤلاء ، وانعقدت له صلة وثيقة بجميع هؤلاء الأمراء ما عدا أمراء الدولة الغزنوية . لأنه أعرض عن دعوتهم وبغضه فيهم أنهم جعلوا الدعوة إلى السنة ذريعة إلى البطش بأصحاب

المذاهب الأخرى ولا سيما الشيعة والمشتغلين بالفلسفة والرياضيات، ولعله لم يغفر لهم قسوتهم على أصدقائه من أمراء الدولة السامانية، فإنهم غدروا بهم وعذبوهم وقد كانوا لهم قبل ذلك من الخدم والأتباع، ولم يكن أحب إلى الأدباء والحكماء من أمراء آل سامان لعطفهم على الفن والأدب وتشجيعهم للتأليف والتحصيل ، وحسبهم عندهم أنهم رعاة الرازى والفردوسى وأصحاب سمرقند التى نشرت صناعة الورق فى بلاد المسلمين .

ذالت الدولة السامانية هذه وابن سينا فى الثامنة عشرة ، ومات أبوه وهو فى الثانية والعشرين . فتقلب فى البلاد ولحق بشمس الدولة البويهى فى همدان وتقلد له الوزارة وأوشك أن يستقر فى جواره لولا أنه أغضب الجند من الديلم والترك فثاروا عليه واعتقلوه وهموا بقتله ، فأنقذه الأمير منهم وراح الوزير الطبيب يلوذ بالديار مستخفيا فى طلب الأمان حتى هدأت الفتنة وعاود المرض الأمير فبحث عنه واعتذر إليه واستبقاه لمداواة جسده ونفسه بطبه وعلمه وإيناسه .

ولما مات شمس الدولة برم الشيخ بالمقام فى همدان وتاق إلى اللحاق بعلاء الدولة بن كاكويه فى أصفهان ، واتهمه تاج الملك

بمراسلة علاء الدولة فاعتقله فى بعض القلاع أربعة أشهر... وفى ذلك يقول الشيخ وهو يدخل إلى معتقله :

دخولى باليقين كما تراه   وكل الشك فى أمر الخروج

. وفتح علاء الدولة همدان ثم رجع عنها فبقى الشيخ طليقا يدبر وسائل الخروج منها حتى سنحت له فرصة مؤاتية فخرج وأخوه وتلميذه وغلامان له فى زى الصوفية ، ورحب به علاء الدولة أجمل ترحيب ورفع مقامه فى مجلسه فكان أقرب المقربين إليه ، ولم يفرّط فى صحبته على اتهام الناس إياه بالزندقة لتقريبه الفيلسوف وإصغائه إليه .

وكان لحاق ابن سينا بعلاء الدولة وقد جاوز الأربعين واستوفى خبرته بالطبيعة الإنسانية وبالمعرفة الإنسانية ، فسكن إلى العمل ما وسعه السكون وأتم بعض كتبه الناقصة ، وتوفر على دراسة اللغة حتى علم من غوامضها وأسرارها ما غاب عن أساطينها فى زمانه ، وحفزه إلى ذلك كلمة سمعها من أبى منصور الجبائى فى مجلس علاء الدولة إذ خاض معه فى حديث اللغة فقال له الجبائى: «إنك فيلسوف وحكيم وأما كلامك فى اللغة فلا نرضاه» . فلم

يزل يدرس الكتب النادرة فى أسرار العربية حتى واجه الجبائى بعد سنوات بما أفحمه واستغلق عليه .

وطاب له المقام بعد طول الفزع والشتات، فطمع تلاميذ الشيخ ومريدوه فى عشرات من المراجع والموسوعات التى كان الشيخ يتحين أوقات الطمأنينة والفراغ ليمليهـا عليهم ويفسر من موضوعاتها ما استعجم عليهم . ولـكنه كان قد لقى فى جسمه عنتاً من توالى المحن ومواجهة الأخطار ومنازعة الحساد وفرط الإجهاد والتماس التفريج عن النفس بالمتعة والشراب،فاشتدت به علة القولنج واعتراه الصرع حينا والصداع حينا ، واعتمد العلاج الحاسم السريع كلما أحس بالمرض لأنه لم يكن يصبر على طول العلاج .

وقد أصابته أزمة الداء وهو فى رحلة فنقل إلى أصفهان ، ولم يزل يعالج نفسه حتى قدر على المشى وحضر مجلس علاء الدولة « لكنه مع ذلك لا يتحفظ ويكثر التخليط فى أمر المجامعة . . . فكان ينتكس ويبرأ كل وقت ... ثم قصد علاء الدولة همدان فسار معه الشيخ فعاودته فى الطريق تلك العلة ... وعلم أن قوته قد سقطت وأنها لا تفى بدفع المرض ، فأهمل مداواة نفسه وأخذ

يقول : المدبر الذى كان يدبر بدنى قد عجز عن التدبير . والآن فلا تنفع المعالجة »

ولعل الخطر الذى كان يلاحق الفيلسوف فى حياته يبدو لنا على أشده من شيء واحد : هو هذا الحرص على شهود مجلس الأمير وهو ينازع نفسه مخافة الوشاية والمكيدة فى غيابه ، وإنه يومئذ لعند أولى الأمراء بحسن ظنه والاطمئنان إليه . فلولا أنه لا أمان حيث كان لما خشى على مكانته ، إن لم نقل على حياته من غياب يوم أو أيام .

ولم يلبث أن غلبه المرض على الخوف والحذر فنفض يديه من الدنيا « واغتسل وتاب وتصدق بما معه على الفقراء ورد المظالم على من عرفه وأعتق مماليكه وجعل يختم كل ثلاثة أيام ختمة . ثم مات » ... ولعله لم يسلم من الوشاية فى مرض وفاته إن صح أنه مات محبوساً كما جاء فى بعض الروايات .

وكانت وفاته يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ، ولم يجاوز بحساب السنين الهجرية ثمانيا وخمسين .

ولم يلبث أن طرأ على سيرته ما طرأ على سير أمثاله من أفذاذ العبقريين الذين ذاعت شهرتهم فى حياتهم . فجللته القداسة

ورويت عنه الأعاجيب والكرامات، وأصبح ضريح الفيلسوف المتهم فى عقيدته مزاراً يطيف به المتبركون المتوسلون ، وخيل إليهم أن صاحب الضريح له غير جسد واحد أو أن الناس يتنازعون جسده فى كل مكان . فقيل أنه دفن بهمدان ، وقيل أنه دفن باصفهان ، وزعم بعض الأوربيين أنه دفن بالمغرب فى الأندلس بسعى ابن رشد وتدبيره ، وأعجب من ذلك ما ورد فى قصة طبعت بمصر عن سيرة «أبى على بن سينا وأخيه أبى الحارث» وجاء فيها أن الفيلسوف قد عمر إحدى وثمانين سنة ودفن بسمرقند وأنه لما شعر باقتراب الموت استنحت فى قالب من المرمر على شكل صورته وأعلم تلميذه جاماس الحكيم أن يخفى أمره إذا مات وليفعل ما يأمره به ... وفعل جاماس بالوصية وأخذ جثة ابن سينا ووضعها فى جرن من الرخام ... ولكن تلميذه تفكر أن ابن سينا إذا عاد إلى الحياة دام إلى القيامة وهو شهير فى العلوم فلم يبق لتلميذه اسم ولا رسم فالأولى تركه على هذه الحالة ثم كسر جاماس الزجاجة السابقة وأخفى الحمام وترك ابن سينا على حالته تلك وانطلق إلى سبيله ... أما صوت ابن سينا فكان يسمع والناس يتعجبون ... قال الراوى : إن الحمام المسمى ميزار

معمور إلى وقتنا هذا وقد كنت توجهت حين سياحتي إلى سمرقند وأتيت إلى الحمام فى وقت التجميد وأصغيت فسمعت صوته من داخل خلوة قليلاً قليلاً قليلاً فاستمعت زمناً طويلاً فإذا تزاحمت الناس قل الصوت ... »

أما معجزات الرجل الصحيحة فأشهرها وألزمها للباحث فى فلسفته وأدلها على علمه كتاب الشفاء فى الإلهيات والطبيعيات وكتاب النجاة وهو مختصر الشفاء ويقال إنه تركه ناقصاً فأتمه تلميذه الجوزجانى الذى سبقت الإشارة إليه ، وكتاب منطق المشرقيين ويرجّح أنه جزء من الكتاب المسمى بالحكمة المشرقية وأثبته الجوزجانى وابن طفيل وابن رشيد تارة باسم الحكمة المشرقية وتارة باسم الفلسفه المشرقية ، وكان الشيخ الرئيس يريد أن يختص به العلية ويقول عنه : « إننا ما جمعناه لنظهره إلا لأنفسنا والذين يقومون منا مقام أنفسنا » وينقض به بعض آراء المشائين التى ألفها « متعلمو كتب اليونانيين إلفاً عن غفلة وقلة فهم » ولكن الكتاب لا يوجد تاماً . وما طبع منه بمصر مقصور على المنطق وهو كاف فى الدلالة على منحاه .

ومن ألزم الكتب لمن يدرس ابن سينا كتاب «الإشارات»

وهو قسمان قسم فى المنطق وقسم فى الإلهيات ، وقد يستغنى به من يطلب الإلمام دون التطويل .

وله غير ذلك مجالات وقصص ورسائل كثيرة فى أغراض شتى من الحكمة والفقة والرياضيات والتصوف والأدب ، طبع الكثير منها ولا يزال بعضها مخطوطاً فى المكتبات الشرقيـة والأوربية ، وأشهرها جميعاً قصة الطير وقصة حى بن يقظان ، وقصيدة النفس ورسالة فى القضاء والقدر ، وفى المبدأ والمعاد ، وفى الأخلاق ، وفى القوى الإنسانية وإدراكاتها ، وفى الأجرام العلوية ، وفى الحدود ، وفى إثبات النبوات وتأويل الرموز ، وفى العشق ، وفى الزيارة ، وفى وقوف الأرض بالفضاء ، وليس من العسير الحصـول على المطبوع من هذه الرسائل والقصص والعجالات .



أما فى الطب فكتاب القانون هو عمدة المعارف الطبية التى علمها ابن سينا لمريديه ، وكانت له ملحقات فى تجاربه ومعالجاته نوى أن يثبتها فيه فضاعت فيما ضاع من أوراقه بين غارات الجيوش ورحلات الفرار . وقد جرى أمر هذا الكتاب على سنة

المبالغة بين الدهماء والخاصة على السواء . فأما الدهماء فقد رأينا كيف اعتقدوا القدرة فى ابن سينا على إحياء الجسوم بعد موتها وأما الخاصة فقد جعلوه مرجع الطب أربعة قرون فى الجامعات الأوربية ، وقال فيه ابن زهر الطبيب الأندلسى إنه لا يساوى الورق الأبيض الذى كتب عليـــه . ومقطع الحق بين هذه المبالغات أنه كتاب لم يكن فى زمانه ما هو خير منه وأجدى فى شئون الطب والعلاج .

* * *

وقد أفاد ابن سينا بصلاته الشخصية كما أفاد بالتـأليف والتصنيف، فاتصل به البيرونى الذى قال فيه الأستاذ « ساخاو » الألمانى: إنه أكبر عقل ظهر فى تاريخ بنى الإنسان، وكان يسأله سؤال المستفيد — وإن تنكر له فيما بعد — وهو أكبر منه سناً وله ذلك الشأن الذى تدل عليه تلك الشهادة من المتأخرين . واتصل به أبو سعيد بن أبى الخير إمام المتصوفة فى زمانه وسأله كذلك سؤال المستفيد قبل أن تقع بينهما الجفوة لاختلاف النزعة والمزاج، ولقيه ابن مسكويه الفيلسوف الأخلاقى المشهور، وتتلمذ له أبو عبيد الجوزجانى وأبو القاسم الكرمانى وأبو عبدالله المعصومى

وأبو الحسن بن طاهر بن زيلة و بهمنيار بن المرزبان ، وعده عمر الخيام من أساتذته وهو من أبناء الجيل اللاحق بجيله ... وكلهم من أصحاب النظر فى الحكمة والطبيعيات والرياضيات ، و بقى منهم من بقى على ولائه ولـكنه ابتلى فى أكثرهم كما يبتلى كل متفوق مناضل محسود .

وكان المعجبون به على الجملة أكثر من محبيه، لأنه رزق أسباب الحسد من جميع نواحيه . فكان رجلا عظيم الذكاء عظيم الشهرة عظيم الاعتداد بالنفس عظيم النشاط ، ممتلئاً بالحياة ، لا حيلة له فى اجتناب مراتب الرفعة لأنه طبيب مشهور وفيلسوف مشهور ، فلو ترك الأمراء والرؤساء لما تركوه . ومن كان هذا شأنه فى عصور المنازعات فلامناص له من أن ينازع الناس و ينازعوه ، فقد أعدته جبلته وجبلة زمانه للمغالبة والمصاولة فوفرت له هذه الصفة فى نفوس الناس من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون : سمع كلمة من نظير يتعالى عليه باللغة فلم يهدأ حتى غلبه فيها ، واحترقت المكتبة السامانية فوقع فى روع أهل بخارى أنه أحرقها لينفرد بما علمه منها ولا يدانيه أحد بمثل علومه ، وما زال ديدن الناس مع من يحسون منهم المغالبة أن يعاملوهم بقول القائل « اصرعه قبل أن

يصرعك » أو « تغدّ به قبل أن يجعلك عشاءه » ... فلا جرم وقع فى خاطر غلمانه أن يهلكوه قبل أن يهلكهم، لأنهم خانوه !

قال بعض حاسديه يشمت به بعد وفاته :

رأيت ابن سينا يعادى الرجا ل وبالحبس مات أخس الممات
فلم يشف ما ناله بالشفا ء ولم ينج من موته بالنجاة

يريد أنه مات « بداء الحبس » يعنى القولنج ، أو يريد أنه مات محبوساً كما قيل فى بعض الروايات ، ولا حيلة لابن سينا فى معاداة الرجال فإنه لو سالمهم لحاربوه ، ولو نسى أنه أسد لما نسوا أنهم كلاب كما قال ناقد غربى امتحن ببعض ما امتحن به الشيخ الرئيس .

مشكلات الفلسفة

قبل أن نلم بآراء ابن سينا فى مشكلات الفلسفة يستدعينا المقام أن نلم بتلك المشكلات ثم نلم بالتفسيرات التى حُلت بها فى مذاهب المتقدمين عليه .

ونقول « المتقدمين عليه » ونعنى بهم أولئك الذين سبقوا ابن سينا إلى مثل موضوعاته وكان لهم أثر فى تفكيره واعتقاده ،

لأن مذاهب الفلاسفة جميعاً أكثر من أن يحيط بها الإحصاء في عجالة واحدة ، ولو من قبيل الإجمال .

ففى العالم من المذاهب الفلسفية بقدر من نبغ من الفلاسفة ... ولكنها تنقسم عادة إلى قسمين شاملين وهما : قسم الفلسفة المادية وهى التى يرى أصحابها أن مادة العالم فى غنى عمن يدبرها من خارجها ، وقسم الفلسفة الإلهية وهى التى يرى أصحابها أن المادة لا تستغنى عن قدرة عاقلة « غير مادية » تستمد منها حركتها .

وأشد المذاهب المادية إمعاناً فى مناقضة الفلسفة الإلهية هو مذهب المادية الثنائية Dialectical Materialism الذى يتلخص فى أن المادة قديمة متحركة بذاتها مشتملة على العناصر التى تنشئ منها الحياة والعقل حسب الطبيعة المستكنة فيها ... ومن قوانينها اجتماع الأضداد فيها ريثما يتغلب ضد منها على ضده بغير انقطاع لهذه المغالبة الدائمة ، وأن الصفة « الكمية » فيها تتحول إلى الصفة « الكيفية » فتنشأ الحياة كما ينشأ العقل من هذا التحول . إما على التدريج وإما طفرةً كما تظهر بعض أنواع النبات من الأنواع الأخرى ، فلا توجد « كيفية » إلا وهى نتيجة التغير فى الكمية ، ولا توجد حالة قط إلا وهى تنطوى

على ما يناقضها ، فلا تبلغ تمامها إلا ظهر منها النقيض الذى تنطوى عليه . وهذا عندهم هو تفسير ظهور الحياة من المادة العمياء التى لا تشبهها ، وهو كذلك تفسير ظهور العقل فى الحياة كلما تطورت فيها الكميات والكيفيات على النحو المتقدم . أى نحو الانتقال بين الضد والضد والتحول من صفات الكمية إلى صفات الكيفية.

ومن تعبيراتهم المجازية أن للقوة المادية « عمقاً » يتجلى فى هذه الخصائص العقلية والمعنوية التى تقترن بالحياة . وهم يؤمنون بالدور الدائم فى المادة الأولية ، فيقول انجلز Engels من أساطين هذا المذهب : إن المادة تتحرك فى دورات أبدية تستتم كل دورة منها مداها فى دهر من الزمان تلوح السنة الأرضية إلى جانبه كأنها عدم : دورة تلوح فيها فترة التطور الأعلى ونعنى بها فترة الحياة العضوية التى يتوجها الوعى الذاتى شيئاً صغيراً بالقياس إلى تاريخ الحياة وتاريخ الوعى نفسه : دورة تكون فيها كل هيئة خاصة من هيئات المادة سواء كانت شمساً أو سديماً أو كانت حيواناً أو نوعاً من أنواع الحيوان ، أو كانت تركيباً كيمياً أو انحلالاً كيمياً — أبداً فى تحول وانتقال : دورة لا يدوم فيها إلا المادة المتغيرة أبداً وإلا ناموس التغير الأبدى والحركة الأبدية . . .

ومهما تتكرر هذه الدورة ويبلغ من قسوة تكرارها فى الزمان والمكان ، أو مهما تطلع فيها من شموس وأرضين ثم تغرب بعد حين ، أو مهما يطل الانتظار قبل أن تبرز هنا أو هناك منظومة شمسية أو كوكب تتهيأ عليه البيئة للحياة العضوية ، ومهما ينشأ أو ينقرض من الخلائق قبل أن تنجم بينها أحياء تفكر بأدمغتها وتجد لها ملاذاً يسمح لها بالحياة ولو إلى فترة وجيزة ، فإننا مع هذا لعلى يقين أن المادة فى كل تغيراتها تظل أبداً واحدة وأبداً كما هى ، وإنها لن تفقد صفة من صفاتها ، وأن تلك الضرورة الحديدية التى تقضى بزوال أرفع زهرات المادة — وهى القوة المفكرة — هى بعينها تقضى بميلادها كرة أخرى فى زمان آخر..»

***

ولسنا هنا فى صدد الرد على المادية الثنائية أو المذاهب المادية على اختلافها ، ولكننا نتكلم عن فيلسوف « إلهى » من غير الماديين ، فعلينا أن نجمل موقف الفلسفة الالهية من أمثال هذه الآراء .

فالإلهيون الأقدمون يقولون بأن الحركة الأزلية مستحيلة . لأن الحركة هى الانتقال من مكان إلى مكان أو من حالة إلى

حالة . فقبل الحركة توجد الحالة أو توجد المكان . وليس قبل الأزل سابق يسبقه فى المكان أو الزمان . وإذا قيل إن المكان سابق للحركة الأولى فكأنما نقول إن المكان زمان قبل الزمان.

ويرد على المادية الثنائية فى مسألة الأضداد بأنها قد جعلت المشكلة حلا وسكتت على ذلك ، وهو خلف لا يعقل السكوت عليه. إذ ما هى المشكلة فى رأى العقل وفى التعليلات الفلسفية ؟ هى التناقض وقيام الأضداد ! وأين هى المشكلة إذا كان التناقض هو الحل المقبول ؟

ويرد عليهم بأن الثنائية مفهومة حين يتقابل العقل والمادة أو تتقابل الروح والمادة . أما أن تكون مادة ومضادة لمادة فى طبيعتها فهذا هو موضع العجب لا موضع التفسير .

وعلى الماديين الثنائيين أن ينتظروا سؤالاً لا بد له من جواب وهو: لماذا قدروا أن الحياة والقوة الفكرية تظهران في الوقت الذى ظهرتا فيه ؟

إن المسألة ليست بمسألة مقدار من السنين أو الدورات . يقال مثلا إن عشرة آلاف سنة لا تكفى فتكفى عشرون ألف سنة . أو أن عشرين ألفاً لاتكفى فلا بد من ضعفها أو ضعفيها ، أو أن

مائة ألف سنة لا تكفى فلا بد من مليون سنة أو مليونين أو أكثر من ذلك بما يقاس أو لا يقاس . فإن عدد السنين والدورات منذ الأزل إلى وقت ظهور الحياة لا يدخل فى إحصاء ولا يقبل الإحصاء .

فالمسألة إذن ليست مسألة مقدار من السنين والدورات ، ولكنها مسألة خاصة فى طبيعة المادة متأصلة فيها منذ كانت من أزل الآزال . فكيف نسمى هذه الخاصة التى لا تسمح بظهور الحياة أو العقل مثلاً إلا فى سنة كذا ألف قبل الميلاد ؟

ولماذا كل هذا الهروب من تقرير وجود العقل قبل المادة إذا كان تقرير وجود المادة قبل العقل يصل بنا إلى هذه الاحالات ويلجئنا فى أول خطوة إلى التسليم بالأضداد ؟

وكيف تكون المادة قوة عمياء منذ الأزل ثم يطرد التقدم فيها من هذه الحركة العمياء إلى حركة النبات ثم حركة الحيوان ثم حركة العقل فى الحيوان عند بلوغه مرتبة الإنسان ؟ أيسمى هذا تقدما مطرداً بغير هداية فى عقل سابق ؟ أم ننكر أنه تقدم مطرد لنهرب من القول بسبق العقل والحياة ؟

إن فاقد الشىء لا يعطيه كما قال الأولون . وقد كانت شفاعة

الماديين الثنائيين إذا انكروا العقل الخالق أن يقفوا عند المحسوسات وأن يحلوا المشكلات التى لا يحلها العقليون والإلهيون . أما أن يجعلوا المشكلة حلا وأن يستبيحوا لأنفسهم مجاوزة المحسوسات ليقولوا بالدورات الأبدية والفروض المستغربة فذلك غير مفهوم إلا على وجه واحد . وهو أن الغرض الهبوط كلما أمكن الهبوط . والقول بالمادة أهبط من القول بالعقل ... فلنقل إذن بالمادة ولو تطوحنا فى المغيبات التى لا يقوم عليها دليل وبدأنا الحل بالأضداد التى هى نهاية الاشكال .



والفلسفة الإلهية لا تخلو من المشكلات العويصة التى يكثر الخلاف بين الفلاسفة على عرضها وتفصيل حلولها وتأويلاتها . ولكن الفرق بين الفلسفة الإلهية والفلسفة المادية فى هذا أن الفلسفة الإلهية لم تغلق الباب ولم تختم الإشكال بإقرار الإشكال ، وتركت الباب مفتوحاً لمن يبتغى الوصول من طريق التأمل أو طريق الرياضة الروحية أو طريق الاستشراف للكشف والالهام.

أما هذه المشكلات فيمكن تلخيصها فى هذه المسائل الأربع وهى :

(١) وجود العالم
(٢) وجود النفس .
(٣) وجود الشر
(٤) حرية الإنسان

فيسألون : كيف وجد العالم ؟ هل وجد بعد أن لم يكن ؟ وبعبارة أخرى : هل هو حادث من العدم ؟

فإذا كان حادثاً من العدم فأين محل العدم مع وجود الله جل وعلا وهو كليُّ الوجود ؟

وهل الإرادة الإلهية التى قضت باحداثه حادثة أو قديمة ؟ إن الله قديم لا يتغير فليس يجوز فى حقه حدوث الإرادة . لأن حدوثها إنما يكون لما هو أفضل أو لما هو مفضول ، وكلاهما ممتنع بالنسبة إلى الله .

ثم يبحثون فى القدرة الإلهية ومعنى اتصاف الله بالقادر على كل شيء . . فهل القدرة على كل شيء معناها القدرة على المستحيل ؟ إذن يكون المستحيل والممكن شيئاً واحداً فى العقل وهما مختلفان . . أم تكون القدرة غير متعلقة بالمستحيل ؟ إذن يسأل السائل : من أين جاءت الاستحالة ؟ أمن مشيئة الله أم من طبيعة الشيء ؟

فإن كانت من مشيئة الله فالذى يثبت الاستحالة يمحوها إذا شاء . وإن كانت من سبب آخر فكيف يتصور العقل شيئاً غير إرادة الله يمنع ويجيز فى المعقولات والموجودات ؟

تلك خلاصة وجيزة لمسألة العالم وحدوثه بإرادة الله واتصافه سبحانه وتعالى بالصفات التى تتجلى فى الخلق والمخلوقات .

أما « النفس » فهم يسألون عنها أهى جوهر مجرد أم جسد من الأجساد ؟

فإذا كانت جوهراً مجرداً فكيف تدبر الجسد وأين تحل فيه بالعرض الذى هى منزهة عنه ؟ وان كانت جسداً فما الفرق بينها وبين الجسد الذى تحل فيه ؟ وهل تفنى كما تفنى الأجساد وتتعرض للتحلل والفساد كما تتعرض أجساد الأحياء وأجرام الجماد ؟

ويعودون إلى السؤال عن الجوهر المجرد : متى يدخل جسم الجنين ؟ وإلى أين مصيره بعد مفارقة جثمانه ؟ وهل نفس الولد قطعة من نفس الوالد أو كلتاهما مستقلة وجدت منذ القدم بلا تقديم ولا تأخير ؟

أما مسألة الشر ووجوده فى العالم فهم يسألون : كيف يوجد فى العالم ما يسمى شراً على اختلاف معانيه ؟

إذا قيل إن وجود العالم من وجود الله فوجود الله منزه عما يأباه ، وإذا قيل أن وجود العالم من العدم فالعدم ينعدم فيه الخير والشر على السواء ولايكون إذا كان إلا بارادة المريد :

فهل الشر موجود أو غير موجود ؟

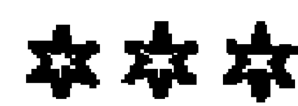
وأناس آخرون يعرضون المسألة على وجه آخر فيسألون : هل الشر صحيح أوغير صحيح ؟ وهل هو يوافق الخير أو هما نقيضان لا يتفقان ؟ وهل الأخيار كالأشرار إذا قلنا إن سر الخير وسر الشر لا يتناقضان ؟

أما مسألة الحرية الإنسانية فليست هى من محض المسائل الفلسفية التى تعضل على المفكرين الذين يقصرون البحث على موضوعها ولا يتجاوزونه إلى ما وراءه ، ولكنها من مسائل الفلسفة الدينية الكبرى لأنها تربط بينها وبين حساب الإنسان على أعماله وما يستحقه فى الحياة الأخرى أو فى الحياة الدنيا من الثواب والعقاب .

فالثواب والعقاب مقرران فى جميع الأديان . ولهذا يسأل

الفلاسفة الدينيون ما نصيب الإنسان من الحرية فى أعماله ؟ هل هو حر فى عمل الخير والشر كما يريد ؟ وهل يكون حراً فى أعمال الحياة من خُلقت له الحياة ؟ وإذا كان مسيرا فى أعماله كما هو مسير فى وجوده فكيف يحيق به العقاب أو كيف يحق له الثواب ؟

إن العدل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى . ومسألة الحرية الإنسانية فى مذاهب الفلسفة الدينية هى مسألة التوفيق بين العدل الإلهى وبين الثواب والعقاب فى الدار الآخرة أو فى كلتا الدارين .



تلك خلاصة سريعة لمشكلات الفلسفة الإلهية كما عرضت لابن سينا فى حياته وعرض لها فى كتبه وأقواله . وقد حلها الفلاسفه الذين تقدموه وكان له فيها رأى مستقل عنهم فى بعض الحلول . ويطول بنا الشرح لو تناولنا حلولهم كلها فى التقديم لفلسفة ابن سينا وما استقل به عنهم من الآراء ، فانما نجتزئ هنا بحلول الفلاسفة الذين كانت بينهم وبينه صلة وثيقة من التمهيد والتعليم ، وهم أفلاطون وأرسطو وأفلوطين والفارابى وبعض فرق الإسماعيلية وبعض المتفلسفة من قدماء الهند وفارس ، وسنتبع

هذا الفصل بإجمال حلول هؤلاء الفلاسفة فى هذه المشكلات .

حلول الفلسفة

يعد أفلاطون أكبر الفلاسفة « الإلهيين » بين اليونان ، لأنه أول من وضع بينهم مذهباً مفصلا يجعل « الفكرة » مقدمة على المادة ، سابقةً لها فى المرتبة وفى الزمان .

ولكنه على هذا ليس بأول الفلاسفة الذين عالجوا البحث فى مسألة الفكرة والمادة ، لأنه نبغ فى عالم الفلسفة بعد أن تقررت فيه آراء طاليس وفيثاغورس و پارمنيدس وهيرقليطس ، و بعد أن ساهم كل منهم بحصته فى محصول الحكمة الإلهية وورثها عنهم أفلاطون وتابعوه . فولد أفلاطون وطلاب الفلسفة يعرفون أن « الروح » موجود وأن المادة غشاء باطل لأنها تتغير ولا تستقر على حقيقة ثابتة ، وأن « المركب » يتغير ولا يبقى على حالة واحدة غير « الجوهر البسيط » ... وأن المادة والروح عنصران مختلفان ، وأن الجسد حجاب يحول بين العقل و بين الخلوص إلى عالم الكمال وهو عالم الروح، وأن الدنيا بأسرها توجد وتزول فى دورات تتبعها دوراتٌ بغير انتهاء .

وهذا فضلا عما استفاده من أستاذه سقراط ورواه عنه فى كتبه ومحاوراته ، وهو طبقة واحدة تمثل لنا الفلسفة الإلهية كما وصلت إليه فى جيل الأستاذ والتلميذ .

وقد تصرف هؤلاء الفلاسفة الأسبقون فى الحكمة الإلهية بالرأى والاجتهاد ، ولكنهم أخذوا جميعاً من الديانات القديمة التى تلقاها اليونان مباشرةً من بين النهرين ومصر وفارس والهند ، أو اتصلوا بها من طريق الديانة « الأورفية » فى آسيا الصغرى ، وهى مزيج من ديانات الهند ومصر والمجوس . لأن الديانة الأورفية تشتمل على كل عنصر من عناصر العقائد التى لخصناها فى الأسطر السابقة ، ولا سيما الرياضة الروحية وبطلان المادة وتناسخ الأرواح ، ففيها جرثومة حية لكل رأى قال به طاليس وبارمنيدس وهيرقليطس ، ثم قال به بعدهم سقراط وأفلاطون .

ولا نرى في زبدة المحصول كله ما هو أحق بالتنويه فى هذا الصدد من نتيجتين اثنتين : أولاهما الاعتقاد بقصور المادة وعجزها عن الاستقلال بالحركة ونسبة كل حركة فيها إلى مصدر غير مصدرها ، حتى قال « طاليس » بوجود روح فى المغناطيس

لأنه يحرك الحديد . وثانيتهما الاعتقاد بالثنوية الروحيه والمادية في الإنسان وفي الأرض والسماء . . . فإن هاتين النتيجتين داخلتان في كل فلسفة يونانية أو غير يونانية ، من ذلك العصر إلى أحدث العصور .

وسنرى موضع هاتين النتيجتين فيما يلي من كل حل من حلول الحكماء للمشكلات الفلسفية كما نلخصها بعد ، وفي مقدمتها حلول أفلاطون .

أفلاطون

(١) العالم والله — ولا ننسى ونحن نلخص أقوال أفلاطون في الله والعالم أن فكرة التوحيد كما نعرفها الآن في عقائد الأديان لم تكن معروفة على عهد ذلك الفيلسوف ، وأن العالم وحده كان هو الواقع الماثل أمام الحس والعقل والخيال ، وكل ما عداه فهو استخلاص وتفسير يجتهد فيه كل مجتهد بما يراه ، ولا يسلم في اجتهاده من أثر العقائد الوثنية والكهانات الخرافية والتقديرات العلمية التي كانت تحدق يومئذ بالمفكرين وغير المفكرين .

فليس لنا إذن أن ننتظر من أفلاطون فكرة واضحة عن

توحيد الله كما وصفته الأديان الكتابية بعد عصره ، وإنما كان يتكلم عن الله تارة وعن الآلهة تارة أخرى . ولا يفرض وجود إله واحد يفوق هذه الآلهة جميعاً إلا من قبيل القياس العقلى الذى يقضى بتفضيل الأفضل فالأفضل ثم اجتماع الفضيلة العليا فى واحد لا يتعدد ، وهو إله الهة ورب الأرباب .

واسم الله فى اليونانية هو ثيوس Theos أوزيوس كما شاع فى اللغات الأوربية . . . وتفسير أفلاطون للكلمة يدل على إدراكه لفكرة الله فى أصلها الأصيل . فهو يزعم أنها مأخوذة من ثيو Theo بمعنى « أنا أجري أو أتحرك » فى اللغة اليونانية . فالمادة بحاجة إلى من يحركها ويعطيها الحياة وليست بحاجة إلى من يخلقها فى نظر أفلاطون . وهى من ثم بحاجة إلى الله .

فالله هو محرك المادة ومخرجها إلى هذا النظام الذي نراه فى السماوات والأرضين . والله — لأنه عقل — لا يوجد مادةً بل يوجد عقلا تستمد منه المادة الحركة والإدراك وتندفع به فى معارج الكمال .

والله خير محض فلا يصدر منه إلا الخير ، ولا يخلق إلا الخير ، وإنما الشر الذى يقع فى الكون من خلق الأرباب التى تسمى

بالأرباب المخلوقة ، ومن نقص المادة وهى تحاول الارتفاع إلى مرتبة الكمال . أو إلى مرتبة العقل المجرد . لأن الله منعم جواد منحها الشوق إلى الكمال . فهى أبداً فى اشتياق إليه ، وهى أبداً صاعدة متسامية كلما اتجهت من التجسد إلى التجريد .

وهى بظواهرها باطلة متغيرة .

وهى بحقيقتها صحيحة خالدة .

وهذه « الحقيقة » هى لب لباب الفلسفة الأفلاطونية ، لأنه يميز بها على طريقته الخاصة بين موجودات الحس والموجودات « المعقولة » التى تتمثل للعقل ولا تتمثل للاحساس .

فكل ما يقع عليه الحس فهو فى رأى أفلاطون وهم باطل أو محاكاة للحقيقة الخفية ، أو محاولة لإبراز معنى من المعانى المستورة.

ومثال ذلك هذا الشجر الذى نراه : فهذه الشجرة مثمرة ، وهذه الشجرة ذابلة ، وهذه الشجرة خضراء ، وهذه الشجرة يابسة ، وهذه سامقة ، وهذه قاصرة ، وكل منها فيه نقص عن الشجرة المثالية التى لا نقص فيها . فأين هى هذه الشجرة المثالية ـ؟ هى فى عالم المعنى أو فى عالم العقل . وهى وحدها التى لها وجود

صحيح لا يعتريه التبدل ولا تصيبه عوارض الزمان ولا يزال قائماً في العلم الإلهي تحكيه الأشجار المحسوسة وتتبدل وتزول وهو منزه عن التبديل والزوال .

وهذه الحقائق المعنوية هي التي يسميها أفلاطون بالصحائح أو المثل وقد تعرف عند المناطقة بالكليات Universals وتقابلها الجزئيات Particulars وهي هذه الموجودات الباطلة في رأى أفلاطون .

ومن عادة أفلاطون أن يعزز آراءه بالأمثلة والأساطير التي تقربها إلى تلاميذه، فهو يضرب المثل للدنيا وحقائقها وموجوداتها بكهف يقيم فيه الناس وهم مقيدون يستقبلون فيه جداراً لا يتحولون عنه ، ووراءهم نار تعكس الظلال من خارج الكهف على ذلك الجدار . فالأشباح التي يرونها على الجدار هي هذه الموجودات أو هذه الجزئيات التي تحكي الحقيقة وليست هي بها ، و إن كانت تحكيها . . . أما الصور الصحيحة فلن يراها الناظر إلا إذا أطلق نفسه من قيود ذلك الكهف وخرج منه إلى النور . ومعنى ذلك أننا محبوسون في كهف الجسد لا نرى من الحقائق إلا أشباحها المحاكية لها، فإذا خلصنا من ذلك الحبس إلى عالم «العقل المجرد»

فهناك الحقائق الخالدة التى لا تتوقف على المكان ولا تمسها عوارض الزمان ، ولا يصيبها النقص والتبديل كما يصيب الأشباح المتراقصة على الجدار المطوى فى الظلمات .

والعقل المجرد الذى يدرك هذه الحقائق أرفع قدراً من الفهم الذى يدرك المعلومات الملابسة للأجساد ، فهما عقلان لا عقل واحد فى الإنسان ، أوهما نفسان إحداهما أقرب إلى التجريد ، والأخرى أقرب إلى التجسيم .

ولم تخف على أفلاطون نقائض هذا الرأى ومفارقات القول بوجود الصحائح المجردة بمعزل عن الأجسام المادية . فقد وجه إليها فى بعض محاوراته مناقضات لا تقل فى قوتها و إقناعها عن المناقضات التى هاجمه بها خصوم رأيه . ولكنه يرى أن الفكرة فى أساسها صحيحة كافية لتفسير العلاقة بين عالم العقل وعالم المادة، و إن تعذر تطبيقها فى جميع الأحوال . لأن المجردات لا تنحصر فى وعينا كما تنحصر فيه المحسوسات .

وليس فى مذهب أفلاطون أن الله خلق جميع هذه المحاولات المادية التى تتفاوت فى مراتب الخير والجمال . ولكنه يؤمن بأرواح وسطى بين الله والإنسان كأنها الملائكة فى الأديان الكتابية .

ويسميها الأرواح الصانعة Demiurges وينسب إليها التشبه بالإله الواحد الصمد فى خلق الخير والجمال، وهو يرى أن الأرواح تعمر الكواكب السيارة وتحركها فى أفلاكها المنتظمة ، وإنها تتوخى الدوران لأن الكون كله مستدير ، وإنما كان مستديراً لأن المتشابه خير من المتنافر أو الذى لا تتشابه أجزاؤه . والكرة المستديرة هى أوفى الأشكال بتشابه الأجزاء .

- أما قدم العالم أو حدوثه فأفلاطون يقول بأن « الزمان » هو محاكاة للأبدية ، أو هو الأبدية التى تسمو إليها منزلة المخلوقات

فالله سرمدٌ منزه عن التحيز والأجل المحدود . لا أول له ولا آخر ، ولا مكان له ولا زمان . وهو — بكرمه وانعامه — قد شاء للمخلوقات أن تتشبه به فى صفات الكمال ، فأراد لها الدوام وأحب أن يعصمها من الدثور والفناء ، ولكنه لا يخلع عليها دوام « الأبدية » لأن دوام الأبدية صفته جل وعلا فهو لا يخلعها وهى لا تنتقل من المنعِم بها إلى المنعَم عليه . فأعطاها دوام الزمان لأنه أكمل دوام ترتقى إليه المخلوقات . وأبدع الفلك والزمان معا فشمل بهما جميع مخلوقاته . ومن هذا يظهر أن

المادة الأولى أو الهيولى كما يسميها الفلاسفة أقدم من الفلك وأقدم من الزمان .

(٢) وجود النفس

أما النفس فهى موجودة فى رأى أفلاطون كما تقدم: وجدت فى عالم العقل أو المعنى أو فى عالم الصحائح والمُثُل الذى أجملنا القول فيه . فهى تعرف الحقائق بالتذكر ولا يحجبها عنها إلا حجاب الجسد وضلال الحس والشهوة ، وهى خالدة لا تموت لأنها جوهر بسيط لا يتحلل كما يتحلل الجسد المركب . ولكنها تلابس المادة فى حياتها الجسدية ثم تفارقها إلى عليين لتعيش بين الأرباب،والملائكة والأرواح . ومصيرها مقدور بمصير المادة التى تلابسها. فإن هبطت مع مادة الجسد صارت إلى جسم حيوان أو حشرة أو مخلوق حقير ، و إن ترفعت عن مادة الجسد صعدت إلى الرفيق الأعلى ، وعادت إلى عالم الخلد والكمال .

و يبدو من كلام أفلاطون عن النفس أو عن الروح أنها طراز ثالث من الموجودات بين طراز الموجودات المعقولة والموجودات المحسوسة . لأنها تشترك مع كليهما فى حياتها الجسدية . فتعقل ثم تعمل مع الجسم فى أداء الوظائف الحيوية

كالخوالج العليا والأحاسيس الرفيعة والشهوات الجثمانية . وقد يجعل أفلاطون لهذه الوظائف المختلفة أماكن مختلفة من بنية الإنسان . فالنفس العاقلة فى الدماغ ، والنفس الحاسة فى الصدر والنفس المشتهية فى الأحشاء . ولا يفهم من هذا أن النفس نفوس ثلاث أو أنها منقسمة إلى عناصر ثلاثة ، و إنما يستخلص منه أن النفس لا تعمل فى عالم المعقولات كما تعمل فى عالم المحسوسات والمشتهيات ؛ لأنها تلتقى فى بعضها بقيود لا تلتقى بها فى بعضها الآخر . فهو اختلاف فى القدرة على التجرد بغير عائق أو بعائق كبير أو صغير ، وليس بين هذا الرأى فى النفس و بين رأى البراهمة فيها فرق كبير .

(٣) وجود الشر

والشر فى الدنيا موجود ولكنه من ضرورات المادة في قصورها ومحاولتها التى تشرئب بها إلى ما هو أكمل وأعلى . أما الله فلم يخلق إلا الخير ولا يصدر عنه إلا الخير ، وكأنما قصور المادة طبيعة فيها عند أفلاطون لأنها قاصرة بذاتها معارضة لما يحركها ويسمو بها على طبيعتها . وهنا يبدو من أقواله فى هذا الموضوع أن إرادة الله لا تبطل الضرورات ولكنها تقربها إلى الخير

والكمال بما تضفى عليها من عالم الحق والعدل والتنزيه . فإذا كان سبب الأمر من عالم العقل فالله يوحى إليه فيتلقى عنه وحيه ، وإذا كان سبب الأمر من عالم الضرورة أو عالم المادة فهو معارض للعقل ، ومنه العناد والشر والفساد

(٤) حرية الإنسان

وواضح من فحوى هذه الآراء أن أفلاطون لا يقرن بين مسألة العدل الإلهى ومسألة الحرية الإنسانية كما يفعل الباحثون فى مسألة القضاء والقدر من المؤمنين بالأديان الكتابية . لأنه لا يرى أن الله يظلم الإنسان بما يصيبه من ضرورات المادة ونقائض الأجساد . بل يعطيه الخير والجمال ويعينه على المادة الغليظة ويطهره بالغلبة على شهواتها ونزواتها وضروراتها ، ويهب له النفس المجردة لينتصر بها على النوازع المتلبسة بالتجسيم ونقائض الجسوم .

أرسطو

والمعروف عن أرسطو أنه تلميذ أفلاطون بل أكبر تلاميذه وأكبر فلاسفة اليونان وفلاسفة الزمن القديم غير مدافع . ويرى

بعض المحدثين أنه نمط مقابل لنمط التفكير الأفلاطونى يتممه تارة ويتم به تارة أخرى . وهو رأى صحيح إذا أردنا به التفرقة بين جملة الأفكار الأرسطية وجملة الأفكار الأفلاطونية فى جميع المباحث والموضوعات . ولكنه إذا قصرناه على الفلسفة الإلهية لا يبلغ هذا المبلغ من التقابل ولا سيما التقابل بين القطبين المتعارضين. لأننا نستطيع أن نقول إن الفلسفة الإلهية عند أرسطو وعند أستاذه موحدة الأساس موحدة الآفاق مع زيادة فى المنطق ونقص فى الخيال والاعتقاد فى جانب التلميذ الكبير ، وتثبت لنا هذه المشابهة من المقارنة بين رأييهما فى العالم والروح ومسألة الشر ومسألة الحرية الإنسانية .

(١) العالم

فأرسطو يرى كما يرى أفلاطون أن الهيولى لا تحتاج إلى موجد ولكنها تحتاج إلى محرك ترجع إليه أسباب جميع حركاتها ، وانها قديمة وإن كان إثبات قدمها بالبرهان غير مستطاع .

والمتحركات لا بد لها من محرك ، ولا بد لهذا المحرك من محرك غيره وهكذا إلى نهاية يستقر لديها العقل لأن العقل لا يستقر إلى الدور والتسلسل فى الأسباب الماضية .

فما هي هذه النهاية التي يحسن لديها الاستقرار ؟

إنها ليست حركة أخرى ، لأن الحركة الأخرى تستلزم حركة قبلها كما تقدم . فهي إذن شيء يحرك غيره ولا يتحرك . لأن الحركة تحوُّل بالكيفية أو تحوّل بالكمية أو تحول بالمكان... وليست حركة من هذه الحركات بالأمر الذي يجوز في حق الكائن الأول أو العلة الأولى .

فالكائن الأول ينبغي عقلا أن يكون واحداً غير متجزئ لأن الأجزاء تسبق الكل المتجمع منها ، كاملاً لأنه لا ينتظر شيئاً من خارجه يستوفيه ، محضاً لا تشوبه مادة لأن المادة تفتقر إلى من يحركها ، قديماً بغير بداية أو نهاية لأن البدايات جميعاً لا بد أن تنتهي إليه .

ويستطرد أرسطو على هذا النحو في تصور الحقيقة الإلهية حتى يزعم أن الكائن الأول — أو الله — غير عالم بالكليات والجزئيات . لأن العلم بالكلية يأتي بعد العلم بالجزئية ولأن العلم بالجزئيات يقع أجزاء على أوقات متفرقات ، ولكن علم الله هو عقله لنفسه . وهو السعادة العليا لأنه لا يعقل إذن إلا الكمال المطلق بغير حاجة إلى شيء يستوفيه من المعلومات ؛ ويقتضي

تسلسل التفكير على هـذا النحو عند أرسطو أن الله غير مريد لأن الإرادة اختيارٌ وطلبٌ ، ولأن الاختيار تردد والطلب فاقة وافتقار . . .

وهذا الكائن الأول هو العلة الأولى لحركة الهيولى ، ولكن لا يُفهم من هذا أنه أقدم من الهيولى بالزمان بل أقدم منها بالذات كما يكون السبق بين المعقولات . فالنتيجة العقلية تلى المقدمةَ ولكنها لا تُخلق بعدها فى الزمان . والعالم كله لا يُخلق فى زمان لأن الزمان لا يوجد قبل العالم ، ولو وجد قبل العالم لكان معنى ذلك أنه زمان قبل الزمان ، و إنما الزمان مقياس حركة العالم فهو والحركة مقترنان .

والله يحرك العالم لأنه غاية العالم وقبلته التى يسعى إليها. وهذا يقتضينا شرح الأسباب فى مذهب أرسطو وهى أربعة : (١) مادة الشىء كالورق فى الكتاب ، و (٢) فاعل الشىء وهو مؤلف الكتاب و (٣) صورة الشىء وهى ماهية الكتاب التى تجعله كتاباً و بغيرها لا يطلق عليه اسم الكتاب ، و (٤) غاية الشىء وهى التى من أجلها يوضع الكتاب أو هى القراءة والتعليم والاطلاع.

والغاية عند أرسطو هى أهم هذه الأسبابَ و إن جاءت فى

النهاية ، والله هو علة الموجودات الأولى لأنه هو غايتها التى تسعى إليها وتنشدها وتشتاقها . وتتحرك فى هذا السبيل من الهيولى إلى الصور المترقية فى درجات الكمال .

فكل وجود فهو حركة .

وكل حركة فهى حركة إلى الله .

لأن الحركة عند أرسطو هى انتقال المادة من الهيولى إلى الصورة ، ولا يفهم من ذلك أن الهيولى توجد بغير صورة أو أن الصورة توجد بغير هيولى . بل يفهم منه أن الصورة تسفل فى المادة حتى تنزل إلى مرتبة الجمادات الخسيسة التى يخيل إلينا أنها لا صورة لها على الإطلاق ، و إن الصورة تعلو بالهيولى حتى ترتقى إلى مرتبة الكائنات التى يخيل إلينا أنها لا مادة لها على الإطلاق ، وربما كانت صورة شىء مادة لشىء آخر . فالخشب له صورة تميزه من صور الجمادات الأخرى ، ولكنه هو نفسه مادة لصورة التمثال .

وكلما ارتقت المادة فى الصورة اقتربت من الله ، لأن الله هو الصورة « المحض » التى لا تمتزج بها الهيولى بحال .

فالله لا يريد العالم .

بل العالم هو الذى يريد الله لأنه يحتاج إليه ويرتفع إلى الكمال كلما اقترب منه .

وكل متحرك إلى طلب الكمال فهو « عاقل » فينجذب إلى العقل الأول ويرتفع إليه بالشوق المكنون فيه . ولهذا لزم فى الكواكب أن تكون لها عقول .

ويجب أن نفهم الصورة كما يريدها أرسطو على معناها الصحيح. فليست صورة الإنسان مثلا هى الشكل الذى تعرضه لنا الصورة الشمسية ولا هى الشكل الذى يعرضه لنا التمثال المنحوت ولكنها هى كل تركيب الإنسان الذى يميزه من المادة أو يميزه من الموجودات الأخرى . أو هى « ماهيته » التى يصبح بها إنساناً وبغيرها يزول عنه وصف الإنسان .

وقد أنكر أرسطو « المثل » الأفلاطونية وإن كانت براهينه فى إنكارها ليست بأقوى من براهين أفلاطون صاحب الفكرة وشارحها ، وربما كان أقوى برهان لأرسطو فى هذا الصدد أن الشىء باختلاف أجناسه وتقسيماته يحتاج إلى أمثلة عليا متعددة لا إلى مثل واحد . فالمثل الأعلى للانسان الفيلسوف ماذا يكون ؟ أيكون حيواناً مثالياً أو إنساناً مثالياً أو فيلسوفاً مثالياً أو مادة

مثالية إلى آخر المثاليات التى يحكيها ؟ وكيف يكون المثال معيناً أو قابلا للتعيين مع أنه عام لا يخصص بما يجعله مستقلا بكيانه ؟ ومع أن هذا هو الفرق بينه و بين الخاص المستقل بالكيان ؟ كيف يكون شيئاً مستقلا وهو مشابه لجميع الأشياء ؟

على أن أرسطو هرب من « المثل » الأفلاطونية ووقع فى « الصور » التى تستقل عن الهيولى ... فان « الصورة » لا تخلق الهيولى والهيولى لا تخلق الصورة ، بل كلاهما عنده موجود يلتقى بغيره فيتصورهما العقل بعد هذا الالتقاء ، وليس يخرجه من المشكلة وصفه « الهيولى » التى لاصورة لها ، بأنها موجودة بالقوة ووصفه الهيولى المصورة بأنها موجودة بالفعل . فانهما على كل حال موجودان غير معدومين .

وخلاصة مسألة العالم عند أرسطو أن الله أعطى « الهيولى » الحركة . فاستفادت الصورة ، ولا تزال الحركة ترتقى بالصورة فى معارج الكمال فتختفى الهيولى كلما برزت الصورة . وترتقى الصور كلما توارت فيها فوضى الهيولى أو المادة الأولى . حتى يوشك أن تكون صورة محضاً ولكنها لاتكونها . لأن الصورة المحض هى الله الواحد المتفرد بالكمال . ولهذا يستغنى عن الحركة

ويقال فيه إنه المحرك الذى لا يتحرك ، لأنه لا يطلب بالحركة صورة أعلى . فإن له المثل الأعلى .

ومن اللازم أن نذكر هنا أن أرسطو يستلزم وجود «جواهر» أخرى غير الله تحرك غيرها ولا تتحرك ، لأن الحركات أكثر من الأجسام المتحركة ، فلا بد أن ننتهى بحساب الفلك كما كانوا يفهمونه إلى محركات ثابتة فى الفلك الأعلى ، وهو يعتمد فى هذا القول على الفلكيين المعتبرين فى زمانه لأن علم الفلك أقرب العلوم إلى الفلسفة . إذ كان يبحث فى جواهر يتناولها الحس ولكنها لا تفنى . أما الرياضيون كعلماء الحساب والهندسة فليست فى علومهم جواهر يبحثون عنها ، ومن أقوال بعض الفلكيين ــ وهو يودكسس Eudoxus تبلغ الثوابت فى الفلك خمسة وخمسين ، ولكنها تنقص فى قول كاليباس Callipus إلى سبعة وأربعين . . لأنه يضم بعض الأفلاك إلى بعض تلك الجواهر السماوية .

* * *

(٢) النفس

والنفس عند أرسطو جوهر أو صورة . لأن الصورة هى التى

تجعل للجسم «ماهيته» ، ولا ماهية للانسان بغير النفس الناطقة...
فالنفس هى جوهر الإنسان أو هى صورة الإنسان التى يحسب
بغيرها من الهيولى أو من الأجسام ذوات الصور الأخرى .

ولعلنا نسمى النفس باسمها الصحيح عند أرسطو إذا قلنا أنه
يعنى بها القوة الحيوية ، لأنه يجعل للنبات نفساً . وللحيوان
نفساً، ويقرن بين نفس الإنسان وجسده فيقول فى كتاب
الروح : إن السؤال عن النفس والجسد هل هما واحد عبث
كسؤال من يسأل : هل الشمع والشكل الذى يطبعه فيه القالب
واحد . . . وقد سخر فى هذا الكتاب من فيثاغورس وتناسخ
الأرواح لأن النفس والجسد فى رأيه لا ينفصلان . أو على
الأقل جزء من النفس ملازم للجسد يهلك بهلاكه . . . ويبدو
الترادف بين معنى النفس ومعنى القوة الحيوية من وظائف
النفس الأربع التى يرتبها أرسطو من القوة الغذائية إلى القوة
الحسية إلى القوة الارادية إلى القوة الذهنية وهى أرقاها وأقربها
إلى التجريد .

وإذا تكلم عن الجوهر الخالد فى الإنسان «فالعقل» هو
المعنى الذى يتبادر إلى الذهن من كلامه قبل النفس أو الروح :

فعنده مثلا أن الجواهر ثلاثة : جوهو محسوس هالك كالنبات والحيوان ، وجوهر محسوس غير هالك لأنه لا يتغير إلا بالحركة دون غيرها كالأجسام السماوية ، وجوهر ليس بمحسوس ولا بهالك كالنفس الناطقة فى الإنسان أو الجوهر العاقل فيه .

لكن هذا الجوهر العاقل فى الانسان لا تناط به « الفردية » لأنه عام فى جميع العقلاء . فالناس يختلفون أفراداً بالميول الجسدية فيحب هذا الفاكهة ويحب غيره الخضر ويحب غيرهما اللحم أو البقول . ولكنهم يتفقون على حقائق الحساب وحقائق العلم المجردة وإن فكروا فيها متباعدين بالمكان والزمان . فالعقل جوهر باق لا يزول لأنه مجرد بسيط . ولكنه بقاء لا يناط بآحاد الناس ، ولا يكون إلا للعموم . لأنه ليس بعقلى ولا بعقلك أفراداً منفصلين ، إذ كانت أحكام العقل فى جميع العقلاء سواء .

ومع هذا لا يرتقى العقل فى الإنسان هذا المرتقى إلا بقبس من العقل الفعال ، لأن عقل الانسان الذى يدرك الوجود الخارجى عقل قابل أو منفعل وإنما يترقى من ذلك إلى إدراك المجردات أو الكليات بحركة نحو العقل الفعال ، وهو مرجع جميع المعقولات .

(٣) الشر :

وإذا كان هذا هو تفسير أرسطو لوجود العالم ووجود الله فلا اعتراض عليه إذن بوجود الشر أو بمنافاته لحكمة الله . لأن الله لم يضع الشر فى العالم ، وإنما كان علة لحركة العالم بالشوق إليه كما يكون المحبوب علة لاشتياق المحب وتحركه إلى لقائه ، وهو صاحب الفضل فى ارتقاء الهيولى إلى الصورة ، وارتقاء الصور إلى الكمال ، لأنه هو الغاية . فهو العلة الأولى لارتقاء الموجودات .

(٤) حرية الانسان :

ومن الواضح أن الإرادة الإنسانية لا تصبح فى رأى أرسطو مشكلة تحتاج إلى التوفيق بينها وبين العدالة الإلهية . إذ كان الله نفسه فى مذهب أرسطو منزهاً عن أن يريد ما يقع للانسان أو ما يقع من الإنسان . فهو لا يريد شيئاً لأنه لا يحتاج إلى شىء أو لأن الإرادة تغيّر وحركة ، ولا حركة لله بالكيف ولا بالكم ولا بالمكان .

أفلوطين

وثالث الثلاثة الذين كان لهم الشأن الأكبر فى مذهب ابن سينا هو أفلوطين إمام الأفلاطونية الحديثة ، الذى ولد فى أوائل القرن الثالث للمسيح (٢٠٤ م) بإقليم أسيوط .

وليس أفلوطين من طبقة أفلاطون وأرسطو فى العبقرية الفلسفية أوملكات المنطق والتفكير ، ولكنه يضارعهما أو يفوقهما فى بعد الأثر واتساعه بين المشغولين بالفلسفة الإلهية ، لأن العناصر التى أدخلها فى مذهبه أوفى من جميع العناصر التى دخلت فى مذهب أرسطو أو مذهب أفلاطون . فقد ختمت المباحث الفلسفية واحتدمت المباحث الدينية يوم تصدى أفلوطين لحل المشكلات المختلفة التى عرضت لطوائف الفلاسفة وفقهاء الأديان .

طمح مع أفلاطون ، ودرس منطق أرسطو ، ونمت قبله فلسفة الرواقيين والابيقوريين ، وشاعت فى عصره فلسفة « العارفين »(١) . وسمع مجادلات الآباء المسيحيين ، وتعلم فى

---

(١) Gnostics

الإسكندرية ورحل إلى البلاد الفارسية ، وأقام برومة وهى على حالة تقلق الضمائر الإنسانية وتستفزها إلى طلب القرار فى عالم الإيمان . فدخل فى حسبانه من عناصر الفلسفة الإلهية ما لم يدخل فى حسبان فيلسوف قبله ، ولاحظ من المقلقات الفكرية ما لم يلاحظه المناطقة أو الروحانيون فى العصور التى تقدمته . فكان لمذهبه هذا الشأن بين المشغولين بتلك المسائل الإلهية من جميع الأديان ، سواء منهم الاسرائيليون أو المسيحيون أو المسلمون ، وأصبح حلقة الاتصال بين جميع هؤلاء المفكرين ، لأنهم يلتقون به فى طريق واحد حيثما اتجهت بهم الآراء والفروض .

ومن أمثلة هذا الملتقى الجامع مذهبه فى الله والعالم على التخصيص .

(١) العـالم

فهو يتمشى مع أرسطو فى مقدماته التى انتهت به إلى العقل المجرد والعلة الأولى ، ولكنه يتجاوزه أشواطاً بعيدة فى التنزيه والتجريد . فيرى أن الله — أو الأحد — من وراء الوجود ومن وراء الصفات ، لا يُعرف ولا يوصف ، ولا يوجد فى مكان

ولا يخلو منه مكان ، وكماله هو الكمال الذى نفهمه بعض الفهم بنفى النقص عنه . وهيهات أن نفهمه بإثبات صفة من الصفات ، لأننا نستطيع أن نقول إنه لا يكون هكذا ولكننا لا نستطيع أن نقول إنه « هكذا يكون » .

وقد يتصل به الإنسان فى حالة الكشف والتجلى حين تتجاوز الروح جسدها كما يقول . ولكنها حالة لا تقبل التأمل والتفكير . فإذا انقضت فقد يثوب الإنسان بعدها إلى عقله فيتأمل ويفكر ، وينحدر بذلك من مقام « الأحد » إلى مقام « العقل » الذى هو دونه ، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول .

ويقول أفلوطين كما يقول أرسطو إن الله أو « الأحد » لا يشغل بغير ذاته ، لأنه مستغن بذاته كل الاستغناء .

أما العالم فقد نشأ من صدور العقل عن « الأحد » وصدور النفس عن العقل ، وصدور المحسوسات عن النفس فى اتصالها بالهيولى أو المادة الأولى .

وتفصيل ذلك أن « الأحد » عرف ذاته وتأملها ، فكان « العقل » من هذا التأمل ، وأن العقل يعقل الأحد فهو أحدٌ مثله ، وإن كان دونه فى مرتبة الوحدانية ، ثم يعقل ذاته فينشأ

من عقله لذاته عقل دونه وهو « النفس » ... أو هو القوة الخالقة التى أبدعت هذه المحسوسات .

ومن البديه أن صدور الجسم من الجسم ينقصه ويُخرج شيئاً منه ينتقل من المعطى إلى الآخذ فينقص بانتقاله . أما صدور الفكرة من العقل فلا تنقصه ولا تجرده من شىء فيه ، وعلى هذا المثال نفهم صدور العقل عن « الأحد » الذى لا يعتريه نقص بحال من الأحوال .

والنفس — وهى المرتبة الثالثة فى الوجود عند أفلوطين — تتجه إلى العقل فتنسجم معه فى مقام التجريد والتنزيه ، وتتجه إلى « الهيولى » فتبتعد عن التجريد والتنزيه ، ولهذا تخلق الأجسام وتضفى عليها الصور على سبيل التذكر لما كانت تتأمله ، وهى في عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور المجردة . فهذه المحسوسات ، هى كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزها النفس فى عالم المحسوسات ، أو هى كأطياف الحالم وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يبصره بالعيان .

فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام ، وكلها غشاء باطل يزداد بعداً من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر فى اتصاله بالهيولى طبقة دون طبقة ، فإن العقل دون « الأحد » والنفس دون

العقل، والمحسوسات دون النفس، وهكذا تهبط الموجودات طبقة بعد طبقة حتى تنحدر إلى « الهيولى » التى لا نفس معها ، وهى معدن الشر فى العالم ؛ لأنها سلب محض يحتاج أبداً إلى الخلق : وهو الإيجاد أو الإيجاب .

(٢) النفس

وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية ، ولها كالنفس الكلية التى صدرت منها اتجاهات . فهى باتجاهها إلى النفس الكلية إلهية صافية ، وباتجاهها إلى المحسوسات والاجساد حيوانية شهوية . وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للجسد كما يقول أرسطو ، بل هى جوهر منفصل عنه سابق له كالمثل الأفلاطونية ، فلا تقبل الفناء . ولا يحصرها الزمان أو المكان ، وهى تصدر من النفس الكلية اضطراراً كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول . مستجيبة لطبيعة الإصدار فى ذلك العقل . وللشوق الهيولانى الذى يترفع بالهيولى إلى منزلة المحسوسات فالمعقولات .

(٣) الشر

والشر فى العالم هو « الهيولى » لأنها سالبة تنزل بالمعقولات ،

والروحيات التى تلابسها . ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولى وقدمها وضرورة الملابسة بينها و بين العقل والنفس فى دور من أدوارها ؛ وعلى النفس أن تجاهدها وتنتصر عليها وعلى شهواتها فإن أفلحت عادت إلى النفس الكلية خالصة مخلصة ، وإن لم تفلح عادت إلى الجسد مرة أخرى ، ولقيت فى كل مرة جزاءها على الذنوب التي اقترفتها فى حياتها الجسدية الماضية . ويجرى الجزاء دقة بدقة على سنة العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص . فمن قتل أمه مثلا يعود إلى الحياة الجسدية امرأة ويقتله ابنه تكفيراً عن ذنبه وإبراء له من وصمته التى تُلزمه ملابسة الهيولى حتى يتطهر منها .

(٤) الحرية الإنسانية

ولا حرية للانسان كما رأيت ، لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور وملابسة الهيولى . ولكنه يقاوم تلك الضرورة بجهاد الشهوات ، فيترقى من مرتبة الحس إلى مرتبة التأمل إلى مرتبة الكشف ، وينتقل من شتات الحس إلى استجماع العقل إلى وحدة « الأحد » ورضوان الكمال . فتجزيه ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار . ولا محل بينهما لشىء

من الاختيار ، و إن قال به أفلوطين فى بعض الأحيان .

* * *

ولابد لنا من التنبيه هنا إلى حقيقة يعرفها كل من راجع فلسفة أفلوطين فى مواضعها المتفرقة، وهى أن مذهبه أعصى المذاهب الفلسفية عَلَى التلخيص ، لكثرة العناصر التى دخلت فيه وحاول التوفيق بينها وهى عصية على التوفيق ، ولأنه لم يترك بعده كتباً مفصلة تشرح للناس نقائضه ومواطن الغموض من آرائه ، إذ كان تعويله الأكبر على أثره الشخصى البالغ على ما يظهر من سيرته وسير مريديه . فقد بلغ من قوة هذا الأثر أن أناساً من السراة الذين كانوا يستمعون إليه باعوا قصورهم وجواهرهم وحطامهم ليلحقوا به و ينتصروا على غواية المال والشهوات ، وخطر له أن يجرب هذا السلطان الشخصى الساحر فى إصلاح الحكم و إقامة جمهورية فاضلة على قواعد الجمهورية الأفلاطونية ، لولا أن فساد الحكم فى عصره قد تخطى كل رجاء فى الإصلاح .

وهذا الأثر الشخصى هو الذى أبقى للناس مذهبه وتفصيلات آرائه ؛ لأن مريديه وأتباعه كانوا ينسون أنفسهم و يذكرونه ،

ومنهم من كان يتورع عن تسميته مكتفياً بالإشارة إليه كما يشار إلى المعبود المنزه عن الأسماء ، ولولا اثنان منهم على الخصوص لما عرف الخلف شيئاً كثيراً عنه ولا سيما قراء العربية ، و نعنى بهما فرفريوس والإسكندر الأفروديسى .

أما فرفريوس فهو لقب « ملك الصورى » الذى كان عبداً فتحرر وسمى ملكاً رمزاً للحرية بعد الاستعباد ... وكان معلمه الأول يداعبه باسم بورفيرى أو الأرجوان لأنه لباس الملوك ، وهو الذى لخص مذهب أفلوطين فى الكتاب المسمى بالتاسوعات وألف « ايساغوجى » فى المنطق وهو المرجع الذى اعتمد عليه المشارقة فى دراسة منطق أرسطو بعد التوفيق بينه وبين أقوال أفلوطين . وأما اسكندر الأفروديسى فالذى يعنينا من آثاره فى هذا المقام كتاب « الثاؤلوجيا » كما عرف بين فلاسفة المسلمين ، وهو موجز التاسوعات الثلاث الأخيرة ، وكان المعتقد بين فلاسفة المسلمين أنه من كتب أرسطو فى الإلهيات . وقد كان اسكندر أول من تكلم عن العقل الهيولانى فى الإنسان ، وقال بأنه يتوقف فى خروجه من القوة إلى الفعل على مدد من العقل الفعال وهو العقل المشرف

على ما تحت القمر وعلى عالم الإنسان فيه ، وسمى بالهيولانى تشبيهاً له بالهيولى التى تقبل الصور من غيرها . وكان من رأى الإسكندر أن انتظام العالم قديم لأن النظام لا يلزم منه حتماً أن يسبقه « عدم نظام » . وإنما يسبقه الله بالذات لا بالزمان .

الفـــارابى

والفارابى هو أول الفلاسفة المسلمين الذين تتلمذ لهم ابن سينا نوعاً من التلمذة كما تقدم ، فقرأ له وانتفع بما قرأ فى فهم مضامين الفلسفة اليونانية ، وكان « المعلم الثانى » معلماً كاملا له فى معضلات الفلسفة الإلهية بجملتها . لأنه أضاف مسائل الحكمة الدينية إلى مسائل الحكمة المنطقية وأدخل مسألة التوفيق بين العقل والوحى فى حسابه ، وقد كانت من المسائل الحديثة فى الإسلام فلم يبل فيها أحد بلاء الفارابى ولا جاوز أحد فيها مداه الذى انتهى إليه وإن تبعه فى هذا المجال كثيرون ... ومن توفيقاته أنه سمى العقل الفعال بالروح الأمين وسمى العقول بالملائكة وسمى الأفلاك التى فيها العقول بالملأ الأعلى وقال إن صفات الله الأزلية هى المثل الأولى .

والذى اتفق عليه جلة الثقات أن فلسفة الفارابى فلسفة إسلامية لا غبار عليها . فلم ير فيها جمهرة المسلمين المعنيين بالبحث الفكرى حرجا ولا موضع ريبة ، ولا نخالها تغضب متديناً بالإسلام أو بغيره من الأديان .

(١) العالم .

فالمعلم الثانى يبرئ المعلم الأول — وهو أرسطو — من إنكار خلق العالم، و يفسر آراءه التى لخصناها من قبل على وجه يرضاه المؤمنون بالله والنبوات .

فالله عنده هو « السبب الأول » والسبب الأول واجب الوجود لأن العقل يستلزم وجوده ولا يستطيع أن ينفيه بحال .

فكل شىء له سبب ، وكل سبب له سبب متقدم عليه . وهكذا إلى السبب الأول الذى لا يتقدمه سبب من الأسباب . و إلا وقعنا فى الدور والتسلسل وهما باطلان .

وهذا السبب الأول « واحد » لا يتكرر ، بسيط لا يتغير، لأنه لو تكرر أو تغير لاختلف ووجب البحث عن سبب لاختلافه ، وقد إنتهت اليه جميع الأسباب .

هذا السبب الأول هو علة وجود كل موجود .

ولا يمكن أن يكون «العالم» هو السبب الأول ، لأنه متكرر متغير ، فلا بدّ له من سبب متقدم عليه .

ومن ثم تنقسم الموجودات إلى قسمين: قسم «واجب الوجود» يستلزم العقل وجوده لا محالة ، وهذا هو السبب الأول ، أو هذا هو الله سبحانه وتعالى ، ويوصف بكل صفات الكمال دون أن يقتضى ذلك التعدد، لأن نفى النقائص المتعددة لا يقتضى التعدد بل هو صفة واحدة معناها الكمال .

وقسم مفتقر إلى سبب ، ووجوده ممكن ، ولكنه ينتقل من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل بسبب واجب . فهو مخلوق على هذا الاعتبار .

قال الفارابى ينفى الظنة عن أرسطو فى إنكار القول بخلق العالم : « ومما دعاهم إلى ذلك الظن أيضاً ما يذكره فى كتاب السماء والعالم أن « الكل » ليس له بدء زمانى ، فيظنون عند ذلك أنه يقول بقدم العالم وليس الأمر كذلك . إذ قد تقدم فبين فى ذلك الكتاب وغيره من الكتب الطبيعية والإلهية أن الزمان إنما هو عدد حركة الفلك وعنه يحدث ، وما يحدث عن الشىء لا يشتمل ذلك الشىء ، ومعنى قوله إن العالم ليس له بدء

زمانى أنه لم يتكون أولاً فأولاً بأجزائه كما يتكون البيت مثلاً أو الحيوان الذى يتكون أولاً فأولاً بأجزائه، فان أجزاءه يتقدم بعضها بعضا بالزمان ، والزمان حادث عن حركة الفلك ، فمحال أن يكون لحدوثه بدء زمانى ، ويصح بذلك أنه إنما يكون عن إبداع البارى جل جلاله إياه دفعة واحدة بلا زمان ، وعن حركته حدث الزمان »

وعلى هذا يكون الخلق فى رأى المعلم الثانى هو الإخراج من الإمكان إلى الفعل ، ويكون الوجود بالفعل مصاحباً للزمان . أما الوجود بالقوة فهو فى علم الله الذى لا زمان له ولا مكان . لأن الله أبدى لا أول له ولا آخر ، وإنما يقترن الزمان بالموجودات والمتحركات .

وهذا ولا ريب اجتهاد من المعلم الثانى فى تفسير كلام المعلم الأول ، ولكنه استحسن هذا الاجتهاد لأنه قرأ كتاب « الثاؤلوجيا» أو الربوبية كما سماه وظنه من تواليف أرسطو ... وهو على ما تقدم من آراء أفلوطين وتفسير ملك الصورى واسكندر الأفروديسى . ولهذا استطرد الفارابى بعد الكلام السابق قائلا : « ومن نظر فى أقاويله فى الربوبية فى الكتاب

المعروف بأثولوجيا لم يشتبه عليه أمره فى إثباته الصانع المبدع لهذا العالم. فان الأمر فى تلك الأقاويل أظهر من أن يخفى وهناك تبين أن الهيولى أبدعها البارى جل ثناؤه لا عن شىء وأنها تجسمت عن البارى سبحانه ثم ترتبت ... »

وهذا فى الحقيقة مستمد من كلام أفلوطين وتوسّع فيه اسكندر الأفروديسى، ثم جاء المعلم الثانى فتوسع فى كلام الأفروديسى وزاد عليه ما يوفق بينه و بين الدين — ولا سيا فى مسألة «العقول» والأفلاك التى هى عند الفارابى من ملائكة الله . ويؤخذ من شرح الفارابى لبعض كلام « زينون » الفيلسوف الرواقى أنه اعتمد عليه أكبر اعتماد فى مسألة العقول .

ولهذا كان مذهب الفارابى جامعاً بين مذهب أرسطو عن الحركه ومذهب أفلوطين عن الصدور ومذهب أفلاطون عن « المثل »الأبدية ومذهب الرواقيين فى النفس العاقلة وانبثاثها فى الأجسام... فمنذ الأزل وجدت الأشياء فى علم الله وهذا هو علة وجودها ، والله جل وعلا يعقل « فالعقل الأول » صادر عنه فائض من وجوده ، وهذا العقل الأول هو الذى يحرك الفلك الأكبر وتأتى بعده عقول الأفلاك المتوالية إلى العقل العاشر الذى

يعقد الصلة بين الموجودات العلوية والموجودات السفلية

فالوجود إذن ثلاث مراتب : أولاها الوجود الإلهى ، وثانيتها وجود هذه العقول المتدرجة ، وثالثتها وجود العقل الفعال . ومن هنا نفهم كيف تعددت الكثرة عن الواحد الذى لا يتعدد ، وكيف جاءت الصلة بين المعانى المجردة والمحسوسات .

ثم تصدر النفس من العقل الفعال فهى بالمرتبة الرابعة ، وتأتى « الصورة » وهى أقل من النفس وأشرف من المادة فهى بالمرتبة الخامسة ، وتتلوها جميعاً المادة فى العالم الأسفل فهى أخس الموجودات ، ولولا قبولها للصورة لكانت معدومة بالفعل

(٢) النفس الإنسانية :

فالنفوس الجزئية من فيض العقل الفعال ، وهى جواهر تتلبس بالأجسام ، ومن هذه الجواهر النفسية ما يتلبس بالأجرام السماوية وتحسب من الملائكة ، ومنها ما يتلبس بجسم الإنسان وما يتلبس بجسم الحيوان ، ثم بأجسام النبات ، ودونها المعادن ، والاستقصات الأربعة وهى النار والهواء والماء والتراب ، وهى مبادئ الأجسام المركبة التى تتولد منها صنوف المواليد والتراكيب.

ويرى الفارابى مع أرسطو « أن النفس استكمال أول لجسم

طبيعى آلى ذى حياة بالقوة » وإنما يكون ذا حياة بالفعل من فيض العقل عليه .

فالنفس تمام الجسد .

والعقل تمام النفس .

وعلى حسب اتصال العقل بالحياة الجسدية يترقى من العقل الهيولانى إلى العقل بالملكة إلى العقل المستفاد ، إلى العقل بالفعل وهو الذى يتلقى المعارف المجردة من العقل الفعال .

والعقل الهيولانى هو عقل الغريزة والإحساس ويكاد الإنسان والحيوان يتساويان فيه .

والعقل بالملكة هو عقل المعلومات التى تحصل من التجارب الحسية والمعارف المتلبسة بالماديات .

والعقل بالفعل هو عقل الكليات المجردة ، وهو نفحة من العقل الفعال ، وفيض متسلسل من الوجود الأول ، أو من الله

ويترقى الإنسان إلى هذا العقل بالاستعداد له والمثابرة على الارتقاء فى درجات المعرفة من الطبيعيات إلى الرياضيات إلى الإلهيات . وقد يصل العقل إلى هذه المرتبة بالوحى والإلهام كما

يصل الأولياء والأنبياء . فالنبوة والحكمة طريقان إلى الله : هذه بالتعليم وتلك بالإلهام.

والنفوس لا تترك سدى فى هذه العوالم السفلية . لأن الشوق يحفزها إلى طلب الكمال ، واللطف من جانب الكائنات العليا يجذبها إليها فترتفع بدافع منها و بجاذب من العقول العليا . و إنما كان العقل الإنسانى ميالاً إلى جمع الصور لأنه يحب الارتقاء إلى مصدر الصور وهو العقل الفعال ، ولأن العقل الفعال يحب أن يعيد الصور المفرقة فى الأجسام إلى مصدرها منه و ينبوعها فيه.

ومتى رجع العقل بالفعل إلى العقل الفعال فذلك هو النعيم المقيم والخلود الموعود ، وتزداد لذة النفوس بالتجمع فى مصدرها كما تزداد لذة النفس الواحدة بتجمع الصور وائتلاف المعانى فى معقولاتها . أما النفس التى تنحط أبداً فلا ترتقى هذا المرتقى ... فهى فى عذاب واصب وشعور دائم بالانفصال يؤلمها كما يتألم الإنسان للبتر والاعتلال، وقد ينحدر بها الإسفاف مع الأجساد فتهوى إلى الدرك الأسفل الذى ليس بعده نزول غير نزول العدم بالقوة أو الوجود بالقوة ، وهما متساويان . لأن الوجود بالقوة هو الذى يمكن أن يوجد بالفعل و يمكن ألا يوجد . فإن شئت قلت

هو معدوم بالقوة وإن شئت قلت هو بالقوة موجود، ويتساويان

(٣) الخير والشر :

وليس فى العالم شر فيما تجاوز هذا الفلك الأدنى — فلك القمر — وهو فلك الممكنات .

فالموجودات الواجبة لا يصدر منها ضرورةً غير الخير، والعقول العليا هى من الموجودات الوجوبية لأنها على اتصال متفاوت بواجب الوجود . فكل ما يصدر عنها خير محض لا يشوبه الشر ولا تخالطه الرذيلة . وبهذا ينكر الفارابى أقوال النجوميين فى سعود الكواكب ونحوسها ، ويبرئها من كل سوء .

أما السوء فإنما يكون فى عالم الممكنات التى لا وجوب فيها ، وهى هذه الموجودات السفلية التى تتلبس بالهيولى وتنغمس فيها، ويحد بعضها بعضاً فلا تزال فى نقص من هذه الحدود .

وقد نزع الفارابى منزعاً عجيباً فى تفسير العدل بين المخلوقات فسبق القائلين بالتطور وحق الأصلح فى البقاء بمئات السنين ، فقال إن الناس إذا تمايزوا . . . « فينبغى بعد ذلك أن يتغالبوا ويتهارجوا ، والأشياء التى يكون عليها التغالب هى السلامة والكرامة واليسار واللذات وكل ما يوصل به إلى هذه ، وينبغى

أن يروم كل طائفة أن تسلب جميع ما للأخرى من ذلك وتجعل ذلك لنفسها و يكون كل واحد من كل واحد بهذه الحال. فالقاهرة منها للأخرى على هذه هى الفائزة وهى المغبوطة وهى السعيدة ، وهذه الأشياء هى التى فى الطبع إما فى طبع الإنسان أو فى طبع كل طائفة ، وهى تابعة لما عليه طبائع الموجودات الطبيعية . فما فى الطبع هو العدل . فالعدل إذن التغالب . والعدل هو أن يقهر ما اتفق منها ، والمقهور إما أن قهر على سلامة بدنه هلك أو تلف وانفرد القاهر بالوجود ، أو قهر على كرامته و بقى ذليلاً ومستعبداً تستعبده الطائفة القاهرة وينفع ما هو الأنفع للقاهر فى أن ينال به الخير الذى عليه الغالب ويستديم به . فاستعباد القاهر للمقهور هو أيضاً من العدل ، وأن يفعل المقهور ما هو أنفع للقاهر هو أيضا عدل. فهذه كلها هى العدل الطبيعى وهى الفضيلة.. »

فالشر من عالم الإمكان لا من عالم الوجوب .

وهو كذلك لأن عالم الإمكان يكثر فيه النقص وتتزاحم فيه الحدود .

ومع هذا يكون التزاحم أو التغالب سبباً للعدل والصلاح ، و يأتى منه الخير لمن هو أولى بالخير ، إلى أن تخلص النفوس إلى

عالم « الوجوب » أو عالم العقل المحض . فينتفى الشر العارض ويصمد الخير الأصيل .

(٤) الحرية الإنسانية .

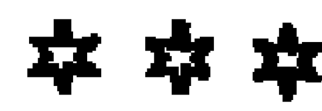
وقد وضح نصيب الإنسان من الحرية فى هذه الفلسفة الفارابية ، وتبين لنا من مستلزماتها أن الوجوب مقترن بواجب الوجود وبالصدورات والفيوض التى تنبثق من وجوده على وجه اللزوم .

ولكن الفارابى على هذا يؤمن بالدعاء والصلاة ، لأنه يؤمن بأن الله يوحى إلى العقل الفعال أن يستجمع الصور وأن يصطفى العقول التى تتجه اليه بقدر مقدور . فعسى أن تكون الرياضات والصلوات من توجيه ذلك القدر المقدور . وقد حفظت له دعوات يقول فى بعضها : « ... اللهم ألبسنى حلل البهاء وكرامات الأنبياء وسعادة الأغنياء وعلوم الحكماء وخشوع الأتقياء . اللهم أنقذنى من عالم الشقاء والفناء واجعلنى من إخوان الصفاء وأصحاب الوفاء وسكان السماء مع الصديقين والشهداء ، أنت الله الذى لا إله إلا أنت . علة الأشياء ونور الأرض والسماء . امنحنى فيضاً من العقل الفعال ياذا الجلال والإفضال ، هذب نفسى بأنوار الحكمة وأوزعنى شكر ما أوليتنى من نعمة . أرنى الحق

حقاً وألهمنى اتباعه ، والباطل باطلاً وأحرمنى اعتقاده واستماعه .
هذب نفسى من طينة الهيولى إنك أنت العلة الأولى ... »

* * *

ولعلنا فى غنى عن التنبيه إلى ما نتوخاه من هذه الملخصات والمقابلات ، فنحن نقصرها على الجانب الذى يتناول مشكلات الفلسفة الإلهية دون غيرها ، وليس من شأننا استقصاء المذهب من جميع أطرافه ولا التعريف بصاحبه فى جميع دراساته . وإلا لضاق بنا المجال دون تلخيص الفارابى ودراساته فى هذه الصفحات ، لأنه كتب فى المنطق والطبيعيات والرياضيات كما كتب فى الطب والأخلاق والسياسة ، وبرع فى الفن كما برع فى العلم . فقيل عن إتقانه للموسيقى إنه واضع القانون وإنه كان إن شاء أضحك وإن شاء أبكى ، وإن شاء أيقظ الهاجعين وإن شاء أنام المتيقظين ، وبهر الناس بطول الباع فى علوم زمانه حتى زعموه يتكلم بسبعين لساناً من ألسنة الأمم ، ونقل هذا الزعم عنهم ابن خلكان . ومن عجائب نظراته العلمية أنه كان لا ينكر الكيمياء أصلا ولا يمنع تحول المعادن لأنها كلها من مبادئ واحدة تختلف بالتركيب .



وقد عاصر الفارابى أكبر علماء الكلام بين المسلمين وهم أبو الحسن الأشعرى وأبو منصور الماتريدى والطحاوى، وكانت نشأة الأول فى العراق والثانى فى سمرقند والثالث بمصر، ومعنى ذلك أن الاشتغال بالبحث المنطقى قد عم المسلمين جميعاً فى أوائل القرن الثالث، من معتزلة ومتكلمين وفلاسفة وفقهاء، بين جميع الأقطار والأقوام. وربما كان الفارابى والمتكلمون معا قد تابعوا المعتزلة فى تقسيم الموجودات إلى ضرورية وممكنة لأنهم قالوا به قبله وقبل الأشعرية.

وقد كان موضع البحث بينهم هو تلك المشكلات الفلسفية التى لخصنا أقوال الفلاسفة المتقدمين فيها، وكان أكثر البحث فى مشكلتين منها: وهما صفات الله ولاسيما الكلام ثم الحرية الإنسانية وهى مشكلة القضاء والقدر فى اصطلاح أصحاب الأديان

فالمعتزلة يؤولون الصفات ويرون أن الوحدة لا تقبل التركيب وأن القول بوجود صفات قائمة بالذات الإلهية منذ الأزل هو اشراك له سبحانه وتعالى فى القدم، وتعليق لتلك الصفات بعالم الزمان والمكان حيث تتجلى أفعال تلك الصفات على اختلاف بين

صفة منها وصفة وبين حال منها وحال ، ويقولون فى تأويل الصفات إنها تتعدد بآثارها ولا تتعـدد بمصدرها لأنه واحد لا يقبل التعديد .

وعلماء الكلام — أو الصفاتية كما يعرفون بين المتكلمين — يقولون إن الله عالم قادر مريد ، ولا معنى للعالم إلا أنه ذو علم ولا للقادر إلا أنه ذو قدرة ولا للمريد إلا أنه ذو إرادة ، فليست الإرادة أو القدرة أو العلم شركاء للذات ولكنها تقتضى تعريف الله بأنه عالم وقادر ومريد . ثم إنهم يقولون بتعدد الصفات وقيامها منذ الأزل بالذات ، ويتساءلون : هل يعلم الله بقادريته أو يقدر بعالميته ؟ فالعلم والقدرة إذن صفتان لا صفة واحدة كما يقول المعتزلة وإنما يعلم الله علماً ليس متميزاً عن ذاته ، ويقدر بقدرة ليست متميزة عن ذاته ، وهى على حد قول مالك ابن أنس صفات « معلومة والكيفية مجهولة والإيمان بها واجب » لا تشابه بين صفات الحق وصفات الخالق لأنه جل وعلا «ليس كمثله شىء » ولا شريك له فى ملكه ، ومتى ذكرت صفاته فيجب أن تذكر بينها مخالفته للحوادث فيبطل الاعتراض بقياس هذه الصفات الإلهية على الصفات التى نعهدها فى سائر الموصوفات .

ويؤمن المتكلمون بأن الله خلق الإنسان وخلق له الاختيار وخلق الأعمال ، وقدر فى سابق علمه ما يكون من الخير والشر لحكمة لا نعلمها وعدل لا اعتراض عليه . فهو الموجب لكل شيء ولا يجب عليه شيء من الأشياء . وكل ما فى الشرائع من الفرائض سمعى توجبه إرادة الله ولا يوجبه العقل لأن العقل نفسه من صنع موجب الأشياء .

ويمنع المعتزلة أن يُرى الله لأن الرؤية لا تكون إلا لمحسوس ولكن المتكلمين يجيزون رؤية كل موجود على اعتبار أن الرؤية نوع من العلم ، وأن العلم يحصل بغير اتصال النور بين الرائى والمرئيات ، وكذلك تختلف الطائفتان فى كلام الله فيرى المعتزلة أنه مخلوق بالألفاظ ويرى المتكلمون أنه قديم كصفة الكلام فى الله ، وإن فرقوا بين اللفظ وبين تلك الصفة الإلهية .

ويختلف الأشعرى والماتريدى فى بعض الأحكام ، أو — على الأصح — فى بعض التعبيرات . فإذا التمسنا بينهما فرقاً مجملاً جاز أن يقال إن الأشعرى كان أقرب إلى النص وإن الماتريدى كان أقرب إلى التأويل . ويدل على الفارق بينهما جواب هذا السؤال : بماذا وجب الدين ؟ فالمعتزلة تقول بالعقل،

والأشعرى وأصحابه يقولون بالأمر الإلهى ، والماتريدى وأصحابه يقولون بالأمر الإلهى ، وهو أمر تفهمه العقول .

ولا يفوتنا هنا أن نلاحظ أن الماتريدى كان أقرب الأئمة المتكلمين إلى موطن ابن سينا ، لأنه نشر مذهبه فى سمرقند وتوفى قبل مولد ابن سينا بنحو ثلاثين سنة .

وقد اشترك الفارابى فى هذه المباحث فكان رأيه فى الصفات أقرب إلى رأى المعتزلة والفلاسفة ، وكان رأيه فى الحرية الإنسانية أقرب إلى رأى الأشعرية لأنه كما قدمنا يقول بالوجوب من الموجود الأول إلى سائر الموجودات ، ما عدا العالم السفلى الذى يقع فيه الوجود بالإمكان ، وهو مع ذلك على صلة بالعقل الفعال ، وليس العقل الفعال عند الفارابى غير الروح القدس أو الروح الأمين .

أما رؤية الله فلا يمنعها الفارابى « فالحق الأول لا يخفى عليه ذاته ، وليس ذلك باستدلال . فجائز على ذاته مشاهدة كما له من ذاته . فإذا تجلى لغيره مغنيا عن الاستدلال ، وكان بلا مباشرة ولا مماسة كان مرئياً لذلك الغير ، حتى لو جازت المباشرة تعالى عنها لكان ملموساً أو مذوقاً أو غير ذلك . وإذا كان فى قدرة

الصانع أن يجعل قوة هذا الإدراك فى عضو البصر الذى يكون بعد البعث لم يبعد عن أن يكون تعالى مرئياً يوم القيامة من غيرتشبيه ولاتكييف ولامسامته ولامحاذاة تعالى عما يشركون ».

* * *

وبقيت فرقة دينيه لها خطرها فى نشأة ابن سينا لأنه نشأ فى بيته وهو يسمع أقوالها فى العقل والنفس كما تقدم فيما رواه عن أبيه وأخيه ، وهى فرقة الإسماعيلية أو الباطنية التى تنتمى إلى الفاطميين ، وهذه هى أقوالها فى الله والعالم والنفس والعقل كما رواها الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل حيث قال : « . . . وصنفوا كتبهم على ذلك المنهاج فقالوا فى البارى تعالى إنا لا نقول هو موجود أولا موجود ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز وكذلك فى جميع الصفات ، فإن الإثبات الحقيقى يقتضى شركة بينه وبين سائر الموجودات فى الجهة التى أطلقنا عليه . وذلك تشبيه . فلم يكن الحكم بالإثبات المطلق والنفى المطلق . بل هو إله المتقابلين وخالق الخصمين ، والحاكم بين المتضادين ، ويقولون فى هذا أيضاً عن محمد بن على الباقر أنه قال : لما وهب العلم للعالمين قيل هو عالم ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ،

فهو عالم وقادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة . . . قالوا : وكذلك نقول فى القدم أنه ليس بقديم ولا محدث ، بل القديم أمره وكلمته والمحدث خلقه وفطرته : أبدع بالأمر العقل الأول الذى هو تام بالفعل ثم بتوسطه أبدع النفس الثانى الذى هو غير تام ، ونسبة النفس إلى العقل إما نسبة النطفة إلى تمام الخلقة والبيض إلى الطير ، وإما نسبة الولد إلى الوالد ، والنتيجة إلى المنتج ، و إما نسبة الأنثى إلى الذكر ، والزوج إلى الزوج . . . قالوا : ولما اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النقص إلى الكمال ، واحتاجت الحركة إلى آلة الحركة ، فحدثت الأفلاك السماوية وتحركت حركة دورية بتدبير النفس أيضاً فتركبت المركبات من المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، واتصلت النفوس الجزئية بالأبدان ، وكان نوع الإنسان متميزاً عن سائر الموجودات بالاستعداد الخاص لفيض تلك الأنوار ، وكان عالمه فى مقابلة العالم كله ، وفى العالم العلوى عقل ونفس كلى وجب أن يكون فى هذا العالم عقل شخص وهو كل ، وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ ويسمونه الناطق وهو النبى ، ونفس

مشخصة هو كلٌ أيضاً وحكمها حكم الطفل الناقص التوجه إلى الكمال أو حكم النطفة المتوجهة إلى التمام أو حكم الأنثى المزدوج بالذكر ويسمونه الأساس وهو الوصى .... قالوا : وكما تحركت الأفلاك بتحريك النفس والعقل والطبائع كذلك تحركت النفوس والأشخاص بالشرائع بتحريك النبي ، والوصى فى كل زمان دائر على سبعة سبعة حتى ينتهى إلى الدور الأخير ويدخل زمان القيامة وترتفع التكاليف وتضمحل السنن والشرائع ، وإنما هذه الحركات الفلكية والسنن الشرعية لتبلغ النفس إلى حال كمالها ، وكمالها بلوغها إلى درجة العقل واتحادها به ووصولها إلى مرتبته فعلا ، وذلك هو القيامة الكبرى . . . ويحاسب الخلق ويتميز الخير من الشر والمطيع من العاصى ، وتتصل جزئيات الحق بالنفس الكلى وجزئيات الباطل بالشيطان المبطل . فمن وقت الحركة إلى السكون هو المبدأ ، ومن وقت السكون إلى ما لا نهاية له هو الكمال ... »

***

وفى هذا المذهب الإسماعيلى كما نرى آثار من العقائد الدينية ومن مذاهب أرسطوا وأفلاطون وأفلوطين ، ومن حكمة الهند كما

تمثلت قديماً فى بعض آراء فيثاغوراس ، وتمثلت حديثاً فى بعض آراء أفلوطين ، وفيه شيء من المعتزلة وشيء من المتكلمين ، ودليل على حالة الأفكار والعقائد فى الزمن الذى نبغ فيه الشيخ الرئيس ، وفى البيئة التى تنسم لديها أول نسمات الحياة

مذهب ابن سينا

أولئك هم أسلاف ابن سينا الفكريون على وجه الإجمال .

وسنرى من ملخص مذهبه مقاربةً ملحوظة بينه و بين كل واحد منهم فى بعض الأمور : فهو يقارب الفارابى فى التوفيقات الدينية ، ويقارب فرفريوس والإفروديسى فى الرموز الصوفية ، ويقارب أرسطو فى التفكير المنطقى ، ويقارب أفلاطون فى النزعة الفنية

ومن مقاربته لأفلاطون أنه يصطنع مثلة أسلوب الأساطير الرمزية لتوضيح ما يريد أو الكناية عما يرمى إليه . كما صنع فى رسالة حى بن يقظان ورسالة الطير وهو يرمز إلى النفس الإنسانية واشتباكها بشهوات هذا العالم للتطهر بالعمل والرياضة . . وهذا نموذج منها على لسان طائر يروى قصة وقوعه فى الشرك

«... برزت طائفة تقتنص فنصبوا الحبائل ورتبوا الشرك وهيأوا الأطعمة وتواروا فى الحشيش ، وأنا فى سربة طير إذ لحظونا فصفروا مستدعين ، فأحسسنا بخصب وأصحاب . ما تخالج فى صدورنا ريبة ، ولا زعزعتنا عن قصدنا تهمة ، فابتدرنا إليهم مقبلين ، وسقطنا فى خلال الحبائل أجمعين . فإذا الحلق ينضم على أعناقنا والشرك يتشبث بأجنحتنا ، والحبائل تتعلق بأرجلنا . ففزعنا إلى الحركة فما زادتنا إلا تعسيراً فاستسلمنا للهلاك وشغل كل واحد منا ما خصه من الكرب عن الاهتمام لأخيه . وأقبلنا نتبين الحيل فى سبيل التخلص زماناً حتى أنسينا صورة أمرنا ، واستأنسنا بالشرك واطمأننا إلى الأقفاص ، فاطلعت ذات يوم من خلال الشبك فلحظت رفقة من الطير أخرجت رءوسها وأجنحتها عن الشرك وبرزت عن أقفاصها تطير وفى أرجلها بقايا الحبائل لا هى تؤدها فتعصمها النجاة ولا تبينها فتصفو لها الحياة ، فذكرتنى ما كنت أنسيت ونغصت على ما ألفته ، فكدت أنحل تأسفاً أو ينسل روحى تلهفاً ، فناديتهم من وراء القفص أن اقربوا منى فوقفونى على حيلة الراحة ، فقد أعنتنى طول المقام . فتذكروا خدع المقتنصين فما زادوا إلا نفاراً .. » إلى آخر الاسطورة على

هذا النسق من الرمز والإيماء إلي مجاهدات النفس فى سبيل الخلاص من أوهاق الشهوات

فلم يكن نصيب أفلاطون بالقليل فى تنشئة الشيخ الرئيس وإن كان المشهور عنه أنه خليفة أرسطو بين المناطقة فى المشرق والمغرب. فالواقع أنه كذلك، وأنه مع ذلك قريب إلى أفلاطون قرابتين : أحدهما مزاجه الفنى وملكة الخيال التى كانت قوية فيه حتى اعتقد أن الكواكب لها نفوس ومخيلات، والأخرى قراءته للفارابى وهو من المعظمين لأفلاطون والمؤمنين بالأفلاطونية الحديثة

ولا يدل هذا على أنه كان متقيداً بمذهب أستاذ أو أكثر من أستاذ من هؤلاء الأسلاف الفكريين والروحيين، لأنه كان يعارضهم كما كان يجاريهم ويوافقهم، وكانت أكثر معارضاته لهم فيما بينهم وبين الدين من خلاف، فلم يكن لمذهبه الفلسفى من حدود غير العقيدة الدينية، وهى صحيحة عنده فى جوهرها الأصيل لا خلاف بينها وبين القضايا العقلية فى غير الظواهر والعروض ...

وهذه هى خلاصة الحلول التى ارتآها ابن سينا لمشكلات الفلسفة الإلهية كما أجملناها فيما تقدم .

العـــالم

عند ابن سينا — كما عند أرسطو — أن المادة الأولية والصورة والعدم هى الأصول الثلاثة التى عنها تصدر كل الأجسام الطبيعية والعالم مخلوق لم يحدث فى زمان .

يقول ما فحواه : إن هذه الـكائنات إما أن تـكون «ممكنة الوجود جميعاً» وإما أن تـكون جميعها واجبة الوجود .

ومحال أن تـكون ممكنة الوجود جميعاً ، لأن الممكن يحتاج إلى علة تخرجه من حيز الإمكان إلى حيز الفعل .

ومحال أن تـكون واجبة الوجود جميعاً ، لأنها بين متحركة تحتاج إلى محرك ، وبين مركبة تحتاج إلى علة لتركيبها ، ولا بد أن تسبقها أجزاؤها .

فهى إذن بعضٌ ممكن الوجود .

وبعضٌ واجب الوجود .

وواجب الوجود هو الذى لا نتصور عدمه ، لأن عدمه يوقعنا فى المحال .

ومن المحال أن يكون واجب الوجود مسبوقا ، لأن الذى يسبقه يكون إذن أولى بالوجوب .

ومن المحال أن يكون مركباً لأن أجزاء المركب تسبقه وتحتاج إلى فاعل للتركيب والإيجاد .

فهو أول ، وهو جوهر بسيط منزه عن التركيب .

ولم يكن ابن سينا مبدعاً فى كلامه عن واجب الوجود ، أو ممكن الوجود ، لأن الفارابى قد سبقه إليه ، كما سبقه المعتزلة وبعض المتكلمين .

ولكن ابن سينا قد أبدع تقسيم الوجود إلى واجب بذاته ، وممكن بذاته ولكنه واجب بغيره .

وبذلك وفق بين القائلين بقدم العالم وخلقه . فإن العالم ممكن بذاته ، ولكنه واجب بغيره ، لأنه كان فى علم الله . وما كان فى علم الله لا بد أن يكون .

وليس العالم حادثاً فى زمان لأن الزمان وجد مع العالم : تحرك العالم فوجد الزمان مع هذه الحركة ، وإنما كان وجوده لأنه وجد

فى علم الله فأخرجه الله من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل ، والله قديم بالذات ، سرمد لا يحيط به وقت ولا محل . فالعالم كما كان فى إرادة الله قديم ، وكما كان بالحركة مسبوق بذات الله ، وهو سبق سرمدى لا يحده الزمان .

وهنا يقول ابن سينا بالحركة الأولى كما قال أرسطو بها أو بالعلة الأولى :

فالمحرك الأول هو علة الحركة .

والحركة هى علة الزمان .

والزمان والفلك إذن مخلوقان على السواء .

وابن سينا — كارسطو — يقسم الحركة إلى طبيعية ونفسانية: فالحركة الطبيعية مثالها حركة التنقل وهى التى تجذب الأجسام بالطبيعة إلى مركز العالم أو مركز الكرة الأرضية ، ومن لوازم هذه الحركة أنها تطلب شيئاً وتهرب من شىء ، وليست الحركة المستديرة — أى حركة الفلك — من هذا القبيل ، فإن كل نقطة مطلوبة ومهروب منها ، فهى حركة نفسانية أو هى حركة عقول ، ويدل على أن الحركات الفلكية حركات عقول — غير

الدليل المتقدم — أنها لا تتناهى وأن كل جسم فله نهاية فكل حركة من جسم فلا بد لها من نهاية .

ومذهب ابن سينا فى الكائنات العلوية أنها عقول وأنها ذات إدراك وذات خيال ، وهو بهذا يخالف الإسكندر الإفروديسى . لأن الإسكندر يرى أن الخيال منوط بتخيل الأشياء لطلب السلامة منها ، وأن الفلك خالد لا يقبل العطب والفساد ، ولا حاجة به إلى خيال .

لكن العقول العلوية فى مذهب ابن سينا قريبة من ترتيب العقول فى مذهب الإسكندر الإفروديسى وأتباع أفلوطين ، وهم يلجأون إليها لتفسير وجود الكثرة من الواحد الذى لا يتعدد : وهو الله .

فالمحرك الأول قد صدر عنه محرك الفلك الأعظم ، وهو العقل الأول .

والعقل الأول صدر عنه الفلك الأعظم والعقل الثانى .

وهكذا إلى العقل التاسع ، ثم العقل الفعال وهو العقل العاشر الذى يسيطر على العالم الأرضى وما تحت فلك القمر ، وعنه تصدر النفوس والأجسام فى عالم الإنسان .

وكل عقل تصدر عنه نفس تناسبه فى الشرف والتنزه عن المحسوسات .

فالواجب الأول يوحى إلى العقول ، والعقول توحى إلى النفوس ، والنفوس تؤثر فى الأجرام العلوية ، وهذه تؤثر فى الأرض أو فيما تحت فلك القمر .

وهكذا تكون حركة الفلك حركة عقل يشتاق إلى مصدره الأول .

بل تكون كل حركة شوقا إلى مصدرها وصعوداً إلى المصدر الأول وهو الله جل وعلا وتنزه عن الشركاء والأنداد .

فهو الوجود المحض ، والحق المحض ، والخير المحض ، والعلم المحض ، والقدرة المحضة ، من غير أن يدل كل معنى مفرد على صفة على حدة . لأن هذه الصفات تستلزم سلب ألوان من النقص لا توجد فى الكمال ، وهو واحد لا يتعدد . فإذا قلنا واحد فإنما نعنى الوجود مسلوباً عنه القسمة والشريك ، وإذا قلنا «جوهر» فإنما نعنى الوجود مسلوباً عنه الكون فى موضوع ، وليس فى هذا ولا فى أمثاله موجب للكثرة والمغايرة .

أما الصفات الثبوتية أو الإيجابية ، فإذا قلنا أن الله قادر فمعنى

ذلك أن وجود غيره يصدر عنه على النحو المتقدم ، وإذا قلنا أن الله مريد فإنما نعنى أن واجب الوجود مبدأ لنظام الخير كله وهو يعقل ذلك ، وأنه غير مسلوب الإرادة .

قال : « فإذا عقلت صفات الأول الحق على هذه الجهة لم يوجد فيها شيء يوجب لذاته أجزاء أو كثرة بوجه من الوجوه » .

وقد وقف بعض الفلاسفة عند قول أرسطو إن الله لا يشغل بما دونه فقالوا إن الله يعقل ذاته فهو عقل ومعقول وعاقل ، وأنه لا يعلم الجزئيات لأن العلم بها خاص بالعقل المحدود الذى يتأثر بالحوادث والمعلومات بعد وقوعها ، وأنه لا يعلم الكليات لأن العلم بها منتزع من العلم بالجزئيات . فقال ابن سينا بل يعلم الله كل ما وقع أو يقع فى ملكه . إذ ليس علمه بالأشياء لأنها حصلت بل هى قد حصلت لأنه علم بها منذ الأزل فكان علمه بها سبباً لحصولها . ولكنه علم يخالف علم الإنسان كما يختلف المحدود وغير المحدود . وابن سينا فى رأيه هذا قريب من أستاذه الفارابى بعيد من أرسطو وأفلوطين .

النفس

وحد النفس عند ابن سينا «أنها كمال أول لجسم طبيعى آلى أو جسم طبيعى ذى حياة» .

فالجسم الحى يمايز غير الحى بنفسه لا ببدنه ، فالنفس إذن صورة له أو ماهية . والصورة أو الماهية هى الكمال الذى تتحقق به الذات . وكل كمال فهو منقسم إلى قسمين : الكمال الذى هو مبدأ الأفاعيل ، والكمال الذى هو ذات الأفاعيل ، والأول هو الكمال المؤثر والثانى هو الكمال المتأثر .

وقد قال «جسم طبيعى» تمييزاً له من الجسم الصناعى ، وقال «جسم آلى» تمييزاً له من الجسم الذى يعمل بغير آلات ، وقال إنها « كمال أول » لأنها هى التى تؤثر وليست هى الحركة الآتية من التأثير .

والنفس عنده كما هى عند أرسطو «قوى» تتفاوت من النفس النباتية التى تقوم بالتغذية والنمو والتوالد ، إلى النفس الحيوانية التى تقوم بهذه وبالإرادة معها ، إلى النفس الإنسانية وهى النفس الناطقة ، ولها مشاعر ظاهرة كالبصر والسمع والذوق والشم

واللمس وما إليها مما تحس به الصلابة واللين والخشونة والملاسة، وهذه الحواس هى التى تنقل إلى النفس صور الأشياء الخارجية .

وللنفس ملكات باطنة هى المصورة والمفكرة والوهم والحافظة أو الذاكرة، والمتصورة هى الحس المشترك الذى يؤلف بين آثار الحواس المختلفة ، ويجمع ما تفرق من المعانى والصفات .

والإنسان والحيوان يدركان الجزئيات بالحواس ، ولكن الإنسان وحده هو الذى يدرك الكليات بالنفس الناطقة بغير حاجة إلى الجسد والأعضاء .

فالنفس الإنسانية لها قوتان عاملة تدبر البدن ، وعاقلة ولها مراتب : « فأولها كونها مستعدة لقبول الصور العقلية وهذه المرتبة مسماة بالعقل الهيولانى ، وثانيها أن تحصل فيها التصورات والتصديقات البديهية وهى العقل بالملكة ، وهذه الملكة مختلفة بحسب كمية تلك البديهيات وبحسب كيفية قوة النفس على الانتقال منها إلى المطالب ، وثالثها أن يحصل الانتقال من تلك المبادئ إلى المطالب الفكرية البرهانية . إلا أن تلك الصور لا تكون حاضرة بالفعل بل تكون بحيث إذا شاء الإنسان أن يستحضرها فعل ذلك . وهذه هى مرتبة العقل بالفعل ، ورابعها

أن تكون تلك الصورة العقلية حاضرة بالفعل ينظر إليها صاحبها وهى المسماة بالعقل المستفاد »

والعقل بالفعل يتجه إلى العقل الفعال متى شاء . أما الاتصال التام بالعقل الفعال فهو العقل المستفاد ، وهو عقل النفس القدسية التى ترتقى إلى منزلة العارفين والصديقين

وليست النفس متحيزة ولا حالة فى المتحيز . لأنها لا تنقسم بانقسام الجسم ولا تتوقف عليه . فالمشار إليه بقولى « أنا » باق فى أحوال الجسد كلها سواء فى نموها أو ذبولها ، وقد يكون الإنسان مدركا للمشار إليه بقولى « أنا » حالما يكون غافلا عن جميع أعضائه . و « الأنية » لا تتوقف على حقيقة خارجية ولا على شعور بالأعضاء الجسدية ، فابن سينا فى إثبات وجود النفس على هذه الصورة سابق للفيلسوف الفرنسى ديكارت الذى يبطل الشك فى الوجود بقوله : « أنا أفكر أنا موجود » ويعتبر هذه الحقيقة أولى الحقائق الغنية عن الإثبات ، وهو سابق له بالقول بأن الإيجاد فيض دائم من قدرة الله . فلا تدوم للموجود صفة الوجود بمجرد إيجاده . بل يكسبها على التجدد وعلى الدوام .

ويرى ابن سينا أن نفس الإنسان تصدر عن العقل الفعال وتدخل فى الجنين عند ما يتهيأ الجسد لقبولها ، وأنها تعود إليه بعد مبارحة الجسد متى بلغت مرتبة النفس القدسية من طريق الدراسة أو من طريق الرياضة ، ولا تزال النفوس تخلق من العقل الفعال وتعود إليه بغير انتهاء . لأن عدم التناهى غير ممتنع عند ابن سينا فى المجردات التى لا تتحيز وليست بذات وضع فى المكان. وكما قال فى رسالة المعاد: «إن مجيئنا إلى هذا العالم لم يكن باختيارنا وإرادتنا ولكن جئنا وبالقهر نمكث وبالقهر نخرج ، وإنما جئنا بها للتمحيص والتطهير ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، وطهارة النفس إنما تكون بالعمل الشرعى والعلم الإلهى ... كما أن طهارة الجسد من النجاسة إنما تكون بالماء أو بالتراب » .

والجنة عند ابن سينا هى فلك العقل الفعال وما فوقه من البروج ، وأما النار فهى ما دون ذلك حيث تختلط النفس بأوشاب الأرض وتقصر عن الصفاء الذى تبلغه العقول بالترقى من العقل الهيولانى إلى العقل المستفاد .

وقد نظم ابن سينا بعض هذه المعانى فى قصيدته الميمية التى يقول فى مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما
كرهت فراقك وهى ذات تفجع

وجملة القول أن ابن سينا يقول بالنفس الفردية وبقائها بعد فراق الجسد على نحوٍ مما يقول به أستاذه الفارابى ، خلافاً لأتباع أرسطو الذين لا يعرفون للنفس الإنسانية وجوداً مستقلا بعد الحياة ، ولا بعث بعد الموت إلا للنفس الإنسانية التى لها استعداد للخطاب . أما النفوس التى ملكتها القوة الغضبية والقوة الشهوانية فحكمها حكم الحيوان « ومن عدم فيضه فلا بعث بعد الموت فإذا مات فكينونته قد ماتت وسعادته قد فاتت ، وثوابه فى العالم الأدنى حصول آماله ، ولا ثواب له فى العالم الأعلى » .

« الخير والشر »

ويجوز لنا أن نلخص مذهبه فى الخير والشر بأنه « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » وهو كذلك قريب من كلام الفارابى فى هذا الموضوع .

فليس فى وسعنا أن نتصور العالم الذى نحن فيه خيراً محضاً وكالا محضاً لأنه لو كان كذلك لما كان عالمنا هذا ولا كان فيه بحل لممكنات الوجود ولا للفوارق بين الأشياء .

وليس فى وسعنا أن نتصوره شراً محضاً ونقصاً محضاً ، لأنه لو كان كذلك لكان عدما أو قائماً على الفساد، ولا يقوم كون على فساد .

فلم يبق إلا أن نتصوره عالماً يراد فيه الخير قصداً وأصلا ويأتى فيه الشر عرضا لضرورة يقتضيها الخير .

وهكذا العالم الذى نحن فيه .

فلا تكون النار نافعة إلا إذا أمكن حصول الضرر منها بالإحراق ، ولا يكون السحاب ضاراً بحجبه الشمس عنا إلا لتنفعنا فى غير هذه الحالة أو من جراء هذه الحالة ، وقد يكون الشر نقصاً كالجهل والضعف والتشويه فى الخلقة ، وقد يكون ألماً وغماً من إصابة أو فوات مطلوب ، وكل هذا لايتأتى اجتنابه فى عالم يتسع للممكنات ، لأن الشىء الذى هو « ممكن الوجود » ناقص لا محالة . إذا كان قابلا للعدم متردداً بين الوجود بالقوة

والوجود بالفعل . فإما أن يوجد هكذا أو يمتنع وجوده كل الامتناع

فالخير أصيل فى العالم والشر عارض من لوازم الخير المتاح للممكنات .

وهو على هذا أقل من الخير فى جملته ، ولولا ذلك لما كان للعالم قوام «فان الشر إنما يصيب أشخاصاً، وفى أوقات، والأنواع محفوظة . وليس الشر الحقيقى يعم أكثر الأشخاص إلا نوعاً من الشر »

ويقول ابن سينا « إن الشر إنما يوجد فيما تحت فلك القمر وجملة ما تحت القمر طفيف بالقياس إلى سائر الوجود »

«وليس الخير المحض إلا الواجب الوجود لذاته » . . . « أما الممكن الوجود بذاته فليس خيراً محضاً لأن ذاته بذاته لا يجب لها الوجود . فذاته بذاته تحتمل العدم ، وما احتمل العدم بوجه ما فليس فى جميع جهاته بريئاً من الشر والنقص . . . »

فعالمنا هذا أفضل العوالم على هذا الاعتبار .

لا يمكن أن يكون خيراً مما هو عليه مع بقاء الممكنات فيه .

ولولا عناية الله به لكان شراً مما هو عليه ، ولاختل ما فيه من نظام ، وانحل ما فيه من مساك .

ومؤدى ذلك أن الشر عرض ، وأن هذا العرض ضرورة لاستكمال الخير ، وأنه على هذا قليل فى العالم الأرضى إلى جانب الخير الكثير الذى يدل عليه تماسك الموجودات ، وأن العالم الأرضي كله طفيف إلى جانب الوجود الشاسع فى الأفلاك العلوية والعوالم الغيبية .

وليس فى الإمكان أبدع مما كان .

« الحرية الإنسانية »

إلا إننا نظن أن البحث فى الحرية الإنسانية أو فى مسألة القضاء والقدر هو الذى أوحى إلى ابن سينا أن يقول :

لقد طفت فى تلك المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر

على ذقن ، أو قارعا سن نادم

فإنه يرى أن النفس مكرهة على دخول الجسد ، مكرهة على فراقه ، وأنها لم تخلق العوائق التى تصدها عن الترقى فى معارج الكمال ، وأن التفاوت بين مقادير النفوس لاشك فيه ،

فلا حيلة للنفس الإنسانية فى تقديره ، ولا حيلة لهـا فى رزقها لأنه مقسوم كما قال فى بعض شعره :

فلا تجشعن فما إن ينال
من الرزق كلٌّ سوى قسطه

فكيف تسعد نفس فترقى إلى عليين ، وتشقى نفس فلا تزال فى القرار المهين .

لم ينته ابن سينا فى كل كلامه على الثواب والعقاب إلى نتيجة غـير التسليم ، لأنه يؤمن بالعدل فى نظام الوجود ، و بالخير المحض من واجب الوجود ، فلا يقع فى الدنيا ظلم ظاهر إلا كان له وجه باطن من العدل ، ولا يجرى الشر إلا في مجرى الخير ، ولا تنتهى الأمور إلا إلى أفضل النهايات .

وذلك هو الإيمـان :

« عقيدة الفيلسوف »

و إذا سئلنا رأينا عن عقيدة « ابن سينا » لم نشك فى أنه كان من المؤمنين بالله وبالنبوءات لا مراء .

لأن مذهبه فى العالم وموجده لا يشتمل على جانب واحد

يناقض العقيدة الدينية فى أصولها ، بل هو مما يوافق العقيدة الدينية و يدعو إليها ، ولا نعلم أن أحداً قال فى ضرورة النبوءات ما قاله ابن سينا حيث جعلها « وظيفة حيوية » فى بنية المجتمع الإنسانى ، وقرر أن الحاجة إلى النبي « أشد من الحاجة إلى إنبات الشعر على الأشفار وعلى الحاجبين وتقعير الإخمص من القدمين وأشياء أخرى من المنافع التى لا ضرورة لها فى البقاء بل أكثر ما فيها أنها تنفع فى البقاء . ووجود الإنسان الصالح لأن يسن و يعدل ممكن كما سلف منا ذكره . فلا يجوز أن تكون العناية الأولى تقتضى تلك المنافع ولا تقتضى هذه التى هى أسها . . . . . فواجبٌ إذن أن يوجد نبى ، وواجب أن يكون إنساناً ، وواجب أن تكون له خصوصية ليست لسائر الناس حتى يستشعر الناس فيه أمراً لا يوجد لهم فيتميز عنهم . فتكون له المعجزات التي أخبرنا بها . فهذا الإنسان إذا وجد وجب أن يسن للناس فى أمورهم سنناً بأمر الله تعالى و إذنه ووحيه وإنزاله الروح القدس عليه » .

ومن واجب النبى فى رأى ابن سينا أن يخاطب الناس على قدر عقولهم وألا يشغلهم بما يختلط عليهم « ويجب أن يعرفهم

جلالة الله تعالى وعظمته برموز وأمثلة من الأشياء التى هى عندهم عظيمة وجليلة ويلقى إليهم منه هذا القدر ، أعنى أنه لا نظير له ولا شبه ولا شريك . وكذلك يجب أن يقرر عندهم أمر المعاد على وجه يتصورون كيفيته ، وتسكن إليه نفوسهم ، ويضرب للسعادة والشقاوة أمثالا مما يفهمونه ويتصورونه ، وأما الحق فى ذلك فلا يلوح لهم منه إلا أمراً مجملا ، وهو أن ذلك شىء لاعين رأته ولاأذن سمعته ، وأن هناك من اللذة ما هو ملك عظيم ومن الألم ماهو عذاب مقيم » إلى آخر ما أوجزه فى كتاب النجاة ، ومنه يتبين أنه لاينقض النبوءات بما يعتقده عامة الناس بل يرى ذلك مصلحة للأكثرين منهم وواجباً على أصحاب النبوءات لإقناعهم وتهذيب طبائعهم ، وقد كان ابن سينا يصلى ويدعو الله ، ويستلهمه بالصلاة أن يهديه إلى معضلات الفلسفة كلما أشكل عليه أمر مغلق أو قضية مستعصية ، فهو لا يقطع الصلة بين الله والإنسان ولا بين النفس والجسد ، ولا يمنع تأثير النفس فى المادة فلا يستبعد كما قال فى ختام الإشارات « إتيان العارف بما يخرق العادة فى الأمور السفلية وذلك لأن الأجرام السفلية قابلة لهذه الصفات والنفس الناطقة ليست بجسم ولا حالة فى الجسم

فإذا لم يبعد وقوعها بحيث تقدر على التأثير فى هذا البدن لا يبعد وقوعها بحيث تقوى على التصرف فى مادة هذا العالم العنصرى لا سيما على قولنا إن النفوس الناطقة مختلفة بالماهية ، فلا يبعد أن تكون الماهية المخصوصة التى لنفسه تقتضى تلك القدرة .... وصاحب النفس القوية إن كان خيراً رشيداً فهو ذو معجزة من الأنبياء وكرامة من الأولياء وقد يصير ذلك الذكاء والصفاء سبباً لازدياد تلك القوة حتى يبلغ الأمر الأقصى ، وإن كان شريراً واستعمل تلك القوة فى الشر فهو الساحر الخبيث ... »

وقد حذر أتباعه فى ختام الإشارات أن يعجلوا إلى التكذيب فقال : « قد يبلغك عن العارفين أخبار يكاد تأتى بقلب العادة فتبادر إلى التكذيب ، وذلك مثل ما يقال إن عارفاً استسقى للناس فسقوا واستشفى لهم فشفوا ودعا عليهم فخسف بهم وزلزلوا أو هلكوا بوجه آخر ودعا لهم فصرف الوباء والموتان والسيل والطوفان أو خضع لبعضهم سبع ، ولم ينفر عنه طير ، ومثل ذلك مما لا يأخذ فى طريق الممتنع الصريح . فتوقف ولا تعجل . فإن لأمثال هذه أسباباً فى أسرار الطبيعة ... »

ويخطر لبعض المرتابين أنه كان يكتب ذلك ويقوله من

باب المداراة والتقية خوفاً على حياته من ثورة العامة ومعارضة الفقهاء المتشددين . وهو خاطر واهم لا موجب له على الإطلاق . وإنما يصح أن يخطر على البال إذا كانت هذه الآراء مخالفة لمقتضى مذهبه الفلسفى أو مخالفة لقوانين الطبيعة فى تقديره . ولكنها لا تخالفها ولا تناقضها فى كثير ولا قليل .

فابن سينا كان يعتقد أن التصرف فى الأجرام الفلكية بالتغيير عن مجاريها مستحيل ، ولكنه كان يعتقد أن عقولها تؤثر فيما دونها من العقول إلى العقل الفعال الذى يسيطر على العالم الأرضى وما تحت القمر من الموجودات .

واعتقاده فى العالم الأرضى أنه عالم الفساد وعالم الإمكان أو أنه هو العالم الذى يجوز فيه التغيير والانحراف ، وأن المرجع فى ذلك إلى العقل الذى يسبغ الصور على الهيولى ويعطيها بذلك الوجود فتخرج من القوة إلى الفعل ، وتعلو صعداً أو تهبط سفلا على حسب ما يعتريها من غلبة العقل أو غلبة المادة والهيولى .

وقد أسلفنا أن العقل المستفاد فى الإنسان على صلة تامة بالعقل الفعال ، فهو يملك من القدرة على إسباغ الصور وخلعها أو تحويل الموجودات من صورة إلى صورة مثل ما يملكه العقل

الفعال ، ويرى ابن سينا أن النفوس تؤثر فى أجسادها وفى غيرها من الأجساد بقوة واحدة ، لأنه لا مانع من تأثيرها فى الأجساد الأخرى إذا كانت تؤثر فى أجسادها وهى غير متحيزة فيها ولا تنقسم بانقسامها .

فالذى يفهم المؤثرات الأرضية هذا الفهم لا يمتنع عليه عقلاً أن يقبل تغيير العادات على النحو الذى ينسب إلى أصحاب الكرامات .

وقد نسبت إليه أشعار فى مناجاة الكواكب واستلهام عطارد ولا نستبعدها لأنه استلهام للمقول وليس هو بمستغرب من الفيلسوف .

كقوله :

عطارد قد والله طال ترددى ... مساء وصبحاً كى أراك فأغنما

فها أنت فامددنى قوى أدرك المنى ... بها والعلوم الغامضات تكرماً

ووقنى المحذور والشر كله ... بأمر مليكٍ خالق الأرض والسما

إلا أن القوم قد غلوا فى تعلقه برصد الكواكب حتى نسبوا إليه قصيدة رائية تنبئ بغارة التتر وغلبة الملك المظفر عليهم فى أرض كنعان مطلعها :

احذر بنىّ من القران العاشر وانفر بنفسك قبل نفر النافر

ومنها :

يفنيهم الملك المظفر مثل ما فنيت ثمود فى الزمان الغابر

ويبيدهم نجلا الإمام محمد بحسامه الماضى الجراز الباتر

ولربما أبقى الزمان عصابة منهم فيهلكهم حسام الناصر

إلى آخر القصيدة التى أثبتها ابن الأثير فى تاريخه وقال :

« وكان الاعتماد بما فى هذه القصيدة من كتاب الجفر عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ، والله أعلم أن يكون الشيخ الرئيس قال هذه القصيدة أو غيره »

ولو جزم ابن الأثير بأنها منحولة لابن سينا لما كان عليه من تثريب ، لأن ابن سينا مات قبل وقوع هذه الحوادث بأكثر من مائتى سنة ، ولم يثبتها أحد فى كتابة خلال هذه السنين .

ولا نعرف كلاماً صحت نسبته إلى الفيلسوف حاول فيه كشف الغيب من طريق التنجيم ، وإنما يعرض لقوة الحروف الحسابية من قبيل الولع بالألغاز الرياضية التى يولع بها كبار الرياضيين شحذاً للخاطر وتحريضاً للملكة . فقابل بين الأحرف الأبجدية وبين الموجودات العلوية والسفلية ، وجعل لكل حرف

دلالة ثم وفق بين هذه الدلالات و بين الحروف التي وردت في أوائل السور القرآنية . فاستقامت له فكرة مقبولة واعتمد من أجلها ذلك التوفيق العجيب ولم يعتمده للتنجيم أو لتسخير القوى الطبيعية للحروف كما يفعل السحرة والمشعوذون ، وقد ألف رسالة خاصة عن الحروف باعتبارها أصواتاً طبيعية تختلف باختلاف حركات العضلات في الصدر والحلق والفم وتأثير تلك الحركات في الهواء .

ومن أمثلة ذلك أن الألف يساوى الواحد فهو رمز للبارى جل وعلا، وأن الباء رمز للعقل، والجيم رمز للنفس ، والدال رمز للطبيعة ، وهكذا إلى نهاية سلسلة الموجودات وهي المادة العنصرية. واستخلص من ذلك أن الكاف والعين والهاء والصاد والقاف وغيرها من الحروف في أوائل السور هي حاصل ضرب الحروف الدالة على تلك الموجودات بعضها في بعض على الحساب الذي تحراه ، وأنها أقسام من قبيل الأقسام التي بدئت بها بعض السور مذكورة بالأسماء .

ونحن ننفى التنجيم عن ابن سينا ولا ننفى عنه الإيمان بإمكان علم الغيب والإخبار بالمغيبات ، فإن المسألة عنده قضية فلسفية

وليست بمسألة تصديق وتسليم . لأنه يقول بأن علم الله بالأشياء فى الأزل هو سبب وجودها فى الزمان ، ويقول بصدور العقول العلوية من الله ، وإن عقل الإنسان إذا ترقى فى مراتب الكمال والصفاء بلغ مرتبة العقل المستفاد وهو على اتصال دائم بالعقل الفعال ، فلا جرم يعلم الأمور قبل وقوعها ويكون له سلطان على إيجادها وإخراجها من القوة إلى الفعل ، ولا يكون اعتقاد الفيلسوف هذا الرأى غريباً كأنه من قبيل التصديق الذى لا يليق بالمفكرين ، فإنما هو قضية منطقية تنتهى إلى هذه النتيجة من طريق الفلسفة لا من طريق التصديق

وقد يتصل الإنسان بالعقل الفعال من طريقين فى رأى ابن سينا لا من طريق واحد .

يتصل به من طريق التأمل الصادق والفكر الصحيح ، ويتصل به من طريق النسك والرياضة الروحية .

والطريق الأولى طريق الفلاسفة والحكماء ، والطريق الثانية طريق النساك والصالحين .

ولابن سينا سبحات يفهم منها أنه راض نفسه على التصوف فى بعض أيامه ، وأنه حاول الكشف عن الحقائق متوسلا بالصلاة

والزكاة والكف عن الشهوات ، وكانت له علاقة بأكبر المتصوفة فى زمانه «أبى سعيد بن أبى الخير» وهو رجل يتعالى على خلافات الشعائر الدينية ويشطح ذلك الشطح البعيد فى التسوية بين ضروب العبادات ، وكان أبو سعيد يسأله ويستفسره فى معضلات الفلسفة ويطلعه على ذات نفسه كأنه من الواصلين الذين لاتحجب عنهم هذه الاسرار .

إلا أن الرجل لم يخلق لعزلة التصوف ، وطمأنينة الخلوات ، ولكنه خلق لزحام الدنيا ومجاذبة الحوادث ومكافحة الرجال ، وغلب فيه سلطان العقل على سلطان الروح فتراه حتى فى وصيته التى يكتبها إلى إمام المتصوفين يذكر السفر « بالعقل » إلى الملكوت ويتخذه مرقاة لطالب الوصول إلى اللاهوت فلاعجب تنقطع المودة بينه و بين أبى سعيد ويعود أبى سعيد فيقول فيه :

قطعنا الأخوة عن معشر بهم مرض من كتاب «الشفا»
فماتوا على دين رسطالس وعشت على سنة المصطفى

وحق لابن سينا أن يؤثر طريقه على طريق أبى سعيد ،لأن هذين البيتين لا ينمان على خلق يرجح به المتصوف على الفيلسوف .

* * *

ومن الواجب أن نختم الكلام عن مذهب ابن سينا وعقيدته بكلمة موجزة عن قدره أو عن أثره فى الثقافة الإنسانية ، سواء فى عالم الفلسفة أو عالم المنطق والعلوم الطبيعية .

فالحاسدون لسمعته يقولون كما قال ابن سبعين غير متحرج ولا متحفظ : « إنه مسفسط كثير الطنطنة قليل الفائدة ، وماله من التآليف لا يصلح لشىء » .

والعارفون بفضله يعتمدون عليه ولو كانوا ممن يدينون بغير دينه . فإن إثباته للنفس الفردية وخلودها كان من الدعائم التى استند إليها أكبر علماء اللاهوت كالقديسين توما الإكوينى وألبرت الكبير، وكان الإقبال عليه بقدر الإعراض عن ابن رشد فى موضوع « النفسيات » على التعميم .

وقد كانت ملاحظاته الطبيعية — من قبيل ملاحظاته على قوس قزح وعلاقته بأحوال السحاب — محل إعجاب من باكون إمام المدرسة التجريبية ، وكانت طبيعياته من أسباب الفتوح العلمية الحديثة . لأنها ظلت فى جامعات أوربة موضعاً للدرس والمراجعة مع بحوثه الطبية عدة قرون .

وأقل ما يقال فى الرجل إنه لم يترك ثقافة بنى الإنسان كما وجدها حين نشأ فى هـذه الدنيا . فكان له فى توجيه العقول شأن لو زال لزال معه شيء غير قليل من تراث المعرفة والتفكير

مسائل أخرى

تناول ابن سينا بالمنطق والفلسفة كثيراً من المسائل الذهنية والروحية ، ويمكن أن يقال إن المنطق كان فى عرف ابن سينا آلة سلبية تعصم من الزلل وتساعد على اجتناب الخطأ ، وإنما تدرك الحقائق بهداية الحكمة ونور البصيرة . فهى مصباح والمنطق ميزان

وفى المنطق ، والفلسفة الإلهية ، مسائل لهما شأن خاص فى مذهب ابن سينا، كمسألة الكليات ومسألة المعرفة،لأنهما تقترنان باسمه فى كتب هذه المباحث مع سبق الكلام فيها من قبله ، لما ألقى عليهما من لمحاته الشخصية التى لا تلتبس بملامح غيره .

فالكليات كما قدمنا هى موجودات مفارقة — أو مجردة — سابقة لوجود الجزئيات فى مذهب أفلاطون .

وهى عند أرسطو لا وجود لها فى خارج الذهن لأنها منتزعة من تصور الجزئيات

أما ابن سينا فرأيه فى هذه المسألة وسط بين رأى الحكيمين الكبيرين ، لأنه يرى أن الكليات موجودة قبل الجزئيات ، وموجودة فيها ، وموجودة بعدها . فوجودها قبل الجزئيات فى علم الله أو فى العقل الإلهى الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة مما فى السماء والأرض ، ووجودها فى الجزئيات لان « الشجرية » موجودة فى جميع الأشجار والكوكبية موجودة فى جميع الكواكب والإنسانية موجودة فى جميع الناس . أما وجودها بعد الجزئيات ففى عقولنا نحن الذين نشاهدها ونعرفها من معرفة المفردات التى تدخل تحت عنوان واحد، أومن معرفة الأخبار والأنواع والفصول والآحاد كما يقول المناطقة

ويترتب على هذا الرأى فى الكليات والجزئيات رأى ابن سينا فى المعرفة وأسبابها

فعند أفلاطون ان المعرفة « تذكّر » لأن النفس قد شهدت هذه الحقائق الخالدة قبل حلولها فى الجسد ، فهى تذكرها كلما أفاقت من غاشية المادة واتصلت بعالم العقل والروح

وعند إرسطو أن المعرفة مشاهدة واستقراء وتفكير مبنى على المشاهدة والقياس .

ورأى ابن سينا وسط بين الرأيين فى هذه المسألة كما هو وسط بينهما فى مسألة الكليات ، فالمعرفة عنده قسمان : معرفة فكر ومعرفة حدس . فمعرفة الفكر من المشاهدة والقياس ، ومعرفة الحدس من فيض العقل الفعال فى العقل الإنسانى على سبيل الوحى والإلهام

الطبيب

كان الشيخ الرئيس يحب أن يتحدث إلى تلاميذه عن أيام تلمذته وتحصيله ، فكان يقول لهم عن تحصيله لعلم الطب : « ثم رغبت فى علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه ، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة . فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون علىّ علم الطب ، وتعهدت المرضى فانفتح علىّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف ، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه ، وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة ... »

ويؤخذ من هذا أن الفلسفة والرياضيات كانت عند الشيخ الرئيس بالمنزلة الأولى التى تتقدم على الطب والعلوم الطبيعية ، وهو ترتيب موافق لرأيه فى تقديم الإلهيات والمعارف المجردة على المعارف النفعية أو الملتبسة بالأجسام . إلا أن المسألة على مايظهر مسألة استعداد لامسألة رأى فى ترتيب العلوم، فهو يفضل الفلسفة والرياضيات لأنه يشعر فى دراستها بكل قواه و يستغرق بها جهد ملكاته ، فيلذ له مراسها و يستمتع منها برياضة ذهنية لا يستمتع بها من غيرها ، و يشتغل بالطب فلا يستغرق جهده كله فيه ، لأنه يفرغ له جانب الملاحظة وجانب الذاكرة من تفكيره ، و يستسهله من أجل ذلك وليس هو بالسهل على سواه .

ثم لم يكن هذا العلم الواسع بالسهل على سواه فى زمانه، وحرى به ألا يكون سهلا فى الزمن الذى كان الطبيب فيه طبيباً لجميع الأمراض مطالباً بالنظر والعمل فى وقت واحد ، ومع هذا بذل أناس غاية جهدهم وقصارى سعيهم فى تحصيل ذلك العلم ولم يبلغوا فيه شأو ابن سينا ولا اقتربوا من شأوه. لأنه كان طبيب العصر غير مدافع فى الشرق كله ، ثم انتقلت تواليفه إلى الغرب فأصبح طبيب العالم بأسره زهاء أربعة قرون ، ولم يشتهر أحد بهذه

الصناعة مثل تلك الشهرة العالمية بغير استثناء أحد من أيام بقراط وجالينوس .

عالج أمير بخارى وهو فى السابعة عشرة من عمره ، ثم ترجم كتابه « القانون » فى أواخر القرن الثانى عشر للميلاد إلى اللغة اللاتينية فأصبح مرجعاً للدراسات الطبية فى جامعات أوربة من أقصاها إلى أقصاها . فكان يدرس فى جامعتى مونبلييه ولوفان إلى منتصف القرن السابع عشر ، وكان هذا الكتاب وكتاب المنصورى للرازى عمدة الأساتذة فى جامعة فينا وجامعة فرنكفورت طوال القرن السادس عشر ، وترجم إلى العبرية فتداوله الإسرائيليون المشتغلون بالطب بين أرجاء العالم بأسره ، وتكررت طبعاته حتى قاربت أربعين طبعة ما بين ظهور فن الطباعة وبداية القرن السادس عشر ، وتعدد طبع الكراسات المقتبسة منه غير طبعاته الكاملة فلم تدخل فى حساب ، وكانت النسخة اللاتينية التى ترجمها جيرارد الكريمونى فى سنة ١١٨٧ رديئة الترجمة فأعيد النظر فيها وتجشم العلماء كل مشقة لمراجعتها وتنقيحها ، لأنهم يرون الكتاب جديراً بالصبر على المشقات الجسام فى سبيله ، وينظرون إليه كما ينظرون إلى وحى من السماء .

قال نوبرجر Neuburger فى كتابه المطول عن تاريخ الطب : « إنهم كانوا ينظرون إلى كتاب القانون كأنه وحى معصوم ، ويزيدهم إكباراً له تنسيقه المنطقى الذى لا يعاب ومقدماته التى كانت تبدو لأبناء تلك العصور كأنها القضايا المسلمة والمقررات البديهية » .

وإنما تبوأ كتاب ابن سينا هذه المكانة الرفيعة ، بين المراجع العالمية ، بحق لا نزاع فيه . لأنه كان أوفى مرجع من مراجع الطب القديم وظل كذلك إلى عهد الموسوعات العصرية قبيل القرن التاسع عشر بقليل ، واجتمعت له مزايا الإحاطة والتحرى والاستقصاء والتنسيق ، فاشتمل على تراث أمم الحضارة فى أصول الطب وفروعه من شرح الأعراض إلى وصف العلاج إلى سرد أسماء العقاقير والأدوية ، ومواطن الجراحات وأدوات الجراحة ، مع قدرة على الترتيب الموسوعى قل نظيرها فى زمانه ، واقتدى بها المقتدون إلى مطالع عهد العلم الحديث .

وقد كان طب القرون الوسطى مشوباً بالكهانة من ناحية . وبالشعوذة والسحر من ناحية أخرى ، وكانت الأبخرة والتعاويذ مقرونة بالأدوية والعقاقير فى علاج جميع الأمراض . ولم يكن

من العجيب أن يستدرج ابن سينا إلى هذه الأوهام ، بحكم مذهبه فى النفوس والأرواح واتصالها قبل الموت و بعد الموت بأجسام الأحياء ، فلا عجب على هذا المذهب أن تكون عللا للأمراض ، وأن يلتمس لها العلاج عند السحرة والأولياء ، ولكنه استطاع بقدرة عقله أن يفصل بين فلسفته وطبه فصلاً علمياً دقيقاً ، فى موضوع الطب والعلاج ، سواء منه ما تعلق بالأجسام أو ماتعلق بالنفوس والعقول . فلم ينكر تأثير الأرواح العلوية أو السفلية فى الجسم الحى ، ولكنه قرر أن الطبيب لا يعرف الأمراض إلا من حيث هى عوارض جسدية ، وحالة من أحوال المزاج ، فلما شرح أعراض « المالنخوليا » . قال : إن بعض الأطباء ينسبونها إلى الجن . ثم قال : « . . . ونحن لا نبالى من حيث نتعلم الطب أن ذلك يقع عن الجن أو لا يقع بعد أن نقول : إنه إن كان يقع من الجن فيقع بأن يحيل المزاج إلى السوداء ، فيكون سببه القريب السوداء ، ثم ليكن سبب تلك السوداء جناً أو غير جن .... »

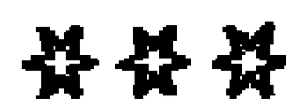
بل هو يسلك « العشق » فى عداد الأمراض بما له من الأعراض الجسدية . ثم يصف الحيلة فى علاجه – وقد روى أنه

حربها وأفاد بها فيقول : « والحيلة فى ذلك أن يذكر أسماء كثيرة تعاد مراراً ، وتكون اليد على نبضه . فاذا اختلف بذلك اختلافاً عظيما ، وصار شبه المنقطع ثم عاود وجربت ذلك مراراً علمت أنه اسم المعشوق، ثم يذكر كذلك السكك، والمساكن، والحرف ، والصناعات ، والنسب ، والبلدان . ويضيف كلا منها إلى اسم المعشوق ويحفظ النبض حتى إذا كان يتغير عند ذكر شىء واحد مراراً جمعت من ذلك خواص معشوقة من الاسم والحيلة والحرفة وعرفته فانا قد جربنا هذا واستخرجنا به ما كان فى الوقوف عليه منفعة » .

ثم يصف العلاج ، فإذا هو يذكر فيه التغذية الصالحة . والمنومات التى لا ضرر فيها مع العوامل النفسية على اختلافها .

وقد ذكر أحمد بن عمر بن على النظامى ، فى مقالاته الأربع طريقة نفسية حسنة اتبعها ابن سينا فى علاج فتى من آل بويه خولط فى عقله . وتوهم أنه بقرة سائمة ، فصار يمشى على أربع ويخور خوار الأبقار ويصيح بمن حوله . اقتلونى . اقتلونى ، واطبخوا أكلة لذيذة من لحمى ! . فأوصى ابن سينا تلميذاً له أن يقف على مسمع من الفتى المريض فينادى : ها هو ذا الجزار

مقبل إليك . ثم دخل ابن سينا ، وفى يده مدية كبيرة ، وهو يقول : أين هذه البقرة لأذبحها ؟ ثم أمر بالفتى فألقى على الأرض وأوثق بالحبال ووضعت المدية على عنقه . ثم نهض الطبيب ، وهو يقول : كلا . إنها بقرة عجفاء ، لا تساوى مئونة الذبح حتى تعلف وتسمن . . . وكان هذا هو العلاج المطلوب ، لأن الفتى المخبول كان قد صدف عن الطعام وأهمل نفسه ، فزاده نقص التغذية هزالاً على هزال وخبالاً على خبال . فلما أكل ما ينفعه و يغذيه عاد اليه العقل مع الصحة والاعتدال .



ومن هذه الأمثلة : نعرف بعض الشىء عن منهج ابن سينا فى طبه وعلاجه . فلا نستعظم تلك المكانة العالمية على طبيب يباشر الطب على أنه علم طبيعى ، بعيد من الأوهام والخرافات ، و يستعين فى علاجه بذلك النظر الصائب وتلك الفطنة الوحية و يحيط بعوارض الأعضاء ، ولا ينسى مداخل النفس فى تصحيح الأجسام .

قال الأستاذ كستون Cumston فى كتابه (تاريخ الطب من عهد الفراعنة إلى القرن الثانى عشر) :

ما على الإنسان إلا أن يقرأ جالينوس ، ثم ينتقل منه إلى ابن سينا ليرى الفارق بينهما . فالأول غامض ، والثانى واضح كل الوضوح ، والتنسيق والمنهج المنتظم سائدان فى كتابة ابن سينا ونحن نبحث عنهما عبثاً فى كتابة جالينوس .

ثم تناول الأستاذ جملة من التصحيحات التى أدخلها ابن سينا على طب الأقدمين : فى عوارض الجنون . والفالج . وأمراض الكبد . والصدر . والجراحات . وعلاقة بعض الأمراض بالخمر فإذا هى خطوات أجيال خطاها رجل واحد قليل النظير . . . فلا جرم يقول الأستاذ كستون : « لعله لم يظهر قبله ولا بعده نظير لهذا النضج الباكر ، وهذه السهولة الممتنعة ، وهذه الفطنة الواسعة . مقرونة بمثل هذه المثابرة فى مثل هذا الأفق الفسيح .

الأديب

قال الجوزجانى تلميذ الشيخ الرئيس :

« . . كان الشيخ جالسا يوماً من الأيام بين يدى الأمير علاء الدولة ، وأبو منصور الجبّانى حاضر . فجرى فى اللغة مسألة تكلم الشيخ فيها بما حضره . فالتفت أبو منصور إلى الشيخ ،

يقول : إنك فيلسوف وحكيم، ولـكن لم تقرأ من اللغة ما يرضينا بكلامك فيها . فاستنكف الشيخ من هذا الكلام . وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين ، واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان : من تصنيف أبى منصور الأزهرى ، فبلغ الشيخ فى اللغة طبقة قلما يتفق مثلها . وأنشأ ثلاث قصائد ضمنها ألفاظاً غريبة من اللغة ، وكتب ثلاثة كتب : أحدها على طريقة ابن العميد ، والآخر على طريقة الصابى ، والآخر على طريقة الصاحب ، وأمر بتجليدها وإخلاق جلدها . ثم أوعز إلى الأمير فعرض تلك المجلدة على أبى منصور الجبّائى ، وذكر أنا ظفرنا بهذه المجلدة فى الصحراء وقت الصيد ، فيجب أن تتفقدها وتقول لنا ما فيها . فنظر فيها أبو منصور وأشكل عليه كثير مما فيها . فقال له الشيخ : إن ما تجهله من هذا الكتاب فهو مذكور فى الموضع الفلانى من كتب اللغة . وذكر له كثيراً من الكتب المعروفة فى اللغة كان الشيخ حفظ تلك الألفاظ منها . وكان أبو منصور مجزفاً فيما يورده من اللغة غير ثقة فيها ، ففطن أبو منصور : أن تلك الرسائل من تصنيف الشيخ ، وأن الذى حمله عليه ما جبهه به فى ذلك اليوم فتنصل واعتذر اليه . ثم

صنف الشيخ كتابا فى اللغة سماه : (لسان العرب) ، لم يصنف فى اللغة مثله ، ولم ينقله إلى البياض حتى توفى ، فبقى على مسودته لا يهتدى أحد إلى ترتيبه » .

وذلك كله شبيه بأخلاق الشيخ الرئيس ، ومعهود أعماله ، ووثبات همته فى طلب المعرفة والتفوق فيها على النظراء ، وما كان مطلب من مطالب العلم على عهده ليتوفر عليه ثلاث سنوات ، دون أن يوفى فيه على الغاية ويتمكن بين أساطينه وثقاته . فلا جرم يقول مفتخراً بالبلاغة فى بعض شعره :

أما البلاغة فاسأل بى الخبير بها　　أنا اللسان قديماً والزمان فم

وهو فخر لا ينفرد فيه بالشهادة لنفسه ، لأنها شهادة يزكيها أبناء زمانه وتقوم الأدلة عليها من شعره ونثره ، ويرشحه لاستحقاقها أنه حفظ القرآن قبل العاشرة من عمره ، وانطبع لسانه على فصاحته من باكر صباه ، ثم أضاف إليه ما أضاف من محصول الآداب العربية والفارسية ، فحق له أن يلقب بين الفلاسفة بالفيلسوف الأديب ، وإن كان الأدب وحده لا يرتفع به إلى مثل مكانه فى زمرة الحكماء .

فلو حسب الشعر وحده لابن سينا لحسب به بين أوساط الشعراء

ولو تفرغ له لعله كان بالغاً منه فوق هذه المرتبة الوسطى أو معدوداً فى الرعيل الأول بين أدباء المشرق من الأرومة الفارسية ، ولكنه لم يخلق للشعر على ما نرى فلم يخطىء فى النصيب الذى أعطاه إياه من وقته ، ولم يكن يعطيه من وقته إلا بمقدار تسلية المتسلي وتفكهة الحكيم و بطالة المشغول .

ومن هنا جاءته فى شعره مزية غير مقصودة : وهى أنه استغنى عن التكسب به أو عن نظمه فى الأغراض المفتعلة ، فكان ينظمه فيما يحسه من أحوال حياته ، وكان شعره كله دالا عليه فى مختلف حالاته ، مطبوعاً بطابع مزاجه ودخيلة شعوره ، متصلاً بأسلوب تفكيره وطريقته فى النظر إلى الأمور .

فكان الرجل محسوداً مزاحماً فى ميدان الغلبة والطموح ، فإذا شكا حسد الحاسدين قال :

عجبٌ لقوم يحسدون فضائلى ... ما بين عيّابى إلى عذالى
عتبوا على فضلى وذموا حكمتى ... واستوحشوا من نقصهم وكمال
إنى وكيدهم وما عبثوا به ... كالطود يحقر نطحة الأوعال
وإذا الفتى عرف الرشاد لنفسه ... هانت عليه ملامة الجهال

وإذا نظر إلى الذين سبقوه فى حظوظ الحياة قال :

لا تحسدنّهم إن جدَّ جدهم فالجد يجدى، ولكن ماله عصم
ليسوا وأن نعموا عيشاسوى نعم وربما نعمت فى عيشها النَّعم
الواجدون غنى ، العادمون نهى
ليس الذى وجدوا مثل الذى عدموا

وكان محباً لمتعة الجسد فكان شعوره بالشيب خليقاً بمن تحرمه السن صفوة ذلك المتاع . فنظم فى هذا المعنى أبياتاً من أفضل شعره كقوله :

تنفس فى عذارك صبح شيب وعسعس ليله، فكم التصابى ؟
شبابك كان شيطاناً مريداً فرجّم من مشيبك بالشهاب

أو كقوله :

الشيب يوعد والأيام واعدة والمرء يغتر ، والأيام تنصرم

أو كقوله :

هو الشيب لا بد من وخطه فعرّضه ، واخضبه ، أو غطه
أأقلقك الطل من وبله ؟ جزعت من البحر فى شطه !

وكان فخوراً فأحسن الفخر فى أبيات منها :

إنى وإن كانت الأقلام تخدمنى كذاك يخدم كفى الصارم الخذم

ومنها :

إنى عظمت فليس مصرٌ واسعى لمـا غلا ثمنى عدمت المشـترى

ومنها :

بأى مأثرة ينقاس بى أحد ؟ بأى مكرمة تحكينى الأمم

وأحب الخمر فمن قوله فيها :

صبها فى الـكأس صرفاً غلبت ضـــــوء السراج
ظنهـــا فى الكأس ناراً فطفـــاها بالمـــزاج

ومدحها مدح الفيلسوف فقال :

شر بنا على الصوت القديم قديمة لكل قديم أولٌ ، وهى أول
ولو لم تكن فى حيز قلت إنهـا هى العلة الأولى التى لا تعلل

وقال فيها وفى المرأة التى كان يحبها كما يحب الخمر :

أساجية الجفون . أ كل خود سجاياها استعرن من الرحيق
هى الصهباء مخـــبرها عدو وإن كانت تناغى عن صديق

وهو عالم بالطبيعيات ، فلا ينساها فى شعره كما قال :

أشكو إلى الله الزمان فصرفه ابلى جديد قواى وهو جديد
محن إلىّ توجهت فـكأننى قدصرت مغناطيس وهى حديد

وهو حكيم لا يرى للحياة معنى بغير المعرفة فهو يقول :

هذب النفس بالعلوم لترقى وذر الكل فهى للكل بيت

إنما النفس كالزجاجة والعـلم سراج وحكمة الله زيت
فاذا أشرقت فانك حى وإذا أظلمت فانك ميت

وعنده ما عند جميع العرس من حب الجناس والمحسنات فلا ينساها فى بيت نظمه كما قال :

تنبه وحاذر أن ينالك بغتة حسام كلامى أو كلام حسامى

وهذه الأبيات وأمثالها إن لم تكن من خيرة الشعر ، فهى شعر ابن سينا لا مراء . وهى شعر يستحسن من فيلسوف . وقد يستحسن من غير فيلسوف !

أما نثره : فقد كان على ثلاثة أساليب : أسلوب مرسل ، وأسلوب فلسفى ، وأسلوب منتقى يحتفل به احتفال المنشئين .

وأسلوبه المرسل فصيح سائغ وهو أسلوبه فى معظم مؤلفاته

وأسلوبه الفلسفى تكثر فيه العسلطة لغير ضرورة إلا أن قراء الفلسفة قديماً يشجعونها لأنها تخصصهم بنمط لا يشبههم فيه سائر المتكلمين .

ولكنه يتأنق فى إنشائه . ويحتفل بأسلوبه فلا يخطر لك وأنت تقرأه متأنقاً محتفلا إنه هو بعينه صاحب تلك العسلطة

الفلسفية . . . ومن أمثلة إنشائه البليغ ، قوله : فى رسالة القضاء والقدر .

« مالى أراك غير ذى العهد الذى عهدته ، وغير ذى الألف الذى عرفته . أراك زمر النشاط[١] ذابل الورق ممصوص النقى[٢] معقول الأسلة[٣] رائب النفس . واجم السحنة . بعد عهدى بك ضرمة تلتهب ونبعاً تموج وأعصاراً تعصف . وشفرة هذاذة الغرب . وجواداً غير مكبوح الجماح . . . .

« . . . . فقلت كذلك للدهر ضربات أخياف . . . فإنه ليكسو . ثم ينضو ، ويخلع ثم يخلع . والتغيير ديدنه . والتبديل هجيراه . .

وقد استقام له هذا الأسلوب كلما توخاه فى مقاماته الفلسفية فلم يسبقه سابق من أصحاب المقامات فى حلبة التنميق والإنشاء وربما أقصر بعضهم عن شأوه فى جزالة اللفظ وفخامة العبارة . ولم ينطوا على معنى وراء الجزالة والفخامة كمعناه .

ومما لا ريب فيه أن أناساً كثيرين عاشت أسماؤهم بالأدب

---

(١) أى ضعيفه (٢) العظام التى فيها المخ

(٣) أسلة اللسان طرفه .

وحده فى تاريخ الثقافة العربية . ولم يكن لهم فى النثر ولا فى الشعر محصول أنفس من هذا المحصول .

مشاركات شتى

ويصح أن يقال إن ابن سينا قد شارك فى جميع علوم عصره ، فلم يكن فى زمانه فرع من فروع الثقافة الإنسانية لم يساهم فيه بقسط وافر ولم يذكر له فيه رأى معدود .

سئل وهو فى الحادية والعشرين أن يؤلف لبعض الطلاب موسوعة موجزة فى العلوم فألف كتاب « المجموع » وألم فيه بكل علم معروف يومئذ ما غدا الرياضيات .

ومن العلوم التى ساهم فيها مساهمة الثقات علم الهيئة والرياضيات على اختلافها . فزاد على المجسطى أشكالا ومسائل لم يسبق إليها ، وأورد على أقليدس بعض الشبهات ، وشك فيما ذهب إليه أرسطو من تشابه الثوابت وتساوى أبعادها واتحاد مراكزها فى كرة واحدة . فقال فى الشفاء : « على أنى لم يتبين لى بياناً واضحاً أن الكواكب الثابتة فى كرة واحدة أو فى كرات

ينطبق بعضها على بعض ، إلا بإقناعات . وعسى أن يكون ذلك واضحاً لغيرى . . »

ومن مقرراته أن الأرض متحركة ، وأنه لا مانع من وقوف جسم فى الفضاء لأنه لا بد له من مكان حيث كان . فإذا امتنع وقوفه فلا بد لذلك من سبب ، وهو انجذاب الأشياء إلى مركز العالم أو مركز الكرة الأرضية .

وقرر أن النور ليس بجسم ولكنه كيفية فى جسم . . . « وإن كان له انتقال فذلك بالتجدد ، لا أن شيئاً واحداً بعينه ينتقله » ... وهو أقرب الأقوال إلى مذهب العصريين فى حركة النور فى غير خلاه .

وقد وكل إليه علاء الدولة تصحيح الخلل فى التقاويم التى عملت بحسب الارصاد القديمة ، فأوشك أن يفرغ من تصحيحها لولا انقطاع العمل بالأسفار تلو الأسفار والأزمات فى إثر الأزمات .

* * *

واشتغل بالطبيعيات كالظواهر الجوية وعلم طبقات الأرض وما إليه . ومن أمثلة تحقيقاته فى هذه الأغراض كلامه على

الزلازل في الشفاء حيث يقول : « أما الزلزلة فإنها حركة تعرض لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحته ، ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرك ثم يحرك ما فوقه . والجسم الذى يمكن أن يتحرك تحت الأرض ويحرك الأرض إما جسم بخارى دخانى قوى الاندفاع كالريح كما يشق الخوابى إذا تولد فى العصير ، وإما جسم مائى سيال ، وإما جسم هوائى ، وإما جسم نارى ، وإما جسم أرضى . وأما الجسم النارى لا يحدث تحت الأرض وهو نار صرفة ، بل يكون لا محالة فى حكم الدخان القوى وفى حكم الريح المشتعلة ، والجسم الأرضى لا تعرض له الحركة أيضاً إلا بسبب مثل الذى عرض لهذا الجسم الأرضى فيكون السبب الأول الفاعل للزلزلة ذلك . وأما الجسم الريحى ناريا كان أو غير نارى فإنه يجب أن يكون هو المنبعث تحت الأرض الموجب لتموج الأرض فى أكثر الأمر » .

وعلى هذا النحو من التحرى تقررت فى كتبه — ولا سيما الشفاء — فوائد قيمة عن تكوين الجبال والمعادن والحجارة ، واجتمعت له ملاحظات عن الظواهر الجوية كالرياح والسحب

وقوس قزح لم يكن فى وسع معاصر له أن يزيد عليها حرفاً واحداً فى باب المراقبة والتسجيل .

وعرف حقيقة النظر وتكلم على زاوية الأبصار ، وقد كان بعض الأقدمين يحسبون أن النظر إنما يكون بخروج شىء من العين يقع على المنظورات .

* * *

وعنى بالموسيقى سماعا ، وعنى بها دراسة نظرية ، فأقامها على قواعد الرياضة والملاحظات النفسية ، وأصلح فيها غير قليل .

* * *

وانصرف زمناً إلى الفقه وتفسير سور القرآن الكريم ، ولكنه كان يفسر القرآن ليستخرج منه مصاديق لآرائه الفلسفية التى لخصناها . فلا جرم كان الرجل موسوعة حية وعبقرية ملهمة ولا جرم تغيرت العلوم والمعارف ولا يزال ذلك العقل جديراً بأن يسمى بالعقل الفعال . . . لأنه فعل فى مجال الثقافة الإنسانية قصارى ما تفعله العقول .

تعقيب

يخرج القارئ من الصفحات المتقدمة بنتيجتين لا اختلاف عليهما ، وهما :

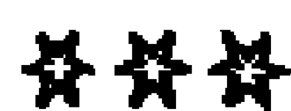
إن المقررات العلمية التى اقترنت بالفلسفة القديمة قد تغيرت فى العصور المتأخرة ، ولا سيما مقرراتهم فى علم الفلك والعلوم الطبيعية ، وأن مشكلات الفلسفة لا تزال كما كانت أكبر من جهود الفلاسفة وأضخم من الحلول التى انتهت إليها تلك الجهود .

والذى نحب أن نضيفه إلى هاتين النتيجتين فى هذا التعقيب أن أخطاء العلم القديم لا تغض من شأن الفلسفة القديمة ولا الفلاسفة الأقدمين . لأن موضوع الفلسفة هو « الوجود » ومسائله الأبدية ، وهذه شىء ومعارف الناس عن الموجودات المتعددة شىء آخر . فمسائل الوجود الأبدية ، باقية بعد مسائل العلم القديم ومسائل العلم الحديث على السواء ، ولا يزال فلاسفة اليوم حيث كان فلاسفة الأمس فى هذا الموضوع الخالد المتجدد ،

وهم يرجعون إلى كثير من حلول الفلسفة القديمة للاستنارة بها والقياس عليها .

ومن الواجب ألا نبالغ فى تسخيف الآراء الفلسفية التى اقترنت بما فهمه الفلاسفة الأقدمون فى الفلسفة والطبيعة . فإنهم استنبطوا القول بالعقول لتفسير سريان الفكر إلى المادة الجسدية ونحن قد استنبطنا القول بالأثير لنفسر به سريان النور من الأفلاك إلى الفضاء . وقد زعموا أن الأجسام كلها من الماء ونحن إلى عهد قريب كنا نقول إن الأجسام كلها من الهدروجين . وقد سخر منا الكثيرون بالمثل الافلاطونية . وبالصور الأرسطية ولكننا نقول بحق إن الوظيفة تخلق العضو فهى كالمثل السابقة للأعضاء .

وكل هذا لا يقدم ولا يؤخر فى أحكام المنطق ولا فى موضوع الفلسفة الأصيل وهو (الوجود) الذى لا يغيره تغير الآراء فى الموجودات .



أما المشكلات الفلسفية فنعتقد أن الأقدمين بالغوا كثيراً فى

مسألة منها فاستنفدت منهم أعظم الجهود . وهى مسألة الاتصال بين العقل والمادة .

فإنهم جزموا بأن هذا الاتصال مستحيل بغير واسطة . ونحن لا ندرى من أين جاءت هذه الاستحالة إذا كنا لا نعرف ماهية العقل على التحقيق ولا ماهية المادة على التحقيق ؟ وعندنا أن القول بأن العقل يؤثر فى المادة أيسر جداً من القول بأن الكائنات فى وجود واحد تتألف من أصلين متناقضين أو منعزلين ، وأن التأثير بينهما معدوم .

ويغلب على ظننا أن مصدر هذه الفكرة كلها إنما هو العقيدة الثنائية التى أخذها اليونان وغيرهم عن المجوس الأقدمين . وهى عقيدة الإلهين : إله النور ، وإله الظلام . وإله الخير . وإله الشر . أو إله الإيجاد . وإله الإفساد .

وهى عقيدة يتوهم بعضهم أنها حلت المشكلة على وجهة معقولة وليست هى من العقل الصحيح فى شىء ، لأن وجود إلهين سرمديين كلاهما واجب الوجود غير محدود البداية ولا النهاية مستحيل . فأحدهما يحد الآخر ، وكل محدود لا يكون سرمدىّ الوجود .

ووجود الخير الأبدى لا تترتب عليه استحالة منطقية . أما وجود الشر الأبدى فهو قول بوجود العدم ، بل بما هو أسخف من وجود العدم ، لأنه عدم يستطيع التعديم ، أو شيء « سالب » يكون له إيجاب وعمل ، ويكون مستغنياً بذاته فى وجوده ... فهو واجب الوجود ! أو واجب العدم لو ينصفونه !! .

فالخير المطلق وجود ، والشر المطلق عدم ، والعدم لا يكون فضلاً عن أن يُنسب إليه التكوين : وقد يوجد الشر فى المحدودات لأن المحدود لا بدّ فيه من نقص . أما الشر فى إله سرمدى غير محدود فذلك أعجب ما يخطر فى الأذهان .

لكن هذه العقيدة سرت إلى النحلة « الأورفية » فى آسيا الصغرى ، ثم ظهر البحث فى العقل والمادة ، وفى الخير والشر ، وهى غالبة على عقول اليونان . فجمعا بوين الشر والهيولى ، وبين الخير والعقل ، وفصلوا بين الطبيعتين فصلاً سرمدياً واحتاجوا إلى كل تلك الجهود للكشف عن واسطة لتأثير العقول فى الأجسام ، ولم ينتهوا منها إلى قرار مفيد ، إلا هذه الثنائية التى لا تفسر شيئاً من الأشياء ، وهى أحوج الأشياء إلى تفسير .

لقد كان « زينون » الأيلى حكيما حقاً فى تناقضه عن المادة

وتقسيم الأجزاء ، لأنه أثبت حقيقة واحدة ؛ وهى أن تصورنا للمادة ضلال لا شك فيه .

قال : إننا لو قسمنا جسما إلى نصفين ثم قسمنا النصف إلى نصفين ومضينا فى القسمة هكذا فلا بد أن نمضى إلى غير نهاية وهو مستحيل ، أو لا بد أن نصل إلى جزء لا يتجزأ وهو كذلك مستحيل ، وكل تصورٍ محال فهو باطل بلا جدال .

وقد ظهر أن الرجل كان على حق ، لأن أجزاء المادة تنتهى إلى جزء صغير يتجزأ ولكنه ينقلب إلى حركة اشعاع لا يحدها الجسم الذى كانت فيه .

فصورة المادة فى أذهاننا صورة باطلة ، فكيف نعلم ما يؤثر فيها وما لا يؤثر فيها على وجه التحقيق ؟

والذى يثبت فى روعنا أن الكائنات خلق واحد يدور حول «الوحدانية» ولا فرق بينها غير الفرق بين التعميم والتخصيص.

فالتعميم مظهر المادة ، والتخصيص مظهر العقل والحياة .

فالمادة فى أبسط صورها شعاع « عام » لا فرق فيه بين مكان ومكان من الفضاء .

وكلما اقتربت من العقل دخل فيها التركيب ودخلت فيها « الفردية » تبعاً للتركيب .

والفرق بين أدنى الأحياء وأعلاها هو الفرق فى درجات « الفردية » أو فى درجات الوعى الفردى الذى يقابل الوجود كله بالإدراك والاستيعاب .

فالنبات قليل الفردية لأن الشجرة فيه قليلة التميز من شجرات نوعها ، والحيوان أرقى منها لأن التعميم فيه أقل من التخصص، والإنسان أرقى من النبات والحيوان لأن الفرد فيه يتخصص كلما ارتفع بعقله حتى يكون له وعى مميز بالاستقلال عن جميع العوارض الأخرى ، أو عن جميع العموميات .

هذا الارتقاء فى الفردية هو الاقتراب من الوحدانية ، أو من الواحد الأحد الذى ليس له شريك ، وهذا هو المعنى الذى يسوغ لنا أن نقول إن الإنسان مخلوق على صورة الله .

ومتى ارتفع الوعى إلى هذا الأوج فتلك هى مرتبة الكمال وتليها مرتبة الاتصال التى يسميها المتصوفة بالفناء فى الله .

وهذا ارتقاء مطرد لا فجوة فيه من مصدر التعميم إلى أعلى التخصيص ، ومن شعاع النور إلى الوحدانية التى ليس لها شريك

وهى غاية الغايات ، ومن نور محدود إلى نور ليس له انتهاء .

وقد يفسر لنا هذا الرأى خطوات التاريخ التى ترتقى فيها « الحرية الفردية » على اطراد لا نكوص فيه ، ويفسر لنا ما اعتقدناه من أن الحرية هى الجمال لأنها لا تكون إلا مع النظام والتمييز بين الأشياء ، ويفسر لنا ارتقاء العبادات بارتقاء الحرية من التعديد إلى التوحيد .

وعلى هذا المعنى لا نفهم لماذا يمتنع التأثير من المعقولات فى الماديات؟ ولماذا تنعزل المادة والعقل كأنها من خلق إلهين متناقضين أو كأنهما فى كونين منفصلين ؟

ولا بد فى المسائل الأبدية من وقفة واحدة فى النهاية . نقف عندها ونقول : إلى هنا انتهى سبح العقول .

وذلك أول ما يؤمن به العقل فى هذا الموضوع ، لأن الإحاطة إنما تكون إحاطة بالمحدود الذى يقبل إقامة الحدود والتفريقات . أما السرمد الذى لا أول له ولا آخر فلن يقاس على شىء ولن يقاس شىء عليه ، ولا بد من وقفة فى النهاية لديه .

إن ارسطو يخال إنه تجاوز هذه الوقفة حين قال إن الأفلاك ذوات عقول و إنها تتحرك حركة المريد لأنها تشتاق إلى مصدر العقول .

ولكنه لم يتجاوز الوقفة خطوة واحدة بهذا التعليل . إذ كيف أصبحت الأفلاك ذات عقول ؟ هل تحركت وعقلت أو هى قد عقلت وتحركت ؟ إن قيل إنها تحركت فعقلت فالحركة إذن من غير العقل ، و إذا كانت قد عقلت فتحركت فالعقل فيها وليس له مصدر من غيرها ، وأن كانت قد تلقت العقل من الله فقد تأثرت المحسوسات بالمعقولات

وهنا الواقفة التى لايتجاوزها ارسطو الى ما وراءها . وأيسر منها أن يقال إن « الوجود الالهى » لايقاس عليه و إن قدرته لا تقبل الحدود لأنها قدرة ليس لها ابتداء ولا انتهاء ولا غاية قصوى فى الاستطاعة . بل هى قدرة لايمتنع عليها أن تخلق للانسان عقلا غير عقله يجيز ما لا يجيزه الآن .

ومن ثم نتبين أن « العقيدة الدينية » هى أقرب الفلسفات إلى المعقول ، وليس قصارى الأمر فيها أنه أمر تصديق و إذعان .

لا بد من وقفة فى كل تفسير للوجود .

فوقفة المؤمن أصح من وقفات الفلاسفة فى النهاية : كل ما هو محدود فقد يحيط به القياس ، ولا إحاطة بما ليست له حدود

« والبارى » قديم سرمد لا يحده الزمان ولا المكان ليس كمثله شيء . وهنا يحسن الوقوف :

ألا أنه عقيدة وكفى ؟

كلا . بل لأنه منطق سليم ، ولأنه نهاية شوط العقول

عباس محمود العقاد

اقرأ

محمد فهمي عبد اللطيف

أبو زيد الهلالي

دار المعارف للطباعة والنشر

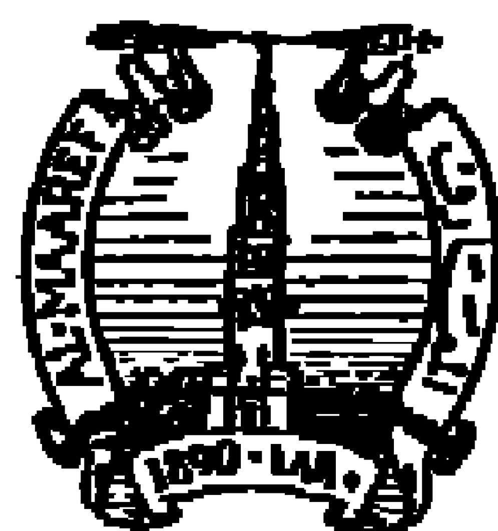
أبو زيد الهلالي

محمد فهمي عبد اللطيف

أبو زيد الهلالي

اقرأ ٤٧
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٤٧ — أكتوبر سنة ١٩٤٦



هذا الكتاب

لا يزال الأدب بجميع فنونه وألوانه يحلق فوق رؤوس الجماهير ويتعالى على البيئات الشعبية ، ولا يزال أهل الأدب والفن يترفعون على مستوى العامة بما يصطنعون من الامتيازات والخصائص فى تفكيرهم وتعبيرهم ، وفيما يتناولون من شئون الحياة ومظاهر الكون ورغبات الناس وتصاريف الدنيا .

والحجة الوحيدة لأهل الأدب على هذا الترفع هى أن الفن سمو ورفعة، فليس من غايته أن ينحدر إلى البيئات الشعبية وأن يجاريها فى مباذلها، وإنما غايته أن يسمو بهذه البيئات وأن يرتفع بها إلى أعلى ، فيهذب عواطفهم ويصقل مشاعرهم ويجعلهم يحسون بإنسانيتهم على وضع أنبل وأكرم ، وهذه حجة لها وجاهتها وقوتها ولكنى لا آراها تدعو إلى كل هذه المبالغة فى الكبرياء والتحفظ، فأنا مع (رومان رولان) فى دعوته « إلى إدخال الفن فى البيئات الشعبية وتجريده من امتيازاته وأمجاده وأوضاعه الرسمية التى

اصطنعها أهل الفن اصطناعا وأقاموها أسواراً شاهقة تفصل بينهم وبين عامة الناس وتميزهم فى غدوهم ورواحهم كأنهم طبقة الكهان» ، ولكنى لا أستطيع أن أقول أبداً إن الفن — وأعنى الأدب خاصة — يجب أن يصير شعبياً عامياً يتجاوب مع عواطف الجماهير ورغباتهم بأسلوبه وبفكرته وبما يهدف إليه من الغايات .

ولقد عاش الأدب العربى آماداً طويلة وهو فى جمهرته ربيب القصور وساحات الملوك ، فما كان يمشى بين الناس إلا ممهوراً باسم الخلفاء والولاة والحكام كأنه الدراهم والدنانير ، ولكن فى الاونة الأخيرة رأينا الأدباء يتجهون إلى طبقات الشعب وينزلون إلى معترك الجماهير ويتلمسون فى هذه المجالى مادة لإنتاجهم وتصويرهم ، وهو اتجاه حميد من غير شك ، وإنها لخطوة طيبة فى تقريب المسافة بين من يسمونهم الخاصة وبين من يسمونهم العامة ؛ ولكنا لا نستطيع على أى حال أن نسمى هذا اللون من الأدب أدبا شعبياً يموج بعواطف البيئات الشعبية ويتجاوب مع رغباتهم وميولهم ويؤثر فى تكوين شخصياتهم وتلوين نفسياتهم ، بل هو لون من الأدب لا يتصل بتلك البيئات إلا فى مادته ، ومع ذلك فقد يكون فيه كثير من التلفيق المصطنع والكذب المخترع والصورة

التى لا تتأتى ولا تتحصل إلا فى خيال مبتدعها .

على أن هذه البيئات الشعبية لم تكن لتنتظر حتى يتنزل إليها ذلك الأدب الرفيع من عليائه ، فتجد فيه نفسها وتنهل منه ما يروى عواطفها و يربى شخصيتها ، ولكنها وجدت نفسها فى أدبها الخاص وفيما تفيض به عواطفها من الأحاديث والأسمار والقصص والأشعار والحكم والأمثال والأغانى والأناشيد والاعتقادات والنزعات ، وما يتصل بهذا كله من ألوان اللذة العقلية وضروب التسلية الفكرية وميول العقيدة الدينية . ذلك لأن الجماعات مهما كان طابعها من الانحطاط والجمود لا يمكن أن تعيش مطوية على نفسها مكبوتة العواطف والنزعات ، و إنما هى تنطلق على سجيتها فى التعبير عن فيض إحساساتها وتستهدى الفطرة فى التصوير الفنى لشتى رغباتها ولهفاتها وما يضطرم بين جوانحها من الانفعالات الوجدانية الساذجة أو العميقة .

وللشعب عندنا من هذه الألوان تراث أدبى حافل ، وهذا التراث الشعبى هو أقوى مؤثر فى حياة البيئات الشعبية وأكبر محرك لوجدانات الجموع والجماهير، وبهذا يمكن أن نقول إن هذا التراث هو الدعامة الأولى فى بناء شخصية الشعب وتكييف

عواطفه وتلوين اتجاهاته ، فلا يستطيع أحد أن يقول إن الجموع الشعبية قد تأثرت شخصيتها أو تأثر تفكيرها بالمعلقات أو المطولات أو دواوين الشعراء من عهد امرىء القيس إلى اليوم أو بما أنتجه وينتجه الكتاب والباحثون وأهل الفكر والرأى . وكيف؟ وهى تعيش بأميتها وبمستواها منقطعة عن هذا كله بعيدة منه لا تحسه فى كثير ولا قليل ، ولكن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن بيئاتنا الشعبية فى القرى وفى المدن تأثرت ولا تزال تقع تحت تأثير قصص أبى زيد الهلالى وألف ليلة وليلة وعنترة والظاهر بيبرس وسيف ابن ذى يزن ونوادر جحا وأمثال ابن عروس وأشعاره ، ثم ما يروى من كرامات السيد البدوى والسيد ابراهيم الدسوقى وشطحات المتصوفة والدراويش . فمن هذا كله تغذت عقلية الشعب وعلى هذا كله تربت شخصيته وتأثرت به إلى حد كبير .

فالمؤرخون والباحثون حين يتناولون الأدب الرفيع على أنه صورة كاملة لحياة الأمة ويأخذون فى دراساتهم بهذه القضية على إطلاقها وعمومها إنما يسرفون على الحقيقة ويحملون القضية ما لا تحتمل . لأن ذلك الأدب مهما بالغنا فى تقدير قيمته وأثره فلن نجده إلا صورة لتفكير طبقة خاصة فى الأمة وهى طبقة لها

امتيازاتها وتقاليدها ، فاذا أرادوا حقاً أن يروا الصورة الكاملة وأن يرسلوا القضية على عمومها و إطلاقها ، فليضموا إلى تقديرهم التراث الشعبي ، بل إنه لأصدق دلالة على توضيح شخصية أهله وتمثيل نفسيتهم ، لأنه وحى الفطرة وإلهام الغريزة وفيه تتجلى العواطف واضحة صريحة لا يحجبها تزوير ولا يخفيها ذلك الاصطناع والتأنق الذى يكون فى أدب الخاصة .

ولقد اهتم الباحثون فى كثير من الأمم بدراسة التراث الشعبي على اختلاف ألوانه واتجاهاته . اهتموا بدراسته على أنه حلقة من حلقات التطور التاريخى والتفكير الأدبى والفنى ، وعلى أنه صورة صادقة للأدب القومى تتجلى فيها الآلام والآمال التى تسيطر على نفوس العناصر الشعبية، ثم على أنه ناحية من التفكير فيها جمال وحياة وفيها متاع ولذة ، ومن العجيب أن الباحثين والمفكرين من المستشرقين قد عنوا بتراثنا الشعبي فى بعض نواحيه وكتبوا فى ذلك بعض الأبحاث فى حدود ما يملكون من الأداة لذلك وما يصل إليه فهمهم وإدراكهم لمظاهر بيئة هم طارئون عليها وعابرون بها ، ولكننا مع هذا كله لا زلنا ننظر إلى ذلك التراث نظرة شذراء . ننظر إليه على أنه شىء تافه لا يستحق العناية

والاهتمام ، حتى النواحى التاريخية الصحيحة من هذا التراث لم يعن أحد بتحقيقها ، ولا يزال شبابنا المثقف يجهلها كل الجهل ، فنجدهم لا يعتقدون فى أبى زيد وجحا وغيرهما من الشخصيات الشعبية ألا إنهم حديث خرافة وكلام فارغ لا أصل له . . .

وأى شىء فى هذا ؟

إن أدبنا المصرى نفسه لا يزال مجهولا مطموراً فى مخطوطاته ، ولا تزال آثاره مبعثرة فى مكاتب العالم ، ولا تزال جامعاتنا ومدارسنا لا تعرف منه إلا شذرات مبتورة وقطعاً ممزقة ، ولا يزال شبابنا يجد ويكد فى ارتياد مجاهل الأدب الجاهلى ويبدى ويعيد فى كلام أصبحت النفوس تضيق به ، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم شيئاً من المشقة فى كشف مجاهل الأدب المصرى الذى هو فيض عواطفهم وصورة من حياتهم وطبيعتهم وبيئتهم .

***

ومنذ أعوام عنيت بدراسة الأدب المصرى على صورة واسعة شاملة ، فعكفت على مخطوطاته فى دار الكتب المصرية أتقصاها وأتفحصها ، وكان أن وقفت فى بحثى على هذه الناحية الشعبية فاستوقفتنى وقفة طويلة وشغفنى أن أستوفى بالبحث عناصر هذه

الناحية التى أثرت فى شخصية هذا الشعب كما قلت إلى حد كبير ، ثم رأيت أن أرودها بالدراسة وهى الناحية المجهولة المطمورة التى انصرفت عنها أنظار الباحثين على ما لها من الخطورة البالغة والقيمة العظيمة ، ولقد استوفت هذه الناحية دراسة وبحثاً وتنقيباً ولكن مشاغل الحياة الصحفية جرفتنى فى تيارها ولم تترك لى أية فرصة للكتابة فى هذه الناحية ولم تمكننى من أن أتقدم بنتيجة بحثى ودراستى للقارئ ، ثم كان أن كنت أحرر فى مجلة أدبية كبيرة وفى يوم تلقت المجلة من أحد القراء سؤالا عن حقيقة أبى زيد الهلالى والقصص الذى يحكى عنه ، فهل هو حقيقة أم خرافة وتلفيق خيال ، وجلست أجيب عن هذا السؤال فامتد بى الكلام حتى كان هذا البحث الذى أقدمه اليوم إلى القراء والذى يتضمنه هذا الكتاب ، وإنى لأذكر أن سؤال ذلك السائل ظل ينتظر منى الجواب إلى اليوم .

فى هذا البحث ، بذلت جهد الطاقة وقدر الإمكان فى تقصى الثابت فى التاريخ والموضوع فى القصص والشائع عند الناس ، وعنيت أن أنهج فيه نهجاً حديثاً يقوم على التمحيص والتحقيق والاستنتاج والمقارنة والتحليل والتعليل ، وأردت أن أقدم من

هذا كله صورة للقارىء فيها إشباع للعقل وإمتاع للقلب ومؤانسة للروح ، وأن أكشف عن ناحية لها بتاريخنا صلة وثيقة وفى ثقافة الشعب وعقليته أثر كبير . وقد تناولت فى هذا البحث تاريخ بنى هلال وسليم وقصصهم وسير أبطالهم ولكنى عنونته باسم « أبو زيد الهلالى » لأنه أظهر بطل فى القصة ولأن القصة قد عرفت وذاعت فى البيئات الشعبية باسم هذا البطل الكبير ، وإنى لأقدم المعذرة للقراء إذا ما رأوا إجمالا فى بعض نواحى البحث فقد اضطرنى إلى ذلك ضيق المقام .

محمد فهمى عبد اللطيف

الفصل الأول

بنو هلال وسليم :

هؤلاء قوم ذكرهم فى القصص أكبر من ذكرهم فى التاريخ، وحديثهم فى السمر أمتع وأروع من حديثهم الصحيح . العامة يجلون قدرهم ويرتفعون بمقدارهم، وكأنى بالخاصة قدترفعوا عنهم فلم يحفلوا بخبرهم ولم يهتموا بتاريخهم . حتي القدماء من المؤرخين فد مروا بهم مر الكرام ، ونظروا إليهم فى غير احترام ؛ ولولا العلامة ابن خلدون الذى تتبع أنسابهم وتابع سيرهم وأكبر من شأنهم لما وقفنا لهم على خبر يذكر ، ولا وقعنا لهم على تاريخ يؤثر .

هذا فى القديم ، وهذا فى الحديث أيضاً . فأنك لا تجد فى العربية باحثاً قد اهتم بتاريخ هؤلاء القوم أو عنى بدراسة القصص الذى يحكى عنهم والأسمار التى تتصل بهم، على حين نجد المستشرقين كعادتهم قد تقحموه بالدرس وتناولوه بالبحث . حتى كتبوا فى ذلك الكتب الوافية والفصول الضافية . وتقول دائرة المعارف الإسلامية إن (باسيه) و (هارتمان) كانا أول من

بحث هذا القصص ــ أى قصص بنى هلال ــ بحثاً قوامه العلم والفهم ، وإن (بل) كتب بعد ذلك كتاباً قيما فى هذا الموضوع عنوانه (الجازية) شقيقة سلطانهم الحسن بن سرحان . وللباحثين الفرنسيين عناية ظاهرة بتاريخ هؤلاء القوم وتاريخ البربر الذين كانوا يقطنون شمال أفريقية ، وهى عناية ترجع إلى صلة فرنسا الاستعمارية بتلك البلاد ، وناحية من البحث التاريخى ، دفعت إليها وجهة سياسية . ورغبة فى المعرفة للسيادة والحكم

أوليتهم فى التاريخ :

وخبر بنى هلال وسليم فى التاريخ خبر قديم ونسبهم فى العرب نسب صحيح ، فهم من بطون مضر ، و بطون مضر كثيرة متعددة كانت كلها تعيش فى الجاهلية على البداوة والخشونة وتطلب النجعة حيث مساقط الماء ومنابت العشب ، فلما جاء الإسلام دخل كثيرون منهم حظيرته وحملوا رايته وغلبوا الأمم على أمورهم وملكوا الأقطار والأمصار وتمت لهم السيادة أيام بنى أمية فى الشام و بنى العباس فى العراق ، ثم بنى أمية مرة أخرى فى الأندلس ، فانقسموا فى الدنيا وافترقوا على الثغور البعيدة كما يقول

ابن خلدون ونبتت أجيالهم فى ماء النعيم ،واستطابوا خفض العيش وطال نومهم فى ظل الترف والسلم ونسوا عهد البادية، وانفلتت من أيديهم الملكة التى نالوا بها الملك، واتخذوا البطانة من موالى الأعجام وصنائع الدولة فاستوت الحامية بالرعية والأصيل بالدخيل، واختلط عرب الفتح بالهمج ،ولم يراجعوا أحوال البداوة لبعدها ، ولا تذكروا عهد الأنساب لدروسها ، فدثروا وتلاشوا شأن من قبلهم ومن بعدهم ؛ سنة الله التى خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

قبائلهم فى نجد :

وقد كانت ثمة بطون من مضر بقوا على حالهم الأولى ولزموا نهجهم القديم، فظلوا يضربون فى الوديان ويتنقلون بين الشعاب ويستظلون بالحلل والوبر ، وقد كانت هلال وسليم من هذه البطون ، وكانت محلاتهم من بعد الحجاز بنجد . فبنو سليم مما يلى المدينة وبنو هلال فى جبل غزوان عند الطائف . ويقول الألوسى فى تاريخ نجد : « إن فى قرى الوادى بنجد بقعة تسمى بالهلالية وإن ناحية القصيم كانت تحت إمارة رجل من آل سليم » . فلعل ذلك مما بقى من آثار القوم هناك . ونظراً

لضيق الرزق فى تلك البلاد وقلة الكفاية فى الأقوات، كان بنو هلال وسليم يطوفون رحلة الشتاء والصيف بأطراف العراق ، فيغيرون على الضواحى ويفسدون السابلة ويقطعون على الرفاق، وكثيراً ما كان بنو سليم ينقضون على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة حتى أفزعوا دار الخلافة وأضجروا القائمين بالأمر وغضوا من سمعة الدولة ، وكثيراً ما كتب العباسيون الكتائب وحشدوا الجنود للايقاع بهم وصون الحاج من عيثهم وعبثهم ، ولكن كل ذلك لم يفل فى عزمهم ، ولم يحد من طغيانهم ، بل زاد خطرهم واستفحل شرهم . إذ ظهر القرامطة بدعوتهم الهدامة وصاروا يغيرون على أطراف مصر والشام والحجاز حتى دخلوا مكة ونهبوا الكعبة واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه ووضعوا السيف فى الحجاج والزوار وفرضوا عليهم الفروض وأخذوا منهم الإتاوات ، ويقول ابن خلدون : إن بنى سليم والكثير من ربيعة ابن عامر قد تحيزوا إلى هؤلاء القرامطة عند ظهورهم وصاروا جنداً لهم بالبحرين وعمان ، فكانوا يعينونهم فى حروبهم ، ويظاهرونهم فى إفسادهم . ثم يقول ابن خلدون : وكان القرامطة قد تغلبوا على الشام، والشام يومئذ تابعة لخلافة الفاطميين

فى مصر فانتزعها العزيز منهم وردهم إلى قرارهم بالبحرين ، ونقل أشياعهم من العرب من بنى هلال وسليم فأنزلهم الصعيد فى العدوة الشرقية تجاه البحر الأحمر ، فأقاموا هناك وكانت لهم أضرار بالبلاد .

قصة الجازية والشريف :

ثم يقول ابن خلدون : ولهؤلاء الهلاليين فى الحكاية عن دخولهم إلى افريقية طرق فى الخبر ، فهم يزعمون أن الشريف ابن هاشم كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبى الفتوح ، وأنه أصهر إلى الحسن ابن سرحان فى أخته الجازية فأنكحه إياها وولدت منه ولداً اسمه محمد ، وأنه قد حدث بينهم وبين هذا الشريف مغاضبة وفتنة فأجمعوا أمرهم على الرحلة عن نجد إلى أفريقية واحتالوا عليه فى استرجاع هذه الجازية ، فطلبت زوجها فى زيارة أهلها فأزارها إياهم وخرج بها إلى حللهم ، فارتحلوا بها وبه وكتموا رحلتها عنه وموهوا عليه بأنهم سيبا كرون به إلى الصيد والقنص ثم يروحون به إلى بيوتهم، فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع مكة وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم فرجع ، إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حب الجازية داء دخيل

وأنها بعد ذلك كلفت به كلفه بها إلى أن ماتت من حبه ، ويتناقلون من أخبارها فى ذلك ما يغض من خبر قيس مع ليلى وكثير مع عزة، ويروون كثيراً من أشعارها محكمة المبانى متقنة الأطراف وفيها المطبوع والمصنوع والمنحول ، وهم يتفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفاً عن سلف وجيلا بعد جيل، ويكاد القادح فيها والمستريب فى أمرها أن يرمى عندهم بالجنون والخلل لتواترها بينهم ، وهذا الشريف الذى يشيرون إليه إنما هو من الهواشم وهو شكر بن أبى الفتوح الحسن بن جعفر بن هاشم ، وأبو الفتوح هذا هو الذى خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم إذ بعث إليه بنو الجراح من أمراء طيء بالشام فوصل إلى أحيائهم وبايع له كافة العرب ، ثم غلبتهم عساكر الحاكم فرجع إلى مكة وأظهر الطاعة للفاطميين ، ومات سنة ثلاثين وأربعمائة ، فتولى من بعده ابنه محمد الذى يزعم الهلاليون أنه من الجازية(١)

ولقد ألمع ابن خلدون إلى هذه القصة من قبل فقال وهو يتحدث عن دولة الهواشم بمكة : ثم توفى الأمير أبو الفتوح

---

(١) ج ٦ ص ١٧ وما بعدها

سنة ثلاثين وأربعمائة، وولى بعده إمارة مكة ابنه شكر، وشكر هذا هو الذى يزعم بنو هلال أنه تزوج الجازية بنت سرحان من أمراء الأثبج منهم، وهو خبر مشهور بينهم فى أقاصيصهم وحكاياتهم التى يتناقلونها و يطرزونها بأشعار من جنس لغتهم ، وقد اهتم ابن خلدون فأورد فى المقدمة جملة من تلك الأشعار التى قالوها فيما كان بينهم و بين الشريف ، والتى قالها الشريف أو قيلت على لسانه فى البكاء على الجازية والجزع لفراقها .

مناقشة ابن خلدون :

والظاهر أن المؤرخ الكبير إنما ذكر هذه القصة على أنها مما يحكى و يقال لا على أنها حقيقة تاريخية ، أو هو على الأقل لم يعن بتمحيصها والبحث فى صدق وقائعها ؛ والواقع أن هذه القصة ليست من الغرابة والإحالة بحيث يردها العقل ، ولكن المؤرخين لم يأتوا بما يدعمها فى النقل، فابن خلدون هو المؤرخ الوحيد الذى أوردها وأثبتها على علتها ، وقد كتب الشيخ حسن العطار أمام هذه القصة بهامش النسخة البولاقية ما نصه : قصة أبى زيد التى تحكى فى قهاوى مصر أصلها هذه الواقعة كما أشار لذلك

المؤلف ، وكثيراً ما كنت أتطلب لها أصلا فى التاريخ فلم أجده إلا فى هذا المحل .

ولقد كنا فى حل من أن نقبل هذه القصة كما رواها ابن خلدون لأنها كما قلنا لا يحيلها العقل ، ولأنها تتصل بأشخاص لهم خبر صحيح . فشكر والجازية والحسن بن سرحان و إمارة شكر على مكة وخروج العرب من نجد . كل هذه العناصر ثابتة صحيحة ، ولكن ابن خلدون وهو المؤرخ الوحيد لهذه القصة قد رواها بلغة تنم عن ضعفها وتدل على عدم ثقته بها واطمئنانه إليها ، فتجده يقول : ويزعمون ، ويحكون فى قصصهم . ثم إن ابن خلدون قد ذكر من قبل أن خروج العرب من نجد إنما كان على عهد العزيز ، وشكر الذى تشير اليه قصتهم إنما كان على عهد المستنصر ، أى بعد أن مضت خلافة العزيز والحاكم والظاهر ، وأظهر من هذا فى التناقض أن ينص ابن خلدون على أن العزيز هو الذى استقدم بنى هلال و بنى سليم إلى مصر ليبعدهم عن مشايعة القرامطة فى إغاراتهم على مصر ، ثم يقول فى القصة إنهم أجمعوا الرحلة عن نجد لمغاضبة وفتنة بينهم وبين شكر ، ثم إن ابن خلدون يذكر أن هؤلاء العرب قد فارقوا بلادهم إلى مصر ثم انتقلوا إلى

إفريقية ، ولكن القصة تدل على أنهم فارقوها إلى إفريقية مباشرة ولم تشر إلى نزولهم مصر. وأخيراً تقول القصة إن شكراً قد أعقب ولداً اسمه أحمد من الجازية وأنه قد أخذ الإمارة من بعده ، ولكن ابن حزم يقول إن شكراً هذا لم يولد له ، وأن أمر مكة صار من بعده إلى عبد كان له ، بل إن ابن خلدون نفسه يذكر فى الكلام على دولة الهواشم أن الذى تولى من بعد شكر سنة أربع وخمسين وأربعمائة إنما هو محمد بن جعفر وقد خطب للمستنصر العبيدى . فكل هذا الذى ذكرناه يحملنا على أن نقف من القصة موقف المستريب ، وأن ننظر إليها نظرة المتبصر .

على أننا بعد هذا كله نرى أن هذه القصة قد تكون صحيحة فى أصلها وإن كان قد وقع بعض الخلط فى تفصيلها ، خاصة وأن القوم كانوا يحفظونها بالرواية ويتناقلونها بالحكاية حتى طال عليها الأمد وامتد بها العهد ، وذلك مظنة الزيادة والنقص والتحريف والتخريف . وليس ما يمنع أن يكون العرب لما أغراهم العزيز بذهبه قد اصطنعوا المغاضبة مع الذين كانوا تحت إمرته من الهواشم ، ولم يسمح لهم شرفهم بترك ابنتهم الجازية فى بلاد سيرحلون عنها ، فلما جاء القوم من بعد وتناولوا القصة بالحكاية بعد أن نزلوا مصر

ثم رحلوا عنها إلى إفريقية ذكروا ولده الشريف بأسم شكر الذى كان موجوداً لذلك العهد وعلى هذا كثر ذكره فى قصصهم وأشعارهم التى سنتناولها بالبحث فيما بعد .

نزولهم مصر وخروجهم منها :

نزل بنو هلال و بنو سليم أرض مصر فى كثير من بطونهم وأتباعهم — وقد اتخذوا منازلهم على ما قدر لهم العزيز الفاطمى بالصعيد فى حدود العدوة الشرقية للنيل، والظاهر أنهم قد انتشروا بعد ذلك فى كثير من نواحى الصعيد حتى قال الحمدانى : وكان لهم بلاد صعيد مصر كلها[1]، ويقول المقريزى فى (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب) : وكان بنو هلال أهل بلاد الصعيد إلى عيذاب، و بأخميم منهم بنو قرة و بساقية قلته بنو عمرو. وفى بنى هلال عدة بطون: منهم بنو رفاعة و بنو صحير و بنو عزيز، و بأصفون وأسنا بنو عقبة و بنو جميلة .

ولقد كان شأن هؤلاء العرب فى مصر كما كان شأنهم فى نجد ، يعيشون على البداوة والخشونة ويجرون على طبيعتهم

(١) صبح الاعشى ج ١ ص ٣٤٥

فى السلب والنهب والإغارة ، وجميع المؤرخين لا يذكرونهم فى مصر إلا بهـذا المعنى ولا يقفون بهم إلا عند هـذا النعت ، حتى أن ابن خلدون الذى كتب تاريخهم وأشاد بذكرهم يقول: «وقد عم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم». بل لقد خرج بعضهم على بعض ونشب الخصام بين رياح وزغبة فيهم، فتقارعوا على المحلات والمنازل، وكانوا كالنار تأكل نفسها إذا لم تجد ما تأكله ؛ وكأن العزيز إذ نقلهم إلى مصر اتقاء لشرهم إنما جلب على الدولة شراً أكبر وخطراً أعظم ، وما ارتاحت البلاد والدولة منهم حتى خرجوا فى شأنهم إلى إفريقيا .

السبب فى خروجهم :

وسبب خروجهم هذا أن المعز بن باديس ملك صنهاجة والقيروان من قبل الخليفة الفاطمى كان قد انحرف عن مذهب الشيعة إلى أهل السنة ، وكبا به فرسه على حد تعبير ابن خلدون فدعا مستغيثا بالشيخين أبى بكر وعمر وسمعته العامة فثاروا بالشيعة وأمعنوا فيهم بالقتل والسلب حتى قتلوا دعاتهم وهدموا بيوتهم ، وجاء الخبر بذلك إلى الخليفة الفاطمى فغضب وتغير ، وكتب وزيره

أبو القاسم الجرجانى إلى المعز يحذره المغبة ويتهدده بالقتال، فرد عليه المعز بالتعريض وأغلظ فى الجواب، وزاد فى عناده فقطع الدعاء للفاطميين سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستنصر حتى لقد أحرق بنوده ومحا اسمه من الطرز والسكة، وغير من الآذان حى على خير العمل، ودعا للقائم بن القادر من خلفاء بغداد وحظى منه بالتقليد والخلع، وقرئ كتابه على الناس بجامع القيروان ونشرت الرايات السود التى هى شعار العباسيين. ثم إن المستنصر كان قد استوزر محمد الحسن بن على اليازورى ولم يكن من أهل الوزارة، وإنما أصله من قرى فلسطين وكان أبوه فلاحا بها وكان هو من أهل الفلاحة، فاستخف به المعز بن باديس ولم يكتب اليه كما كان يكتب إلى الوزراء من قبله، فعظم ذلك على اليازورى وحز فى نفسه فأكثر من الوقيعة فى المعز عند المستنصر وأغراه بحربه؛ ولما كانت الدولة لا تأمن على جيوشها فى تلك المفاوز القاصية فقد أشار عليه أن يرميه بأولئك العرب الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد فأن صدق الظن فى ظفرهم بالمعز وصنهاجة كانوا أولياء للدعوة وعمادا للدولة وعماله بتلك الربوع النائية وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة، وأمر العرب

البادية على أى حال أهون من أمر صنهاجة الملوك ، وإن كانت الأخرى فلها مابعدها .

رحلتهم الأولى إلى إفريقية :

وكان من الطبيعى أن يستمع المستنصر لمشورة وزيره ، ولا بد أنه قد وجد فى هذه المشورة مخرجاً يحتال له ، ولعله — إن صحت الفراسة فى العرب — يشفى غيظه من ابن باديس الذى عدا طوره وشب عن طوقه وانتكس بأمر الدعوة والولاية ، وسرعان ما أرسل الخليفة وزيره إلى أحياء أولئك العرب بالصعيد ، وكان همه الأول أن وفق بينهم وأزال الخلاف الواقع بين رياح وزغبة ، ثم فاوضهم فى الغرض المهم ، وأغراهم بما فى تلك البلاد من الخيرات والثمار والزروع ، وكتب لهم بالولاية على كل ما يفتحونه من بلاد المعز ، وأعانهم على السفر فأغدق لأمرائهم فى العطاء ووصل عامتهم بدينار و بعير لكل واحد منهم ووعدهم بالمدد والعدد ، فجمع العرب جموعهم ووحدوا صفوفهم وفزعوا للأمر الذى انتدبوا له فى حشد جرار وجيش لجب ، وكتب اليازورى إلى المعز بذلك يقول : أما بعد فقد أنفذنا اليكم خيولا فحولا وحملنا عليها

رجالا كهولا ليقضى الله أمراً كان مفعولا (١)

ولقد كان فى هذه الرحلة كثير من بطون هلال وسليم . منهم رياح والأثبج وزغبة ودياب ولهب وعرف ومرداس وبنو ثور وبنو عطية، وكان معهم كثير من فزارة وأشجع من غطفان وجشم من هوزان وهلال بن مرة والمفضل من بطون اليمنية وطرود من فهم بن قيس وغيرهم من البطون والأفخاذ والعشائر، ولكنهم كانوا جميعاً مندرجين في هلال وخاصة فى الأثبج منهم ، لأن الرياسة كانت لهم والأمارة فيهم ، وكان على رأس الراحلين جملة من الرجال المذكورين بالبطولة والشجاعة والمتقلدين للرياسة والإمارة، منهم الحسن بن سرحان وأخوه بدر وسلامة بن رزق المشهور عند العامة بأبي زيد الهلالى ودياب بن غانم والفضل بن ناهض وزيد العجاج بن فاضل وزيد بن زيدان وموسى بن يحيي وشامة بن أحمير وأخوه صلصيل ومليحان بن عباس وفارس بن أبي الغيث وأخوه عامر والفضل بن على ويحيي بن مؤنس وكلهم أبناء عمومة يجمعهم النسب المشترك ويؤلف بينهم الغرض المتفق، وهم يذكرون

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤ و ١٥٩ وابن الأثير ج ٦ ص ٢٣٥

فى القصص الذى يحكى، وقد يقع فى أسمائهم من التحريف بقدر ما يلصق بهم من التخريف .

وخبر هذه الرحلة يذكره المؤرخون غالباً بعنوان : دخول العرب إلى افريقية .وهم يختلفون فى تحديدتلك البقعة من الأرض، فالبكرى يقول : إن أفريقية تحد شرقاً ببرقة وغربا بطنجة ، وهى تمتد من الشمال إلى الجنوب من شواطىء بحر الروم إلى الرمال التى فى أول السودان . ويقول الأصطخرى : إن إفريقية تقع ما بين برقة وتاهرت. ويقول أبو الفدا : إن إفريقية تبتدىء من الحد الشرقى لأقليم بجاية وتنتهى عند برقة وإن بجابة وبونه وقفصة تقع خارج إفريقية . ولكن ابن خلدون يضيق من حدود هذا الإقليم ويطلق هذا الاسم على الجزء الأوسط والشمالى من بلاد تونس ويقول إنه يقابل طرابلس وبلاد الجريد وأقليم قسطنطينة ، ومهما يكن من اختلافهم فى تحديد ذلك الإقليم فإن العرب قد دخلوه من قبل ، وقد تم فتح تلك البلاد على يد عقبة ابن نافع سنة خمسين للهجرة ، وقد وفد عليها كثير من القبائل العربية وكان يستوطنها لذلك العهد بنو قرة وهى قبيلة تنسب

فى هلال بن عامر ، أى أنهم أيضاً من الهلاليين ومن أعرقهم فى النسب (١)

بنوقرة فى برقة :

ولقد سبق بنوقرة إخوانهم فى الدخول إلى افريقية ، ولهم فى ذلك أيضاً أخبار وأحداث رهيبة . وذلك أن الحاكم الفاطمى انتدبهم للسير مع يحيي بن على الأندلسى لنصرته على صنهاجه فخرجوا معه ولـكنهم خذلوه وتخـلوا عنه ، ثم عادوا إلى برقة واستوطنوها ، فأرسل إليهم الحاكم فامتنعوا فخدعهم ببذل الأمان لهم ، فلما حضر وفدهم إلى الاسكندرية قتل عن آخره ، وقد أمعن الحاكم فى الاستبـداد بهم والتضييق عليهم ؛ ثم كانت ثورة أبى ركوة وخروجه على الحاكم فانضم إليه بنوقرة وظاهروه حتى كاد يتم له النصر على الفاطميين ، ولكنهم عادوا فخذلوه ومكنوا الحاكم منه . وبهذا صلح الأمر بينهم وبين الحاكم وهدرت جناياتهم القديمة ولكنهم لم يسكتوا على هذا ، بل إنهم فى سنة اثنتين وأربعمائة اعترضوا هدية مرسلة من باديس بن المنصور ملك

(١) راجع البيان والإعراب للمقريزى ص ٣٢ و ٣٣

صنهاجة إلى مصر فنهبوها ثم اقتحموا برقة وغلبوا العامل عليها ، ولم يزل هذا شأنهم حتى نزل عليهم إخوانهم من بنى هلال فتلقوهم بالقبول واندمجوا فيهم ، ويقال إن شيخهم ماضى بن مقرب قد أصهر إلى الحسن بن سرحان فى الجازية من بعد شكر ، وتعتبر غزوة بنى قرة لأفريقية الغزوة الأولى ، وغزوة بنى هلال الغزوة الثانية ، وتقول دائرة المعارف الإسلامية إن الغزوة الثانية هى الغزوة التى يحكى عنها ذلك القصص الشائع بين الناس

الرحلة الثانية :

ولقد كانت برقة عندما نزلها بنو هلال أرضاً عامرة بالخيرات ناضرة بالزروع والثمار ، وقد استطاع العرب أن يسيطروا على ذلك الإقليم من جميع أطرافه ونواحيه ، وقد أمعنوا فى التخريب والنهب كعادتهم ولجوا فى الفساد على طبيعتهم ، وكأنهم وجدوا العيش أطيب مما كان فى صعيد مصر وصار لهم قسط فى الحرية أوفر مما كانوا عليه فى ساحة الخلافة ، فكتبوا إلى ما تبقى من إخوانهم فى مصر وحسنوا لهم الرحلة إليهم واللحاق بهم ، فرحلوا بعد أن أجازهم اليازورى واقتضاهم عن كل شخص ضعف ما أعطاهم فى

الرحلة الأولى ، وما زالوا يغذون السير إلى أن وافوا إخوانهم في برقة .

فاضت جموع الهلاليين وإخوانهم على أفريقية في سنة أربعين وأربعمائة للهجرة كالجراد المنتشر على حد ما نعتهم به المؤرخون ، فكانوا زهاء الأربعمائة ألف أو يزيدون ، وكلهم طامع في الغنم نازع إلى الفتح ، إذ كتب لهم الخليفة الفاطمي بالولاية على افريقية واقتسام أقاليمها وترك لهم تحقيق هذا بسيوفهم وتوطيده برماحهم ، وكأني بالقوم قد خمرتهم هذه الثقة وغمرتهم روح العزة فاندفعوا في طريقهم كالسيل الجارف ، لا تصدهم قوة ولا تردهم عقبة ولا يعصم من طغيانهم حصن .

وكانت برقة في طريقهم منزل ضيافة لهم على إخوانهم السابقين من بني قرة والذين رحلوا منهم الرحلة الأولى كما أشرنا من قبل ، وقد غمرت جموعهم جميع ولاية برقة ، واحتشدوا في المدينة الحمراء وأجدابية وأسمرا وسرت وغيرها من المدن العامرة ، وطابت لهم خيراتها وأرزاقها ، ثم خلفوا عليها قبيلة لهب من بني سليم وأحلافها رواحة ونصرة وعميرة ، وانطلقت بطون هلال وقبائل دياب وعرف وزغبة في طريقهم لا يبقون على شيء

زايل العرب برقة ومضوا فى طريقهم يفتحون البلاد ويجتاحون العباد ويستعمرون الأقاليم حتى وصلوا إلى أفريقية فى سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، ثم تدفقت قبائل رياح والأثبج وبنى عدى على قلب أفريقية قصداً إلى القيروان . يقول ابن الأثير : فلما رأى مؤنس بن يحيى المرادى أمير رياح قصدهم هذا قال لهم : ليست المبادرة إلى القيروان عندى برأى . فقالوا إذن كيف تحب أن نصنع ؟ فأخذ بساطاً فبسطه على الأرض ثم قال لهم : من فيكم يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشى عليه ؟ فقالوا كلهم لا نقدر على ذلك . فقال : فهكذا القيروان . فخذوا شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى إلا القيروان فخذوها حينئذ . فقالوا: إنك لشيخ العرب وأميرهم وأنت المقدم علينا ولسنا نقطع برأى دونك . وعلى هذا كانت خطتهم فى فتح البلاد ودخول القيروان من بعد .(١)

ملاقاتهم للمعز بن باديس :

ولما علم المعز بن باديس بتوغل القوم وقدومهم لمنازلته ، وبلغه

(١) راجع ابن الأثير ص ٢١١ وما بعدها

الخبر عن مكانة مؤنس بن يحيى فيهم وسيره فى طليعتهم ، أسرع إلى استمالة هذا الأمير وكتب إليه يستدعيه وأغدق عليه العطايا والهبات . وكأن المعز قد أراد بهذا أن يسلك طريق الحيلة وأن يغلب القوم بالاستمالة والتفريق بينهم، ولكن هذا لم يجده شيئاً ، فإن القبائل الأخرى من هلال وأخواتهم قد اندفعوا فى قصدهم ولم يجزوا المعز بما فعل من الإحسان كما يقول بن الأثير ، بل شنوا الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وحاصروا المدن، وسرح اليهم المعز الجيوش المتتابعة فأوقعوا بهم الهزائم المنكرة ؛ فحينئذ أدرك الخطر ونهض للامر بنفسه وخرج لهم فى جيش جرار من من البربر وقبائل زنانة وصنهاجة بعد أن تألفهم والعرب الذين تبقوا من أيام الفتح الأول، فكان له من ذلك ثلاثون الف فارس ومثلهم من الراجلين، والتقى الفريقان قريباً من جبل « حيدران » بالجنوب الشرقى على الطريق المتسع بين قابس والقيروان ، وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس ، فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم عليهم، فقال لهم مؤنس بن يحيى : ما هذا يوم فرار . فقالوا : أين نطعن هؤلاء

وقد لبسوا الكدا غانات والمغافرة . فقال : فى أعينهم . فسمى ذلك اليوم بيوم العين .

التقى الفريقان ووقعت الواقعة قاسية عنيفه ذهب فيها كثير من فرسان الفريقين ورجالاتهم، ولكن العرب الفاتحين صدقوا فى موقفهم . وانحاز إليهم عرب الفتح الأوائل استجابة للعصبية القديمة، وانخذلت زنانة وصنهاجة عن المعز، فحاول الرجل أن يثبت فى جنده الخاص وعبيده، وكان عددهم نحو عشرين ألفاً أو يزيدون ، ولكن القتل كثر فيهم واستمرت الهزيمة عليهم، فأدرك المعز أن الصبر لا يجدى وأن للغزاة شراسة لا يحتملها جنده، وحدة ولا يردها عدده فرجع إلى القيروان، وقد غنم العرب فى هذه الموقعة كثيراً من المغانم واستولوا على كثير من المال والمتاع والفساطيط والرايات .

على أن المعز لم يهن ولم يستسلم بأزاء هذه النكبة القاصمة، فحاول محاولة أخرى لإنقاذ ملكه من أولئك الغزاة الشرسين ، فجمع جموعه مرة ثانية وخرج مبكراً فى يوم عيد النحر من تلك السنة بجيش قوامه عشرون ألف فارس وهجم على العرب وهم فى صلاة العيد واشتد فيهم القتل والطعن ، فسارعوا إلى ركوب خيلهم

وصدقوا فى الوقوف له وكروا عليه كرة عنيفة فانخذلت صنهاجة أمامهم ، فعاد المعز إلى جمع جموعه وخرج بنفسه فى جيش كبير من صنهاجة وزناتة وتصدى للعرب عند منازلهم قريباً من جبل « حيدران » فشب القتال بينهم واشتد الطعن والنزال ، ووقف العرب على عادتهم موقف صدق وصبر ، فانهزمت صنهاجة أمامهم بعد أن قتل منها ثلاثة آلاف وثلثمائة، ثم تبعتها زناتة، فثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيما ووقف موقفاً مشهوداً ، ولكن العرب شددوا عليه، ففر أمامهم وانخذل إلى المنصورية وشرع فى تحصينها فأحاطها بسور شاهق امتد به حتى أوصله إلى القيروان فى سنة أربع وأربعين وأربمائة، حتى يعصم نفسه من أذى هؤلاء العرب ويضع حداً لتحرشهم بملكه[1] .

دخولهم القيروان :

أتم المعز بناء السور، وهيهات أن يرد هؤلاء الأعراب بناء أو يعصم من طغيانهم سور، فقد تعقبوا المعز فى قرارة ملكه واندفعوا من ورائه يخربون ويعيثون حتى انتهوا إلى القيروان واقتسموا

(١) ابن الأثير .

ما فتحوه من البلاد فيما بينهم سنة ست وأربعين وأربعمائة، فكان لزغبة طرابلس وما يليها ، ولمرداس بن رياح باجة وما بعدها ، وأخذوا بعد ذلك فى محاصرة القيروان نفسها، فمنعوا عنها كل صلة بالخارج ، وشددوا على القرى والضواحى، ووقع الأذى والضرر بالناس ، وطال أمد الحصار وضجرت الرعية من طوله ؛ بل لقد استطاع الغزاة أن يقتحموا الأسوار وأن ينازلوا المعز فى داخل القيروان ، ففر السكان إلى تونس وجلوا عن منازلهم وأملاكهم نجاة بأنفسهم من بطش القوم وفتكهم، وأدرك المعز أنه لاقبل له بحماية ملكه من هؤلاء الطغاة الفاتحين ، ففاوضهم على الصلح وتخلى لهم عن القيروان وأمر السكان بإخلائها ، ونزح فى أهله وحشمه سنة تسع وأربعين وأربعمائة مع خفيره منهم مؤنس بن يحيى[1] أمير رياح الذى ذكرنا خبره من قبل ، فنزل بالمهدية على ابنه الأكبر الأمير تميم عامله على المدينة ؛ ويعقب ابن خلدون على هذه الحادثة فيقول : ودخل العرب القيروان فانتهبوها وأقام المعز بالمهدية وتنزى البوار فى البلاد[2] .

---

(١) ويذكره ابن خلدون أيضاً باسم يونس .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٩ .

ولا شك أن امتلاك العرب للقيروان قد مكنهم من ناصية البلاد، ولا شك أن هذا الغنم الكبير قد صيرهم تجاه وضع جديد، فأعادوا اقتسام البلاد فيما بينهم، وغيروا ما كانوا أجروه من القسمة من قبل، وقد كان من جراء هذا التقسيم أن فازت هلال و بطونها بنصيب الأسد، فكان لها من تونس إلى الغرب، وكان لسليم وقبائلها الشرق، وقد ظل الغرب مسرحاً للحوادث والوقائع التى تتابعت فيما بعد بين هؤلاء الأعراب و بين القائمين بالأمر على تلك البلاد .

تحطيم حصن القيروان العظيم :

ولكن كيف دخل الهلاليون القيروان ؟ وكيف اقتحموا ذلك السور المتين الذى ضرب عليها المعز؟ وكيف استطاعوا أن يحطموا مقاومة العدو داخل القيروان وخارجها؟ إن الرواية التاريخية تمر بذلك مراً عابراً لا يعدو الإفادة باقتحام السور بعد طول الحصار، ولكن القصة قد عنيت بتفصيل ذلك وصورته تصويراً رائعاً بارعاً يطابق ما يجرى فى أساليب الحروب الحديثة من ضروب الحيلة وفنون التجسس، إذ تفيد بأن الهلاليين أنفسهم قد ضجروا

من طول الحصار وثقلت تكاليفه عليهم ، ورأوا أن المدينة منيعة التحصين أمامهم، وأن أنصارهم داخلها قد طال بهم الانتظار، ولكن كل هذا لم يفت فى عضد القوم بل زاد فى رغبة زعيمهم أبى زيد الهلالى وإصراره على اقتحام السور وتحطيم مقاومة العدو مهما كلفه الأمر ، وفى ذلك يقول البيت السائر :

ولا بد من لطمة على باب تونس ولو حال دونى ودونها العقبان

وقد حاول هذا الرجل الداهية أن يمهد لسيوف قومه بالحيلة، وقد هداه تفكيره إلى ابتداع حيلة طريفة كان هو بطلها وكانت المرأة وسيلتها ، إذ خرج سرب من العذارى الجميلات ومعهن عبد أسود لم يكن إلا أبو زيد الهلالى نفسه متنكراً، ثم قصدن إلى سور المدينة فى موكب يموج بالفتنة والخلاعة، وما زلن يتصبين منصورا القائم على الباب ويلتمسن منه التفرج على المدينة والطواف بأسواقها ويغنين له أغنية مطلعها :

افتح يا منصـــور افتح باب السور ،
افتح للعـــذارى . . . .

ففتن الرجل بجمالهن وخلب بإنشادهن ، ففتح لهن ، وبهذا تمكن عبدهن « أبو زيد » من الاطلاع على الأسرار الداخلية فى

المدينة ، واستطاع أن يتصل بأنصار الهلاليين وأن يتبين مواطن الضعف فى استحكامات العدو وفى مقاومته ، ثم رجع إلى قومه بمعلومات نافعة مكنتهم فيما بعد من اقتحام السور و بسط نفوذهم على القيروان .

وثمة ناحية أخرى فى هذا المقام تشير إليها القصة وهى تدل على أن الهلاليين وأخوانهم رأوا أن يحتاطوا لأنفسهم قبل القيام بالهجوم على القيروان ، فعقدوا مجلس الشورى وقرروا أن يقوم الأمير دياب بن غانم فى مؤخرة النجوع الهلالية يحمى الإبل و يحرس الأموال و يذب عن الساقة و يؤدى حق الشيوخ والنساء والذرارى الضعيفة ، وقد قام دياب بهذه المهمة وأبدى فيها من الصرامة والمهارة ما دل على فروسيته ؛ ثم لما ابتدأ — الهجوم واشتدت وطأته اقتضى الأمر نقله إلى المقدمه لمناجزة العدو والتغلب عليه، وقد كان له فى ذلك مجال واسع تفيض القصة فى تصويره وفى تقديره .

هذه تفاصيل قد انفردت القصة بذكرها ، ونحن إذا جردناها من حواشى المبالغة نجدها سائغة مقبولة، بل أننا نلمح فى الرواية التاريخية ما يؤيدها، فقد ذكر ابن خلدون أن زغبة قبيلة دياب

قد قدر لها القوم الإقامة فى برقة أول الأمر ثم نقلت بعد الهجوم على القيروان إلى المقدمة ، وعلى أى حال فقد تم النصر للأعراب الغزاة بعد حصار شديد الوطأة و بعد وقائع وحروب دامية قاسية ، وقد صارت لهم القيروان بأموالها وقصورها .

بعد الاستيلاء على القيروان :

كان اقتحام الأعراب للقيروان وتغلبهم على ضواحيها ضربة قاسية قضت على آمال المعز بن باديس وهدت كيان الدولة الصنهاجية الفتية ، فذهبت بما كان لها من عز ومجد ، وأتت على ما كانت فيه من النعيم الوارف والبذخ الفياض ، ولقد رآها العمال والولاة فى دولة المعز فرصة سانحة فاستقل كل منهم بما تحت يده حتى صارت الدولة الكبيرة إلى جملة ولايات كل ولاية منها تحت حاكم مساط أو ثائر متمرد .

على أن الشر قد استحصد إلى أبعد من هذا الحد إذ أمعن الهلاليون وإخوانهم فى مضايقة المعز وتعقبه ، فنزلوا عليه المهدية وضيقوا عليها بمنع المرافق و إفساد السابلة ، فاستكان الرجل لما كان ، وصبر عليها محنة قاسية تحيق بكل عزيز ، وقضى بقية أيامه

على مضايقة هؤلاء الأعراب بالتقرب منهم والمحالفة معهم والإصهار إليهم حتى مات سنة أربع وخمسين وأربعمائة .

وبويع من بعده لابنه تميم بن المعز فحاول أن يدرك شيئاً من العرب فغلبوه على أمره وحاصروه فى الدائرة الضيقة التى تركها له والده ، فلم يكن له إلا ما ضمه السور من سوسة على ساحل البحر إلى قابس؛ ولما تمت الغلبة للقوم على الصنهاجيين مضت جموعهم فى طريقها تأتى على الضواحى والأمصار و بلاد الزاب ، فاصطدموا فى ذلك بقبائل زناتة وأحلافهم من البربر ، وكانت زناتة كالهلاليين فى شراسة البداوة وصرامة الطباع وشدة البأس والتمرس بأساليب الحرب ، فصاحوا بالهلاليين صياح جنود وجهت لجنود ، وجهز صاحب تلمسان من بنى خزر لملاقاتهم بقيادة وزيره وقائده أبى سعدى خليفة، فكانت بينهم حروب ووقائع انتصر فيها الهلاليون وقتلوا أبا سعدى بنواحى الزاب ، وبسطوا سلطانهم على الضواحى من جميع الجهات، وعجزت زناتة عن مدافعتهم فصالحوهم عليها واستكانوا لبطشهم .

دبيب النزاع والخلاف :

ولم يكن هؤلاء الأعراب عندهم الاستعداد لبناء ملك مستقل ولا فيهم الميل إلى توطيد دولة متماسكة لها شخصيتها ولها طابعها، ولكنهم كما قلنا كانوا أهل بداوة وشراسة ، فظلوا يقيمون بالضواحي ويتنقلون بين المرابع والمشاتى. يقطعون الطرق ويفسدون السابلة ويقعدون لملوك أفريقية والمغرب بالمراصد ويأخذون منهم الأتاوات على التصرف فى أوطانهم كما يقول ابن خلدون ، وقد ظلوا هكذا يتدافعون مع القبائل الأخرى على الأمصار، ويعينون الملوك والولاة فى تحقيق أغراضهم ويعضدون الثوار فى نيل أطماعهم نظير ما يتقاضونه من الأتاوات والهبات .

ولكن أرأيت إلى النار يأكل بعضها بعضاً إذا لم تجد ما تأكله؟! لقد غدا هذا شأن هؤلاء الأعراب، فانهم لم يلبثوا أن أخذوا يتقارعون على البلاد والمحلات ، إذ أخذ ملوك صنهاجة وزناتة يوقعون بينهم ويسلطون بعضهم على بعض، ولعلك تذكر مما قدمنا لك أن الخلاف كان مستعراً بين هؤلاء الأعراب أيام كانوا بمصر، وأن الخليفة الفاطمى أصلح بينهم حين أرسلهم إلى

أفريقية؛ فكان من الطبيعي أن ينكأ هذا الخلاف القديم وأن يشب أوراه لأدنى قدح، وأن يمتد إلى خلاف بين جميع البطون والقبائل تقضى به العصبية البدوية. هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فأنهم كانوا يتنافسون على النزول في المواقع وعلى الرياسة والسيطرة، ومن ثم كانوا يختلقون في معاونة الملوك من أصحاب الولايات والإمارات، وكأن هؤلاء الملوك والولاة تبينوا هذا الضعف في تماسكهم فدخلوا عليهم من هذه الناحية، فكانوا يحتمون من بعضهم ببعضهم الآخر؛ ولهذا كله استفحل الشقاق والصراع بين هؤلاء الأعراب بعد أن كانوا وحدة تمسكهم الغاية المرموقة ويضمهم الغرض المشترك.

وأكثر من هذا فقد دب الشقاق والصراع بين بطون الأثبج وهي أقوى بطون الهلاليين وكانت لهم الرئاسة، ولكنهم لم يكادوا يفرغون من قتال صنهاجة حتى وقعت الفتنة بينهم، وذلك أن الحسن بن سرحان وهو من دريد قتل شبانة بن الأحيمر من كرفة غيلة، فطوت كرفة له على الهائم، ثم إن أخته الجازية غاضبت زوجها ماضي ابن مقرب من قرة ولحقت بأخيها فمنعها منه، فاجتمعت قرة وكرفة على فتنة الحسن وقومه، وظاهرتهم عياض،

ولم تزل الفتنة قائمة إلى أن قتل الحسن بن سرحان . قتله أولاد شبانة بن الأحيمر وثأروا منه لأبيهم ، ثم كان الغلب بعده لدريد على كرفة وقرة وعياض ، وهكذا ظل التناحر بين هذه البطون دواليك .

على هذه الحال لبث الهلاليون وإخوانهم فى الشقاق على أنفسهم والثورة على الملوك والولاة الذين يحكمون الأمصار ، وعلى هذه الحال لبثت أفريقية فى جميع نواحيها وما يتصل بها من بلاد المغرب وهى مسرح للفتنة والثورة ومجال للنزاع والنزال مما أدى إلى خراب البلاد والإضرار بالعباد ، وزاد فى سوء الحال واستفحال الخراب توالى الهجمات الخارجية على الشواطئ وطمع أمم النصرانية فى أقاليم أفريقية مما يطول شرحه وليس هذا البحث القصير موضع تفصيله .

ظهور دعوات جديدة :

ولما ظهرت دولة الموحدين وتم لها السلطان على سائر دول المغرب فى أواسط القرن السادس للهجرة ، وزحف شيخهم ابن عبدالمؤمن على أفريقية ، كانت له مع هؤلاء الأعراب أخبار وأحداث

طويلة . ذلك أنهم عاهدوه على الطاعة والولاء فى أول الأمر ، ووفد عليه أميرا الأثبج وجشم لهذا العهد فتلقاهما بالإكرام وعقد لهما على قومهما ، ولكنهم عادوا فنقضوا طاعة الموحدين وخرجوا على ولائهم ، فنازلهم الموحدون ، فوقف العرب لهم وأثبتوا فى مستنقع الموت أقدامهم كما يقول ابن خلدون ، ولكنهم لم يصبروا على الثبات فاستلحقهم الموحدون وغلبوا عليهم وغنموا أموالهم وأسروا رجالهم وسبوا نساءهم ، فاضطروا إلى الإذعان للموحدين والدخول فى دعوتهم ، وأطلق ابن عبد المؤمن أسراهم وأرجع أموالهم ، وجرت بينهم الأمور على الود والتحالف ، وكانوا للموحدين أكبر عون وسند فى غزو بلاد الأندلس وتأديب الأقاليم الثائرة عليهم .

ثم كانت فتنة ابن غانية وخروجه على الموحدين ومنازلته لهم فى بجاية سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، فمالت إليه قبائل جشم ورياح وجمهور الأثبج من الهلاليين وانحازت ، رغبة إلى الموحدين ، ونزل بنو غانية فى جموعهم إلى قابس وطلبوا إلى الخليفة العباسى ببغداد تجديد العهد لهم فعقد لابن غانية وأذن له فى حرب الموحدين ، واجتمعت له قبائل بنى سليم وظاهره بعض ولاة الأقاليم ، وخرج ابن غانية فى جيوش جرارة من هذه القبائل ، فاستولى على الضواحى

وافتتح بلاد الجريد وقفصة وغيرها من المدن، فنهض إليه المنصور صاحب الموحدين فى جيوش جرارة ، فهزمهم ابن غانية فى أول الأمر ، فعاود المنصور الهجوم عليه من ناحية تونس فهزم جموعه هزيمة منكرة وما زال يمعن فى تتبعهم حتى شردهم فى صحارى برقة، وعادت جموع الهلاليين وإخونهم إلى الإذعان له والدخول فى طاعته، فنفاهم إلى المغرب الأقصى وأنزل جشما ببلاد تامسنا ورياحاً ببلاد الهبوط ، وأبقى زغبة فى مكانها من المغرب الأوسط بين مصاب وجبل راشد بعد أن اعتزلوا إخوانهم الهلاليين وتركوا مكانهم الأول بقابس وطرابلس .

نهاية القوم :

واستمرت على ذلك أحوال هذه القبائل من هلال وسليم وأتباعها كما يقول ابن خلدون وهم على طبيعتهم فى التنازع والتصارع، والأيام تعلو بهم وتنزل، والأحداث تعطيهم وتأخذ منهم حتى انقرض من بطونهم من انقرض وبقى منهم أعقاب وفلول فقدوا شخصيتهم وضاعت سطوتهم، وانطوت فى بطون الأيام

وتصاريف الأقدار سيرتهم ، سنة الله في سائر خلقه وطبيعة الزمن في معاملة أهليه .

وأما بعد ، فهذا مجمل لتاريخ أولئك القوم ، أوردناه ليكون أساسياً لما نأخذ فيه بعد من دراسة القصص الذي يحكى عنهم ، والذي يسمر به أهل مصر في ناديهم ، وهم لا يعرفون أن من التاريخ حقيقته ، ولا يحسبون أن له أصلاً صحيحاً في حكايته ولكنا نرى من الوفاء لحق التاريخ ولواجب البحث أن نقول كلمة في النتائج التى تحققت من خروج أولئك العرب إلى أفريقية قبل أن نمضي في وجهتنا .

نتائج وآثار :

ومن أجل أن نقف على النتائج والآثار التى حققتها غزوة بنى هلال وإخوانهم لأفريقية ولما يتصل بها من الأقاليم . لابد من أن نرجع بالنظر إلى صلة العرب بتلك البلاد ، وأن نعود إلى تاريخ دخولهم إليها ، وهو تاريخ طويل يمتد إلى صدر الإسلام ، إذ استطاع القائد الإسلامى العظيم عقبة بن نافع أن ينتزعها من تحت الروم ، وأن يخضع القبائل البربرية التى تقطنها لحكم الإسلام ، وأن

يؤسس مدينة القيروان فى سنة خمسين للهجرة ، ولكن هذه الغزوة التى قام بها عقبة لم تكن فى الواقع كافية لتوطيد سلطان العرب على جميع الأقاليم ، ولم تكن حداً فاصلاً بين عهدين فى تاريخ تلك البلاد ، إذ ظلت أهم المدن والحواضر الحصينة فى يد الروم ، وظل البربر يناهضون الفاتحين فى مناسبات عديدة حتى اضطر زهير بن قيس خليفة عقبة إلى التقهقر أمامهم ، فلما جاء من بعده حسان بن النعمان استطاع فى عام تسع وسبعين للهجرة أن يخضع البربر لسلطانه، وأن ينتزع جميع الحواضر من يد الروم حتى قرطاجنة العظيمة .

وقد ظلت أفريقية منذ الفتح ولاية يرعى شئونها عامل مصر ويقوم بتدبيرها فيما يقوم به من الأعمال ، فلما كان عام ثمانية وثمانين للهجرة صارت ولاية قائمة بنفسها ولى عليها موسى بن نصير من قبل الخليفة فى دمشق ، على أن تلك البلاد ظلت مسرحا للتنازع والثورات العنيفة التى تزعزع أمامها سلطان العرب ، وفى عهد الخليفة المنصور العباسى حاول العرب توطيد سلطانهم مرة أخرى فى أفريقية فنجحت المحاولة إلى حد ما ، ثم قامت دولة الأغالبة وانبسطت نفوذها على الإمارات والأقاليم ، ولكن هذه

الدولة لم تكن تابعة للعباسيين إلا اسما فقط ، ثم كانت الدعوة الفاطمية الجارفة ، فمد الفاطميون سلطانهم على سائر أنحاء أفريقية وأقاليمها ، فلما انتقلوا إلى مصر أقاموا عليها واليـاً من قبلهم وتوطدت صلتهم بها على هذا الوضع حتى خرج ذلك الوالى عليهم وانحاز إلى الخلافة العباسية وخطب للخليفة العباسى فى دمشق ؛ فكان أن أرسلوا ببنى هلال وإخوانهم لإخضاع ذلك الوالى وإعادة هيبتهم فى تلك البلاد على ما مر بك من قبل .

فأنت ترى من هذا العرض التاريخى الموجز أن بلاد أفريقية وما يتصل بها من الأقاليم ظلت عهداً طويلا ميداناً للغزو والفتح، وأن صلة العرب بهذه البلاد ظلت عند وضع محدود مقدر ، وأن سلطانهم عليها بقى مزعزعا يتراوح بين الاستقرار والتقلص ، وأن القبائل البربرية التى كانت تقطن تلك البلاد بقيت قوية الشوكة واسعة الصولة راجحة بعددها وعصبيتها . فلما تمت رحلة عرب الهلالية وإخوانهم إلى تلك البلاد وجرى ما جرى من حروبهم فيها وقراعهم عليها، كان لذلك آثار واضحة فى تغيير الوضع السابق والاتجاه بالحياة هناك إلى وضع جديد له مظاهره وخصائصه ، وكان من أبرز هذه الآثار أن زادت نسبة العرب على نسبة البربر من

السكان الأصليين ، وأن استعربت تلك البلاد استعراباً إن لم يكن كاملا فهو أقرب إلى الكمال، حتى لقد فقد البربر كثيراً من مميزات شخصيتهم وقوميتهم تحت تأثير شخصية أولئك الأعراب القوية ونفوذهم الواسع ، فهجروا لغتهم ولهجاتهم تدريجاً وفقدوا أيضاً اسمهم القديم كما تقول دائرة المعارف الإسلامية .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن شراسة أولئك البربر قد خمدت تحت ضغط أولئك الأعراب وسيطرتهم حتى استطاعوا أن يتغلبوا على قبيلتي زنانة وصنهاجة العريقتين اللتين كانتا تسودان الصحراء الغربية فى القرون الأولى للهجرة، واللتين كانتا العقبة فى طريق الفتح الإسلامى لتلك البلاد ، فأخضعوهما لسلطانهم وفرضوا عليهما الجزية والأتاوات، ومن ثم أصبحت كلمة صنهاجى مرادفة تقريباً لكلمة عبد أو رقيق[1] . ومن ثم نستطيع أن نقول إن استعراب الأقطار المعروفة الآن بشمال أفريقية مدين فى وجوده لغزوة الهلاليين ، ولولا هذه الغزوة لبقى الجنس البربرى هو المسيطر على تلك البلاد بعاداته وتقاليده ونفوذه وسيطرته .

---

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية المادة الخاصة بالبربر

على أن دخول بنى هلال إلى بلاد أفريقية وإن غير فيها وضع الحياة من هذه الناحية، فإنه لا شك قد حفظها من ناحية أخرى هى ناحية الروح والمظهر. ذلك لأن البربر الذين كانوا يقطنون تلك البلاد من قديم إنما كانوا قبائل يحيون حياة البدو فى الأخذ بأوضاع العيش وأساليب الحكم والعمران؛ ولقد عاشوا طول حياتهم متألبين على أوضاع الحضارة الطارئة عليهم سواء على يد الروم أو بالفتح الإسلامى من بعد، فكان دخول العرب الهلالية إلى تلك البلاد امتداداً لهذه الروح واستمراراً لهذا الوضع، ولقد ظلت هذه الروح البدوية مسيطرة على تلك الأقطار آماداً طويلة، ولا تزال آثارها باقية واضحة إلى هذه الأيام فى الأقاليم والسهول والهضاب والصحارى التى تكتنفها، ولقد كانت هذه الصبغة البدوية التى تعيش عليها القبائل التى هناك إلى الآن والتى تشيع فيها النخوة العربية والنعرة البدوية هى الصخرة التى ارتطم بها الاستعمار الفرنسى ثم الاستعمار الإيطالى من بعد... إذ وقفت تلك القبائل السنين الطويلة تحمل سلاحها فى وجه الاستعمار الغاشم، تأبى الخضوع والإذعان، وتؤثر الموت والتشريد على حياة الذل والاستعباد، وليست مقاومة الأمير عبد القادر الجزائرى

لفرنسا ومجاهدة الشهيد عمر المختار لإيطاليا إلا مظهراً لتلك النخوة البدوية التى سيطرت على تلك البلاد قروناً طويلة وامتدت فيها متسلسلة من قبائل البربر إلى قبائل بنى هلال .
وهناك أثر آخر لدخول بنى هلال وإخوانهم إلى أفريقية ، وهو فى مبعثه أثر نفسانى كان نتيجته تلك الحروب الدموية التى طالت بين هؤلاء الأعراب وبين سكان تلك البلاد ، وما أدت إليه من ضروب القوة والعنف وفنون النهب والسلب ، ثم ما صبغت به الحياة فى نفوس أولئك الناس من الخروج على الأوضاع والاستهانة بالحدود والزواجر ، فكان ذلك مما دعا إلى ظهور كثير من أصحاب الدعوات الدينية أو التى تلبس لباس الدين ، يدعون دعوتهم إلى الإنابة والأخذبما يرون من التعاليم المنقذة ، و إنهم ليجدون فيما يتفشى فى الحياة القائمة من ضروب الظلم واستحكام الجهل ذريعة لهم وشعاراً لدعوتهم ، ولقد كثر عدد هؤلاء وتتابع فى ألوان وأساليب تتفق فى أصولها و إن اختلفت فى تفاصيلها ، ولو أن مؤرخا أراد أن يسطر تاريخ هؤلاء الدعاة وما كان لدعواتهم من أثر وما قامت عليه من الأسباب والمسببات ، لكتب فى ذلك تاريخاً حافلا ولوجد مادة واسعة للافاضة لايجدها على هذا

الوضع فى ناحية أخرى فى تاريخ الأقطار الإسلامية ، ومن العجب أن أصحاب تلك الدعوات كانوا يجمعون الأنصار ويجندون من حولهم الأعوان ، وكثيراً ما كانت تتفشى دعواتهم ودعاياتهم ثم يصيرون هم الآخرون مصدر عنف وظلم ولون من الحياة القائمة لا يختلف إلا فى اسمه ولفظه .

وهنا لابد من وقفة قصيرة ، فإن جميع المؤرخين الذين أشاروا إلى غزو الهلاليين لأفريقية قد شنعوا على القوم بما اقترفوا من ضروب السلب والنهب ، واتهموهم بالغلظة والقسوة فيما اجترحوا من فنون الفساد والفتك ، حتى ابن خلدون الذى حفل بأخبارهم وأثنى على بطولتهم شنع عليهم بهذه التهمة فى غير موضع ، وقد وصفهم أحد المؤرخين المعاصرين بأنهم كانوا جندا همجا لا يخاف الله ولا يحترم المخلوق . والواقع أن هؤلاء الأعراب كانوا لا يبقون على شىء فى طريقهم كما قلنا من قبل ، وقد نهبوا المدائن والزروع والثمار ولكننا نستطيع أن نلتمس لهم فى ذلك علة تبرر هذا العمل أو على الأقل توضح الدافع لهم على هذا العبث وذلك الفساد . ذلك لأن هؤلاء الأعراب قد نزحوا الى أفريقية

---

(١) تاريخ تونس للاستاذ حسن عبد الوهاب

كجند طارق بن زياد حين فتح الأندلس، ليس لهم من القوت والعتاد إلا مايستخلصونه من أيدى العدو .. فلأجل أن تأكل هذه الجحافل الكبيرة، ولأجل أن تجد من العتاد ما يعينها على الفتح، كان لابد أن يعمدوا إلى ماعمدوا إليه من الإتيان على كل ما تصل إليه أيديهم .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نعرف أن هؤلاء الأعراب قد نشأوا على البداوة ودرجوا على الخشونة، وكانت حياتهم فى نجد وفى مصر حياة رحلة وانتقال وإغارة وسلب ، فلم تكن للمدن وللزروع فى نفوسهم من التقدير والاعتبار ما لها فى نفوس أهل الحضر الذين استطابوا العيش فى ظلالها والإقامة فى رحابها ، وكأنى بهؤلاء الأعراب قد أرادوا بصنعهم هذا أن يزيلوا كل أثر للحضارة فى تلك البلاد وأن يطبعوها بطابعهم وأن يخلعوا عليها مظهر بداوتهم الذى يؤثرونه لا الذى يؤثره غيرهم، حتى لا تكون فيما بعد وجهة طامع أو مقصد فاتح، وحتى لا يرجع الخليفة الفاطمى فيستخلصها منهم حباً في خيراتها وحرصاً على ثمارها وعمرانها .

على أن هناك ناحية فى التعليل من الوجهة النفسية لا يصح أن نغفلها فى هذا المقام ، وهى ناحية لا تتصل بهؤلاء الأعراب

وحدهم ولكنها شاملة لجميع القبائل البدوية ، فإننا إذا ما رجعنا إلى التاريخ نجد جميع هذه القبائل كانت فى فتوحاتها وفى غزواتها تركب العسف والشطط ، وتسلك طريق النهب والفتك ، وتأتى على معالم الحضارة فى كل مكان تنزل به ، كأنهم بهذا يشبعون غريزة مكبوتة فى نفوسهم ، ويرضون بهذا التشفى من أولئك الحضريين الذين اعتزوا عليهم بوفرة النعيم وتعالوا عنهم بما يملكون من مناعم الحياة ، ولم يشذ عن هذا إلا عرب الفتح الإسلاميون ، لأنهم وجدوا فى تعاليم الدين رادعا يردعهم عن اقتراف هذا المنكر وقد كانوا فى غزوهم مبشرين بالدين أكثر منهم طامعين فى التسلط على غيرهم .

اننا لا نقصد بهذا دفاعا عن البربرية وسياسة التخريب ، ولكنا أردنا أن نكشف عن الباعث الذى حمل القوم على صنيعهم من الوجهة التاريخية ، وأن ندل على أنهم ما جروا فى هذا إلا على سنة أمثالهم من القبائل البدوية ، فمن الإسراف أن يلعنهم المؤرخون بهذا الصنيع ، وأن يشنعوا عليهم بهذه الفعلة ، وأن يطلقوا القول فى ذلك إطلاقا من غير تبرير ولا تعليل .

[illegible]

..

الفصل الثانى

كيف نشأت قصة بنى هلال وكيف تطورت ؟

نشأة القصص الإسلامى :

فى حكاية سيف الملوك وبديعة الجمال من ألف ليلة وليلة «أن مملوك التاجر حسن عند ما أراد أن يبرح دمشق رأى شاباً يجرى وهو يتعثر بأذياله . فقال له : مابالك تجرى وأنت مكروب ، وإلى أين تقصد؟ فقال الشاب: هنا شيخ فاضل يجلس كل يوم على كرسى فى مثل هذا الوقت يحدث حكايات وأخباراً، ويروى أسمارا ملاحا لم يسمع أحد مثلها، وأنا أجرى حتى أدرك موضعاً قريباً منه، لأنى أخاف أن لا أجد ذلك من كثرة الخلق . فقال المملوك له . خذنى معك. فقال الفتى : أسرع فى مشيتك . فأغلق المملوك بابه وأسرع فى السير معه حتى وصل إلى الموضع الذى يحدث فيه الشيخ بين الناس، فرأى شيخاً صبيح الوجه يجلس على كرسى يحدث الناس، فجلس قريباً منه ، وأصغى ليسمع حديثه ، فلما جاء وقت الغروب فرغ الشيخ من الحديث وانفض المجلس ... »

وإنما أوردنا هذه الحكاية لأنها تصوير صادق لحال المجتمع الإسلامي وبخاصة في العراق ومصر ، بعد أن سقطت الهمم وانحلت العزائم وخضدت شوكة الخلافة بما منيت به من شرور الفتن ومآثم الكيد ومطامع الخارجين ، ولعل من المعروف أن القصص كان أداة استغلتها السياسة الإسلامية منذ فجر الاسلام في الدعاية والترويج والغض والتشنيع ، ويقولون إن معاوية ابن أبي سفيان كان أول من أخذ بهذا السبيل ، فكان أول من ولى رجلا على القصص واهتم بشأنه . ولقد روى ابن أبي الحديد عن جعفر محمد بن على الباقر أنه قال : « لم نزل أهل البيت نستذل ونستضام ، ونقصى ونمتهن ، ونحرم ونقتل ، ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال الشر في كل بلدة فحدثوهم الأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنا مالم نقله ولم نفعله ليبغضونا الى الناس ، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن . . . »

ومهما يكن من شيء ، فإن القصص في زمن معاوية و إلى عهد من بعده ظل يجرى في دائرة الدين وما يتصل بمناقب الرجال

ومثالبهم، ثم لم يلبث ان ظهر القصص الأدبى، فكان الرواة يتلقفونه من أهل البادية ، و يحدثون به عند الخلفاء والولاة وفى مجلس الخاصة، فلما كان النصف الأخير من القرن الثالث للهجرة، وكانت عوامل الانحلال قد تسربت إلى المجتمع الإسلامى وإلى جسم الدولة تحول القصص إلى أداة لهو وتزجية فراغ، وصار القصاص يتاجرون به بضاعة رابحة رائجة عند العامة، حتى لقد كانوا يجلسون للتحدث به على قارعة الطريق ؛ وإنك لتستطيع أن تتصور حقيقة هذه الحال فيما رواه الطبرى فى حوادث سنة ٢٧٤ للهجرة إذ يقول: « وقد تقدم الخليفة المعتمد إلى العامة بلزوم أعمالهم وترك الاجتماع والعصبية ومنع القصاص من القعود فى الطرقات على جانبى بغداد . . . » .

المجتمع المصري والقصة :

إلى هذا الوضع تحول القصص فى المجتمع الإسلامى ، وعلى هذا الوضع انتشر القصاص فى العواصم والأمصار يحدثون العامة ويحكون لهم ويشبعون رغباتهم بالتزيد والتهويل والاختلاق والتطويل ، ولقد امتازت مصر فى ذلك بالمكان الأول و بخاصة

فى القرن الرابع عند ما تم الحكم فيها للفاطميين ، إذ أقام هؤلاء الدعاة الدهاة حكمهم بالدعاية أكثر مما أقاموه بالسيف ، ومهدوا الطريق إليه بالترغيب أكثر مما مهدوه بالعسف ، وكانوا من ذلك عند خطة مرسومة وطريقة بارعة تمتلك نفوس العامة وتستهويهم فدخلوا عليهم بالقصص فيما يتصل بالحرب والسياسة والدين والخلافة والأساطير والخرافات ، وكان القصاص الحكوميون يجتهدون فى وضع الأخبار والأسمار ، والقصاص الشعبيون يسايرونهم فى هذا الوضع و يجارونهم على هذا النهج ، والمصريون كما يقول ، الأستاذ الزيات : « سكان قطر زراعى ملموم الرقعة متصل العمارة يجود بالخير الكثير على الجهد القليل ، فكان لذلك أهله قليلى الأسفار يؤمنون بكل خبر ، كثيرى البطالة يميلون إلى اللهو والسمر » ، ومن ثم لم يمض إلا قليل حتى استطاع أولئك الفاطميون الطارئون على البلاد أن يصبغوا المجتمع المصرى بصبغتهم ، وأن يكيفوه على غايتهم ، وأن يخرجوه صورة مطابقة لظاهر دعوتهم ودعايتهم ، فكانت القاهرة أشبه بالسامر العامر ، كل يوم عند موسم جديد ومهرجان حادث وقصص يروى وأحاديث تشاع ، والناس فى الأندية والمجالس يقبلون على هذا متلهفين ، و يتقبلونه مبتهجين

مطمئنين ، ينحدر إليهم من أفواه القصاص سمراً شهياً ممتعاً ، ثم يرددونه عنهم ، وفيه ما فيه من التزيد والإغراق .

ولقد ظلت هذه الصبغة هي طابع المجتمع المصرى فى العهود التى توالت بعد الفاطميين ، ولا تزال بعض ألوانها إلى اليوم تبدو مقبولة محبوبة وإن كانت محصورة في طبقات خاصة، ولقد كان من الطبيعى أن يتميز القاص المصرى فى هذا المجتمع الخصيب ، وأن يكون محصوله فى ذلك وافراً ونتاجه وافياً، فكان أبرز وأوفى من أجدى فى هذه الناحية، وما «ألف ليلة وليلة» و«قصة الهلالية» و«قصة الظاهر بيبرس» و«قصة سيف بن ذي يزن» وغيرها من القصص، إلا من فيض براعة القصاص المصريين وقدرتهم على التحليل والإفاضة، سواء ما ابتدعوه منها ابتداعاً أو ما مدوا فيه بالتزيد والإغراق والاختراع والاختلاق . وإذا كان هؤلاء القصاص قد تناولوا « ألف ليلة وليلة » أصلا عن الفارسية مدوا فى فروعه وأساساً ارتفعوا ببنائه، فانهم كذلك فى قصة الهلالية تناولوها عن الأصل التاريخى، وأخذوها مما جرى فى رحلة أولئك الأعراب إلى مصر، ثم إلى بلاد أفريقية، وما وقع لهم من الحروب والأحداث، وانتقلوا بذلك الأصل التاريخى إلى ميدان الخيال الفسيح ، ولقد

ظلوا على طول السنين حتى اليوم يمدون فيه ويزيدون عليه ويشتقون منه، حتى كانت تلك القصة الطويلة التى نراها متداولة مدونة فى المطبوعات الرخيصة ، والتى يستوعبها أكثر العامة من أبناء مصر ، وبخاصة فى القرى والأقاليم ، وإنها لمظهر امتيازلهم وأوضح أثر ثقافى عندهم وأنفذ سلطان على قلوبهم وعقولهم .

فى أى عصر وضعت القصة الهلالية ومن الذى وضعها ؟

وأول ما يعن لنا ونحن بصدد الدراسة لهذه القصة أن نسأل على عادة الباحثين: فى أى زمن وضعت ومن الذى وضعها ؟ ولقد أشار كلوت بك فى الجزء الثانى من كتابه «لمحة عامة إلى مصر» إشارة عابرة إلى شغف المصريين بسماع هذه القصص وانقطاع الرواة للحديث بها وبعد أن أورد شيئاً مما تحكيه القصة عن أبى زيد الهلالى قال : والمفهوم أن قصة أبى زيد هذه كتبت فى القرن العاشر من الميلاد المسيحى . . .

ولكن هذا « المفهوم » الذى أورده كلوت بك مورد التسليم فى التعيين للزمن الذى وضعت فيه هذه القصة، لا يتفق وما تقرره الحقيقة التاريخية فى شأنها. لأن رحلة بنى هلال الثانية إلى أفريقية

كانت فى القرن الحادى عشر للميلاد ، وهذه الرحلة هى التى قام عليها هذا القصص وأوحت إلى القصاص بما أفاضوا فيه من غرائب الوقائع والأخطار ، وإلى الشعراء بما تغنوا به من الأغانى والأشعار [١] ، واذكر بهذه المناسبة أن طالباً توجه إلى إحدى المجلات العلمية فى مصر بالسؤال عن العهد الذى وضعت فيه قصة أبى زيد الهلالى، فأجابت بأن هذه القصة كانت شائعة في القرن الثامن للهجرة أما الزمن الذى وضعت فيه فيظهر أنه بين أوائل القرن الخامس وأوائل الثامن ، فاعجب لهذا التعيين العلمى الذى تقدر فيه مسافة الحصر بثلاثة قرون كأنه حصر العلماء للزمن الذى وجدت فيه الدنيا وتم فيه ظهور الكواكب والأفلاك والسماء والأرض . . . .

حقاً إن القصة كانت شائعة لعهد ابن خلدون، وأنا أرى أنها فى ذلك العهد كانت قد استوفت تفاصيلها واستكملت أجزاءها ، وقد أشار ابن خلدون نفسه فيما ذكره عن هذه القصة إلى أن بطون بنى هلال كانوا يتناقلونها خلفاً عن سلف وجيلا بعد جيل، أى أنها درجت على الألسن حتى عهده آماداً طويلة وأجيالا .

---

(١) راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة « ابو زيد الهلالى »

متعاقبة . وعندى أن وضع هذه القصة إنما يرجع إلى حقيقتها الواقعية ووضعها من التاريخ . ذلك لأن الهلاليين وإخوانهم حين رحلوا إلى أفريقية إنما رحلوا لأمر يهم المصريين حكومة وشعباً ، وكان من الطبيعى أن يكونوا دائماً حريصين على تسقط أخبارهم وإذاعة انتصاراتهم ، يتحدثون بذلك فى أنديتهم ومجالسهم ويتناقلونه بالرواية والحكاية ويزيدون فيه بالتهويل والإغراق على ما يرضى رغباتهم ويشبع شهواتهم فى مثل ما نرى بيننا اليوم من التهويل بأخبار الحرب واختلاق القصص المثيرة عن وقائعها، بل لقد كان المجتمع المصرى فى ذلك الوقت أخصب فى هذه الناحية على ما قدمت لك ، ولم تكن ثمة مصادر رسمية يرجع إليها فى تعرف الأخبار كما هو قائم بيننا الآن من الرجوع إلى الصحف وشركات الأنباء وبلاغات الجهات المسئولة .

قصة من وضع العصور وخلق العبقرية المصرية :

نشأت إذن القصة الهلالية بمنشأ حقيقتها من التاريخ . ودرج بها خيال القصاص والمحدثين فى السمر والإفاضة على الوضع

الطبيعى . تطول بتطاول الأيام وتهول فى براعة القصاص بما يشبع لهفة السامعين ويشبع عواطفهم من تصوير للمثل الأعلى فى البطولة وأهوال المعارك العنيفة ومغامرات الحب البارعة وتسقط الحيل العجيبة . ولا شك أن بنى هلال وسليم كانوا طرفاً مشاركا فى نمو القصة والتهويل بحقيقتها التاريخية ، إذ كانوا يتحدثون بما لهم من الأخبار والوقائع فى مقام الفخر والاعتزاز وهو مقام يدعوهم إلى المبالغة و يقتضيهم الإغراق ؛ وكانوا يتناقلون ذلك جيلاً عن جيل و يخلعون عليه من التزيد ما يكون عادة فى تناقل الحديث ، والقصاص يروون هذا عنهم وفيه تزيدهم أيضاً ؛ وهكذا كانت القصة من تزيد الطرفين وتهويل الجانبين ، وهكذا كانت أيضاً إنعكاساً لأحاسيس أولئك وهؤلاء وتصورهم وانفعالهم بمايلائم الحياة التى يحيونها والوسط الذى يعيشون فيه . وإذن فليست القصة من وضع واضع بعينه أو شخص بمفرده، ولكنها من وضع الأجيال وخلق العصور المتتابعة ، والظاهر أنها كانت فى بادئ الأمر حديثاً مشاعاً يتحدث بها الناس كما قلت فى أنديتهم ومجالسهم، ثم استأثر بها القصاص بقوة براعتهم فى الخلق والتزيد واحتكرتها

طائفة خاصة للتكسب من الحديث بها على نحو ما هو باق إلى أيامنا الحاضرة .

على أن هذه القصة وإن كانت قد وضعت فى مصر واستوفت تفاصيلها من خلق العبقرية المصرية وبراعة القصاص المصرى ، فإنها قد عبرت إلى الأقطار العربية الأخرى وشاعت عند طبقاتها وبخاصة فى شمال أفريقية . ذلك لأن تلك البلاد كانت مسرحاً للحقيقة التاريخية لهذه القصة ، وقد صارت صلة الهلاليين وإخوانهم بها أقوى وأشد ، كما كان التواصل بينها وبين مصر قوياً مكيناً ، وإن هذه القصة لتروى إلى اليوم فى تلك البلاد وفى غيرها وفيها الأثر المصرى واضح ملموس ، إذ تحكى بلغة يشيع فيها كثير من الألفاظ المصرية الدارجة والتعابير السائدة فى لغتنا العامية ، مما يدل على أنها وفدت عليهم من مصر بأصولها وتفاصيلها ، وإن القصاص هنالك ليتحدثون بها فى المجتمعات كما يحدث « الشعراء » عندنا فى مقاهى القاهرة وعلى « مصاطب » القرى فى الريف ، لا يختلفون إلا أنهم فى مصر يختصون الليل بهذا الحديث بعد أن يفرغ السامعون من أعمالهم ، وهناك يقصرون الحديث على ساعتين قبل الغروب ثم يتفرقون قبل أن يهبط عليهم الظلام .

القصة والحقيقة التاريخية :

والقصة فى وضعها تتسق مع الوضع التاريخى وتجرى فى تسلسل حوادثها على غراره ، إلا أن وضعها بالرواية ونموها بالتناقل قد أثر فى تفاصيلها وحوادثها الفرعية بالاضطراب تأثيراً واضحاً ، فأنت لا تجد ثمة أصلا صحيحاً تتفق كل الروايات عليه فى ذكر الوقائع وتقف عنده فى الأسلوب ، لا فى الكتب المطبوعة ولا فى الأحاديث الشائعة ، و إنما هى رسوم إن اتفقت فى دلالتها فهى تختلف أشد الاختلاف فى روايتها وتفاصيلها ، كما هو الشأن فى كل قصص شعبى لا تحده أوضاع علمية ولكنه يجرى متموجاً و يفيض فى مثل عواطف الشعب وانفعالاته .

ملخص وقائع القصة :

ولو أننا أردنا أن نقدم للقارىء ملخصاً وافياً بما اشتملت عليه قصة بنى هلال و إخوانهم من أروع الوقائع وأبرع الحيل وغريب الحوادث وطريف النوادر — لفاض ذلك عن المقام المحدود ، ولزاد على الشرط فى هذا البحث الموجز . فحسبنا هنا أن نورد

من ذلك بما يكفى فى الإفادة لما نأخذ به من دراسة القصة وشرح مظاهرها الفنية وخصائصها القصصية . وقد أورد الدكتور فؤاد حسين موجزاً لهـذه القصة فى مقال له بمجلة الثقافة . وعلى أنه موجز دقيق فإنه واف بالغرض . ولا بأس من أن نعتمد عليه فى ذلك . مع ما يقتضيه المقام من الحذف والإضافة ، قال الدكتور الباحث :

« نستطيع أن نقسم قصة بنى هلال إلى ثلاث حلقات : الحلقة الأولى وهى التى تروى تاريخ ظهورهم فى شبه الجزيرة العربية حتى استيطانهم بلاد « السرو » ، والحلقة الثانية وهى تحدثنا عن رحلتهم إلى بلاد نجد ، ثم الحلقة الثالثة ويطلق عليها تغريبة بنى هلال وتشتمل على حروبهم ووقائعهم فى بلاد العرب » .

الحلقة الأولى :

أما الحلقة الأولى فتبدأ بالحـديث عن بنى هلال ونسبهم وذريتهم ، فهى تقول : إن هلال بن عامر وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه قومه وأسدى إلى المسلمين معاونة قوية حتى أن النبي أسكنه وادى العباس . وقد اشتهر هلال هـذا بالشجاعة

والـكرم ، ورزق بولد سماه المنذر ، ولم يكد المنذر هذا يبلغ مبلغ الرجال حتى ترك والده وحذق الفروسية والقيام بأعمال السلب والنهب ، ثم تعرف إلى الأمير « مهذب » وتزوج بإبنته «هذبا» ولما مضى على زواجهما عشر سنوات ولم ينجب منها قرر الزواج بثانية فرحل إلى بلاد « السرو وعبادة » حيث تزوج بإبنة الملك الصالح « عذبا » ، وهنا تأتى القصة بمفاجأة قصصية غريبة فتحدثنا بأن زوجه الأولى « هذبا » أنجبت له « جابراً » بعد ذلك العقم الطويل ، كما أن « عذبا » أنجبت «جبيراً» ، ولكن لم تلبث الغيرة أن دبت بين الاثنتين مما أدى إلى نزاع عنيف فى الأسرة انتهى بطلاق «عذبا» ورحيلها مع ابنها « جبير » إلى نجد . ومن ذرية «جابر»و«جبير» رجالات بنى هلال و بطونهم الذين يمثلون أدوار البطولة في القصة وتحكي عنهم حوادثها ووقائعها ، فجابر ولد له عامر وتامر وهشام وحازم ومن نسل هؤلاء « رزق » والد أبى زيد وسرحان والد السلطان حسن . أما « جبير » فقد ولد له رياح وحنضل والنعمان . ومن ذرية رياح دياب بن غانم

ثم تنتقل القصة إلى الحديث عن « رزق » والد «أبو زيد» فتذكر أنه كان أميراً من أمراء العرب ، وأنه كان مزواجاً تزوج

من عشر نساء فلم ينجب من واحدة منهن إلا ولداً ليس له ذراعان ولا ساقان، فتزوج بامرأة تسمى « خضراء » فرزقت منه بفتاة تدعى « شيحا » ثم حملت بغلام هو « أبو زيد » . ولما كانت فى شهور الحمل خرجت للتنزه مع جارتها فرأت طيراً أسود اللون انقض على سرب من الطيور الأخرى . فقتـل بعضها وشتت بعضها الآخر، فتضرعت «خضراء» إلى الله أن يرزقها بغلام يكون كذلك الطير فى قوته وشدة بأسه ولو جاء أسود اللون، فاستجاب الله دعوتها — وولدت الغلام على ما تضرعت به إلى الله — فلما كان اليوم السابع لميلاده ، أقام والده وليمة كبيرة دعا إليها أمراء العرب ثم قدم لهم الغلام فما كادوا يرون سواد لونه حتى هالهم الأمر ، وطلبوا من والده أن يطلق « خضراء » لأنها جاءت بولد لا يشبهه ، فلا بد أن تكون خانته فيه ، فطلقها على الرغم من حبه لها وتعلقه بولده . وانتهى الأمر برحيلها هى وابنها إلى الأمير الزحلان عدو بنى هلال . فقصت عليه قصتها فأكرم وفادتها وهدأ من روعها وتعهدها وولدها بالرعاية الكريمة، وعهد بتربية الغلام إلى مؤدب أولاده ، حتى إذا شب الغلام بدت عليه شمائل النجابة والفتوة وشدة البأس ، وأولع بألعاب الفروسية

وركوب الخيل ، وابتدأ يحارب القبائل المعادية . فأظهر من ضروب البسالة ماطار بذكره ، ثم حدث أن هاجم الهلاليون بلاد الأمير الزحلان فنهض إليهم « بركات » وهجم على والده وأخذه أسيراً وهم بقتله لولا أن والدته أطلعته على حقيقة الأمر ، وكان هذا ابتداء التعارف بين الأب والابن . أما الأمير الزحلان فقد أعجب به وزوجه بابنته « غصن البان » ، ومن يوم تلك الواقعة سمى « سلامه » إشارة إلى سلامة القوم على يديه وكنوه « بأبى زيد الهلالى » اعترافاً بزيادته على الفرسان فى الحرب . و بنسبه فى بنى هلال بعد أن تمت المعرفة بينه و بين والده .

و بعد أن تفرغ القصة من الحديث على حروب الهلاليين مع الأمير الزحلان وأخبار رزق وابنه « أبو زيد » تنتقل إلى الحديث عن سرحان والد السلطان « حسن » ، فتذكر خبر تعرفه « بشما » ، ثم ما كان من وقوعها فى أسر الإفرنج ونجاتها بحيلة لطيفة ، ثم تنتهى الحلقة الأولى من القصة بكلام طويل عن حروب ووقائع الهلاليين فى اليمن والهند لا يتقيد فيه خيال القصاص بمراعاة التاريخ أو الدقة فى معرفة البلدان ، ولـكنه خيال شارد لا يطلب إلا الغرائب والعجائب التى تستهوى العامة .

الحلقة الثانية :

وتأتى بعد ذلك الحلقة الثانية من القصة ، فتبدأ بالحديث عن رحلة الهلاليين من بلاد « السرو وعبادة » إلى نجد الخضراء حيث كانت تعيش قبيلة زغبة وذرية خيبر . أعنى قبيلة الأمير غانم وابنه دياب، وتقول القصة : إن هذه الرحلة كانت من جراء القحط الماحق الذى نزل ببلاد « السرو » مما اضطر القوم إلى البحث عن مكان ينتجعونه فقصدوا إلى نجد ليعيشوا مع أقاربهم ، وكانت رحلة عنيفة ، إذ اصطدم الهلاليون فى طريقهم بيهود خيبر ووقعت بينهم حروب طاحنة تمت بانتصار الهلاليين . على أن إقامتهم فى نجد لم تكن أهدأ ، إذ حارب الهلاليون العقيلى جابر والهدبى وغيرهما من الأمراء والأشداء والقبائل المجاورة مما تحدثت عنه القصة طويلا ووصفته أروع وصف وأبدعه ، وتذكر القصة أن السلطان حسن تزوج فى نجد « بنافلة » أخت دياب ابن غانم بعد أن وعده بأخته « نور بارق » التى تعرف بالجازية ولكنه لم يحقق معه هذا الوعد وزوجها لشريف مكة . و بعد أن تتحدث

القصة عن بطولة الهلاليين وحروبهم مع القبائل تشير إلى رحلتهم عن نجد ، وبهذا تنتهى الحلقة الثانية .

الحلقة الثالثة :

أما الحلقة الثالثة فهى التى تعرف بقصة الريادة أو تغريبة بنى هلال ، وهى أحفل حلقات القصة بالحروب والأهوال والغرائب والعجائب ، وهى مدار حديث القصاص غالباً فيما يتحدثون به إلى الناس فى المجالس العامة . ولا تحفل القصة فى ابتداء هذه الحلقة بما كان من نزول القوم أرض مصر . وقد يمر بعضها بذلك مروراً عابراً ، ثم تأخذ فى الحديث عما كان من رحلة الهلاليين إلى تونس الخضراء بسبب القحط الذى نزل بأرض نجد فأضر بالإبل والخيل وهدد النجوع بالجوع والهلاك ، ففكر القوم فى الرحلة إلى بلاد الغرب لما سمعوه عن خيراتها الكثيرة وزروعها النضرة ، وهنا تبدو القصة رائعة ممتعة ، فهى تذكر أن القوم لم يتهجموا فى القيام بهذه الرحلة ، ولكنهم فكروا فيها طويلا وأمعنوا فى التدبير لنجاحها وتحقيق الغرض منها ، فاتفق رأيهم فى ذلك على إرسال بعثة للتجسس وإرتياد الحال فى بلاد المغرب ومعرفة ما عند أهلها

من الاستعداد للدفاع عنها، وقد تألفت هذه البعثة من ثلاثة فتيان من خيرة أبناء الهلالية جاهاً وشباباً وجمالا وشجاعة ، وهم مرعى ويحيى ويونس وعلى رأسهم أبو زيد الهلالى نفسه متنكراً فى زى عبد تابع لهم ، وخرج أبو زيد والفتيان الثلاثة لقصدهم بعد أن ودعهم العرب وعلى رأسهم السلطان حسن وداعاً حاراً يفيض بالعواطف الأبوية الصادقة . وسارت معهم (شيحا) أخت أبى زيد مسافة طويلة . وهى تبذل لهم النصح بالحيطة والحذر والصبر على ما يصادفهم من الصعاب والعقبات ، وتبكى بكاء مراً على فراقهم حتى نهرها أبو زيد وأمرها بالرجوع عنهم ، ثم تأخذ القصة فى الحديث عن سفر هذه البعثة وكيف وقع أعضاؤها جميعاً فى قبضة العدو، وكيف استطاع أبو زيد أن يخرج بالحيلة وأن يعود إلى الهلاليين وإخوانهم ويخبرهم بما كان من أمرهم . والظاهر أن قصة الزيادة هذه ترجع فى حقيقتها التاريخية إلى ما قدمناه فى خبر مؤنس بن يحيى أمير رياح وموقفه من القوم حين أرادوا مهاجمة القيروان ، فبسط لهم البساط وحملهم على أن يدبروا لذلك ما عندهم من الحيلة وأن يتحيفوها أولا من الأطراف .

واستعد العرب للهجوم على الغرب ، وقد أعدوا لذلك الجيوش والحشود يتقدمهم أمراؤهم وفرسانهم ، وجاءوا «بالجازية» من مكة لتكون فى الطليعة مع فتيان العرب لبث الشجاعة فى نفوسهم وقلوبهم ، وتطيل القصة فى خبر إحضار الجازية واستخلاصها من زوجها شريف مكة بالحيلة ، وقد نقلنا هذا الخبر عن ابن خلدون فى الفصل الأول ، ولكن القصة تطيل فى شرحه وتفصيله تفصيلا وافياً ممتعاً بما فيه من الحيل الطريفة والأشعار الظريفة .

ثم تفيض القصة فى الحديث عن رحلة الهلاليين إلى بلاد الغرب ودخولهم إلى أفريقية ، وما جرى لهم من الحروب الدامية والوقائع العنيفة ولقائهم فى الطريق للخفاجى عامر والملك الغضبان وشبيب التميمى والبردويل بن راشد . وفى هذا تذكر القصة أسماء ملوك وقبائل من الصعب أن نردها إلى حقيقتها التاريخية وكثيراً ما يظهر فيها خلط القصاص وتصيدهم للأسماء والوقائع تصيداً يبدو فيه التلفيق وعدم الدقة؛ ثم تأخذ القصة فى رواية ماجرى من الحروب والوقائع بين الهلاليين و بين أبى سعدى الزناتى خليفة ، وأبو سعدة الزناتى هذا شخصية تاريخية كما مر بك . فقد كان قائداً ووزيراً لصاحب تلمسان، وقد حار به الهلاليون بعد ماتم لهم

فتح القيروان والتغلب على المعزّ بن باديس. ولكن القصة تضيف كل حروبهم في أفريقية مع المعز وغير المعز إلى الزناتى هذا، وتصوره فارساً صنديداً و بطلا عنيداً من الصعب قهره والتغلب عليه حتى طالت الحروب بين الهلاليين و بينه أمداً بعيداً . وهنا تصور القصة أبا زيد الهلالى رجلا بارع الحيلة يحتال للتغلب على الزناتى بالدهاء والخيانة ، فوقف على خطة لقتله وضعتها سعدى ابنة الزناتى نفسه لشغفها بمرعى عندما كان أسيراً في سجن أبيها . ولما كان المنجمون قد أخبروا بأن الزناتى لا يقتله إلا دياب بن غانم فقد استخدم أبو زيد ديابا لهذا الغرض، واستعان بالجازية وفتيات العرب الجميلات على إثارته و بث الحمية في نفسه ، و برز دياب لمنازلة خصمه ولكنه وجد نفسه أمام خصم عنيد لا يقهر بسهولة ، ولا يمكن التغلب عليه نظراً لما كان يلبسه الزناتى من الزرد والمغافر التى تغطى جميع جسمه، فأشار عليه أبو زيد بأن يطعنه في عينه وهو يلتفت إليه عند نهاية الشوط ، وهذه الرواية قد استغلتها القصة من الحقيقة التاريخية عن موقعة العين التى أوردنا حديثها في الفصل الأول .

ولكن القصة تأتى هنا بعجيبة طريفة . فهى تذكر أن الزناتى

كان ابن جنية ، فإذا طعن فى جسمه التأمت جراحه مع صباح اليوم التالى وعاد لمنازلة خصمه كما كان من قبل ، وإذن لا بد من أن يحتال أبو زيد لهذا الأمر، فما أن علم بأن ديابا طعن الزناتى فى عينه حتى تنكر فى مظهر طبيب عربى وخرج ينادى فى الحى بمهنته . فطلبوه لإسعاف الزناتى من ألمه، فوضع له السم فى عينه ، وبهذا ضمن موته ؛ وهنا تتحدث القصة عن نهاية الزناتى حديثاً مؤثراً يفيض بالأسى والألم، فهى تروى أن الزناتى علم بفعلة أبى زيد معه ، وأن الجازية قصدته فوجدته فى موته فارساً مهاباً حتى أنها تلثمت لما رأته وكانت لا تتوارى من رجل مهما كان قدره .

وبموت الزناتى خلا الجو للعرب ، وتم لهم الاستيلاء على تونس والتربع على تخوت الغرب السبعة ، ويعرف هذا القسم من القصة بقصة « السبع تخوت وسلطنة دياب وأبى زيد وتملك الأربع عشرة قلعة » ، ويقول محرر الفهرس العربى لدار الكتب المصرية : « إنها قصة عجيبة وسيرة غريبة وهى من أحسن سير بنى هلال شعراً ونثراً . وأعجبها مقالا وأشدها حروبا ونزالا » .

وبعد أن تأتى القصة على ما تم للهلاليين وإخوانهم من تملك البلاد وقوة السلطان ، تأخذ فى سرد ما وقع بينهم من المنازعات وتجدد الخلافات القديمة والعداوات الدفينة ، فكان أن قتل الحسن بن سرحان شبانة بن الأحيمر ، وسجن دياب بن غانم ثم تحولت الأحوال وقتل دياب الحسن ووقع القوم فى نزاع مستمر وحروب طويلة أدت إلى تفرق شملهم وذهاب ريحهم وتفرق أجيالهم فى الأقطار والأمصار، وهكذا تجرى القصة فى رواية القصاص وأحاديثهم . فبعد أن تشتعل جذوة من الحماسة وتشب ناراً من الخصومة . تفيض بسيل من الدماء ، وتتأجج فيها العداوات والثارات ، ثم تنتهى هادئة لينة يغمرها الاطمئنان والاستسلام فى نغمة حزينة أسيفة ، كأنها دولة طويت ، ودنيا انفضت ، وتكون الخاتمة لأحداثها الرهيبة وأهوالها العجيبة فى حديث الشعراء والمحدثين ، « وسبحان من من له الدوام، و يبقى وجه ر بك ذو الجلال والإكرام » .

الفصل الثالث

مظاهر البطولة كما تصورها القصة

أبطال القصة بين الحقيقة والخيال :

لعل أروع ما يأخذك فى القصة الهلالية هو ما فيها من تصوير بارع للبطولة، فهى مجالى حرب ونزال، وسير أبطال ورجال، وميدان صاخب تحتشد فيه ألوان من الصور والأشكال ، ولكنك على الرغم من هذا تجد لكل بطل فيها صورته الواضحة وشخصيته المتميزة ووضعه اللازم الدقيق .

فأبطال القصة على ما بينهم من شدة المخالطة والممازجة والمزاحمة يبدون فى وضع مسرحى كله حياة وكله حركة ، فكل بطل له دوره الخاص ومكانه المقدر حسب ما يقتضيه أداء الأدوار ومجرى الحوادث ، وللمرأة فى هذه المسرحية دور هام ومكان بارز كأنه جاء مكملا للحبكة الفنية فيها والعقدة المسرحية فى وضعها ، ولو أن هذه القصة جردت من بعض التلفيقات التى كان يسخو بها خيال القصاص فى التعليق على بعض الحوادث لجاءت

نسقاً منسجماً لاشذوذ فيه ولا مؤاخذة عليه .

ومن أبطال القصة من هم بأسمائهم ونعوتهم من اختراع القصاص وابتداعهم ، ومنهم من هم أشخاص تاريخيون أضفى عليهم القصاص من النعوت والصفات وأضافوا إليهم من الخوارق والمحالات مايرغبون فيه ويميلون إليه ويرونه مما يروج فى الحديث عند العامة والجماهير . وقد ذكر ابن خلدون جملة من أبطال القصة البارزين الذين لهم وجود تاريخى[1] ، وما نريد فى هذا الفصل أن نروى لك سير هؤلاء الأبطال على ما تثبته الحقيقة التاريخية ، ولكننا نريد أن نعرض عليك صور بعض منهم كما تتجلى فى القصة لتكون نماذج أمام القارئ لما آثره القصاص فى تصوير البطولة فى القصة .

الحسن بن سرحان :

الحسن بن سرحان ، ويكنى أبو على ، ويلقب بأمير القبائل أو بملك العرب أو بملك الملوك ، وترجع شهرته الكبيرة عند العامة إلى الكرم أكثر مما ترجع إلى الحرب ، وهم يضربون

(١) راجع الفصل الأول

به المثل للرجل الكريم المضياف فيقولون : « عامل أبو على » .

والحسن أول من تذكر القصة من الأبطال وهى تقدمه دائماً فى كل موقف من المواقف وشأن من الشؤون . وإنما تحرص على تقديمه مراعاة لحكم الأوضاع التقليدية ، أو ما نسميه « نظام البروتوكول » فى التعبير الحديث، وعلى هذا نجدها تحيط شخصيته بهالة من الجلال والمهابة ، وتصور بطولته على ما تقضى به الارستقراطية الملوكية من الوقار والرزانة ، فهو جواد يعطى أضعاف ما يعطى سواه . أبى يحمى من يلوذ بحماه . شجاع يبادر فى الطليعة إلى النزال . مهذب لا يعرف إلا بحميد الخصال ، يقدر ويعفو ، ويغضب فيثأر . رأيه مسموع ، وكلمته نافذة . مسيطر فيما يتصل بشخصه وبمكانته ، ولكنه فى شؤون الرعية خاضع لرأى الجماعة ومشورتهم . يباحثهم فيما يجب من الأمر وما يصح من التدبير ، ثم يأمر بما يتفقون عليه . ويمكن أن تعتبر شخصية الحسن فى القصة أبعد الشخصيات عن التلفيق ، فلم تسبغ عليه ما أسبغت على الآخرين من الغرائب والمحالات والخوارق والخرافات ، ولكنها شخصية «ملوكية» مهذبة استمدت القصة صورتها مما كان معهوداً فى أوضاع الملوك والحكام يومذاك

على أمثل ما يجب وأحب ما يكون ، وإذا كان فى جوانب هذه الشخصية شىء من الخروج على المألوف فى الطبيعة الإنسانية ، فهو الإسراف فى الجود والتبذير فى العطاء وبذل المال فى سماحة إلى من يستحق ومن لا يستحق ، وهذه لا شك ناحية خلعها عليه «الشعراء» استجابة لأهوائهم وأغراضهم، وكثيراً ما يشيرون إلى بذخه فى الترحيب «بالشعراء» الذين كانوا ينزلون عليه ، فيبالغ فى إكرام وفادتهم ، ويضاعف فى إخراج أعطيتهم ، وهى إشارة كما ترى لا يخفى الغرض فيها ولا المطلوب من ورائها ، إذ كانوا بذلك يستحثون كرم الباذلين لهم والعاطفين عليهم .

أبو زيد الهلالى :

ويأتى بعد الحسن أبو زيد الهلالى ، وهو أظهر بطل فى القصة بل هو بطلها ومدار الحديث فيها ، وبه تعرف وتوصف ، وقد مر بك أن أبا زيد هذا كان اسمه أولا « بركات » ثم سمى «سلامة» نظراً لسلامة بنى زحلان على يديه ، وبعد ذلك أخذ يعرف بأبى زيد الهلالى سلامة ، ويكنى بأبى مخيمر أكبر أبنائه وأشجعهم، ويوصف بالأسمر لأنه كان أسود اللون ، وهو وصف

يلذ للشعراء والمحدثين ترديده وتكراره .

ونصور القصة بطولة أبى زيد تصويراً خارقا ، وتلصق به من النعوت ما هو فوق الطبيعة البشرية ، ولا تقف فى هذا عند ناحية الشجاعة والفروسية ، بل تمتد به إلى كل ناحية من النواحى التى تتصل بحياة هذا البطل العظيم من يوم ولادته إلى يوم مماته ، فهى تحكى أن مولده كان تحقيقاً لدعوة مجابة تضرعت بها والدته إلى الله ، ثم تتحدث عن حياته فتذكر أنه شب على الفروسية والنجابة حتى استطاع أن يقهر أشجع الفرسان وهو شاب حدث، مما لفت الأنظار إلى مهارته و براعته، وجعل الناس يلهجون باسمه فى أحياء العرب، وأنت قد وقفت على الرواية فى نشأته مما أوردنا قبلا فى نسق القصة والتلخيص لمواقفها ، وقد عرفته فى هذه النشأة بطلا خارق البطولة ، فذ المواهب ، موفق الخطوات ، وهكذا عاش هذا البطل فى حياته الحربية والسياسية ، وفى قيادته للجيوش ، ونكايته بالإعداء ، ورعايته للقبائل والنجوع ، فهو فى الحرب شجاع مقدام يخف إلى كل معترك ، و يتصدى لكل هجمة، ويسرع إلى منازلة كل خصم عنيد ، و بطل صنديد، فلم يخذل فى موقف من المواقف ولم يغلب فى حرب من الحروب، وهو فى السياسة

داهية واسع التقدير والحيلة ، وتبالغ القصة فى تصوير بطولته فى هذه الناحية، فتروى أنه أعطى «جراب الحيلة» ، فما كان يعجز عن التدبير لأى ورطة مهما بلغت من الصعوبة والشدة ، ولا كان يفقد صوابه أمام تحرج المواقف واستحكام الأزمات ، ولأجل أن تسبغ القصة عليه هذه الصفة إسباغاً ملائماً أعطته كل المؤهلات اللازمة لها، فكان غاية فى العلم بالسحر والتنجيم والطب والحكمة، واسع الخبرة والدراية بطبائع الرجال والنساء، عارفا بوسائل الدخول إلى النفوس ، بارعا فى استمالة القلوب ، ثم كان إلى جانب هذا كله رجلا متمسكا بإسلامه ، شديداً فى دينه ، له شخصية متسلطة فى الأمر والنهى وحزم الأمور ، ولهذا كان فى الواقع هو المدبر الحقيقى لشئون القوم والأمير عليهم ، وما كان الحسن بن سرحان إلا طوع يده ، ورهن إشارته وخلاصة ما تصفه به القصة أنه « صاحب المكر والكيد ، وفارس العرب والعجم ، والترك والديلم ... » .

دياب بن غانم :

أما دياب بن غانم فهو فى القصة ثالث الاثنين ، فتأتى شخصيته

فى البطولة من بعدها ، وتبدو صفاته معقولة أقرب إلى الواقع من الخيال ، فهو فارس حرب ، و بطل معارك ، وترتفع بطولته فى هذه الناحية بمنازلته للزناتى خليفة وتغلبه عليه بعد أن أعجز كل شجاع و بطل ، حتى أبا زيد نفسه والحسن بن سرحان كذلك . ولكن القصة تقتصد معه وتقتر فى حقه ، فلا تدع له كل هذا الفضل ، بل تذكر أن أبازيد كان يعينه بحيلته ، ويسعده بتدبير الخطط فى الضرب والنزال ، حتى إنه لما طعن الزناتى الطعنة القاتلة كان أبو زيد فى الجهة الثانية يضع السم فى جرح الفارس الصريع ليؤكد القضاء عليه .

و إذا كانت القصة قد بالغت فى التهويل عن نشأة أبى زيد ، فإنها اقتصدت اقتصاداً واقعياً فى الحديث عن نشأة دياب ، بل أهملت نشأته كل الإهمال ، فلم تذكرعنه إلا أن والده كان فارساً وكان مزواجا ، ولكنه لم ينجب من زوجاته ، ثم تزوج بأم دياب وكانت غاية فى قبح الشكل ودمامة الخلقة ، لها ناب بارز قبيح حتى قضت طول حياتها منتقبة من أجل ذلك ، وقد رضى بها غانم زوجا طمعاً فى أن ينجب منها ، فلما كان له منها دياب صبر على معاشرتها أربعين عاماً اعتزازاً بالفارس الذى حفظ اسمه فى

قومه ، وارتفع بذكره فى القبائل ، وكان دياب كلما خالف والده فى أمر أمسك بيده ورفع النقاب عن وجه والدته وقال : لقد صبرت على الرضاء بهذا أربعين عاماً من أجلك ، فيذعن دياب لأمره ويسير على رأيه .

وتصور القصة ابن غانم بطلا شديد البأس ، طويل الصبر على النزال ، قوى الشكيمة على الخصم ، ولكنه فى شجاعته متهور ضيق العطن شديد الاعتداد بنفسه مغرور بشجاعته ، وقد ارتسمت صورته هذه فى أذهان العامة حتى ليضربون به المثل : فيقولون للرجل السريع الغضب الذى لا يصبر على احتمال الأمور «أنت زغبى» ، نسبة إلى زغبة قبيلة دياب ، ومن جراء هذا التهور كان دياب يتطاول على السلطان حسن بن سرحان وأبى زيد الهلالى ، وخاصة بعد أن صرع الزناتى خليفة ، حتى أخذ يتطلع إلى الملك والرئاسة على العرب ، فكان لا بد أن تقع الجفوة بينه وبين صاحبيه ، وكان لا بد أن يعملا على كبح جماحه وأن يأخذاه بالشدة ، فكانت نهايته إلى القيد الثقيل ، والسجن سبع سنوات كاملة ، ثم أطلقه السلطان حسن بعد أن تشفع له كثير من أمراء العرب وأعيانهم ، وقد أحقد هذا دياباً فكان أن اغتال الحسن على فراشه

كما قتل أبا زيد خيانة وهو يلعب معه . هكذا تروى القصة . ولكن الرواية التاريخية تقول : إن الذى قتل الحسن هم أولاد شبانة بن الأحيمر فى ثأر أبيهم كما مر بك .

الجازية أخت الحسن :

وفى القصة صورة من البطولة الفذة لامرأة، وهى الجازية أخت الحسن بن سرحان، وتكنى بأم محمد وهو ابنها الذى أنجبته من شكر أمير مكة على ما قدمنا من خبر ذلك فى الفصل الأول . وتبدو صورة الجازية هذه صورة رائعة حقاً ، وكأن القصة بما أضفت عليها من صفات البطولة قد أرادت أن تجعلها صورة مثالية للمرأة البطلة ، وكأن هذا المعنى هو الذى استهوى المستشرق الفرنسى « بل » فجعل شخصية الجازية عنواناً لكتابه الذى قصره على هذه الناحية من التاريخ .

كانت الجازية آية فى الجمال ، تصفها القصة بأنها كانت «جميلة المنظر لطيفة المحضر ، بديعة الجمال ، عديمة المثال ، فى الحسن والكمال ، والقد والاعتدال ، وفصاحة المقال ، لا يوجد مثلها بين الخلق. لا فى الغرب ولا فى الشرق ، كأنها الشمس الضاحية،

طلعتها تنعش الصدور والأرواح ... !» ، وإلى جانب هذا كانت الجازية تتمتع بمكانة رفيعة من الجاه ، تزوجها أول الأمر شكر أمير مكة . فلما خرج الهلاليون من نجد أضروا على أخذها معهم واحتالوا على زوجها بأنهم فى رحلة للصيد فلما بعدوا بها عن الديار وعلم شكر غرضهم تألم لمفارقة زوجه ، ووجد بها وجداً شديداً ، وكلفت هى أيضاً به ، وحزنت على مفارقة ابنها منه، وتروى «لشكر» فى الجازية أشعار يقول ابن خلدون إنها تزرى بقصص المجنون مع ليلى ، فلما انتهى الهلاليون فى رحلتهم إلى برقة طلب منهم ماضى بن مقرب أميرها أن يصهر إليهم فى الجازية ، فرضوا بذلك حتى ينتفعوا بمعونة ابن مقرب ويضمنوا مشايعته لهم ، ولكن الجازية أبت وتمنعت وفاء منها لشكر ، حتى أدى ذلك إلى أزمة شديدة شغلت بال القوم ، وتطيل القصة فى تصوير هذه الناحية من حياة الجازية ، ثم تذكر أخيراً أن ماضى بن مقرب تلقى كتاباً من شكر يتنازل له فيه عن الجازية ، وبهذا حلت المشكلة ، وتم زواجها من ماضى، ولا تعنى القصة بالحديث عن حياة الجازية الزوجية بأكثر من ذلك .

أما حياتها الاجتماعية والسياسية فهى مجال الظهور والبطولة ، إذ تثبت لها القصة فى ذلك شخصية قوية لها مكانتها العالية وكلمتها النافذة ، فما كان العرب يفصلون فى أمر دون الرجوع إليها ، وتقول القصة إنها كانت تتمتع بربع المشورة فى شئون العرب وما يدبرون من الأمور ، ومعنى هذا أن المرأة كان لها من المكانة والاعتبار عند هؤلاء البدو أرحب مما يحسب لها فى أمثل النظم الديمقراطية فى العصر الحديث ، وإلى جانب منزلة الرأى كانت للجازية منزلة ظاهرة فى ميدان الحرب ، فكانت فى كل معركة على رأس سرب من الفتيات الجميلات يشجعن الفرسان بأناشيدهن ، ويحركن فى الأبطال وجدانات النخوة والشجاعة والدفاع عن الحريم وحماية الأعراض ، كما كانت متقدمة فى مواقف التدبير والحيلة ، تعرف كيف تدخل على نفوس الرجال من الناحية الضعيفة ، فهى التى تصبت دياب ابن غانم وأخذت تثير فيه كوامن الشجاعة لتحمله على منازلة الزناتى والأخذ بثأر العرب منه ، وهى التى عاونت أبا زيد الهلالى فى الحيلة للدخول من سور القيروان والوقوف على أسرار الدفاع داخل المدينة مما ساعد الهلاليون على تحطيم ذلك

السور الضخم، والاستيلاء على القيروان بعد الحصار الطويل على ما قدمنا فى الفصل الأول .

فبطولة الجازية كما تصورها القصة بطولة فذة ، وإنها بمميزاتها الباهرة وصفاتها الرائعة ، لخليقة بأن تأخذ مكانتها بين بطلات التاريخ ، على وضع إن لم يصح كله من ناحية الحقيقة التاريخية فهو صورة مثالية خليقة بالتقدير والإعجاب .

الزناتى خليفة :

و يعتبر الزناتى الطرف الثانى فى القصة، فهو العدو الذى وقف فى وجه بنى هلال وصمد لنزالهم ، وأذاقهم كثيراً من الأهوال والشدائد ، وكل ما تذكره الرواية التاريخية عن الزناتى هذا أنه كان وزيراً لصاحب تلمسان ، وأنه حارب الهلاليين فتغلبوا عليه وقتلوه فى موقعة الزاب ، ولكن القصة تضعه فى صورة رائعة من البطولة ، وتحمل عليه تاريخ النضال الطويل الرهيب الذى واجهه بنو هلال و إخوانهم فى أقطار أفريقية و بلاد الأندلس، وتقف به فى مقابلة الهلاليين قوة هائلة اقتضى إخضاعها كثيراً من الجهود والتضحيات ، وكأن القصة قد أرادت بهذه المبالغات التى

نسجتها من حوله أن تمجد بطولة الهلاليين فى تغلبهم عليه ، وأن تشيد بقوتهم وشجاعتهم إذ قهروا عدواً ليس من السهولة أن يقهر.

أول ما تحكيه القصة عن الزناتى أنه كان ابن « جنية » ، فكان إذا طعن بالسيف وأريق على جرحه قليلا من « ماء الحياة » التأم لساعته مهما كان مبلغه من الخطورة ، ولهذا السبب لم يستطع فارس من الفرسان أن ينال منه منالا ، ولهذا السبب أيضاً حير أمره الهلاليين حتى ضجروا من شدة حربه ووقوفه أمامهم ، ولم يقدروا على قتله إلا بالحيلة ، إذ طعنه دياب فى عينه ووضع له أبو زيد السم فى الجرح فسرى فى جميع جسمه كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وتصف القصة الزناتى فى بطولته بأنه كان فارساً شجاعاً واسع الدراية بأساليب الحرب والحيلة فيها ، صعب المراس ، له حربة رهيفة ، تقد الصخر المتين ، فدانت الدنيا لسيفه ، وأذعن الشجعان لبطشه ، ولما اقتحم بنو هلال بلاده نفر اليهم فى جيوشه ، وثبت لنزالهم ، وصبر على حربهم فى عناد و إصرار حتى أفنى كثيراً من شجعانهم ، وقد كان لشدة غيظه منهم يلجأ إلى أعنف أساليب القوة والرهبة ، فكان إذا ما قتل فارساً من بنى هلال اجتز

رأسه وعلقه على سور القيروان إرهاباً لهم وتشنيعاً عليهم ، وكأنه بهذا الصنيع الشنيع يحارب أعصابهم و يقصد إلى تحطيم الروح المعنوية فيهم مما يعتبر أساس النصر فى أساليب الحرب الحديثة .

وكان الزناتى يعرف أن مصرعه لا يكون إلا بيد دياب بن غانم كما أنبأه بذلك المنجمون وأهل السحر والعرافة . وكان الهلاليون يعرفون ذلك أيضاً ، فلما ضاقت بهم الحيلة وضجروا من عناد الزناتى وشدة مراسه ، أرسلوا إلى دياب وهو فى مؤخرة النجوع يثيرون نخوته بما قتل الزناتى من قومه ، فركب دياب إليه وناداه إلى النزال ، فلما علم الزناتى بذلك أيقن باقتراب مصرعه . ولكنه نزل لحرب دياب فى صبر وثبات و براعة تطيل القصة فى شرح مواقفها وتحكى بالتفصيل دقائق وقائعها ، وقد طالت الحرب بينهما حتى ضجر من طولها الزناتى كما ضجر دياب ، وأخيراً استطاع دياب أن يصرع خصمه بخيانة سعدى بنت الزناتى لأبيها ، و بموت الزناتى انتهت دولته لأنه كان البطل الوحيد فى قومه ، ولم يثبتوا من بعده لحرب الهلاليين إلا قليلا ثم أذعنوا لطاعتهم .

سعدى بنت الزناتى :

ولسعدى هذه موقف هام فى القصة وصورة أخاذة بما يشيع حولها من السمات والصفات والأقاويل والإشاعات ، وبما يفيض القصاص عليها من العواطف المتأججة والغرائز المتلهفة والآمال المكبوتة . أما الرواية التاريخية فلا تعرض لها بشىء إلا ماتذكر من أن والدها الزناتى كان يلقب بأبى سعدى ، ومن الجائز عند العرب أن يلقب الرجل بابنته وأمه كما يلقب بابنه وأبيه ، فلعل هذا كان من الجائز أيضاً عند البربر .

وهناك رواية فى نسب قبائل السعادى التى تنتشر فى برقة وبعض جهات مصر تقول إن هؤلاء العرب من سلالة امرأة تسمى سعدى من زناته ، وهى بنت عظيم من عظمائهم أخذت فى حرب ابن باديس .وتزوج بها زعيم بنى سليم إذ ذاك ، وكان رجلا عظيما يسمى بالذئب ويلقب بأبى الليل ، ويقسم أولاد سعدى إلى ثلاث قبائل : ــ البراغيث ــ والعقاقرة ــ ومواطنهم فى برقة ــ والسلالمة أو بنى سلام وهم أيضا ثلاث قبائل : المنادى ــ وبنو عونه ــ والجبالية ــ وجميعهم يسكنون بنواحى مصر ، إذ وفدوا عليها من

طرابلس فى أواخر القرن الثانى عشر للهجرة .

فهناك إذاً أصل تاريخى تقوم عليه قصة هذه البطلة ، وقد استغل القصاص هـذا الأصل استغلالا كبيراً وانتقلوا بزمانه ومكانه والوضع الحقيقى فيه إلى الوضع الذى أرادوه فى ترتيب حوادث القصةوالتشويق بغرائبها وطرائفها . حتى ليمكن أن نقول إن كل ما تذكره القصة الهلالية عن سعدى بنت الزناتى وماترويه عنها ليس إلا من إختراع القصاص وابتداع خيالهم ، وإنه لخيال خصب موفق فى رسم الصورة التى اختارها لهذه المرأة ، بل فى رسم الصورة المثالية لكل امرأة تواجه الحياة بغرائزها وتفرض ميولها وهواها على كل شىء فى الوجود وتضعه فوق كل شأن من شؤون الحياة والناس، مهما كان شأن الحياة التى تواجهها وشأن الناس الذين يعترضون طريقها .

فقصة سعدى كما يرويها القصاص ، هى فى الواقع قصة كل امرأة ، ومثيلاتها كثيرات فى التاريخ وفى الحياة الواقعية ، ولن نستطيع أن نقابل بين وضع سعدى ووضع الجازية فى القصة إلا فى الامتياز بالجمال والجاه ورفعة المكانة، ثم تختلف الصورتان بعد ذلك كل الاختلاف: فالجازية كما مر بك كانت امرأة لها

رأى راجح ومشورة نافعة وكانت تشارك فى شئون الحرب والسياسة والتدبير للملك وتحمل من ذلك عبئاً ثقيلا مثل مايحمل الرجال ، ثم كانت دائما فى موقف الغيرة على قومها ونصرتهم ، حتى لقد ضحت بحبها لزوجها الأول فى سبيل معونتهم والرحيل معهم إلى الغرب ، وعلى العكس من هذا كله كانت سعدى .

أجل ! فقد كانت سعدى على ما تروى القصة وحيدة أبيها وهو سيد قومه ، فكانت فى مقام رفيع من الجاه والمكانة . لا يرى أحد الكفاءة فى نفسه لطلب يدها من أبيها ، ولا ترى هى أن تتنزل فى قبول أحد أدنى من مكانتها ؛ ولما وقع أبو زيد وفتيان الهلالية الثلاثة — يحيى ومرعى ويونس — فى سجن الزناتى ، وساقهم إلى المشنقة بتهمة التجسس كما مر بك فى قصة الريادة أطلت سعدى للتفرج ، فوقع نظرها على مرعى ، فأخذت بجماله وعاق قلبها بحبه فأسرعت إلى أبيها بالشفاعة فى هؤلاء الغرباء الذين لا حول لهم ، والذين قد يكونون أبرياء مما نسب إليهم ، ورأت أن يسجنوا سجناً مؤبداً بدلا من إعدامهم ، فأصاخ والدها لرأيها وحقق لها رجاءها نظراً لإيثاره لها ، وبالغ شفقته عليها .

وأخذت سعدى تردد على مرعى فى السجن كل ليلة فى خفية

عن أبيها وقومها ، فتكشف لمرعى عن غرامها به وحبها له وأملها فيه ؛ ويكشف لها هو الآخر عما فى قلبه لها من الغرام والحب والأمل ، ولكنه مع ذلك مشغول بالمهمة التى تتطوع من أجلها ، حريص على الوفاء لشرف أهله وقومه، ثم هو عفيف النفس طاهر الذيل فلا يستغل شرف الفتاة فى إشباع غرائزه ، ولا يندفع للاستجابة لميولها ورغباتها ، وإنما يعدها حياة الزوجية المكرمة ويمنيها بأنه لو خرج من سجنه وأخبر قومه بهذا الحب فسيحضرون لخطبتها له وتتم لهم الأفراح والليالى الملاح ، ولكن الفتاة كانت تخشى أن يخرج من السجن فيرجع إلى قومه وينساها وهى لا تقدر على فراقه ولا تصبر على بعده . على أنها ماذا تقول لوالدها فى هذا الأمر ، وماذا تحاول وهى تعلم حق العلم أنهم جواسيس وأن ملك والدها مهدد إذا أفلتوا من إساره . . وأخيراً تغلب الحب على كل معنى آخر وفتق بالحيلة للفتاة ، فاحتالت عند أبيها لخروج أبى زيد لأنه عبد لا قيمة له ولا خطر، واغتبط مرعى لهذا الصنيع لأنه يعلم ما وراءه من الخير ، ويعلم أن أبا زيد سيعود ببنى هلال وإخوانهم ، فيغلب الزناتى على أمره ويخرج الفتيان الثلاثة من سجنه .

وجرت الأمور على ماقدر مرعى، فلم تمض إلا فترة من الزمان حتى رجع أبو زيد ومن ورائه جموع بنى هلال وسليم وإخوانهم لحرب الزناتى ، وكانت سعدى على حالها من الهيام بحب مرعى والنزول لملاقاته كل ليلة خفية ، وكان هو فى حال من القلق والاضطراب والتطلع إلى ما تجرى به الأقدار من تطور الحوادث مع قومه ونصرهم المنوط به خروجه من سجنه وكان على سلوكه مع الفتاة يعدها ويمنيها ويذكرها دائما بأنه رجل شريف ومن نسل عربى عريق لا يعرف الخنا ولا يرضى الفجور فى الحب ، فلما وصلت طلائع الهلاليين والتحمت جيوشهم بجيوش الزناتى ، حسبت الفتاة أن أملها أوشك أن يتحقق، وقدر مرعى أنه صار قريبا من أمله ، ولكن الحرب طالت بين الفريقين أكثر مما يجب ، ووقف الزناتى عنيداً فى وجه الغزاة الفاتحين ، وضجرت الفتاة والفتى من طول الانتظار أكثر مما ضجر المحاربون من قسوة النزال، وكان ضجر الفتاة أكثر، وكان الحب يستبد بعواطفها ويسلبها إرادتها حتى حملها ، على ركوب المركب الخشن، فاتصلت بالهلاليين ، ودلتهم على مواقع الضعف فى والدها وفضحت لهم أسراره الحربية ، وأنبأتهم بأن مصرعه لا يكون إلا على يد

دياب ابن غانم كما أخبره بذلك العرافون، فكان هذا مما ساعد الهلاليين على إدراك غرضهم من الزناتى وظفرهم به وبملكه .

ترى هل تكون عواطف الحب عند المرأة أقوى من عواطف البنوة ؟ وهل يكون الوفاء للحبيب أقوى من الوفاء للوالد؟ وهل يهم المرأة الظفر فى الحب أكثر مما يهمها الظفر فى الحرب؟ كل هذا تجيب عنه القصة بالإيجاب فى تصرف سعدى ، وكل هذا يتجلى واضحاً فى قصة تلك المرأة التى سحقت عرش والدها فى سبيل الاحتفاظ بقلبها وإشباع عواطفها ، أو إن شئت التحقيق فقل غرائزها ، ومثيلات سعدى كما قلت لك كثيرات ، وقد نجد هذه الشخصية فى الرجال وإن كان وجودها يكثر فى النساء .

ثم ماذا ؟ ثم كان غدر القضاء بالفتاة أقسى من غدرها بوالدها، فقد خرج مرعى من السجن ، وانتظرت منه الفتاه الوفاء فلم يفعل، فخرجت إلى دياب الذى قتل أبيها وقصت عليه قصتها وبكت بين يديه لعله يرق لحالها ، فاحتجزها فى بيته ثم طلبها لنفسه فنفرت من هذا الطلب وواجهته فى غلظة ، وتهور معها دياب وأراد أن يذل نفسها حتى تذعن له، فألبسها الخيش وقدم لها الطعام الخشن، وقضى عليها بأن تطحن الملح وأمر عبيده بالقسوة فى معاملتها وكلما

أصرت الفتاة على رفض طلبه أمعن فى القسوة عليها ، ولجأت الفتاة إلى السلطان حسن ، وشكت إليه ماقاسته من عنت دياب، فرق لحالها وأمر بأن تعيش فى بيته عيشة مكرمة، بل لقد أخذ فى حساب دياب حساباً عسيراً على فعلته ، وكان هذا من الأسباب التى حملته على سجنه ، وأخيراً تمت فصول الرواية العنيفة القاسية بأن زفت سعدى إلى مرعى .

فليس من شك فى أن خيال القصاص كان خيالا خصباً موفقاً فى خلق هذه الصورة القصصية ، وحبك مواقفها حبكا دقيقاً تضطرم فيه العواطف ، وتوزع فيه الميول والرغبات ، وقد استهوت قصة سعدى ومرعى العامة كثيراً وراج حديثها بينهم وجعلوه قصة قائمة بنفسها ، ومن منا ينسى ما شاهد وما سمع فى (صندوق الدنيا) عن هذين العاشقين ؟

البطولة كما تصورها القصة

البطولة فى القصة والبطولة عند العرب :

تلك صورة موجزة لبعض الأبطال المشهورين فى القصة ، اخترناهم من الأشخاص الذين أثبت التاريخ وجودهم ، وألمع العلامة

ابن خلدون فى تاريخه إلى حقيقتهم ، وقد أردنا بذلك أن نضع بين يدى القارئ أمثلة لما تؤثر القصة من الصفات والشمائل فى تصوير البطولة وتمييز شخصية البطل ، والواقع أن القصاص قد جعلوا الأصل فى هذه الناحية ما كان شائعاً عند العرب ، وهذا شىء طبيعى ، فان القصة قصة عربية و بيئتها عربية وأشخاصها من العرب .

فالعرب كانوا يشترطون فى البطل الشجاعة والقوة والشهامة والمروءة وهبة الشعر والفصاحة والتقوى ورقة الخلال ، والمهارة فى ركوب الخيل والبراعة فى أعمال السيف والرمح وإكرام الضيف. إلى غير ذلك مما يتجلى فى صور أبطالهم التاريخيين مثل عنترة وعمرو بن معديكرب وحمزة وعلى بن أبى طالب وخالد بن الوليد ، وهذه كلها كما رأيت صفات عامة تخلعها القصة على جميع أبطالها ، فان فارقت بينهم فى شىء من ذلك فهى مفارقة من جهة الضعف والقوة لا من جهة انعدام صفة من تلك الصفات .

بل إنك لو نظرت إلى صور الأبطال فى هذه القصة و إلى صور البطولة فى قصة عنترة وقصة المهلهل بن أبى ربيعة وقصة سيف بن ذى يزن وقصة الظاهر بيبرس وغيرها من القصص

التاريخية التي لعب بحقائقها خيال القصاص، لرأيت الصورة واحدة ولرأيت هؤلاء الأبطال جميعاً يلبسون لباساً متفقاً في السمات ، والصفات، حتى كأنهم فرسان جيش واحد وليس الخلاف إلا في سيرة الجهاد ومواقع الحروب والغارات .

البطولة في القصة والبطولة عند اليونان :

وفي أبطال القصة أيضاً مشابه كثيرة من صور الأبطال عند اليونان ، وكثير من تاريخ هؤلاء وسيرهم يشبه تاريخ أولئك ، فالبطل عند اليونان كان نصف إله في وسعه أن يفعل الخير والشر كما يشاء ، وهو قادر على أن يصنع بنفسه وبغيره ما يريد من الضر والنفع ، وليست أعماله إلا خوارق ومحالات ، وهذا يشبه إلى حد كبير ما ترويه القصة الهلالية من خوارق أبي زيد في أعمال الحيلة والسحر والتنجيم والإخبار بالغيب والإفلات من كل نازلة ، بما لا يتصور ولا يتحقق إلا بقدرة قادر ، ثم هو يشبه إلى حد كبير ما تذكره القصة عن الزناتي من أنه كان ابن جنية فكان إذا طعن بالسيف ووضع ماء الحياة على الجرح التأم وعاد في اليوم التالي صحيح البدن سليم الجسم ،

ثم ما تتحدث به فى غير موضع من أن الفارس كان يضرب سيفه فيقضى على مائة ، وينزل إلى الميدان فيتغلب على ألف .

حتى فى الناحية التاريخية والأسطورية لوجود الأبطال ووضعهم القصصي يلاحظ المتأمل مقاربة عجيبة ، فقد قلت لك من قبل إن أبطال القصة الهلالية منهم أشخاص تاريخيون لهم وجود حقيقى، ومنهم أشخاص لا يعرف عنهم التاريخ إلا أسماءهم، ومنهم أبطال اخترعهم القصاص اختراعاً وابتدعوا كل شىء عنهم ، وكذلك الشأن فى أبطال اليونان ، فمنهم طائفة اشتهرت فى الأساطير وعدت من الأعيان مثل أخيل وأوليس وأغا ممنون ، ومنهم من لا حقيقة له قط مثل هيراقليس وأوديب ، و بعضهم أسماء لا مسميات لها مثل هيلين ودوروس ، وآخرون يذكرهم التاريخ وينسب إليهم أعمالا مثل ليبونيداس وميزاندر. وإن نظرة فى المقارنة بين مواقع القصة الهلالية وما يروى من المواقع عن حروب طروادة لتدل الباحث على مشابهة كبيرة ومظاهر متفقة، وإن قصة حصار الهلاليين للقيروان التى روينا لك تفاصيلها من قبل لتشبه قصة حصار أغاممنون لمدينة طروادة ، فكل منهما دام مدة طويلة من الزمان وجرت فيه حروب ووقائع رهيبة مفزعة ،

ثم انتهى كل منهما بالحيلة وتم الكسب فيهما بالدس والوقيعة .

فهذه كلها مشابهات ـ وغيرها كثير ـ يلاحظها الباحث إذا ما قارن بين القصتين وقابل بين الأبطال هنا وهناك ، بل إنه فى هذا الصدد ليقف على مشابهات أخرى بين سير الأبطال فى القصة الهلالية وبين مثيلاتها فى أساطير الفرس وخرافاتهم التى تحكيها الشاهنامه وغير الشاهنامة، وكذلك يستطيع أن يجد مثل هذا ولو إلى حد ما فيما يروى من القصص المصرى القديم .

فهل يصح أن يكفى هذا عند الباحث لأن يحكم حكما قاطعاً بأن القصاص قد تأثروا بقصص اليونان ووقائع أبطالهم وما يحكى من أساطير الفرس وأعاجيبهم فى رواية القصة الهلالية وحبك فصولها ووقائعها وما أضافوه من الخوارق والمحالات إلى أبطالها ورجالها ؟

أما إن القصاص قد تأثروا بالعرب فى ذلك فهذا ما لاشك فيه، بل إنه الأصل الذى كان ماثلا بين أيديهم فبنوا عليه وتوسعوا فيه، ولكن ذلك الأصل بقى ملحوظاً فى كل نواحى القصة وبخاصة فيما تتحدث به عن بطولة الأبطال .

وأما إنهم تأثروا بما عرف من قصص اليونان والفرس فإن

الباحث يجد نفسه بأزاء حقيقتين لا يستطيع إنكارهما :

الأولى أن العرب قد عرفوا اليونان وتأثروا بفلسفتهم وأدبهم وما خلفوا من ضروب الثقافة العلمية والأدبية كما أن المصريين قد عرفوهم قبل أن يعرفهم العرب بدهر طويل ، إذ كانت الصلة بين المصريين واليونانيين فى القديم صلة وثيقة شاملة فى شتى النواحى السياسية والإجتماعية والثقافية .

والثانية هى أن كثيراً من القصاص فى مصر قد وفدوا عليها من العراق وخاصة بعد سقوط بغداد ، وقد كان العراق على صلة وطيدة بمعارف الفرس وأدبهم وأساطيرهم، وقد نقل كثير من هذه الأساطير فى العراق إلى اللغة العربية وذاعت فى ألسن المحدثين والقصاص ، فلا شك أن الذين وفدوا منهم على مصر قد استغلوا ما عندهم من ذلك للتجارة والكسب فى مجالس الخاصة والعامة والإغراب على الناس فيما يزجون إليهم من قصص شهى وحديث طريف .

هاتان حقيقتان بارزتان لا يستطيع أن ينكرهما الباحث ولا أن يغفل عنهما وهو بسبيل المقارنة بين ذلك القصص ، ولكن على الرغم من هذا لا نستطيع أن نجزم للقارئ جزماً علمياً بأن

القصاص الذين رووا قصص الهلاليين قد استلهموا القصص اليونانى أو الفارسى ، ولا يمكن أن نضع أيدينا فى ذلك على حقيقة علمية تؤدى إليها أساليب البحث الحديث ، لأن المشابهة لا تبدو إلا فى أمور عامة ووقائع شائعة تفطن إليها الأمم بفطرتها وتهتدى إليها بغرائزها وميولها، فقد كانت الغاية فى البطولة عند الأمم القديمة لا تعدو تمجيد القوة وتقدير الحب والغرام بالجمال، وكانت الأداة فى ذلك هى السيف والمهارة والحيلة، وكان الميدان لذلك هو ميدان النزال والصراع والتغلب على ما يملك الغير من القوة وما يقيم من الحواجز ، وكان البطل كل البطل هو الذى يضع يده على الرؤوس ويملك الأمر والنهى ويفوز بأجمل الجميلات فى قومه أو فيما يجاوره من الأمم والقبائل، وإذا ما لحظنا أن هذا هو الوضع العام والغاية المطلوبة عند الأمم القديمة فى نظرتها إلى البطولة ، أدركنا أن ما وراء ذلك من التفاصيل ليس إلا ما يقتضيه الاتجاه الطبيعى ويوحى به الأصل المنشود .

فالتشابه فى الأمور العامة ليس مظنة الأخذ والاقتباس ، وليس للباحث أن يقيم عليه قاعدة للحكم ، وخاصة إذا ما تقاربت الدوافع والبواعث واتفق الغرض والغاية، وهذا يكون فى القصص

ويكون فى الشعر ويكون فى كثير من الاتجاهات الفكرية والعاطفية .

والاتفاق فى تلفيق المحالات والصاق الخوارق بالأبطال هو أيضاً من التشابه فى إدراك الأمور العامة عند القدماء — لأنهم كانوا يفسرون مظاهر القوة بالغرابة و ينظرون إليها على أنها شئ ليس فى متناول العقل ، ولا من جنس الأمور المألوفة ، وعلى هذا تصور اليونان المحال فى أبطالهم ، وألصق القصاص المصريون الخوارق والغرائب بأشخاص قصصهم ، واعتقد العرب أن كل شئ عظيم من صنع الجن وعملهم

مقارنة بين البطولتين:

بقيت كلمة لا بد منها فى المقارنة بين البطولة فى قصص يونان والبطولة فى القصة الهلالية ، وإن الباحث ليلمس فى مجال هذه المقارنة فرقاً واضحاً بين البطولتين ؛ فقد كان البطل عند اليونان كما قلت لك نصف إله ، فليس من طبيعة الناس ولا من جبلتهم ، وإنه ليبدو فوق إدرا كهم بخصائصه ومميزاته ، وأفعاله ومحاولاته . أما البطل في القصة الهلالية فانسإن معقول ، يجوز

عليه ما يجوز على كل إنسان ، وكل أعماله مما يدخل في الطاقة البشرية على وضع من المبالغة والتهويل ، ومن ثم نستطيع أن نقول إن البطل فى القصة الهلاليه أقرب إلى الحقيقة الواقعية وأشد صلة بحياة الناس . وعندى أن هذا الفرق يرجع إلى التفاوت بين العقليتين ، ولكنه يرجع أكثر إلى التفاوت بين الزمنين ، فاليونان قدصوروا ابطالهم وهم يصورون معبوداتهم ، أى فى الفترة التى كانوا لا يزالون فيها يفتشون عن آلهة ومعبودات ويبحثون عن نماذج ومثل عليالا للانسانية ، بل للألوهية التى التى توحى بها فكرتهم فى العبادة ، فكان أن وضعوا أبطالهم فى مرتبة قريبة من آلهتهم استجابة وخضوعاً لسيطرة تلك الفكرة على أذهانهم وخيالاتهم .

أما قصاص القصة الهلالية فقد كانوا فى زمن خلصوا فيه من سيطرة تلك الفكرة ، واتجهوا بالعبادة لله سبحانه وتعالى كما يقرره الدين ويفرضه الإسلام ، وإنما كانت فكرة الإعجاب والتمجيد هى التى تسيطر على أذهانهم وخيالاتهم فى ذلك الوقت ، وعلى هذا صوروا أبطال القصة فى صورة من المثل الأعلى الذى يستهوى الناس بالإعجاب والتمجيد لا بالتأليه والتقديس .

والإعجاب يتفاوت فى مراميه إلى حد كبير ، أما التقديس فيكون التفاوت فيه إلى حد ما ، ولهذا تجد الأبطال فى القصة الهلالية يتفاوتون فى مراتب الاعجاب ، فمرتبة الحسن بن سرحان فى ذلك غير مرتبة أبى زيد ، ومرتبة أبى زيد غير مرتبة دياب ، ومرتبة دياب غير مرتبة الزناتى ، ومراتب هؤلاء كلهم غير مراتب الأبطال الآخرين الذين تذكرهم القصة مثل ماضى بن مقرب والقاضى بدير وزيدان ومخيمر ومطاوع والعلام وأبى خريبة وسواهم ، أما مراتب الأبطال فى قصص اليونان فتبدو متقاربة فى المكانة و إن اختلفت فى المنازع والاتجاهات .

هذا ما يلمسه الباحث من الفرق بين تصوير البطولة فى القصص اليونانى والقصة الهلالية وهو الفرق المهم الأصيل ، فكل ما يأتى بعده من الفروق فهى فروع عنه تستطيع أن ترجعها جميعاً إليه .

الفصل الرابع

تأثير القصة فى المجتمع المصرى وتأثرها به

شاعر الربابة الذى سيطر على المجتمع المصرى !

ظلت قصة بنى هلال — أو قصة أبى زيد الهلالى كما هو شائع فى التعبير — حديث المجتمع المصرى ثمانية قرون ، وظل شاعر الربابة يحدث بها الناس من العهد الفاطمى إلى اليوم ، فكان أنس المجالس ، وبهجة المحافل ، ومجلى السرور والبشاشة. ذلك عهد أدرك الكثيرون منا مجاليه الساحرة ، ولياليه الساهرة ، ومجالسه العامرة على مصاطب القرى فى الريف ، وفى مقاهى المدن والقاهرة ، ولا تزال إلى اليوم تتراءى منه رسوم محيلة فى زوايا الأحياء الوطنية العريقة ، إذ يقف المار بها ليلا على مقهى صغير شاحب يقوم فى حارة أو منعطف كأنه يمعن فى التخفى من مظاهر المدنية الحديثة ، وقد جلس فيه المحدث أو الشاعر للرواية والقصص ، ومن حوله جماعة من أعيان الحى المقيمين

والتجار المحليين والشيوخ المتقاعدين يلتمسون الحكمة والقدوة فى سير الأبطال وأحاديث السابقين ، وكأنهم بالإصرار على تلك التقاليد الموروثة يكافحون بها فى معركة البقاء للاصلح فالناس ينظرون اليهم فى استخفاف ، ويعتبرونهم طرازاً قديماً متخلفاً عن روح العصر ومباهجه الممتعة التى تؤديها الآن الإذاعة أو الخيالة أو يقوم بها الأشخاص على المسرح ، وهم كذلك ينظرون إلى هؤلاء الناس فى استخاف ويرمونهم بالجهل لمورد الحكمة ومبعث البطولة ومجال الحجا والرزانة ، والجرى وراء العبث التافه والتمويه الكاذب والشرور التى جلبتها المدنية لإفساد النفوس وتلف العواطف .

هذا «الشاعر» الذى يبدو اليوم شبحاً ماثلا ، ولوناً حائلا ، وصوتاً خافتاً يتلاشى فى ضجيج العصر ، إنما هو صورة ممتدة لصاحبه الذى ظل قروناً طويلة يسيطر على عواطف المجتمع المصرى ، ويستهوى قلوب الناس بما يلقى عليهم من أفانين شعره وعجائب سحره ، يجمعهم ويفرقهم ويهتاج من نفوسهم نوازع القوة والفتوة ، ويملأ أسماعهم بمفاخر الأبطال ومآثر الأجواد ، ثم يعود من مبذول عطائهم ونفحات جودهم بصفة الرابح وغنيمة الظافر .

ورث هذا « الشاعر » مكانة القاص الذى كان يعظ بقصص الدين وأساطير الأولين ، ويذكر الناس بأنباء آبائهم ومواقع تاريخهم ، وقد أخذ صوت ذلك القاص يتضاءل شيئاً فشيئاً ليخلى مكانه لذلك الشاعر الذى غزا المجتمع بنغم جديد وإنشاد ملائم وتوقيع مستحسن وقصص مستحب للنفوس التى كبتت فيها نوازع البطولة ، ورأت مجدها يتخطفه المغيرون من أوزاع الأمم ، فكأنهم بالإقبال على هذا « الشاعر » كانوا يشبعون النقص المركب فى نفوسهم ، ويرضون شهوة مطموسة فى ميولهم ، ولقد تمت المكانة لهذا « الشاعر » فى السيطرة على عواطف المجتمع المصرى بين القرن الخامس والقرن السادس للهجرة على ما أوضحناه في الفصل السابق ، وظلت هذه المكانة تطرد نفوذاً وقوة على مر العهود البائسة التى اكتنفت البلاد من جراء الحروب الصليبيـة ومن حكم المماليك وسيطرة الأتراك وغزو الفرنسيين ، فكان المجتمع يعيش من أثر هـذا كله مخدور الأعصاب مجذور الأسباب ، يجد فيما يقص ذلك الشاعر سلوته وراحته ، والتفريج عما يعانيه في داخلية نفسه ، وما يخيم من ظلام الحوادث على عقله .

فرق الشعراء والمحدثين فى المجتمع :

وقد عقد كلوت بك فى كتابه « لمحة عامة إلى مصر » فصلا تحدث فيه عن قصة أبى زيد الهلالى وشغف المصريين بسماعها، ثم وصف ما كان للشعراء والمحدثين بهذه القصة من المكانة فى المجتمع القاهرى أيام محمد على باشا فقال :

« ينقسم المحدثون إلى أقسام أو فرق تختص كل فرقة منها برواية قصة واحدة ، فلا يفتات محدثو إحدى الفرق على نظرائهم من الفرقة الأخرى بسرد حوادث قصصهم على السامعين ، وأكثر تلك الفرق عدداً الفرقة المتفق على تسمية أعضائها بالشعراء ؛ فقد احتكر هؤلاء إلقاء قصة أبى زيد فى المجتمعات العامة ، ويوجد فى القاهرة وحدها الآن خمسون شاعراً من تلك الفرقة ، وتليهم الفرقة الخاصة بقصة الظاهر ويسمى أعضاؤها بالمحدثين ، ثم الفرقة المحتكرة لقصة عنترة العبسى ويسمى رجالها بالعنترية ».

وبعد أن تحدث كلوت بك عن مجالس هؤلاء الشعراء والمحدثين وإقبال المصريين عليها، ووصف مدى ما كان يفعله ذلك القصص فى نفوسهم ومبلغ استثارته لعواطفهم ، عرض لوصف

الآلة الموسيقية التى كان أولئك الشعراء يوقعون عليها أنغامهم وأشعارهم أثناء رواية القصة فقال « إنها آلة موسيقية ذات وتر واحد ، وهى جديرة بالذكر إذ تخرج منها أنغام شجية يخيل لسامعها أنها أصوات بشرية » وهذه الآلة هى المعروفة بالربابة ، ولايزال استعمالها دائماً فى مصر إلى هذا العهد ، وفى الريف لا يفضلون عليها آلة موسيقية أخرى ، ولا يطربون لشىء مثل ما يطربون لصوتها الحماسى ، فانها تثير فيهم النخوة والحمية فتجدهم لدى سماعهم لها يتصايحون بنداءات الحماسة والفتوة ·

كيف خفت صوت الشاعر :

كان ذلك شأن شاعر الربابة فى المجتمع المصرى ، لا صوت أندى من صوته ولا أثر أبلغ من أثره ، وتقدمت مصر فى شوط المدنية ، ودرجت تأخذ بأسباب الحياة الحديثة أيام محمد على ثم أيام اسماعيل ، ولكن مكانة ذلك « الشاعر » ظلت على الرغم من هذا قائمة معتبرة ، و بقى سامره عامراً حافلاً بمختلف الطوائف وكان يشارك فى إحياء الحفلات العامة والأفراح الكبيرة والليالى الساهرة . غير أن المجتمع القاهرى أخذ فى أواخر عهد

اسماعيل يتطور تطوراً سريعاً ، وبدأ يستقبل فى اللهو والسمر ألواناً جديدة وفنوناً مستحدثة ؛ وكان للمهرجانات العظيمة التى أقامها إسماعيل احتفالا بافتتاح القناة وابتهاجاً بزفاف أنجاله أكبر الأثر فى ذلك ، إذا امتدت سهرات الغناء والرقص فى مقاهى الأزبكية وغير مقاهى الأزبكية ، وتألفت فرق صغيرة لتمثيل الأدوار المضحكة والتقاليع الهزلية مثل فرقة كامل الأصيلى وفرقة مصطفى أمين ؛ وظهر كثير من المهرجين الفكهين أمثال السيد قشطة وأحمد الفار ، وكان أن قامت إلى جانب هذا كله دار الأوبرا التى أنشأها اسماعيل للتمثيل ثم « التياترو » أو ما يسمونه « بالسرك » الذى يتنقل فى أحياء القاهرة وفى مدن القطر الكبيرة ، ثم نبوغ طائفة من أشهر المغنين أصحاب الأصوات الرخيمة أمثال عبده الحمولى وزوجته المز والشيخ يوسف المنيلاوى ومحمد عثمان وعبد الحى حلمى ، فكل هذه الألوان الجديدة التى ظهرت وشغف بها الناس استطاعت أن تتغلب على ذلك « الشاعر » وأن تسلخ عنه عشاقه وقصاده ، وهو يقف تجاه هذا كله يناضل عن مكانته ويدافع عن بضاعته ، ولكن مظاهر المدنية الحديثة استمرت تتخطف عشاقه وقصاده ، وتمطر المجتمع كل يوم بفنون

من اللهو والسمر لا قبل لذلك الشاعر بها ، فأخذ ينكمش ويتوارى ، وأخذ نغم ربابته يتضاءل يوماً بعد يوم حتى صار إلى الحال التى نراه عليها اليوم .

أثر القصة فى المجتمع :

هذه هى قصة شاعر الربابة وما كان له من مكانة فى المجتمع ، وسيطرة على النفوس دامت ثمانية قرون ، ظل طوالها يحدث الناس بوقائع القصة الهلالية ، ويلعب بمشاعرهم وأحاسيسهم ، ويقبس من رغبات السامعين ويفيض عليهم ، ونحن نعرف أن المحدث يحرص على أن يؤثر بحديثه فى المستمعين له ؛ وكثيرا ما يتمشى مع ميولهم فى قبول الحديث وما يقع من المعانى موقع الرضا والبشاشة ، لهذا كان من الطبيعى أن يكون لهذا القصص أثر ظاهر فى المجتمع من الناحية النفسية والخلقية والاجتماعية ، كما كان من الطبيعى أيضاً أن يكون للمجتمع أثر فى تكوين ذلك القصص ونموه ، وهذا ما يراه الباحث واضحاً بمجرد النظر فى ذلك القصص . يقول أحد الكتاب فى مقال له «إن قصص بنى هلال كان لها أسوأ الأثر فى البلاد الإسلامية ، فما من واحد

من أهل تلك البلاد، بعد انتشار تلك القصص فيها — إلا ويريد أن يكون بطلا كأبطالها، ولو كان أولئك قتلة وقطاع طرق وناهبي أموال ، فإذا أصبح واحد فى تلك البلاد بطلا فلا يكون همه إلا القتل ونهب أموال الناس كأولئك الأبطال الذين يتغنى شعراء الرباب بذكرهم ، ولو بحثت الآن فى مصرنا لوجدت لصوصها وقطاع الطرق فيها من أولئك الفتيان الذين يريدون أن يتحدث الناس عن بطولتهم كما يتحدثون عن بطولة أبى زيد الهلالى ودياب بن غانم » .

فهل هذا صحيح ؟ وهل هذا هو الأثر الذى كان لذلك القصص فى نفوس الناس ؟

إنه فى الواقع حكم مشوش ، وإسراف لا مبرر له ، فقصص بنى هلال لم تعلم الناس السلب والنهب ، ولم يكن أثرها هو ذلك الأثر السيء الذى شنع به الكاتب . حقاً إنها أثرت فى نفوس العامة بشيء من الشر ، ولكنها كذلك أثرت بكثير من الخير الذى كسبت به الأخلاق والحياة الاجتماعية وخاصة فى قرى الريف وبواديه .

حكى لى صديق من رجال القضاء أنه أدرك بالاستقراء والتثبت

أن تسعين فى المائة من جرائم القتل التى تقع فى الصعيد بدافع الغيرة وحماية العرض ، أو ببواعث النخوة والعصبية إنما ترجع إلى ما يتأثر به الناس من سماع قصص أبى زيد الهلالى وحكايات الأبطال التى يذيعها فيهم الشعراء .

وهذا صحيح ، فان قصة الهلالية ظلت درساً يلقى على الناس فى الاعتداد بالنفس والثبات على الشجاعة، وحماية الجار والمستجير، والدفاع عن العرض والحريم ، والتعصب للأهل والعشيرة ، والمبادرة إلى مواجهة الخصم ، والأنفة من الخضوع والخنوع ، وغير ذلك من المعانى والصفات التى ترددها القصة كثيراً ، وتصورها للناس فى صور مختلفة مقبولة تهفو إليها النفوس والقلوب ، وقد يكون فى هذا ما يجر إلى الشر ، ويبلغ بالنفوس الفتية الى الطيش والرعونة والشطط فى التصدى والانتقام مما قد لا تقره القوانين الموضوعة ، وإن كانت تقضى به التقاليد الموروثة .

على أن هناك من أثر هذه القصص فى الخير مالا يصح أن يجحد أو ينكر ، فمن ذلك الحض على البذل والعطاء ، وسماحة النفس ، وإقراء الضيف ، وإغاثة الملهوف ، ومواجهة الشدائد ، والصبر على الجهد ، إلى آخر ما تجده شائعاً فى القصة ، وتجد العامة يحفظون

فيه الحكم والأمثال ، ويرددون له الشواهد مما جاء على لسان ابطال القصة ، فأنت إذا أخذت فى الحديث مع أحد إبناء الريف فإنه لا يلبث أن يستشهد لك فى كل ما يقرره بما يحكى عن أبى زيد وما يروى عن دياب ، وما وقع للزناتى .

وهناك ناحية أهم فى الأثر والتأثير ، ذلك أن المجتمع الإسلامى بعد أن ربكته الحروب الصليبية المعروفة خضع لمقدور الحياة ، وخنع لما تجرى به الأيام ، واستكان لما تجلبه عليه الحوادث ، وضعفت روح الأقدام والشجاعة التى كان يزكيها فى النفوس إعداد الجيوش واقتحام الحروب ، فكان ترديدذلك القصص فى المجتمع مما حفظ هذه الروح سليمة قوية فى نفوس القوم ، بل زادتها تزكيةوإثارة ، وقد حكى لى رجل من المعمرين فى قريتنا كان جنديا فى حملات إسماعيل باشا فى السودان والحبشة أن قصة أبى زيد الهلالى كانت حديث سمرهم ، وأن قائدهم كان يختارلهم من يسرد عليهم مواقع هذه القصة ، ويكافىء الذين يحسنون سردها من الجنود .

فليس من شك فى أن القصة الهلالية قد أثرت فى المجتمع الذى تداولها تأثيراً كبيراً فى النواحى التهذيبية والخلقية والاجتماعية

وليس من شك فى أنها كانت درساً أخذه الناس بالوعى والفهم، وآثروه فى حياتهم وسلوكهم، على عكس ما أخذوه عن قصة الف ليلة وليلة وما فيها من تهاويل الغرام والمجون ، ولن يدرك هذا كله إلا من خالط الجموع فى مجالس الشاعر وهم يصيخون له، ورأى ذلك الشاعر وهو يتلاعب بعواطفهم ويستبد بأعصابهم .

الفصل الخامس

أدب الهلاليين وشعرهم

نقصد فى هـذا الفصل إلى الكلام على أدب الهلاليين وشعرهم ، و إلى تناول القصة الهلالية من الناحية الأدبية ، ومالها من القيمة فى ذلك ، وليس من شك فى أن شعر الهلاليين نمط من الشعر العربى له لونه الخاص ، ومميزاته الفريدة ؛ وهو بهذا أحرى بأن يدرس على حدة ، وأن ينظر إليه الباحث على أنه ناحية من نواحى التطوز التى انتهى إليها الشعر العربى فيما بعد ، مثل الموشحات والأزجال والقوماوالدو بيت ؛ ولـكن أحداً من الباحثين لم يهتم بذلك اللون الشعرى الطريف كما اهتموا بتلك الألوان الأخرى ، ولقد تورع العلماء عن روايته وترفعوا عن الاهتمام به نظراً لما فيه من اللحن والخروج على قواعد الإعراب، كأنه فى تقديرهم ينزل عن مرتبة الزجل الذى ينظم بالعامية الخالصة ، وعلى الرغم من ذلك فقد أولوه بعض العناية ، وتظرفوا بروايته والغناء به ، وكما كان ابن خلدون هو المؤرخ الوحيد الذى اهتم بتاريخ بنى هلال وسليم وقصصهم ، فقد كان أيضاً

هو الباحث الوحيد الذى أكبر أدبهم وتحدث عن شعرهم ، ونعى على العلماء تزمتهم فى إهماله والإنصراف عنه .

لم يدون ذلك الشعر ، ولم يصلنا بالرواية الصحيحة ، إلا ما تشتمل عليه القصة من الأشعار ، والقصة قد دخلها كثير من الانتحال والتلفيق على ما رأيت من قبل،فلا يستطيع الباحث مهما كد ذهنه وأمعن فى التنقيب أن يقع على الأصول الصحيحة والأشعار الحقيقية للقوم ، ولكنه على الرغم من ذلك لا يعجز وهو بسبيل الدراسة لهذا الشعر عن أن يقف على خصائصه الفنية فيما يعرف من لغته وأسلوبه وغرضه ، إلى آخر المظاهر التى تتجلى فى النصوص القليلة التى رواها ابن خلدون من هذا الشعر ، وفى النماذج التى حفظتها القصة أو حيكت على مثاله على الأقل ، وهذا ما نريد أن نعرض له فى هذا الفصل .

رأى ابن خلدون :

عنى ابن خلدون بالحديث عن شعر الهلاليين وقصصهم فى غير موضع من تاريخه، فقال وهو يتكلم عن تطور الشعر العربى وتنوع فنونه وأساليبه فى العصور المتأخرة :

« فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر ، فيقرضون الشعر لهـذا العهد فى سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ، ويستطردون فى الخروج من فن إلى فن في الكلام ، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر ، ثم بعد ذلك ينسبون ، وأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعى راوية العرب فى أشعارهم ، وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوى ، وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ، ثم يغنون به ، ويسمون الغناء به باسم الحورانى نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام ، وهى من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد ، ولهم فن آخر كثير التداول فى نظمهم يجيئون به معصباً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة فى رويه ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت إلى آخر القصيدة تشبيها بالمربع وبالمخمس الذى أحدثه المتأخرون من المولدين ، ولهؤلاء العرب فى هذا الشعر بلاغة فائقة

وفيهم الفحول والمتأخرون ، وكثير من المنتحلين لهذا العهد وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون التى لهم إذا سمعها، ويمج نظمهم إذا أنشد ، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها ، وهذا إنما يأتى من فقدان الملكة فى لغاتهم ، فلو حصل ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليما من الآفات فى فطرته ونظره ، وإلا فالإعراب لامدخل له فى البلاغة ، إنما البلاغة مطابقة الكلام المقصود لمقتضى الحال من الوجود فيه ، سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول أو بالعكس . وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه ، فالدلالة بحسب ما يصطلح أهل الملكة ، فاذا عرف اصطلاح فى ملكة واشتهر صحت الدلالة ، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ، ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك ، وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الأعراب فى أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر ، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب . . »

ثم عاد ابن خلدون يتحدث عن شعر الهلاليين وأدبهم مرة أخرى فى الجزء السادس من تاريخه وهو بسبيل الكلام عن أنسابهم وتاريخهم فقال :

« ويروون كثيراً من أشعارهم محكمة المبانى متقنة الأطراف، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شىء ، وإنما تخلو من الاعراب فقط ، ولا مدخل له فى البلاغة كما قررنا ذلك فى الكتاب الأول من كتابنا هذا ، إلا أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون فى روايتها ، ويستنكفون منها ، لما فيها من خلل الإعراب ، ويحسبون أن الإعراب هو أصل البلاغة ، وليس كذلك »

« وفى هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة ، وفقدت فيه صحة الرواية ، فلذلك لايوثق به ، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآبائهم ووقائعهم مع زناته وحروبهم ، وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم ، ولكننا لا نثق بروايتها ، وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع فيها ويتهمه ، وهذا قصارى الأمر فيه .. »

فالشعر الهلالى كما يرى ابن خلدون ، نمط من الشعر العربى فى أسلوبه وأغراضه ، ونهجه ومذاهبه ، لم يخرج به القوم فى شىء

إلا أنهم كانوا ينظمونه بلغتهم الملحونه ، ولا يتمسكون فى أدائه بقواعد الإعراب وحركاته فى أواخر الكلم ، وهذا هو الذى جعل علماء العربية يهملون روايته و يترفعون عن النظر فيه على الرغم مما يتجلى فيه من اتفاق الأطراف و إحكام المبانى ، وعلى الرغم من أن الإعراب لامدخل له فى مقياس البلاغة وتحققها كما يقول ابن خلدون .

الإعراب وصلته بالبلاغة :

وهذا الرأى الذى يبديه ابن خلدون فى الصلة بين الإعراب والبلاغة ، رأى فيه بعض الحق ، وفيه أيضاً بعض الباطل ، فلا نستطيع أن نقبله من ابن خلدون على علاته ، و إنه لجدير بالنظر والمناقشة .

حقاً إن الإعراب لا مدخل له فى البلاغة إذا اعتبرنا البلاغة معنى فنياً يشيع فى كل لغة ، ويتحقق فى كل لهجة ، فليس من شك فى أن فى اللغة العامية وفى معارضها الفنية من الزجل والأغانى الدارجة والأناشيد الشعبية ، وفى اللغات الأجنبية بلاغة،

وبلاغة فائقة ، وهى لا تتقيد بقواعد الإعراب ، بل قد يكون استعمال الإعراب فيها مما يفسدها ، ومع هذا فلا يستطيع أحد أن ينكر ما فيها من مظاهر الروعة الفنية ، و إلى هنا فنحن على اتفاق مع ابن خلدون فى رأيه .

ولكنا إذ ننظر إلى البلاغة فى دائرة اللغة العربية خاصة ، فإننا لا نستطيع أن نوافقه على أن « الإعراب لا مدخل له فى البلاغة » ، لأن مظاهر البلاغة فى أية لغة إنما تستمد عناصرها من خصائص هذه اللغة ومميزاتها ، والإعراب من أهم الخصائص التى تتميز بها العربية ، فالعلماء لم يسرفوا ولم يتنكبوا الصواب إذ جعلوه شرطاً أساسياً أولياً فى بلاغة الكلام العربى ، وأغلب الظن أنهم حينما أنكروا الشعر الهلالى لعدم تقيده بقواعد الإعراب إنما أنكروا حسبانه أن يكون من كلام العرب الصريح ، وأسلوبهم الصحيح ، وإن كانوا أسرفوا فى هذا الإنكار ، وتزمتوا غاية التزمت ، حتى حملهم هذا على إهمال ذلك الشعر كل الإهمال ، وأغفلوا ما فيه من مظاهر البلاغة لأنه فقد صفة واحدة هى التقيد بقواعد الإعراب .

خصائص الشعر الهلالى :

و إذن فلننظر إلى الشعر الهلالى على هذا الاعتبار طليقاً من قيود الإعراب والتزاماته، و إنه لجدير بالنظر، وإن الباحث ليلمس فيه كثيراً من الخصائص الفنية والمظاهر الرائعة الطريفة التى تحببه إلى النفوس ، وتتجاوب به مع عواطف القارئ فى كثير من الأحيان .

ولعل أول ما يلفت النظر من خصائص هذا الشعر هو ما فيه من صدق العاطفة وقوة الإحساس وسذاجة التصوير، وهذا شىء طبيعى ، لأنه شعر البداوة والفطرة السمحة والانفعال النفسانى الذى يفيض به التعبير فى وضوح وصراحة، و إنها لصفة تتجلى فى سائر الاتجاهات التى رامها هذا الشعر من الغزل والنسيب والشكوى والحنين والسلوى والتأسى والفخر والمنازلة والغضب والإثارة ، إلى آخر تلك الفنون والأغراض ، فلسنا نعدو الحق إذا سميناه شعر العاطفة ، لأن القوم لم يتجاوزوا بأغراضه حدود الانفعال النفسى ومايشغل عواطفهم ومشاعرهم من شئون الحياة .

وهناك صفة أخرى لا تقل عن تلك الصفة وضوحا فى هـذا

الشعر، وهى الانسجام الموسيقى والمرونة التى تطاوع الصوت بشتى ألوان التنغيم والتطريب ، وهذه الميزة هى التى طوعت لشعراء الربابة أن يتغنوا بجميع ألوان هذا الشعر وأن يوقعوه على الربابة نغما منسجماً ولحناً شجياً يهز القلوب ، ويبدو لنا أن هذه الميزة قد تحققت لهذا الشعر من خلوصه من قيود الإعراب واعتماد قائليه فى نظمه على التلحين الموسيقى والترجيع الغنائى ، لأن حركات الإعراب فى أواخر الكلم كثيراً ما تقيد حركات اللحن وتضيق دائرة المرونة لامتداد الصوت وانتقالاته ، وتقف ثقيلة فى الملائمة بين قرار النغم وجوابه وما يسميه أهل الفن بحركة الربط فى النغم الموسيقى .

وثمة صفة ثالثة تتجلى أمام الباحث فى هذا الشعر وهى قوة الروح الدينية ، فكثيراً ما يرد فيه ذكر الموت والحشر والحساب والعقاب وخوف الآخرة والاستسلام للمقادير والتفويض لله ، ومن تقاليدهم الظاهرة فى هذا ابتداء القصائد بالصلاة على النبى وقد يختمونها بذلك ؛ والظاهر أن القصاص والوضاعين قد بالغوا فى تصوير هذه الناحية وإبرازها ، فكانوا يتعمدون هذا التقليد فى كل ماينتحلونه من الشعر فى القصة نظراً لما لهذا الاتجاه الدينى

من قوة التأثير على نفوس العامة والوصول إلى قلوب السامعين .

وإلى جانب هذه الخصائص فى الشعر الهلالى ، يلاحظ الباحث بعض الخصائص الأخرى فى أسلوبه وطريقة التأدية فيه ، فمن ذلك مايحرص عليه الشاعر فى أغلب الأحيان من التصريح باسمه فى أول القصيد، والهجوم على الغرض فى غير تقدمة ولا تطويل ، و إيثار بعض التعابير يكررونها كثيراً فى أشعارهم، وقد يكررونها فى القصيدة الواحدة عدة مرات .

القصة من الناحية الأدبية :

بقيت كلمة أخيرة عن القصة من الناحية الأدبية ، ونعنى القصة بوضعها الذائع الشائع وما فيها من شعر مطبوع ومصنوع وحقائق وخيالات ووقائع ومبالغات ، وغاية ما يصفها الباحث فى هذا أنها قصة شعبية استوفت عناصرها على هذا التقدير، وحازت كل ضروب البراعة فى ملاءمة عقلية الجماهير واستفزاز عواطف الجموع الشعبية ، ومن أجل هذا ظلت القصة حية فى بيئات الشعب تلك الآماد الطويلة ، وستظل كذلك إلى آماد طويلة .

وأسلوب القصة مختلف ، بمعنى أنه متغاير فى طبعات القصة

الكثيرة، ولكنه يتفق فى أصول ثابتة ويجرى على أوضاع متفقة تجعلنا نحكم عليه حكما متعقا ، فهو أسلوب بارع فى الحكاية ، سهل العبارة ، يكثر فيه السجع والرنين الموسيقى ، ويأخذ بالأوصاف الحسية والتشبيهات الملموسة، وكثيراً ما تتوارد فيه بعض التعبيرات والأوصاف ، فلا تتغير ولا تتبدل في كل واقعة ، وتقع فيه كلمة « قال الراوى » بين كل واقعة وواقعة كأنها استراحة لذهن السامع ، وكأنها أيضاً تنبيه له على الإنصات والمتابعة ، واستعمال كلمة « قال الراوى » على هذا الوضع وهذا الترتيب من خصائص القصة الهلالية لم يستعمله القصاص والرواة من قبل ، وكأنهم أرادوا بهذا أن يقابلوا الوضع المألوف عند المؤلفين من العرب فى إيثار العنعنة فى الرواية وإسناد القول إلى قائله .

***

وأما بعد ، فإلى هنا أقف بالقارىء ، ولعلى أن أكون قد وفيت البحث عن هذه الناحية من تراثنا الشعبى فى حدود ذلك الوضع الضيق ، والله ولى التوفيق والسداد، ومنه العون والرشاد.

اقرأ

محمد محمد فياض

غرائز الحيوانات

دار المعارف للطباعة والنشر

غرائز الحيوانات

محمد محمد فياض

غرائز الحيوانات

اقرأ ٤٨

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٤٨ — نوفبر سنة ١٩٤٦



تمهيد

ربما كانت الغريزة أعجب ظاهرة فى الطبيعة . فهى التى توحى إلى الحيوان بأن يؤدى أعقد الأعمال بحذقة ومهارة ودقة لا نظير لها . وهى تأتى عفواً بغير تدريب عليها أو سابق خبرة بها أو توجيه إليها من مراكز القوى العقلية . فالطير مثلا يبنى عشه وفقاً للطراز الذى اتبعه آباؤه منذ آلاف السنين دون أن يعود عليه أو يرى بنفسه طريقة بنائه . وقد يكون هذا العش وكراً فى جذع شجرة كما تفعل البومة . أو بيتاً مصنوعاً من الحشيش والطحلب وأوراق الأشجار كما يفعل الفتاح (أبو فصادة) أو أخوصاً فى الرمل كما تفعل القطاة .

ودودة القز تنسج حول نفسها خيوطاً حريرية عند ما تصل إلى حد معين من نموها . وتفعل ذلك بطريقة آلية وبغير إدراك منها بحيث إذا قطع عليها عملها لم تستطع أن تبدأ به من جديد وماتت دون أن تتم دورة تطورها .

والعنكبوت ينصب شبكته الجميلة بشكلها الهندسى المتقن

بغير إرشاد أو تعليم فتأتى مماثلة للنموذج الذى اتبعه جنسها منذ آلاف الأجيال .

وبعض الطيور يترك البيئة التى يعيش فيها عندما يقبل الشتاء ببرده ويهاجر إلى مشتى معتدل الحرارة اختاره أجداده من القرون الغابرة ويقطع فى رحلته إليه مئات الأميال طائراً بغير مرشد يهديه الطريق . وقد يكون الطير صغيراً لم يكتمل نموه ولم يفارق الوسط الذى تشأ فيه ومع هذا يمكن أن يرحل إلى مشتاه دون أن يستعين بوالديه أو أحد من بنى جنسه . وبعد أن تمر شهور الشتاء يعود إلى بيئته حيث يضع البيض ويربى صغاره . . .

والغريزة هى استجابة آلية تأتى من الحيوان بغير تفكير مدفوعاً إليها بحافز من نفسه أو خارج عن إرادته . فوصول اليرقة مثلاً إلى حد معين من نموها يعتبر حافزاً داخلياً يدفعها إلى نسج فيلجتها . وتغير الطقس حافز خارجى يسوق الطير إلى الهجرة .

والغريزة فى أبسط مظاهرها تكون فعلاً عكسياً كانطباق جفنى العين عند ما تفاجأ باقتراب جسم منها . وتفعل العين ذلك اضطراراً بغير إرادة الحيوان أو إدراكه . وقد تكون أعقد من

ذلك كثيراً وعلى الأخص فى الحشرات حيث بلغت الغريزة أوج تدرجها .

ويستدل من التجارب التى أجريت على بعض الحيوانات أن المخ (Cerebrum) ليس له اتصال بكثير من الأفعال التى تؤديها المجموعة العصبية . فالضفادع التى أزيل مخها والكلاب والقطط التى بتر فيها العصب الكبير فى العمود الفقرى تستطيع أن تنجز الأعمال الضرورية للحياة بالرغم من أنها تكون عديمة الإدراك . وتشير هذه التجارب وغيرها إلى أن الأعمال الغريزية ليس لها ارتباط بمراكز القوى العقلية . وهى فى الحقيقة من خصائص المراكز السفلى للأعصاب .

وقد يوجد الذكاء والغريزة معاً فى مخلوق واحد . ومهما بلغت قوة الذكاء فيه فإنه لا يخلو من أعمال غريزية تصدر عنه بدون تفكير وبغير إرادة منه . حتى الإنسان الذى بلغ أرقى درجات الذكاء لا يستطيع أن يتحكم بعقله فى جميع حركاته أو نزعاته الجثمانية . . .

وهناك كائنات حية تكاد تكون خالية من الإدراك .

ولكنها مسيرة بفعل الغرائز التى توجهها إلى المسلك الملائم لحفظ كيانها وبقاء جنسها .

وتختلف الغريزة فى الحيوان عنها فى الإنسان اختلافاً جوهرياً لأن الأولى ثابتة محددة والثانية مرنة متغيرة . وأقرب مثل نضرب به لذلك غريزة البناء . فالطير يبنى عشه وفقاً لطراز ثابت موروث لا يشذ عنه أفراد الجنس الواحد . وغريزة البناء موروثة فى الإنسان وكثيراً ما تشاهد بين الأطفال عند ما يجمعون ما تصل إليه أيديهم من صناديق وعلب وأجسام مختلفة ويرتبون بعضها بجانب بعض . ولكن الهيكل الذى يقيمونه منها لا يتبع نظاماً معيناً ولا يحاكى شكلا ثابتاً ، وكلما تقدموا فى السن زاد إتقانهم لما يبنون لأنهم يتعلمون بالخبرة . والاستعداد للتعليم من أهم المواهب الطبيعية التى يرثها الأطفال .

وإذا وازنا بين الطفل والحيوان الصغير وجدنا أن الأول عاجز ضعيف الحيلة لأن غرائزه غير كاملة وقواه العقلية ناقصة لم يتم نموها . أما الثانى فيستقبل الحياة وهو مزود بمجموعة من الغرائز الكاملة التى تمكنه من تأدية وظائفه فى جميع مراحل حياته . وقد يكون له قسط من الإدراك ولكنه ضئيل لا يكفل

له التدرج فى الرقى . وعدم اكتمال الغرائز فى الطفل مصحوب بذخيرة من القوى العقلية الكامنة واستعداد واسع الأفق للتعليم وهذا هو الفارق بين الإنسان والحيوان وهو السر فى تقدم الأول وجمود الثانى على الحالة التى ينشأ عليها .

ولكل حيوان غرائز ثابتة معينة مميزة لنوعه كما يتميز بلونه وشكله وتركيب جسمه . وهى الوسيلة التى يستعين بها على شق طريقه فى الحياة إذ بها يحصل على قوته ويدفع الأذى عن نفسه ويعمل على بقاء نوعه .

وفى الصفحات التالية يجد القارئ طائفة منوعة من الغرائز التى أودعتها الطبيعة فى بعض أنواع الحيوان والطير والأحياء المائية والحشرات : ونظراً لضيق المكان قد اكتفينا فى أغلب الحالات بوصف الغريزة دون التعرض لطباع صاحبها أو أحوال معيشته أو تركيب جسمه . ولعل القارئ يفطن بعد تلاوتها إلى أن هذا الكون بما فيه من كائنات ضخمة ومخلوقات ضئيلة لا تراها العين يسير وفقاً لنظام متقن ثابت بديع .

قرون الظبي

قرون الظبي هي السلاح الذي يدافع به عن نفسه ويحمي به أنثاه ويمنع عنها اعتداء منافسيه . ومن عجب أنه لا يحمل هذا السلاح طوال العام فهو يخلعه في الربيع والصيف ويلبسه في الخريف والشتاء . وعندما تحرمه الطبيعة منه يهجر أنثاه التي تأوي إلى مكان أمين لتعنى بصغارها ويلجأ هو إلى بقعة منعزلة في واد أو غابة ويعيش في سكون وهدوء بعيداً عن جهاد التدافع والتنازع . لا هم له إلا الحصول على قوته ولا وسيلة عنده لاتقاء الخطر إلا سرعة الجري . وتبدأ قرونه في الظهور وتنمو بسرعة عجيبة في شعبتين طويلتين وقد تتفرع كل منهما إلى عدة أفرع (شكل ١) وتكون جميعها مكسوة بطبقة ناعمة الملمس تشبه القطيفة . وعند ما يكتمل



(شكل ١)

النمو يتكون عند موضع اتصال القرون بالرأس حلقة من العظم كبيرة تمنع اندفاع الدم من الجسم فتتقلص أعصاب القرون وأوعيتها الدموية ثم تنقرض . وتبدأ الطبقة الملساء فى الذبول وتتساقط ، وترى أحياناً متدلية كالخيوط على جبهة الظبي ، وكثيراً ما يتخلص منها بحك قرونه على الصخور وجذوع الأشجار . وبعد أن تصبح القرون عارية عن هذه الطبقة يشعر الظبي أنه قد أعد عدته للكفاح ، فيخرج عن عزلته ، ويهبط إلى الوديان والغابات باحثاً عن الأنثى متحدياً كل منافس له فيها . وإذ ذاك يقوم العراك الدامى بين الندّ والندّ ، وتكون فيه القرون وسيلة الدفاع والهجوم ، وكثيراً ما ينتهى النزاع بمأساة لأحدهما . وقد تشتبك قرون الظبيين ، ويتعذر عليهما فصلها ، فيظلان كأنهما فى قيد من حديد لا يستطيعان منه خلاصاً . ويحاول كل منهما أن يفك هذا القيد بحركات عنيفة وعدو سريع ساحباً وراءه جسم غريمه . ولكن هذه الجهود تذهب سدى ، وينتهى أمرهما بالموت جوعاً ، أو بهجوم الوحوش الضارية عليهما وهما فى حالة لا تمكنهما من الفرار .

وتمر بالظبي شهور الخريف والشتاء وهو مسلح بقرونه مزهو

بها يستخدمها فى الدفاع عن النفس وفى طرد الأعداء الذين يحومون حول الظبيات المعجبات به والداخلات ضمن حريمه . وتنتهى شهور التزاوج ، وتضع كل أنثي حملها وترحل به إلى مكان أمين تخفيه فيه وتعنى بتنشئته . ويصبح الظبى وحيداً لا مؤنس له ، فيعود إلى حياة الهدوء والعزلة ، وتعفيه الطبيعة مؤقتاً من واجب الدفاع عن الأنثى والصغار . وعند ذاك تكون الحياة فى قرونه قد هبطت إلى أضعف حد ، فتتقصف وتسقط ، ويصبح الظبى عارى الرأس لا فرق بينه وبين الأنثى . وفى شهور الربيع والصيف يعيد التاريخ نفسه فتنمو القرون ويستعيد الظبى سلاحه ويخرج للكفاح مرة أخرى ، وهكذا دواليك تبعاً لتوالى الفصول .

تلك إحدى معجزات الطبيعة التى تتجدد كلما استدار العام وقد يهيأ لنا أن نراها بأعيننا إذا حاولنا أن نتأمل فيما حولنا

العنكبوت ومخبؤه

من العناكب نوع يعرف بعنكبوت الباب الأفقى (Trap-door spider) إشارة إلى شكل المخبأ الذى يأوى إليه . فهو يحفر

فى الأرض حفرة رأسية أسطوانية الشكل يبلغ طولها نحو ثلاثين سنتيمتراً وقطرها سنتميتر واحد مستخدماً فى ذلك فكيه اللذين يقطع بهما الطين ويحمله بعيداً عن الحفرة . ثم يكسوها من الداخل بغطاء من الحرير الناعم الذى يغزله بنفسه. وإذا تساقط الطين فى جزء من جوانبها قوى هذا الجزء بنسيج من الحرير ممزوج بمادة صمغية تساعد على تماسكه . ثم يقف خارج الحفرة ويغطى فوهتها بطبقة سميكة من الحرير ويضع فوقها طبقة رقيقة من الطين ويغزل فوقها طبقة أخرى من الحرير . وهكذا تتوالى طبقات الحرير والطين حتى يتكون منها باب متين يسد الحفرة. ولكن هذا الباب يكون ملتصقاً بالأرض حول محيطه بتأثير الخيوط الحريرية الممتدة بينه وبينها ، فكأن العنكبوت قد صنع مخبأ موصداً لا يستطيع دخوله ، ولكن تصميم المخبأ لا ينتهى عند هذا الحد لأن العنكبوت يقرض بفكيه هذه الخيوط حول ثلثى المحيط ويترك الثلث الأخير كمفصل يتحرك حوله الباب . وعند ما يريد العنكبوت أن يدخل إلى مسكنه يرفع جانب الباب ، وينحدر من فتحته ، وإذ ذاك يسقط الباب من نفسه بتأثير ثقله ، ويصبح العنكبوت آمناً فى مخبئه الحصين .

(شكل ٢) وإذا أراد الخروج صعد إلى فوهه الحفرة ودفع الباب وتسلل من فتحته وتركه فيهبط ويسد فتحة المخبأ . ويرى هذا الطراز من المخابئ محفوراً فى الطين على شواطئ الأنهار وبخاصة فى جنوبى فرنسا وشمالى إيطاليا .

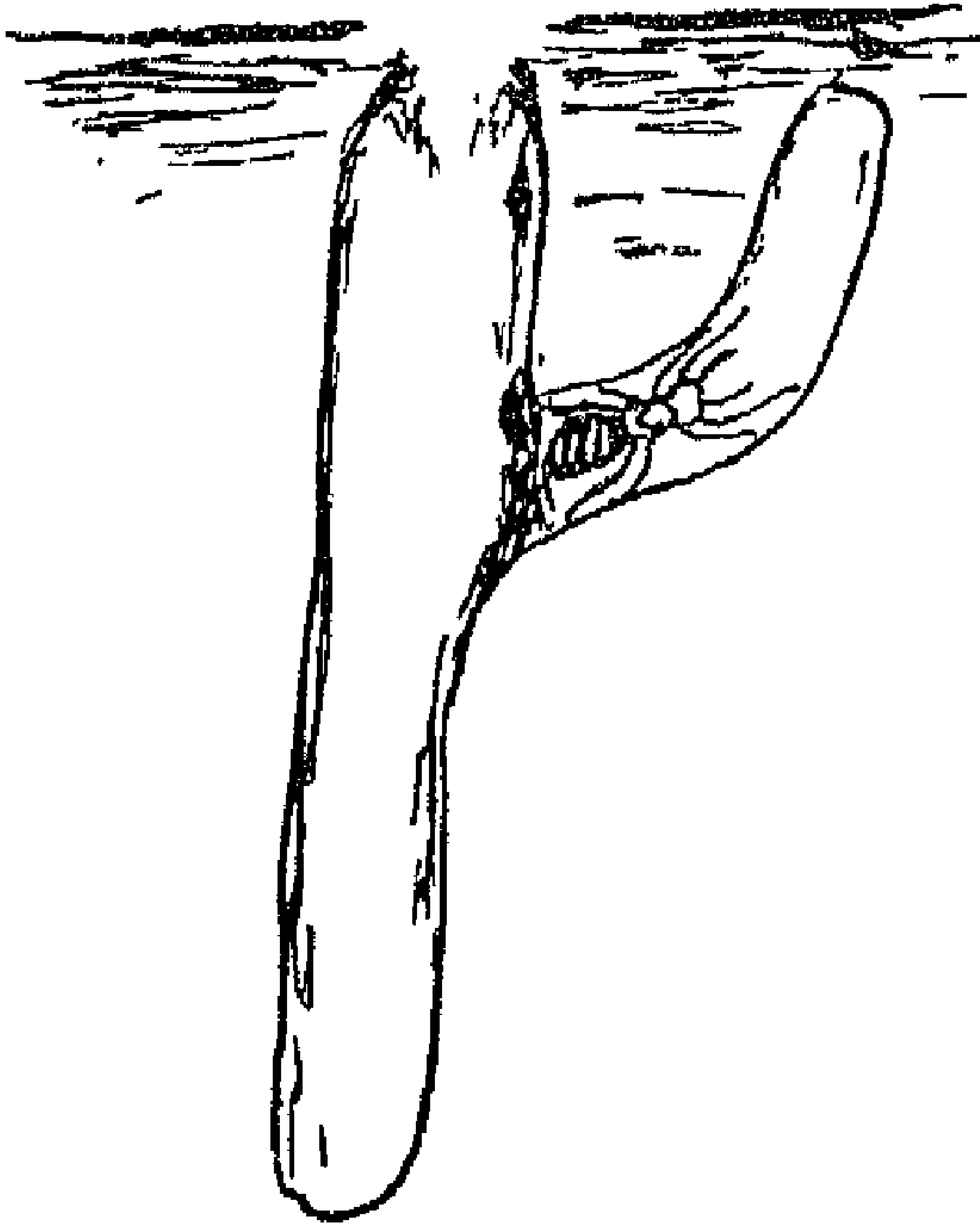


(شكل ٢)

وهناك نوع آخر من العناكب يصنع مسكنه بالشكل المتقدم ذكره ولكنه لا يبذل جهداً كبيراً فى تقوية بابه ، ويقيم عند منتصف الحفرة باباً آخر أفقياً ، فإذا ما أحس بالخطر تسلل داخل هذا الباب المتوسط . ويدخل العدو إلى الحفرة مخترقا الباب العلوى الرقيق ويصل إلى الباب المتوسط فيتوهم أنه قاع الحفرة ويراها خاوية خالية فيعود أدراجه وقد نجا العنكبوت .

وثمت نوع ثالث من العناكب بلغت تصمياته الهندسية حداً

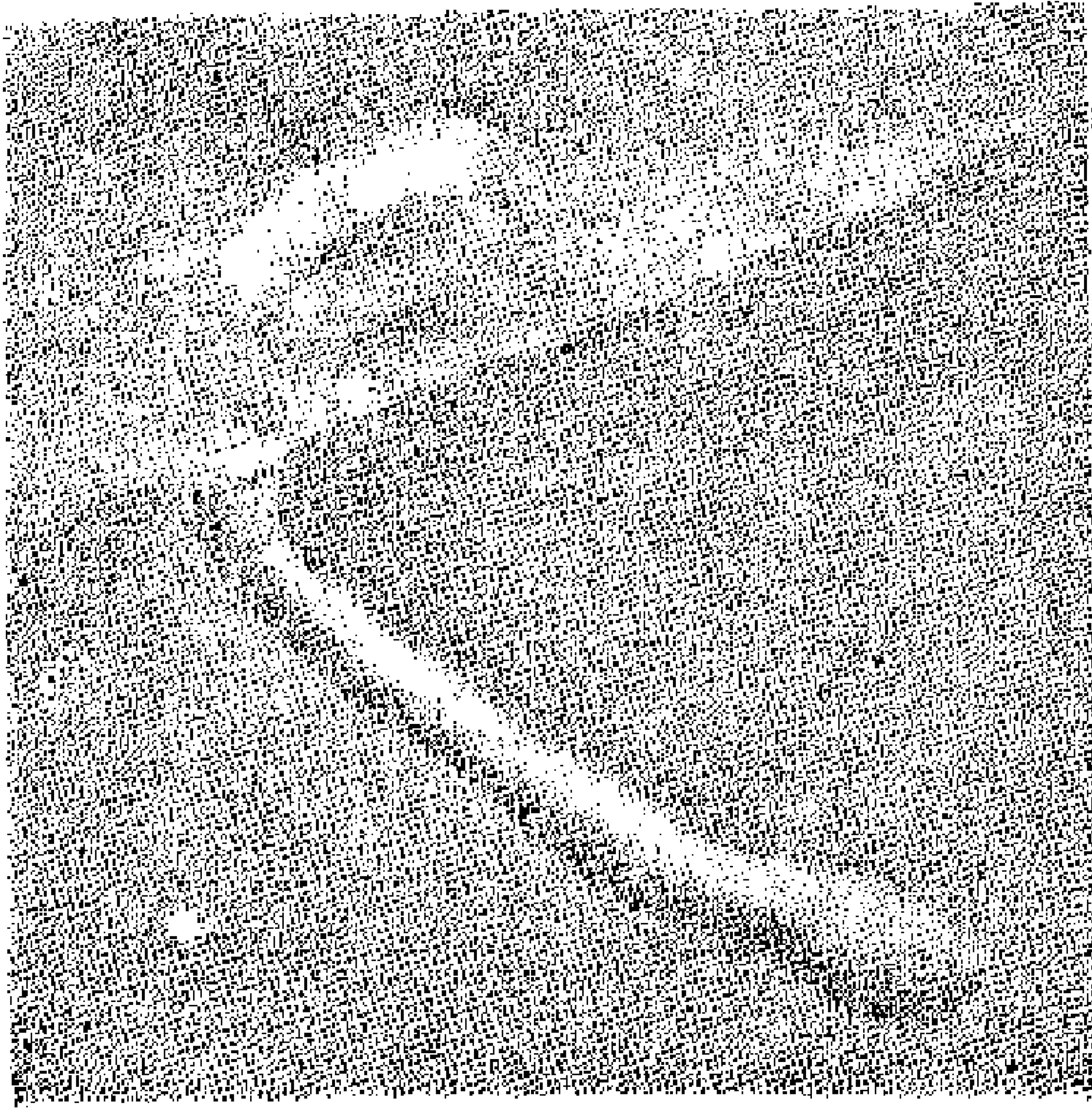
يحار فيه العقل البشرى . إذ يتكون مسكنه من حفرة رأسية لها باب عند فوهتها، ومن منتصفها تتشعب قناة ملتوية إلى أعلى (شكل ٣) ولكنها لا تصل إلى سطح الأرض ، وعند موضع اتصال الحفرة بالقناة باب ذو مفصل يسد الأخيرة . وعند ما يشعر العنكبوت بالخطر يتسلل داخل القناة



(شكل ٣)

ويغلق بابها ، فإذا تمكن العدو من الدخول إلى الحفرة لم يجد بها قنيصته ، ولم يستطع تمييز الباب الذى يحتمى وراءه العنكبوت ، فيخرج وقد ذهبت أتعابه سدى .

وفى انجلترا عنكبوت يصل فتحة مسكنه بأنبوبة حريرية طويلة يتركها ممتدة على سطح الأرض (شكل ٤) ، وفى داخلها خيوط متصلة بجسمه، فاذا ما هبطت حشرة على الأنبوبة من الخارج شعر بها ، وأسرع إليها ، ومزق الأنبوبة عند


(شكل ٤)

الموضع الملائم ، وجـر الحشرة إلى الداخل ، ثم أصلح الأنبوبة بنسيج جديد من الحرير.

وللعناكب غرائز أخرى تثير الدهشة ويعجز العلم عن كشف العوامل التى أوحت بها إلى هـذه المخلوقات الصغيرة . فالعنكبوت أول من ابتكر فخاً لصيد فريسته بهذه الشبكة العجيبة التى يصنعها من خيوط حريرية يغزلها بنفسه ويقيمها بشكل هندسى متقن ،

وهو أول من اجتاز نهراً أو هاوية عميقة بقنطرة صناعية . إذ يقف على أحد جانبي النهر أو الهاوية ويغزل خيطاً طويلا من الحرير ويثبت طرفه ، ويتركه لتأثير الريح حتى يستقر طرفه الآخر على الجانب الثانى ، ثم ينزلق فوقه بسرعة كبيرة ، حتى ليتخيله الرائى طائراً على جناح .

وهو أول من ابتدع فكرة السفينة بهذا الرمث الذى يجمعه

من أوراق الشجر ويثبته بخيوط حريرية ويلقيه فى الماء ليحمله وما معه من مؤونة لا يستطيع حملها وحده .

وقد رأينا أنه ابتكر الخنادق المحفورة فى جوف الأرض وحصنها بأبواب متينة وزودها بوسائل الفرار والنجاة من الخطر.

ألا فلنحن الرأس خاشعين للقدرة الخفية والمؤثر الفعال الذى زود هذا المخلوق الضعيف بغرائز تحار فى إدراك كنهها العقول .

رحلة طائر حول الأرض

لما أنشد هومر الأوديسيا (Odyssey) فى القرن التاسع قبل الميلاد لم يكن معروفاً له سوى البحر الأبيض المتوسط ، لأنه قصر رحلات بطله عولس (Ulysses) على جزء منه . وبعد ذلك بنحو ألف سنة كان الاعتقاد السائد أن الأرض تنتهى عند اسكتلندا ، وليس وراء حدودها إلا بحار من الجليد تجعل الحياة مستحيلة . ولذلك نرى القائد الرومانى يوليوس أجريكولا (Julius Agricola) يخطب فى جنوده قبل أن يشتبك مع الأسكتلنديين قائلاً : « لقد وصلنا إلى نهاية العالم ، فإذا لم يقدر لنا الفوز فليس من العار أن ننتهى عند نهاية الطبيعة » .

أما فى الجنوب فكان الظن أنه ليس وراء البلاد التى كانت معروفة إذ ذاك سوى منطقة من اللهب اللافح والهواء الساخن الذى لا يصلح لتنفس الإنسان والحيوان .

وظل هذا الاعتقاد بحدود العالم راسخاً فى النفوس أربعة عشر قرناً أخرى ، حتى هدمه كولومبوس ، بعد أن ذاق مرارة الاضطهاد والسخرية من العلماء ورجال الدين والحكام .

وفى كل هذه الأزمنة التى لم يكشف فيها الإنسان إلا جزءاً صغيراً من المعمورة كانت بعض الطيور الصغيرة أكثر خبرة منه وأدرى بهيئة الأرض وأقاليمها ، لأنها كانت تطير فى كل عام من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى ، لتقضى فيه فصله الصيفى ، ثم تعود إلى موطنها فى الشمال .

ومن هذه الطيور نوع يسمى «سكوا» (Skua) ، ونستطيع أن نلقبه بصقر البحر . وهو يعيش فى البقاع الشمالية بآسيا وأوروبا وأمريكا . يرتاد الهواء ويغوص فى الماء ويتوغل فى الأمواج المتلاطمة دون أن يصيبه خطر .

وهو يقتات بأفراخ الطير و بيضها و بالأسماك التى يصطادها . ومن غرائزه أنه يتتبع الطيور الجارحة الأخرى و يراقبها ، حتى

إذا اصطادت بعض السمك واعتزمت أن تحمله إلى صغارها هاجمها فى الهواء بعنف شديد، فتلقى حملها من الصيد، وتفر مسرعة، فيبادر بالتقاطه قبل أن يسقط فى الماء.

وهو يبنى وكراً متواضعاً لا يزيد عن حفرة فى الصخر أو الطين اليابس، ويضع فيه بيضه، ويراقبه حتى تخرج منه الأفراخ وتنمو وتستطيع أن تطير. وإذ ذاك يكون الشتاء قد أقبل فى الشمال ببرده الشديد وعواصفه القاسية.

وهو لا يحب البرد القارس ولا الحر اللافح ويميل إلى الجو المعتدل. والشتاء فى المنطقة الشمالية يقابله الصيف فى المنطقة الجنوبية فعند ما يكون الشمال مهدداً بالشتاء يكون الجنوب متمتعاً بحرارة معتدلة، وعند مايقبل الشتاء على الجنوب يكون الشمال صحواً تنبعث إليه أشعة من الشمس لطيفة التأثير. فصقر البحر بهجرته من الشمال إلى الجنوب، ثم عودته إلى موطنه، يتمتع بالجو المعتدل الذى يلائم طبيعته فى طرفى العالم.

وتبدأ هجرته من الشمال قبيل قدوم الشتاء، فيجمع صغاره ويرحل بها إلى الجنوب حيث اعتاد أسلافه أن ينزلوا منذ آلاف السنين. وقد يحط رحاله فى البرازيل أو جنوبى إفريقية أو

أستراليا أو نيوزيلندة أو الجزر القريبة من المنطقة المتجمدة الجنوبية. وهو لا يحمل غذاءه معه فى هذه الرحلة الشاقة الطويلة، ولكنه يستطيع أن يحصل على قوته من صيد البحر، فما عليه إلا أن يقف عن الطيران، ويهبط إلى سطح الماء، ويحصل على غذائه من الأسماك، ثم يحلق ثانية فى الهواء، ويواصل رحلته.

وعند ما يقبل الشتاء فى الجنوب يحن الطير إلى موطنه فى الشمال، فيعود إليه من نفس الطريق الذى سلكه فى الذهاب، وهناك يضع البيض ويربى صغاره. وعند ما يكتمل نموها يكون الشتاء قد آذن بالمجىء، فيرحل بها إلى الجنوب، وهكذا تتكرر الرحلات فى كل عام.

ويقطع الطير فى رحلته مسافات شاسعة لا تقل عن اثنى عشر ألف ميل فى الذهاب ومثلها فى الإياب. ويكاد العقل ينكر قدرة هذا الطائر الصغير على اجتياز هذه الأبعاد العظيمة لولا أن بعض هذه الطيور قد أمسكت فى وكرها وميزت بحلقات معدنية صغيرة وضعت بالقرب من أقدامها ثم أطلقت. وقد أمكن العثور على أكثر من واحد منها فى بقاع معينة من الأقطار

الجنوبية ، وبهذا سهل تقدير المسافة بين مسكنها فى الشمال والموضع الذى نزلت به فى الجنوب .

وهناك طائر آخر يسمى خطاف البحر (Tern or Sea swallow) أصغر من صقر البحر ولكنه أقوى منه على الطيران يسكن فى المنطقة المتجمدة الشمالية ويربى فيها صغاره ، وعند ما تقدم ليالى الشتاء الطويلة يعبر الكرة الأرضية على جناحه ، ويصل إلى المنطقة المتجمدة الجنوبية ليتمتع بصيفها ، ثم يدعوه الحنين إلى موطنه فيهرول مسرعاً إليه وهو يقطع فى هذه الرحلة نحو عشرين ألف ميل فى الذهاب والإياب .

وفى أمريكا يعيش طائر يسمى الكروان الذهبى (Golden Plover) يعشش أثناء الصيف فى المنطقة المتجمدة الشمالية ، ويقضى الشتاء فى أقاصى جنوب أمريكا . وقد لوحظ أنه فى أثناء هجرته إلى مشتاه يقطع المسافة من لابرادور إلى نوفاسكوتيا دون أن يقف عن الطيران ليتغذى ، وتبلغ هذه المسافة ٢٤٠٠ ميل .

ومن غريب أمر هذه الطيور المهاجرة أنها لاتحتاج إلى مرشد يهديها السبيل الذى تسلكه فى الذهاب والإياب فالغريزة

وحدها هى دليلها الذى لا يخطئ وقائدها الحكيم ، وقد يكون بين السرب المهاجر أفراد كثيرة من الصغار لم يدربوا على الهجرة من قبل ، ومع هذا فهم يعرفون الطريق ويستطيعون اجتيازه وحدهم دون أن يلتمسوا الإرشاد من زملائهم الكبار.

وبإزاء هذه الصورة الرائعة من الغريزة الحيوانية تتمثل أمامنا آلاف الضحايا البشرية التى تضل فى الصحراء على بعد أميال محدودة من موطنها ولا تجد من حواسها وقوة تفكيرها ما يهديها سواء السبيل فتموت من الإعياء والجوع أو تفترسها الضباع .

السرطان (Crab)

السرطان من الحيوانات المائية القشرية ويسميه العامة « أبو جلنبو أو الكابوريا » ، ويوجد على شواطئ البحار فى جميع أنحاء العالم . وهو محصّن بدرع من القشور المتينة التى تغطى صدره وأقدامه ومخالبه وتقيه شرّ أعدائه .

ومنه نوع يسمى السرطان الناسك (Hermit crab) . رأسه وصدره محصنان ولكن جزءه الخلفى رخو عار عن القشور،

وبه مادة زيتية . وقد يحتوى على البيض أحياناً . وهذا الجزء يعتبر وليمة شهية لبعض الحيوانات الكبيرة التى تحاول التهامه ، ولهذا يعمد السرطان إلى حيلة يقى بها هذا الجزء من الخطر ، فهو يبحث على الشاطئ عن قوقعة خالية أو قشرة من الصدف تكون بيضية الشكل ولها فتحة ملائمة ويدخل جزءه الخلفى فيها تاركا صدره ومخالبه خارجها (شكل ٥). وإذا ما تحرك جر مسكنه المستعار وراءه لأن الجزء الرخو يلتصق به عن طريق المص .



(شكل ٥)

وإذا نما جسم السرطان وأصبح مسكنه ضيقاً بحث عن قشرة أخرى ملائمة . وقد يستحسن مسكن زميل له فيحاول أن يغتصبه منه، وتقوم معركة بين الاثنين تنتهى بمأساة لأحدهما. ومثلهما فى ذلك مثل دولتين تتقاتلان لاستغلال مستعمرة ليست ملكا لكليهما .

ومن غريب الأمر أن السرطان يؤجر جزءاً من مسكنه

اصديق له يحل داخل القشرة ويرافقه فى ذهابه وإيابه . وهو دودة من نوع خاص . وكلما حصل السرطان على طعام أخرجت الدودة رأسها من مكمنها طالبة نصيبها من الغنيمة فتحصل عليه بسخاء . فهذا الحيوان الذى يضطر أحيانا لقتل الصغار من جنسه والتهامها لم يحرم من عاطفة الشفقة التى توحى إليه بحماية هذه الدودة الصغيرة وإطعامها .

ويحل على السرطان فى مسكنه ضيف آخر يحط على سطح القشرة من الخارج ، ويبقى عليها طالما كان السرطان داخلها . وهذا هو نوع من شقائق البحر (Sea anemone) (شكل ٦) يفضل مرافقة السرطان فى تجواله على أن يبقى ملتصقاً بإحدى الصخور كعادته المألوفة. وفى هذه الحال يستطيع أن يحصل على رزقه بانتقاله مع السرطان من مكان إلى آخر بدلا من أن ينتظر هذا الرزق وهو فوق صخرة ساكنة . وهناك تعاون على الحياة بين السرطان وهذا الحيوان


(شكل ٦)

فالأول يحمل الثانى ويهيئ له سبيل الحصول على قوته ، والثانى

يدافع عن الأول لأنه مزود بخلايا لاذعة ينفر منها بعض الحيوانات التى تحاول افتراس السرطان. وقد يحدث أحياناً أن هذا الضيف يبسط جسمه على القشرة بأجمعها وفوق الجسم الخارجى للسرطان فيكون وقاء له من الخطر .

وفى مياه المحيط الهندى قريباً من جزائر سيشلز Seychelles نوع من السرطان يحمل فوق مخابيه حيوانين من شقائق البحر، فإذا أمسك بفريسة، ولم يستطع التغلب عليها لذعها بهما فتصبح عاجزة عن المقاومة . ويحرص السرطان على هذين الحيوانين بحيث إذا انتزع أحدهما بحث عن آخر ولصقه مكانه .

والسرطان الناسك حيوان شره يأكل كل شىء يجده ويستطيع التغلب عليه وهو يتوغل أميالاً بعيداً عن الشاطئ ، ويتسلق الأشجار بسهولة ويفتك بثمارها .

وأقوى السرطانات نوع يسمى اللص (Robber Crab) يعيش فى المحيطين الهندى والهادى فى البقاع المجاورة لأشجار الجوز الهندى . وهو كبير الحجم يزيد طوله عن ٣٠ سنتيمتراً ، والجزء الخلفى منه محصن بغطاء متين فهو فى غنى عن مسكن يستعيره . ومن دأبه أنه يتسلق أشجار الجوز الهندى ويقطع

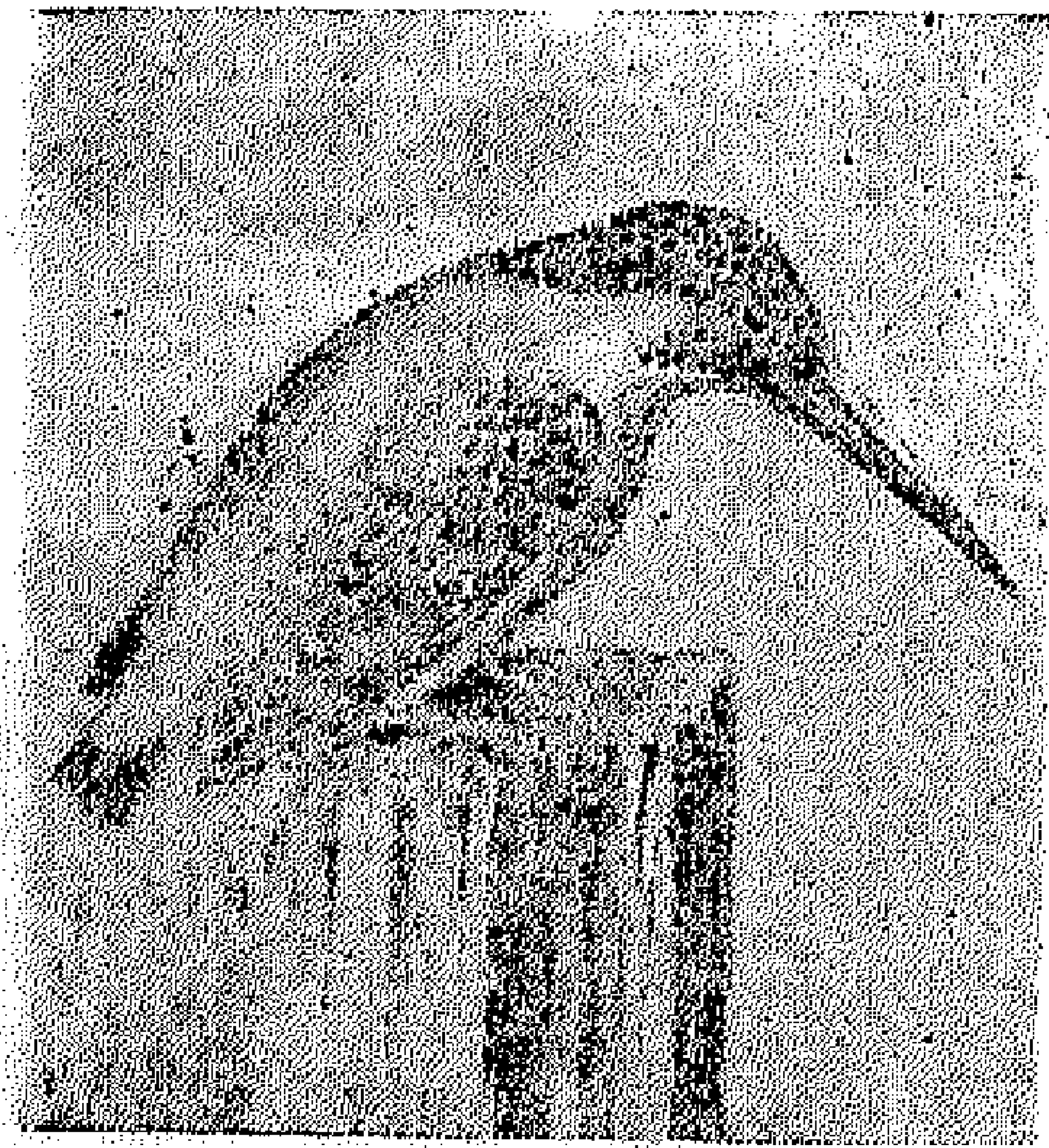
ثمارها و يقذف بهـا إلى الأرض ثم ينحدر و يبدأ فى التهامها . وثمرة الجوز الهندى — كما هو معروف — محاطة بغطاء صلب متين يعجز السرطان عن تحطيمه . ولكننا نرى على هذا الغطاء ثلاث بقع سوداء . إحداها لينة نوعاً ما لينمو الجنين منهـا . فيختار السرطان هذه البقعة و يقضمها بسهولة و يدخل مخلبه فيها لينتزع لباب الثمرة من الداخل و يأكله .

وعنكبوت البحر (Sea Spider) نوع آخر من السرطانات يهيم فى قاع البحر ويجمع فى أثناء ذلك بعض ما يجده من الإسفنج والديدان وشقائق البحر والطحالب ، و يضعها بمخالبه فوق ظهره فتلتصق به ، لأنه مزود بقواطع وشوكات وتجاعيد كثيرة . ويختفى السرطان تحت هذا الحمل فلا تميزه الأسماك الكبيرة التى تحب صيده . وإذا شعر بالجوع ولم يجد طعاماً مد مخلبه فوق ظهره والتقط جزءاً من حمله والتهمه . ولهذا الحيوان ميل للتخفى بحيث إذا وضع فى حوض مائى به اسفنج غطى نفسه بقطعة منه ، و إذا نقل إلى حوض آخر به طحلب أخضر نزع الإسفنج ووضع مكانه الطحلب ، و إذا نقل إلى حوض ثالث به طحلب أحمر ألقى الطحلب الأخضر واستبدل به الأحمر ،

وكل هـذا ليكتسب لون الوسط المحيط به ولا يكون ظاهراً يسهل تمييزه .

أبو نقار Kingfisher

هذا طائر صغير الجسم يضرب لونه بين الأزرق والأخضر . له ذيل قصير ومنقار طويل يبلغ نحو نصف طول جسمه ، وينتهى بطرف قوى حاد . وهو يصطاد الأسماك ويتغذى بها . تراه واقفاً على جذع شجرة أو فوق صخرة يرقب الماء تحته فى هدوء ورهبة وسكون ، (شكل ٧) فإذا ما أحس بسمكة تتحرك وثب عليها كالبرق الخاطف ، وما هى إلا لحظة حتى يعود إلى مكانه وقد انتشلها من الماء بعد أن يقبض عليها بمنقاره ، ثم يضربها ضربات قوية متتالية بطرف منقاره حتى تموت ، وعندئذ يقذفها فى الهواء ، ويلتقطها ثانية بمنقاره مبتدئاً



(شكل ٧)

برأسها (شكل ٨) ، ويبتلعها دفعة واحدة ، ثم يقذف بعظمها إلى الخارج .

وهو يحفر لنفسه وكراً على جانب النهر ، يبلغ امتداده نحو أربعة أقدام ، وينتهي بفجوة واسعة يضع فيها بيضه ويربي صغاره . ومن غريب أمر هذا



(شكل ٨)



(شكل ٩)

الطائر أنه يجعل الحفرة مائلة بارتفاع إلى أعلى (شكل ٩) حتى إذا زاد ماء النهر لم يصل إلى الفجوة المحتوية على البيض لأن ضغط الهواء فيها يمنعه عن ذلك ، وهذا بعكس ما يحدث

لو كانت الحفرة مائلة إلى أسفل إذ يهبط الماء فى الحفرة و يغمرها بما فيها .

وهنا لا يسعنا إلا أن نتساءل عمن أوحى لهذا الطائر الصغير بفكرة الضغط الجوى وتطبيقها للمحافظة على كيانه ؟ تلك الفكرة التى لم يكشف سرها الإنسان إلا فى القرن السابع عشر ، عقب أبحث توريشلى وجاليليو . ويجيب العلماء على هذا السؤال بأن الغريزة هى العامل الفعال الذى يستجيب هـذا المخلوق لإيحائه . وهو جواب ناقص لا يعتبر تفسيراً مقنعاً لهذه الظاهرة العجيبة ، وسيظل السائل فى حيرة من أمره مهما كرت السنون وتوالت الأجيال .

رحلة الفراش

الفراشة من أضعف المخلوقات ، يهب عليها النسيم فيدفعها أمامه دون أن تقوى على مقاومته ، و يتساقط الرذاذ عليها فتمتلئ خوفاً وفزعاً ، وتأوى إلى مكمنها . و يقبض عليها الطفل فيسحقها بين أنامله ، ومع هذا ففى مقدورها أن تقطع مئات الأميال طائرة فوق الجبال والبحار متنقلة من قارة إلى أخرى . وتحدث

هذه الظاهرة فى بدء الصيف ، ويمكن ملاحظتها فى شمالى إفريقية . ففى صباح أحد الأيام تخرج كعادتها إلى المراعى والغابات لتتغذى بالعصير الحلو فى الأزهار ، وما هى إلا لحظة حتى تتملكها رغبة فجائية في الهجرة مدفوعة إليها بريح خفيفة تهب نحو الشمال ، وقد تسكن الريح ولكن الطيران لا يقف ، كأن هبوبها فى بادئ الأمر هو الحافز الذى يوقظ فى الفراشة غريزة خفية للرحيل عن بيئتها . وتعبر البحر الأبيض فى جموع كثيفة زاخرة ، وتصل إلى فرنسا ، ومنها تطير إلى جنوبى انجلترا ثم إلى اسكتلندا حيث تحط رحالها . ويسقط كثير منها فى الطريق من شدة الإعياء ، وينزل بعضها فى فرنسا ، فيضع بيضه ، وتخرج ديدانه ، وتتحول فى آخر تطورها إلى فراشات ، وهذه تواصل الهجرة التى بدأت بها أمهاتها ، فترحل إلى اسكتلندا من طريق انجلترا .

والفراش المهاجر لا يعود إلى البيئة التى خرج منها بخلاف الطيور التى تتكون هجرتها السنوية من موجتين إحداهما للذهاب والأخرى للإياب . فهى تعود دائماً إلى الوطن الذى هاجرت منه لتفرخ فيه وتربى صغارها . وهجرة الطيور مأمونة العاقبة ،

أما هجرة الفراش فمصحوبة بأخطار شديدة لأن عدداً كبيراً منه يدركه التعب وهو فوق الماء فيبتلعه البحر . وقد تهب عليه ريح قاسية فتدفعه فى اتجاهات لا أرض وراءها . ويكون نصيبه الموت المحتوم . مثله فى ذلك مثل الجراد الذى تسوقه أحياناً ريح عاتية نحو البحر فيهلك وينجو الإنسان من شره. وقد ذكر دارون (Darwin) أنه رأى جموعاً هائلة من الفراش فوق البحر بعيدة عن الأرض بمئات الأميال ومدفوعة بالريح نحو الهلاك المحقق .

ولم يتمكن العلماء إلى الآن من كشف السر فى هجرة الفراش. ويظن البعض أن تكاثره فى بيئته ، ونمو عدده ، يجعل موارد الغذاء محدودة ، والتنافس عليها شديداً ، فيرحل إلى بيئة خصبة تتوافر فيها أسباب التغذية . وقد يكون هذا التعليل مقبولاً لو لم تكن رحلة الفراش مؤدية إلى هلاك جزء من أفراده أو باعثة على القضاء عليه جميعاً فى بعض الظروف .

ثعبان البحر (Eel)

لو عرضت حياة ثعبان البحر على الشاشة البيضاء لشك الجمهور فى صحتها ، لأنها أغرب من الأساطير الروائية ، بل هى أروع من الخيال . وهى سلسلة متصلة من التطورات التى لا تخلو من ظواهر عجيبة تثير الدهشة . وأول ناحية فى حياته تستلفت النظر هى اختياره للموضع الملائم لوضع بيضه ، فهو يبحث عن بقعة فى قاع البحر تقرب نسبة الملح فيها من ٣٥ ٪ وتبعد عن سطح البحر بما لا يقل عن ١٢٠٠ قدم لأن البيض لا ينضج إلا مع توافر هذين الشرطين . وفى هذه البقعة يضع البيض الصغير الذى يتحمل ضغط الماء الشديد فوقه ، فى حين أن أمهر الغواصين لا يستطيع أن يهبط فى الماء أكثر من بضع مئات من الأقدام ، مع ما يستخدمه من أحدث الوسائل الآلية . ويفقس البيض ، ويخرج منه الحيوان الصغير فى شكل شريط رقيق صغير . وهو يولد يتيما لأن والديه يموتان بعد وضع البيض ، كأن وظيفتهما فى الحياة تنتهى عند هذا الحد . وتمر شهور عدة على هذا المخلوق يتغذى فيها وينمو ، ويتكون له رأس صغير على هيئة أنبوبة

مستديرة . أما باقى جسمه فينبسط من الجانبين ويكون رقيقاً شفافا يكاد يرى ما وراءه كالزجاج . ثم يبدأ فى التحول فينكمش جانباه ويستدير جسمه تدريجاً حتى يتخذ شكل الأنبوبة . وفى فترة التحول التى تمتد ثمانية أشهر أو تسعة يمتنع عن الغذاء لأن أسنانه الصغيرة البارزة إلى الأمام تختفى وتنمو بدلها أسنان قوية كثيرة على فكيه العلوى والسفلى .

بعد تمام هذه المرحلة من التحول يشعر ثعبان البحر أن الماء الملح لا يصلح لمعيشته ، فيهجر البحر متجهاً نحو مصبات الأنهار ومواعيد هجرته منتظمة وإن كانت تختلف باختلاف المواضع . ويتخذ سبيله إلى الأنهار فى جموع زاخرة لا حصر لعددها ، وفيها ينتشر ويبدأ حياة جديدة .

ومن غريب أمره أنه يفضل البرك على الأنهار ، وفيه غريزة تنبئه بمواضع البرك القريبة ، فيخرج من النهر ، ويتسلق جانبه ثم ينساب كالأفعى على الحشائش والأرض ويستمر فى سيره مستعيناً بلوسة جسمه المغطى بغشاء مخاطى حتى يصل إلى البركة التى يختارها سكناً له . والمعروف أن الأسماك لا تستطيع أن تبقى خارج الماء مدة كبيرة ، لأن جهازها التنفسى معد لاستنشاق

الهواء المذاب فى الماء ، ولا يصلح للانتفاع بالهواء الجوى ، ولذا فهى تختنق فى الهواء كما يختنق الإنسان فى الماء . وما دام الأمر كذلك فكيف يتيسر لثعبان البحر أن يجتاز الطريق براً من النهر إلى البركة ؟ والجواب على ذلك أن جهازه التنفسى مزود بفجوات كثيرة يملؤها بالماء قبل أن يترك النهر وينتفع بالهواء المذاب فيه أثناء رحلته

ويتغذى ثعبان البحر ببيض الأسماك الأخرى وصغارها ، ويساعده الغذاء على النمو فيكبر جسمه سنة بعد أخرى ، ولا يقف هذا النمو أثناء وجوده فى النهر أو البركة وقد يصل طوله إلى خمس أقدام ، ووزنه إلى عشرة أرطال .

وهو حيوان شره جرىء ، لا يخشى مهاجمة الأسماك الكبيرة ، ومتى قبض عليها بأسنانه لم تستطع منه فراراً ، وقد تقذف بنفسها فى الهواء طلباً للنجاة ، ولكن هذا لايجدى نفعاً ، إذ تظل أسنانه ثابتة كالملزمة الحديدية حتى تموت السمكة ، أو ينفصل منها الجزء الذى احتواه فمه . وقد لوحظ فى أنهار نيوزيلنده ، حيث ينمو ثعبان البحر إلى حجم كبير ، أنه يختطف بعض الطيور التى تشرب من النهر ويأكلها . وقد يقضم أفخاذ الأوز والبط الذى

يعوم فى الماء . ولثعبان البحر طريقة فذة فى مهاجمة فريسته ، فهو يكمن فى مخبأ بعيداً عن الأنظار وينتظر ريثما تقترب منه سمكة أو طير مائى ، وينطلق بسرعة البرق ، ويغرز أسنانه القوية فى جسم فريسته ، ثم يمد جسمه ويُصَلِّبه ، ويدور فى الماء بحركة رحوية سريعة ، فلا تستطيع الفريسة أن تنال من جسمه ، وينتهى أمرها بالموت ،أو بانفصالها عن الجزء الذى وقع بين فكيه.

ويظل ثعبان البحرفى الماء الحلو حتى يكتمل نموه ، ويصل إلى طور البلوغ . ويستغرق هذا مابين خمس سنوات وثمان ، وإذ ذاك تدفعه الغريزة إلى الرحيل إلى البحر ، ويستعد لتحمل الضغط الشديد الذى يقع عليه من الماء في الأعماق البعيدة ، فيتكيف جسمه ليلائم الوسط الذى يحل فيه، إذ تتولد تحت جلده فقاعات غازية تساعده على مقاومة الضغط الشديد . فحينئذ يهجر البركة ويعود إلى النهر من نفس الطريق الذى اجتازه فى الذهاب ، وينحدر من النهر إلى البحر ، ويتخذ سبيله إلى بقعة فى القرار ذات ملوحة ملائمة ، وعلى البعد المطلوب من السطح ، وفيها يضع البيض ويودع الحياة لأن عظامه تلين بعد ذلك تدريجاً ثم يدركه الموت . وهو يصوم بمجرد خروجه من البركة أو النهر ،

فلا يذوق طعاماً حتى يضع البيض ويموت .

وقد لا يميل ثعبان البحر إلى ترك الماء الحلو ، وفى هذه الحال يستمر جسمه فى النمو ولكنه لا يدرك حد البلوغ ، وقد يعمر طويلاً ، وقد يصل طوله إلى أربع أقدام عندما يبلغ عمره نحو ١٣ سنة . ويزيد عمره عن ذلك كثيراً وقد يبلغ ثلاثين سنة . وفى حديقة الحيوان بباريس عاش أحدها ٣٧ سنة فى الأسر .

وإذا رغب ثعبان البحر فى الرحيل إلى الماء الملح ومنعه عائق عن ذلك بأن كان قد اتخذ مسكنه فى بئر ، كما يحدث فى حالات كثيرة ، أو بأن يؤسر ويوضع فى حوض مائى ، فإنه يتبع نفس الطريقة التى يسلكها لو تمكن من الوصول إلى البحر إذ يصوم عن الأكل وتلين عظامه ثم يموت .

وهناك نوع من ثعابين البحر يمتاز بكهربية فى جسمه ، فإذا قبض عليه إنسان أو حيوان أصابته هزة عنيفة تضطره لإطلاقه ، وتلك إحدى وسائل الدفاع فى الحيوان .

هذا تاريخ حياة ثعبان البحر أجملناه فى صفحات قليلة ، تقرأ فى دقائق معدودة ، وإن كان العلماء لم يصلوا إلى حقيقته إلا بعد بحث طويل شاق استغرق مئات السنين . فمن كان يتوهم أن هذا

الحيوان الشريطى الذى يخرج من البيض ويأخذ جسمه الشف المستوى فى النمو هو نفس الحيوان الأسطوانى الشكل الذى يتدفق من البحر إلى الأنهار فى جموع متلاحقة . وأن هذا هو نفس الحيوان الذى يصل إلى البركة قزماً صغيراً لا يتعدى طوله بضع بوصات فينمو فيها جسمه ويصل طوله إلى نحو أربع أقدام . ومن كان يصدق أن ثعبان البحر يعيش فى البر والماء ويقيم فى النهر والبحر الملح الأجاج ويمكنه بغير مقاييس وموازين أن يعرف عمق الماء ونسبة الملوحة فيه . لقد كانت أطوار نمو الضفادع من عجائب الطبيعة ولكن حياة ثعبان البحر تفوقها إعجازاً .

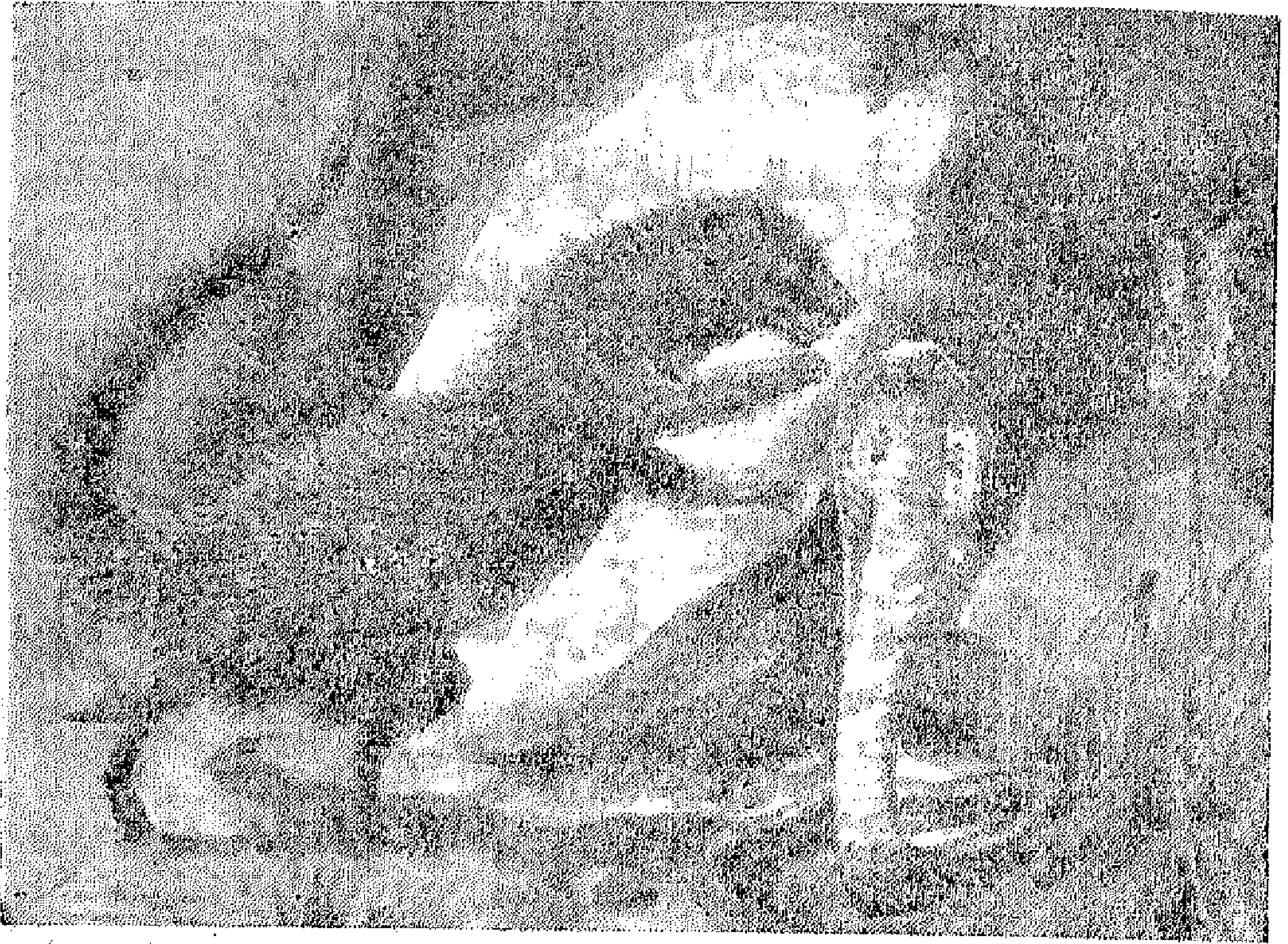
النمس (Mongoose)

يعيش النمس فى معظم بلاد العالم ، ويتخذ مسكنه فى الحقول والحدائق وشقوق الصخور وجذوع الأشجار الجوفاء ؛ ويتغذى بصغار الحيوان والزواحف والحشرات ، وقد يعتدى على أبراج الحمام وأقفاص الطيور كما يفعل ابن عرس . وفى الهند يستأنسونه ويتركونه فى المنازل لينظفها من الحشرات والفيران والأفاعى وغير ذلك . وهو صياد ماهر جرىء ، لا يستطيع أقوى الفيران

أن يصمد لحظة أمامه . أما « أبو برص » فنى نظره لقمة سائغة ، لا يعانى فى الحصول عليها جهداً يذكر .

والأفاعى السامة كثيرة الانتشار فى الهند ، وتجعل حياة الإنسان محفوفة بالخطر وتقدر ضحاياها بعشرين ألفاً فى العام . وهناك تظهر فائدة النمس لأنه أعدى عدو لها . والمعركة بين الثعبان والنمس متعادلة من الجانبين . كلاهما قوى عنيد سريع الحركة ، وكلاهما يحاول أن يفترس عدوه ويأكله . نرى الثعبان وقد انتفض جسمه ، وارتفع رأسه ، وانتفخ شدقاه ، وبرقت عيناه الخاليتان من الأجفان ، وحدق بهما فى خصمه بثبات مخيف . ونرى النمس وقد ارتفع ذيله فوق ظهره ، (شكل ١٠) وانتصب شعره كالقنفذ ، وانتظر وثبة الثعبان بأنيابه السامة . فإذا ما وقعت تنحى عنها بسرعة فائقة وقفز على ظهر الثعبان ، وقبض على رأسه بأسنان قوية فيتهشم تحت ضغطها . وقد لا تنتهى المعركة بهذه السهولة فقد يخطىء النمس الإصابة ، وقد يفلت منه الثعبان ، ويبدأ الصراع من جديد . ولكن النمس لا يخشى العاقبة ، فشعره القائم وجلده السميك يحولان دون وصول الأنياب السامة بسهولة إلى جسمه وتدفق السم فيه . وإذا حدث ذلك

وأصاب النمس ضربة من الأنياب فإنه لا يخسر المعركه ، لأن السم لا يؤذيه ، والنتيجة المحتومة أنه يلتهم رأس الثعبان بلحمه وعظمه وأنيابه وسمه .



(شكل ١٠)

ومما يستلفت النظر عدم تأثر النمس بسم الثعبان ، فالمعروف أن بعض الأشخاص قد يبتلعون نوعاً من السموم ولا يصيبهم أذى ، ولكنهم إذا حقنوا به فى دمهم أصبحوا معرضين للموت.

وكان المظنون أن هـذا ينطبق على النمس ، فإذا أكل رأس الثعبان لم يصبه شر من سمه ، ولـكن إذا لدغه الثعبان بنابه وجرى السم فى دمه كان عرضة للهلاك . ولـكن الخبرة أثبتت غير ذلك ، فقد شوهدت وقائع كثيرة أصيب فيها النمس بعضة من ناب الثعبان ولم يتأثر بها . والمعروف الآن أن فى النمس مناعة ضد سم الثعبان سواء فى حالتى البلع أو الامتزاج بالدم .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يخشى النمس عضة الثعبان ، ويبذل جهداً عنيفاً لينجو منها . والجواب على ذلك أنه يحرص على أن يخرج من المعركة سليماً فعضة الثعبان ، وإن لم تكن مميتة ، إلا أنها قد تحدث جرحاً مؤلماً .

ويحب النمس لحم الفيران . ومن الحوادث التاريخية التى لها صلة بذلك أن الفيران تكاثرت وانتشرت فى جزيرة جامايكا (Jamaica) بدرجة مروعة ، ووصلت إلى الحقول ، وطاب لها قصب السكر فلم تبق منه على وجه الأرض شيئاً ، وأصبحت هذه الثروة الزراعية مهددة بالفناء . وقد لجأ المزارعون إلى وسائل عدة للتخلص من الفيران ، ولـكنها لم تجد نفعاً . وأخيراً فكروا فى إدخال النمس إلى الجزيرة ، إذ لم يكن موجوداً بها

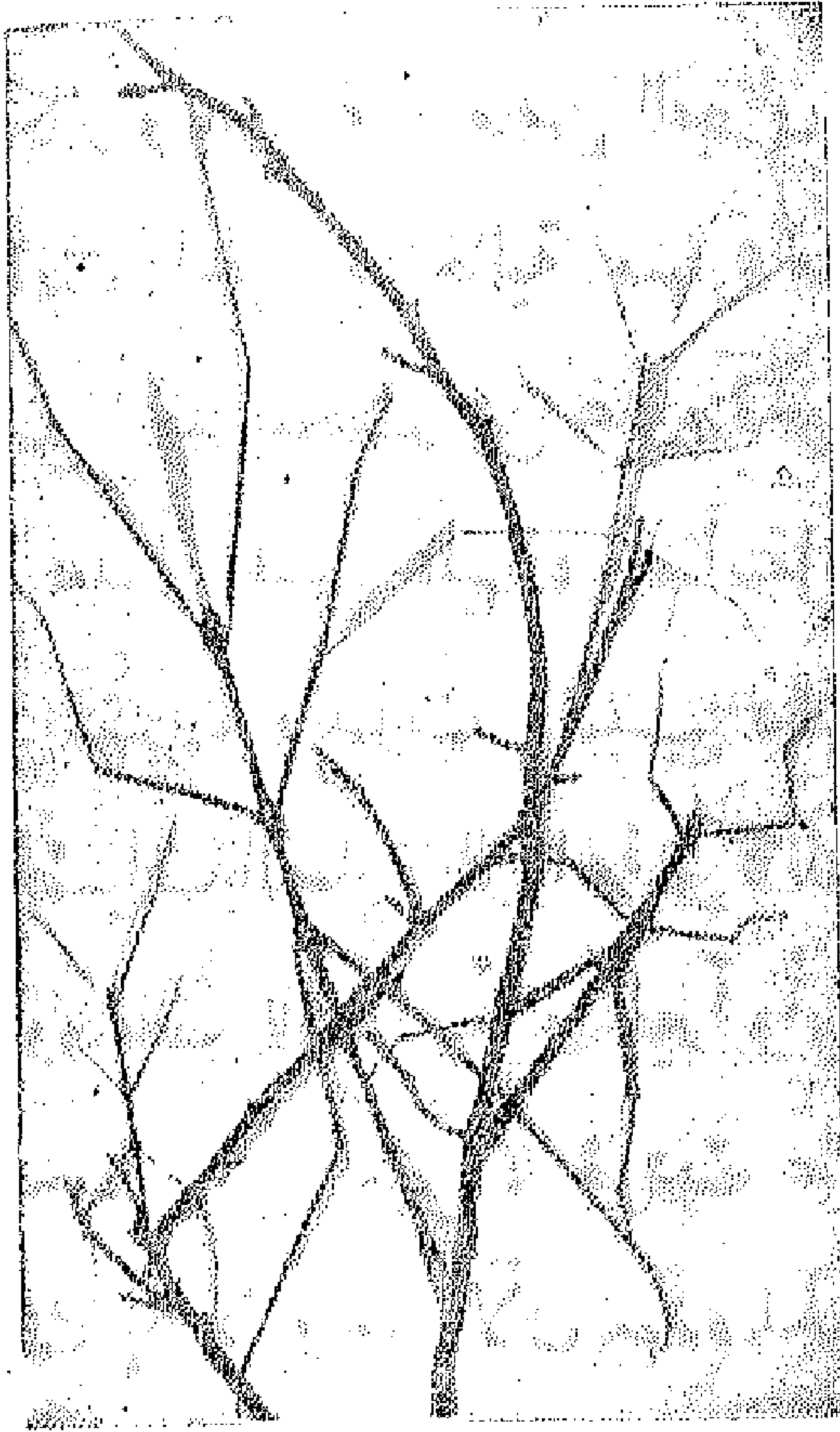
من قبل ، واستوردوا عدداً كبيراً منه وأطلقوه فى المزارع فنما وتكاثر وجعل غذاءه من الفيران ولم تمض ثلاث سنوات حتى كانت الجزيرة خالية منها تماماً . وهنا نشأ خطر آخر ، لأن النمس أخذ يبحث عن غذاء آخر ، فبدأ بالدواجن ، ولم يتركها إلا بعد أن قضى عليها ، ثم انتقل إلى الطيور فالتهم صغارها من عشاشها ، وندرت بسبب ذلك الطيور التى كانت تتغذى بالحشرات الضارة بالزراعة ، فانتشرت هذه الحشرات وأصابت المزروعات بالتلف . وأخيراً رأت الحكومة أنه لا مناص من التخلص من النمس ، فجردت عليه حملة لإبادته ، وقد نجحت فى ذلك إذ لا يوجد الآن بهذه الجزيرة نمس واحد .

حشرة العود (Stick Insect)

تراها على الأرض فتخالها عوداً من الشجر يابساً تتشعب منه فروع رفيعة ، فإذا لمستها بيدك أخذت تتحرك وتسعى كأنها عصا موسى . تلك هى حشره العود (شكل ١١) .

وهى أكبر الحشرات المعروفة ، يبلغ طولها أكثر من ثلاثين سنتيمتراً ، وجسمها مستطيل رفيع كالعصا أو عود الشجر ،

وتتفرع منه ثلاثة أزواج من السيقان دقيقة طويلة، وهى لا تختلف فى شكلها ولونها عن الحشائش الجافة ، فإذا استقرت عليها استحال تمييزها ، ولو بعد التأمل الطويل . وإذا أخطأ شخص ووضع يده عليها أحس بلمس الخشب أو الكلأ الجاف ، فتقليدها للحشائش اليابسة يكاد يكون تاماً من جميع الوجوه . وفى هذه الحشرة يبدو جلال الطبيعة فيما نسميه بالتقليد الواقى ، لأن حياتها تتوقف على ظهورها بمظهر الوسط الذى تقيم فيه ، وقد بلغت فيها هذه الظاهرة حد الكمال .



(شكل ١١)

وهى تعيش فى البلاد الحارة ، وتقضى النهار بطوله فوق الكلأ والأعشاب الجافة دون أن تتحرك أو تشعر العين

بوجودها ، وعندما يقبل الليل تسعى لرزقها فتنساب كالعصا المتحركة ، وتقتات بالحشائش وأوراق الشجر .

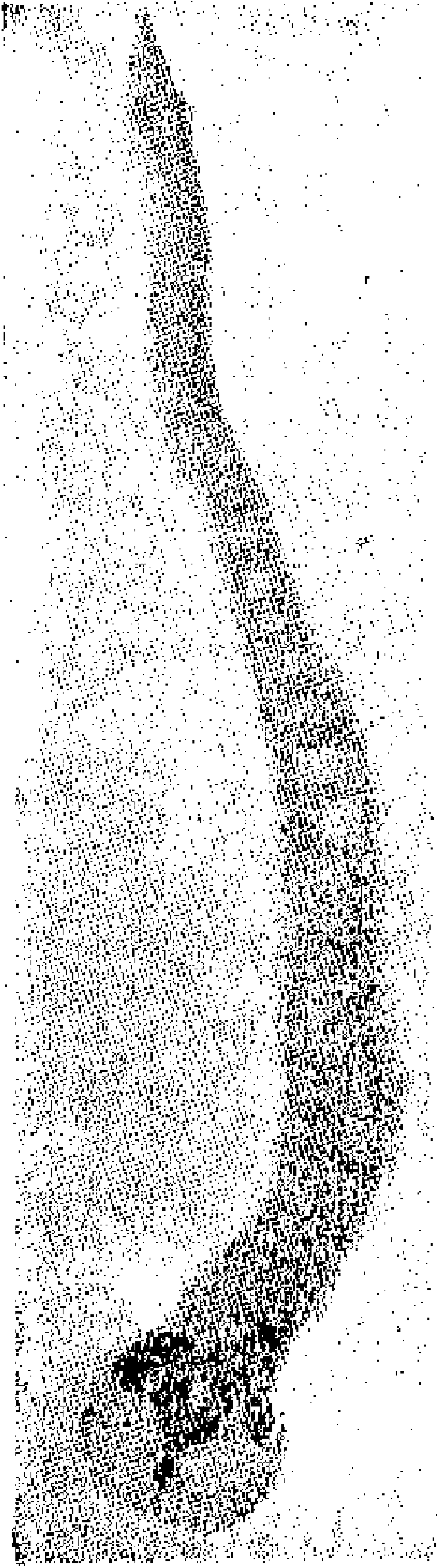
ومن خصائص هذه الحشرة أنها إذا نزلت على عشب أخضر تلون جسمها بلونه فهي تشبه الحرباء في هذه الناحية. ومن طبائعها أنها تخلع جلدها أكثر من مرة في أثناء نموها ، وإذا بترت إحدى سيقانها نمت غيرها مكانها .

وهناك نوع من هذه الحشرات لا يقتنع بالتقليد للمحافظة على كيانه . ويلجأ إلى وسيلة أخرى يدافع بها عن نفسه ، فإذا قبض عليه أو أثير فرز جسمه سائلاً ساماً .

دودة تُروِّع أمّة

من أنواع الحيوانات الرخـوة دودة تسمى « تريدو » (Teredo) ، وتعرف عند الملاحين بدودة السفن .(شكل ١٢) وهي تعيش في المـاء الملح ويتراوح طولها بين بضع بوصات وثلاث أقدام . ورأسها محصن بقوقعة ، وجسمها اللين ينتهي بزائدتين قشريتين هما أشبه بمجدافين يساعدانها على السباحة في الماء . وبالنسبة لصغر قوقعتها فهي تحتمي في ثقوب تحفرها في

الأخشاب المغمورة فى الماء وتغطيها من الداخل بطبقة جيرية . وهى من أخطر الآفات التى تصيب السفن الخشبية فلو اجتمعت عليها لنخرتها وأتلفت هيكلها فتغوص بسرعة فى الماء ، دون أن يشعر البحارة بما أصابها من ضرر .


(شكل ١٢)

وقبل أن يستعمل الحديد فى بناء السفن كان لهذه الدودة من الضحايا الكثيرة ما يؤلم ويفزع . فكم من سفينة جميلة ضخمة هبطت فجأة فى الماء كأنها أصيبت بلغم . ومن الحوادث المأثورة عن فعلها المدمر أن سفينة شراعية كانت تحمل المسافرين بين قريتين على الشاطئ الفرنسى أصيبت بصدمة فجائية فغرقت وبعد مضى أربعة شهور أراد أصحابها أن ينتشلوها من الماء لينتفعوا بخشبها ، ولكن دودة السفن كانت قد سبقتهم إليها فلما رفعت السفينة من الماء وجد أن هيكلها كالإسفنج

لكثرة ما به من الفجوات وأصبح غير صالح إلا للوقود .

وفى أوائل القرن الثامن عشر انتشرت دودة السفن فى المياه الشمالية بأوروبا وبخاصة على سواحل هولاندا ، واستساغت الدعامات الخشبية التى تسند أسوار البحر المقامة لوقاية هذه البلاد المنخفضة من طغيان الماء ، وأخذت تحفر فيها حتى كادت تقضى عليها ، ولم يكتشف الضرر إلا فى اللحظة الأخيرة ، ففزع الهولانديون ودب فيهم الرعب لأن بلادهم أصبحت عرضة للغرق إذا انهار السد . وقد عجزوا عن مقاومة هذا المخلوق الصغير ، ولم يتمكنوا من التغلب عليه ، فلجأوا إلى الكنائس يقيمون فيها الصلاة ضراعة وخشوعاً ، ويطلبون من القدرة الإلهية دفع هذه الكارثة عنهم ، وقد صام منهم أفراد كثيرون طلباً الرحمة . واستجاب الله دعاء هذه الأمة التى روعتها دودة من أضعف مخلوقاته ، فأصاب هولاندا صقيع بارد استمر عدة أيام ولما خفت حدته وجد أن الديدان قد هلكت عن آخرها لأنها لا تعيش فى البرد الشديد . وأخذ الهولانديون بعد ذلك فى ترميم الأخشاب وتقوية السد منعاً لانهياره وقد نجوا من الكارثة . .

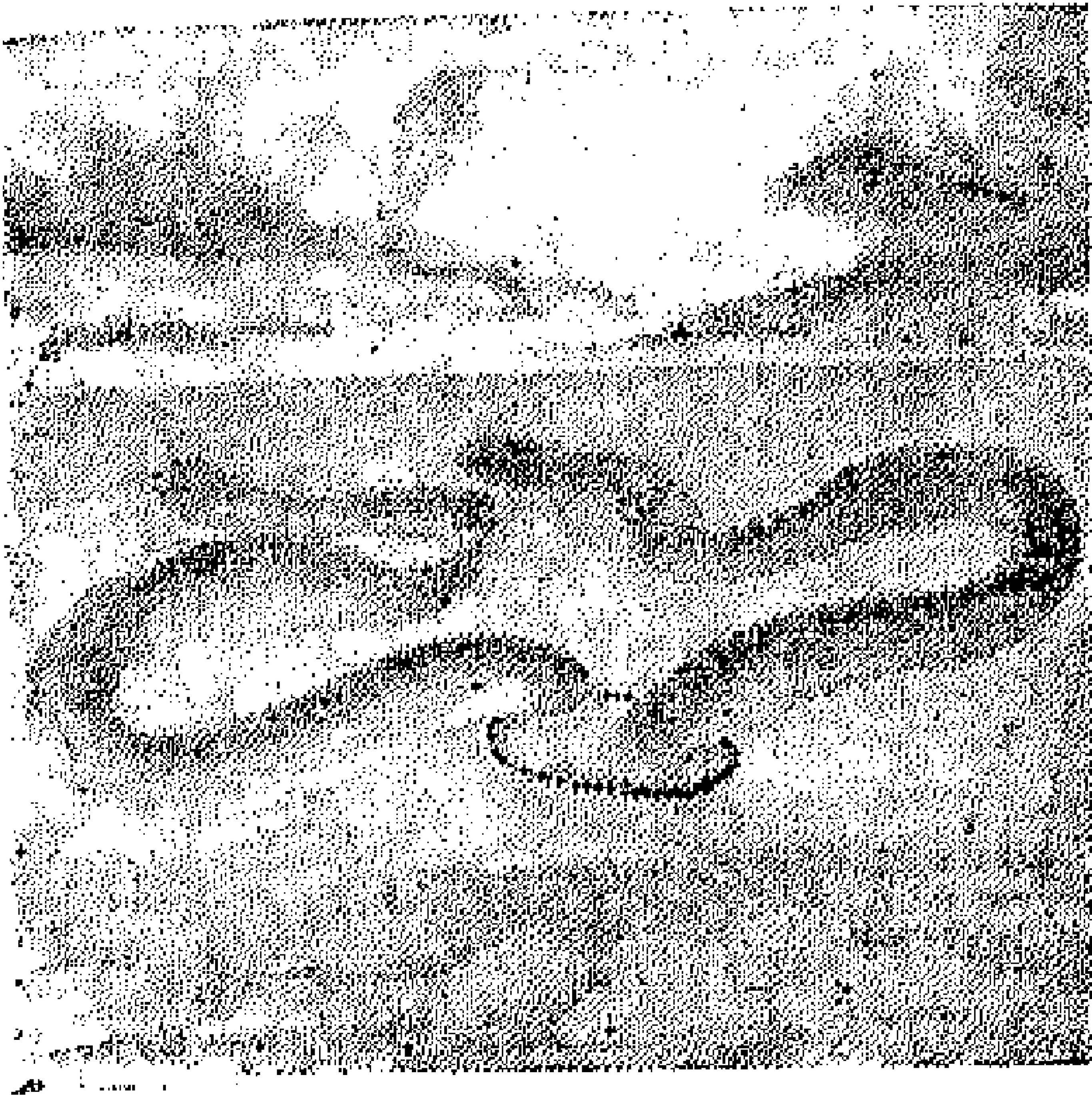
وبدأ العلماء بعد هذه الحادثة يدرسون طبائع هذه الدودة فأدركوا أنها تنفر من صدأ الحديد، ولا تقرب به مطلقاً ، فلكى تصان الأخشاب المغمورة فى الماء من فعلها يلزم أن تمزج بالصدأ أو تزود بمسامير حديدية تدق فيها فتصدأ وتحول بينها وبين الدودة .

سمكة وبيتها

فى المياه الأوروبية والأمريكية نوع من الأسماك يسمونه « لامبرى » (Lamprey) ، وهو كالثعبان فى شكله ، جلده أملس عار من القشور ، وليست له زعانف مزدوجة . وفى العادة لا يزيد طوله عن قدم واحدة ، وإن وجدت منه بعض أنواع يبلغ طول الواحد منها متراً ووزنه خمسة أرطال . وفمه واسع مطاط يستعمله أحياناً وسيلة للمص . إذا قبض به على جسم من الحيوان أو الجماد التصق به وتعذر أن يفلت منه . وفمه خال من الفكين ، وتنتشر أسنانه الصغيرة الحادة حول لسانه ، وفى دوائر داخل فجوة الفم . وهو يقضى بعض وقته فى النهر ، والبعض الآخر فى البحر . ويسهل صيده من النهر . وكثيراً

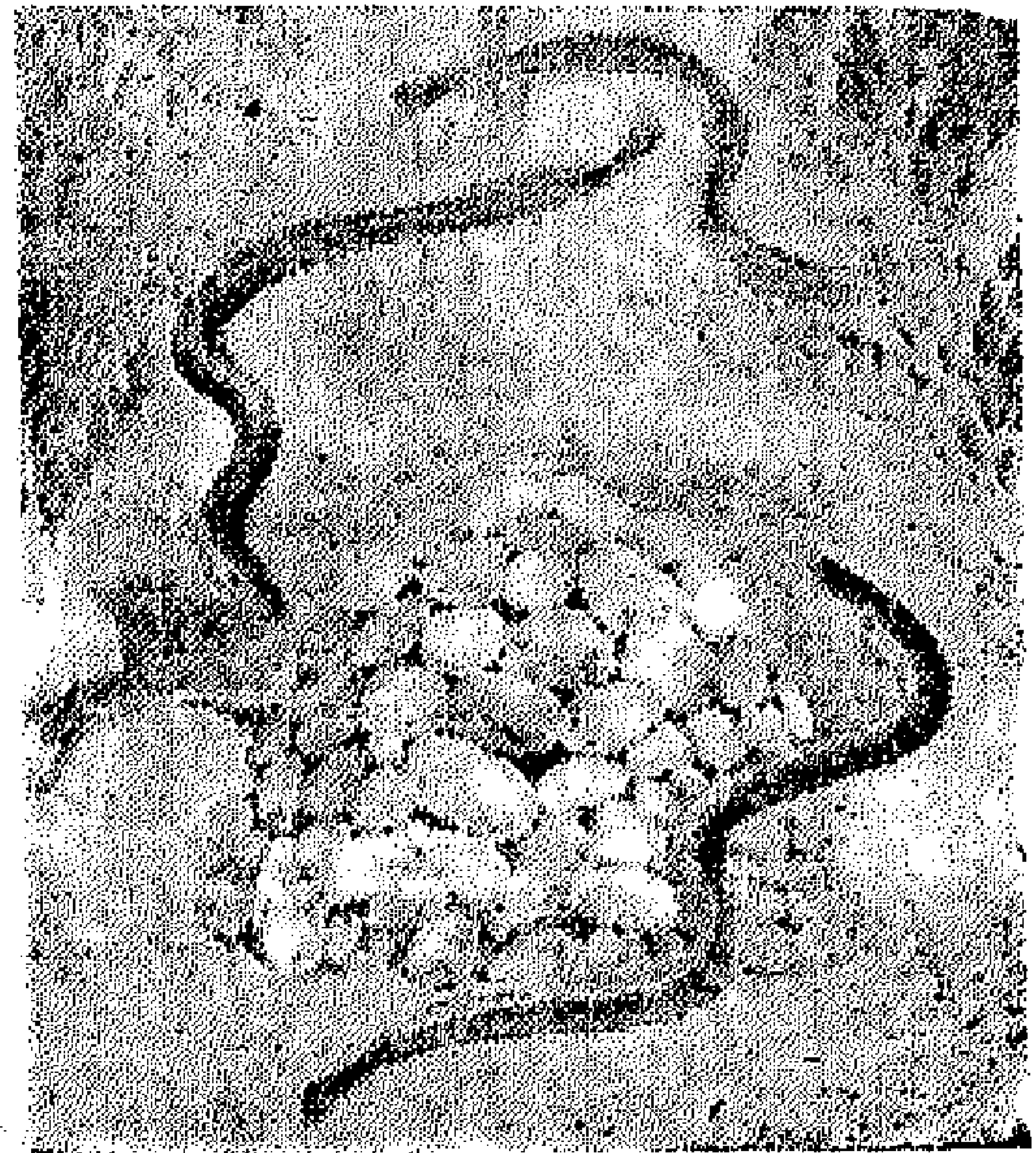
ما يستخدمه الصيادون طعما للأسماك الكبيرة التي تعيش حول اسكندناوة وشمالى انجلترا . وحجمه صغير جداً وقل أن يوجد بين الأسماك الأخرى ما هو أصغر منه . ومع هذا فهو يأتى بأعمال تدل على الإدراك والفطنة . ويتضح ذلك من الطريقة التى يبنى بها بيته فى قاع النهر ليضع فيه البيض . وقد يكون هذا البيت حفرة قليلة الغور أو ربوة عالية . ويصنع الحفرة بأن يرقد فوق الطين ويلف نفسه ثم ينفرد فجأة فيثار الطين من موضعه ، وتزاح الأحجار بعيداً ، وبتكرار هذه العملية تتكون فجوة صالحة لوضع البيض . أما الربوة فيقيمها من الأحجار الصغيرة التى يلتقطها بفمه من أماكن مختلفة ، ويسير بها حتى يصبح فوق البقعة التى اختارها لمسكنه ، ثم يتركها فتهبط من نفسها . وله حيلة فى حمل الأحجار الكبيرة إذ يجمعها من أعلى النهر ليساعده التيار فى حملها ، وهو يلصق فمه بقطعة الحجر فتنجذب إليه بتأثير المص ؛ ويعوم فيتبعه الحجر بمساعدة الماء واتجاه التيار . وبهذه الطريقة يستطيع أن يحمل حجراً ثقله رطل ، أما الأحجار التى تزيد عن ذلك فيشترك اثنان فى حملها (شكل ١٣) ، وهذا تعاون جميل من الأفراد لمصلحة المجموع .

ومن الظواهر العجيبة في هذا السمك أنه لا يحاول قط حمل الأحجار ضد التيار، لأنه يجمعها دائماً من أعلى النهر، وهو لا يخطئ مطلقاً في البقعة التي يسقطها عندها كأنها معروفة عنده بعلامة مميزة .



(شكل ١٣)

وتكون الربوة دائرية الشكل أو بيضية ، ارتفاعها قدمان أو ثلاثة ، ويبلغ محيطها نحو ١٢ قدما (شكل ١٤) ، وفي الشقوق التي تتخلل أحجارها يوضع البيض و يفقس ، فيخرج منه مخلوق غريب كالعلقة في شكله ، ورأسه مجرد من الأسنان والعيون ويعيش بهذه الحال نحو أربع سنوات ، ثم ينقلب فجأة فيصبح كأبيه في الشكل وتركيب الجسم داخلياً وخارجياً .



(شكل ١٤)

وبعد هذا التحول ينتقل إلى البحر ويظل به إلى أن يبدأ الربيع حيث يعود إلى النهر ليضع البيض والمظنون الآن أن اللامبرى الناضج النمو الذى سبق أن وضع البيض لا يعود إلى النهر، وأنه يذهب إلى البحر ليموت . غير أن هذه النظرية لم تتحق بعد.

ويتغذى اللامبرى بالحيوانات الرخوة والديدان والأسماك الصغيرة ، وقد يهاجم الأسماك الكبيرة فيلصق فمه الماص بجزء من جسمها ، ويقطعه بأسنانه ثم يمص دمها . وفى أثناء اشتغال فمه بالقبض على فريسته قد يتعذر عليه التنفس، ولكن الطبيعة قد هيأت جسمه للتغلب على مثل هذا الموقف ، إذ له على كل من جانبى عنقه سبعة شقوق متصلة بجهازه التنفسى يستخدمها مؤقتاً بدلاً من فمه .

أليست قصة هذا الحيوان من أروع الفصول التى نقرؤها فى صفحات هذا الكون البديع !

الطفيلى

قد لا يوجد مخلوق فى العالم أكثر تطفلاً من طائر صغير يسمى الكوكو (Cuckoo) : وهو يعيش فى معظم أنحاء العالم

ويعرف بصوته الذى أخذ منه اسمه .

وأنثاه لا تحب الحياة الزوجية المستقرة ، لأنها لاتقنع بزوج واحد ، وترى أن لذة الهوى فى التنقل . فإذا آن لها أن تضع البيض لم تجد من الذكور من يعترف بأبوته لصغارها ويشاركها فى بناء العش وحضانة البيض وتغذية الأفراخ ، ولهذا فهى تضع بيضها فى عش طائر آخر مثل أبى الحن (Robin) أو بلبل الحلفاء (sedge Warbler) أو أبيض العنق (Whitethroat) أو أبى فصادة (Wagtail) . ومن غريب أمرها أن البيضة التى تضعها فى العش تكون مشابهة تماماً للبيض الذى تندس فى وسطه . وهى تعرف أن لصاحبى العش حاسة عددية قد يدركان بها أن بيضهما زاد واحدة ، فتعمد إلى حيلة عجيبة تخدعهما بها ، إذ تسرق بيضة من بيضهما وترحل بها بعيداً . وهى تغزو عشرين عشاً بهذه الطريقة لأنها تضع هذا العدد من البيض فى كل موسم . ومتى فرغت من ذلك ينتهى واجبها نحو ذريتها ، إذ يتولى غيرها أمرها . ويعود صاحبا العش فلا يلحظان ماحدث فى غيبتهما ، ويستمر احتضانهما للبيض والعناية به حتى يفقس وتخرج منه الأفراخ الصغار . ثم يتعهدانها بالتغذية

ومن بينها ضيفهما الثقيل الذى لا يعترف لهما بالفضل ، لأنه يعتبر العش منزله ، ويسىء معاملة الأفراخ الأخرى ، فيزيحها عن أماكنها ويختص نفسه بأدفأ مكان . وقد تبلغ منه الشراسة أن يطرد أحدها خارج العش فيموت من البرد إذا لم يكن جسمه قد اكتسى بالريش . ويرى الوالدان هذه المأساة فلا يحركان ساكناً . وينمو الضيف فى منزله المستعار ، ويكون هناك اختلاف واضح بينه وبين الأفراخ الأخرى فى شكل الجسم وحجمه ، ويزداد اعتداؤه عليهم ، ثم يقتلهم الواحد بعد الآخر ، ومع هذا لا ينقطع صاحبا العش عن تغذية هذا الذى قتل أبناءهما والعطف عليه والعناية به ، حتى يكبر جسمه ويملأ فراغ العش ، وإذ ذاك لا يستطيع الوالدان تغذيته داخل العش فيبرز إلى الخارج فاتحاً فاه ، ويقف ربيباه على كتفيه بالتناوب ، ويغذيانه بما التقطاه له من طعام . ويكتمل نموه حتى يصل إلى حجم الصقر الصغير وشكله ، وإذ ذاك يمكنه أن يلتهم ربيبيه لحماً عظماً وريشاً ، وقد يحاول ذلك ولكنهما يفران من مسكنهما عندما يريانه وصل إلى هذه المرحلة المزعجة . ويهجر الكوكو عشه باحثاً عن رزقه بنفسه . بعد أن يكون قد هدم كيان

الأسرة التى نشأ بينها . وأنثى الـكوكو بوضعها عشرين بيضة فى عشرين عشاً قد تسبب هلاك عشرين ذرية من الطير . فما أقدرها على فعل الشر !

وكان المظنون قديماً أن الأنثى تضع بيضها فى عشاش طيور مختلفة النوع ، مما يستلزم أن يكون بيضها على ألوان وحجوم مختلفة ليشابه بيض العش الذى يوضع بينه . ولـكن الاستقصاء دل على أن الأنثى التى تنشأ فى عش طائر معين ، كأبى الحن مثلاً ، تضع بيضها فى عشش أبى الحن ويكون بيضها مماثلاً لبيضه . وكذلك الحال مع الأنثى التى تنشأ فى عشاش أبى فصادة أو بلبل الحلفاء أو البط الناعم الريش (Eider-duck). ولا شك أن الأنثى تذكر البيئة التى نمت وتغذت فيها فتحمل بيضها إليها وهى واثقة من أنه سيحظى بالعناية التى تمتعت بها فى صغرها .

وقد أثبت البحث أن الـوكو يغزو ثمانين نوعاً من عشاش طيور مختلفة ، ويقتضى هـذا أن تضع أنثياته ثمانين نوعاً من البيض مختلفاً فى اللون والشكل والحجم . وليس لهذه الظاهرة مثيل فى الطبيعة . وإنه لمن المدهش حقاً أن تضع إحدى

الأنثيات بيضاً صغيراً يشبه بيض أبى فصادة ، وتضع أخرى بيضاً كبيراً مماثلاً لبيض البط ، ويخرج من هذا وذاك نوع واحد من الطير متماثل فى اللون والحجم والشكل وتركيب الجسم .

وكل بيضة تضعها الأنثى تسبب هلاك طائفة من الطير الصغير ، لأن فرخ الكوكو يقتل رفقاءه فى العش ، ليستقل به ويحتكر الغذاء الذى يستحضره أبوا ضحاياه . وربما كان فى ذلك قسوة من الطبيعة ، ولكن الطبيعة أدرى بما هو أصلح لها . فالكوكو لا يعيش إلا إذا قتل الآخرين . ولولا ذلك لضاق به العش ، وأصبح الغذاء الموزع بينه وبين رفقائه قاصراً عن سد حاجته فيضعف ويموت . والطبيعة لا تستغنى عن الكوكو لأنه يقتات بالحشرات والديدان الضارة بالحدائق والحقول .

والتطفل فى الحيوان ليس مقصوراً على الكوكو ، ففى الطبيعة أمثلة كثيرة له ، منها ما يأتى : —

(١) الدودة التى تعيش عالة على السرطان الناسك فى بيته المستعار .

(٢) أنواع كثيرة من الذباب تضع بيضها على الأجسام النامية

لبعض اليرقات، فإذا ما نقف البيض أخذت الديدان التى تخرج منه تتغذى بضيفتها، حتى تلتهمها ولا تبقى منها شيئاً

(٣) للتمساح صديق حميم من الطير يسمى الشقراق (Plover) يحمله أحياناً على ظهره وهو سابح فى الماء فإذا ما أمسك بفريسة وأكلها فتح فكيه الواسعتين وأقبل الطائر يلتقط بقايا الطعام من فمه . ويسر التمساح لهذه العملية ، لأن الطائر يزيل بمنقاره الحاد كل ما علق بأسنانه حتى تصبح كأنها نظفت بفرجون .

(٤) تتخذ بعض الطيور مساكنها فى أوكار الأرانب . وتغزو بعض الثعابين بيوت الفيران الجبلية (Marmots) وتعيش فيها .

وليس هناك شك فى أن بعض أنواع الحيوان يقبل التطفل من أنواع أخرى معينة ، فالسرطان مثلاً يطعم الدودة التى تحل فى بيته ، والتمساح يلذ له مرافقة صديقه الطائر ، والطيور التى يفرض عليها الكوكو تظهر له العطف والحنان وتتولى تغذيته وتنشئته . وإذا كان الحيوان غير مجرد من الشفقة فلنا أن نصدق تلك الأسطورة التى يرويها الرومان عن رميولس

(Romulus) منشئ روما وأخيه ريموس (Remus) من أنهما شبا في الأدغال بعد أن احتضنتهما ذئبة وأرضعتهما بلبنها .

في أعماق البحار

لقد تمكن الإنسان من أن يتسلق قمم الجبال الشامخة ، وأن يرتفع إلى طبقات الجو العالية ، ويخترق سحبها . وأن يتوغل في جوف الأرض مسافات بعيدة . ولكنه وقف حائراً أمام مياه البحار ، لأنه عجز عن أن يصل إلى أعماقها . فالرقم القياسي لأمهر الغواصين لا يزيد عن ٧٠ متراً ؛ وإذا وقفت معلوماتنا عن عالم الماء عند هذا الحد كانت ضئيلة واهية ، لأن في البحار بقاعاً يبلغ عمقها ستة أميال . والعائق الذي يحول دون هبوطنا في الماء إلى غور بعيد هو الضغط الشديد الذي يقع منه على أجسامنا . ومن السهل تقدير هذا الضغط على أعماق مختلفة . فهو على بعد ميلين ونصف ميل يبلغ ٦٠ قنطاراً على كل بوصة مربعة ، ومثل هذا الضغط يكفي لسحق الجسم إلى دقائق صغيرة . وقد أجرى أحد العلماء تجربة لبيان تأثير ضغط الماء في الأعماق البعيدة ، فاستحضر أنبوبة زجاجية مملوءة ، ولحم فوهتها ، ولفها

بمنسوج من القطن ، ووضعها داخل اسطوانة نحاسية سميكة بها ثقوب صغيرة عند طرفيها ليدخل الماء فيها ، ثم أنزلها فى الماء إلى عمق ١٢٠٠٠ قدم ، ولما أخرجها وفحصها وجد أن الجدران النحاسية قد انبطحت ، وأن الزجاج قد استحال داخلها إلى مسحوق ناعم .

وأمام هذا الخطر يستحيل على الإنسان أن يلقى بنفسه فى أعماق البحار ، وإذا فكر فى أن يهبط إليها بغواصة وجب عليه أن يمدها بنوافذ من الزجاج الذى يتحمل ضغطاً يعادل ثقل جبل وهذا أمر غير ميسور .

وكان الاعتقاد السائد إلى عهد قريب أن الأسماك تعيش قريبة من سطح الماء ، لأن أجسامها تتهشم بتأثير الضغط إذا حاولت أن تتوغل فى الأعماق البعيدة ، وأن قاع المحيط يسوده ظلام حالك وبرد قارس ، لأن أشعة الشمس لا تستطيع أن تصل إليه ، وهذه الأشعة هى قوام النبات ، والنبات هو قوام الحياة ، فإذا لم تتوافر الأشعة انعدمت الحياة ، ويكون قاع المحيط إذ ذاك أشبه بصحراء قاحلة ، يخيم عليها الظلام الدامس والبرد القارس ، لا ينمو بها زرع ولا يعيش فيها حيوان .

وظلت هذه الصورة عن قاع المحيط راسخة فى العقول حتى سنة ١٨٦٠ ، حيث انقطع سلك تلغرافى تحت الماء فى البحر الأبيض المتوسط على عمق ٧٢٠٠ قدم ، ولما انتشل لإصلاحه لوحظ على سطحه أنواع مختلفة من الكائنات الحية ، فأدرك العلماء أن هناك حيوانات تعيش فى البرد والظلام ، ولا تتغذى بالنبات ، وتحتمل أجسامها ضغطاً ساحقاً . وأثارت هذه الظاهرة حب البحث والاستطلاع ، فأبحرت من أمريكا وانجلترا سفن حربية تحمل بعض الاختصاصيين فى الأحياء المائية الذين أعدوا أنفسهم لسبر غور هذا العالم المائى الذى أزاح ستاره السلك التلغرافى

ولم يفكر أحد فى الاستعانة بالغواصين ، لأن ضغط الماء يكفى لتحطيم أجسامهم ، وكان لزاماً على العلماء أن يبتكروا وسائل آلية يجوبون بها قاع المحيط على أعماق بعيدة . وقد نجحوا فى ذلك ، وتوصلوا إلى صنع أجهزة مختلفة تصلح لهذا الغرض منها شباك كبيرة تهبط فى الماء حتى إذا اصطدمت بالقاع انفرجت من نفسها ، فإذا ما رفعت أطبقت جوانبها ، وحملت ما بداخلها من حيوان وغيره . ومنها أسطوانات معدنية كبيرة . تفتح وتغلق بالطريقة المتقدمة ، فتجمع عينات من الماء ، من أعماق

مختلفة ليتيسر فحصها والكشف عما بها من كائنات حية . وقد ابتدعوا آلات ضوئية تشبه المقرّب (التلسكوب) ، تغوص فى الماء إلى عمق محدود ، ويستطيع الراصد على ظهر السفينة أن يرى مظاهر الحياة عند هذا العمق. وصنعوا أيضاً أنابيب معدنية متينة واسعة ، يبلغ قطرها خمس أقدام ، وتمتد فى الماء إلى مسافة كبيرة ، وتنتهى بخزانة تشبه ناقوس الغواص ، ومزودة بأضواء كاشفة قوية تجوب الماء ، فتهيىء للشخص الذى ينزل فى الأنبوبة أن يرى ويفحص ما يحيط به. بهذه الوسائل وغيرها؛ وبعد جهود شاقة متواصلة ، وفق العلماء إلى كشف بعض أسرار هذا العالم الذى كانت تفصلنا عنه حواجز مخيفة مهلكة .
ويمكن إجمال المعلومات التى وصلوا إليها فيما يأتى :

قاع المحيط عالم مظلم ، شديد البرودة ، إلا أن الحياة تدب فيه . والأسماك الشائعة المعروفة لنا تعيش فى أعماق قريبة من سطح الماء ، لأنها إذا غاصت إلى مسافة بعيدة هلكت من شدة الضغط . ويدل على ذلك أنها إذا وضعت فى حوض مائى وعرض الماء إلى ضغط شديد . أصيبت بإعياء وإغماء ، وإذا استمر الضغط ماتت .

والأعماق البعيدة تفيض بكائنات حية لا حصر لعددها ، وهى مختلفة فى الشكل واللون والحجم وتركيب الجسم . وإلى الآن لم يعرف السر فى قدرتها على تحمل هذه الضغوط الساحقة ، وإن كان قد لوحظ أن عظامها لينة رقيقة ، وفى بعض الأنواع تكون أشبه بالألياف . ولا شك أن هذه المرونة فى تركيب الجسم من الأسباب التى تساعد على تحمل الضغط .

والأسماك التى تعيش فى القاع معرضة لحادث قد يودى بحياتها لأنها عند ما ترتفع فى الماء باحثة عن غذائها تنتفخ مثانتها التى تساعدها على العوم ، لتمدد الغاز بها نتيجة لتخفيف الضغط وهى تستطيع بقوة عضلاتها أن تهبط ثانية إلى القاع ، ولكنها إذا اندفعت إلى أعلى ، وارتفعت إلى مسافة كبيرة ، نحو عالم النور ، انفجرت مثانتها وماتت . فأخشى ما تخشاه هذه الأسماك هو « السقوط إلى أعلى » ! وهو محتمل الحدوث ، إذ يرى اللاحون أحياناً أنواعاً من الأسماك الغريبة طافية فوق سطح الماء ، وهى بلا شك جثث الضحايا التى عجزت عن العودة إلى بيتها فى الأعماق .

والأحياء التى تعيش فى قاع البحار أنواع متعددة ، يعجز

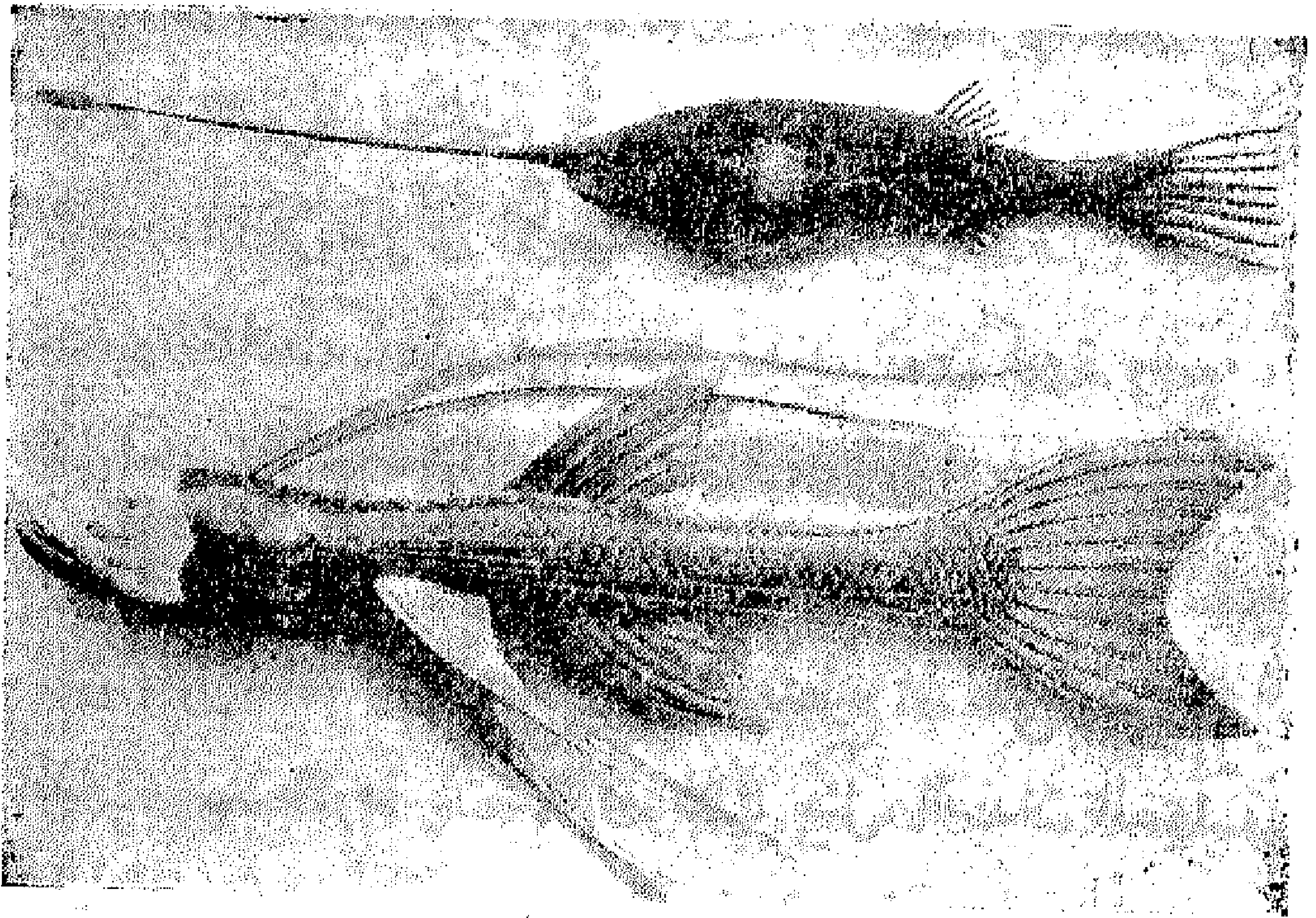
عنها الحصر ، ولا يعرف إلا القليل عن طباعها وأحوال معيشتها وطرق تكاثرها.

ففي بعض البقاع تنمو أجسام كبيرة تشبه أفرع الشجرة ، ذات لون بنفسجي فاتح ، يشع منه ضوء ساطع ، وقد يبلغ طولها ثماني عشرة قدما . وهي ليست بنبات ، ولكنها كتلة من الحيوانات التي تنمو متجاورة متلاصقة . وتهتز هذه الأفرع في الماء ، ذهابا وجيئة ، مرسلة فيه ضوءها الجميل . وإذا لمسها جسم غريب انبعث منها وهج شديد. ويحدث ذلك عندما يمر خلالها حيوان مائي ، إذ يكون مساره بينها مضيئا متلألئا .

ومن الغريب أن كثيراً من الأسماك التي تعيش في هذا العالم المظلم له عيون ، ويمتاز بانبعاث ضوء من أجزاء مختلفة من جسمه ليهديه طريقه . فهناك أحياء على شكل نجوم متلألئة بضوء أخضر . وثعابين مائية يصدر عنها نور كهربي أبيض، وسرطانات لها قرون استشعار ، تنفجر منها سحب ضوئية زرقاء ، ومخلوقات أخرى كالمنارات الصغيرة ترسل في الماء شعاعا أصفر أو أحمر أو أخضر . وهذه المخلوقات المضيئة تعيش على بعد ١٢٠٠ متر تحت سطح الماء . وقد وجد بينها نوع من حيتان سليمان

(Salmon) ، له صف من المصابيح الطبيعية يمتد على طول جسمه . ونوع آخر من السمك الأسود له صفان من المصابيح الحمراء ومئات من البقع المضيئة .

وهناك أسماك ضخمة مخيفة تتحرك كأنها كتل متوهجة ومنها ما يمتد من فمه ممص طويل يبلغ نحو طول جسمه . (شكل ١٥)



(شكل ١٥)

وفي بعض الأماكن يكون قاع البحر مغطى بملايين من المخلوقات الصغيرة المضيئة التي تجعله أشبه ببساط من نور .

وهذه الأحياء المائية تملك سراً لم يتوصل الإنسان لمعرفته إلى الآن ، وكشفه إياه يكون له أثر اقتصادى خطير . فالإنسان يصطنع النور بحرق الفحم أو البترول أو المواد الكيميائية أو بالتيار الكهربى ، وفى كل هذه الحالات تضيع معظم الطاقة فى الحرارة التى تتولد مع النور . ولكن هذه الأحياء تبعث النور صرفاً نقياً ، غير مصحوب بحرارة ولا ندرى كيف يتيسر لها تدبير هذه الظاهرة العجيبة .

وحاسة الإبصار فى الأحياء التى تعيش فى الأعماق البعيدة تختلف اختلافاً كبيراً ، ففى بعضها تكون العين كبيرة واسعة ، وفى البعض الآخر تكون صغيرة ضيقة ، والقليل منها فقد حاسة النظر .

ويظن العلماء أن الأسماك المضيئة تستطيع أن تطفئ نورها إذا اقترب منها عدوها . مثلها فى ذلك مثل الديدان المضيئة (الحباحب) (Glow-worm) التى تعيش على سطح الأرض ، فهى تطفىء نورها الأخضر عند ذيلها إذا أحست بالخطر . ولكن الأسماك فى هذه الحالة لا تستطيع أن تتلمس طريقها فى الظلام ، ولهذا السبب نرى بعضها وقد استطالت زعانفه

وأصبحت كحواس لمس يستخدمها فى إدراك ما يحيط به .

وهناك مسألة خطيرة أثارت اهتمام العلماء ردحاً طويلاً من الزمن . وهى كيف تستقر الحياة فى هذه الأعماق المظلمة الجرداء وكيف تتغذى الملايين من الأحياء التى تنتشر فيها ، مع عدم وجود النبات وهو قوام الحياة ؟ وإذا كانت الأسماك الكبيرة تلتهم الصغيرة فسيأتى وقت تنعدم فيه حياة الكائنات فى الأعماق ، ما عدا أكبرها حجما ، ثم يأخذ هذا فى الانقراض ويصبح قاع المحيط قبراً يخيم عليه الظلام .

ومن عهد قريب أميط اللثام عن حقيقة هذه الظاهرة . فمياه البحار التى ترى صافية رائقة بها ملايين من الكائنات الحية الدقيقة التى لا ترى بالعين المجردة . ومنها نوع يعرف باسم الداياتوم (Diatoms) . وهو من أصل نباتى ، إلا أن له زوائد شعرية دقيقة تمكنه من السباحة والانتقال فى الماء من مكان إلى آخر . وإلى الآن لا يعرف السر فى قدرة هذا النبات على التحرك . وهو يعيش على سطح الماء ، ويستغل ضوء الشمس وحرارتها فى تحويل المواد المعدنية المذابة فى ماء البحر إلى غذاء صالح لنمو جسمه . وهو يتكاثر بسرعة عظيمة . ومن مزاياه أنه

يبنى حول جسمه قشرة زجاجية صلبة تكون وقاء له . وعند ما يموت يهبط من نفسه فى الماء ، فيتلقى قاع المحيط ملايين عديدة منه أشبه بالمطر الغزير الذى لا ينقطع ، ويصبح بفضله مرعى نباتياً خصباً ؛ تستقيم به الحياة فى أعماق البحار ، كما تستقيم على الأرض بمراعى الماشية وغيرها .

ومن أسرار المحيط ، التى استلزمت البحث الطويل الشاق ، معرفة الوسيلة التى يميز بها الذكر أنثاه فى مثل هذا العالم الواسع الأرجاء ذى الظلمة الحالكة ، وهو أمر ضرورى لتكاثر النوع . وقد أسفر البحث عن كشف حالة واحدة لنوع من الأحياء المائية يسمى السمك الضفدعى (Angler Fish) أو شيطان البحر ، وهو ضخم الرأس وله زعانف شائكة . ومنه ضرب يعيش فى المياه القليلة الغور . ومن دأبه أن يدفن نفسه فى الرمل أو الطين ، ولا يظهر منه إلا زائدة طويلة رفيعة تتماوج فوق رأسه لتجذب الأسماك التى تبحث عن غذائها ، فإذا ما اقتربت منها ومستها خرج من مكمنه والتهمها . ويعيش منه ضرب آخر على بعد ٥٠٠٠ قدم تحت الماء وأنثاه «غولة» مخيفة ، تستطيع أن تبتلع فريسة تزيد عن ضعف حجمها ووزنها . وهى ليست فى حاجة

إلى أن تبحث عن خليلها فى الظلام الدامس والأرجاء الشاسعة لأنها تحمله معها بطريقة ليس لها مثيل فى الحيوانات الفقرية ، ويكاد العقل ينكرها ، لولا أن الدلائل القوية أثبتت صحتها . فعندما تظهر يرقات هذا النوع من السمك تأخذ فى النمو وإذا لم تجتمع إحداهما بأخرى تدرجت فى نموها حتى تصبح أنثى كاملة . وإذا التقت يرقة آخذة فى النمو بأنثى كاملة التصقت بجانبها وأصبحت جزءاً منها وواصلت نموها إلى أن تصير ذكراً كاملا ضئيل الجسم حقيراً ضعيفاً بالنسبة لأنثاه . ويعيش الذكر عالة على الأنثى فى أخص مستلزمات الحياة. حتى إن دورتها الدموية تمر فى جسمه وتمده بالغذاء . وبهذه الوسيلة يستطيع هذا النوع من المخلوقات أن يتكاثر ويحافظ على بقاء جنسه .

وما زال البحث يكشف لنا كل يوم ناحية من أسرار المحيط . ولكن إذا جمعت المعلومات التى أسفر عنها هذا البحث وجدت ضئيلة ، بالنسبة لعالم مترامى الأطراف شاسع الأبعاد . فالمنقبون لم يرتادوا جميع البحار ، ولم يستقصوا فحص كل بقعة وصلوا إليها . والشباك والأنابيب والوسائل المتنوعة التى يرسلونها إلى الأعماق لا ترفع إلا أنواعاً محدودة من الأحياء . وقد يكون

هناك حيوانات كبيرة ضخمة لا تصلح هذه الأجهزة للقبض عليها ، ولهذه الأسباب تعتبر معلوماتنا عن الحياة فى الأعماق قليلة ، لا تشبع رغبة المتطلع إلى معرفة أسرار هذا الكون . وهى فى الحقيقة أشبه بقطرة من نبع غزير أو حبة من رمال الصحراء .

الذئب

العراك بين الإنسان والذئب قديم جداً ، ولكن النصر لم يكتب فيه للانسان . وقد انقرضت الحيوانات المفترسة من معظم البيئات المتمدينة ما عدا الذئب ، فقد تحدى الوسائل التى حارب بها الإنسان ونجا من شرها . وهو ما زال موجوداً الآن حيث كان منذ آلاف السنين . ويرجع الفضل فى ذلك إلى قسط من الذكاء ، وشجاعة فائقة وقدرة على تكييف معيشته وفقاً للوسط الذى يعيش فيه .

وهو يحتمل البرد القارس والحر القائظ ، ولذا نراه فى الأصقاع الباردة بشمالى الروسيا وعند القطبين ، كما نراه فى الأقاليم الحارة قريباً من خط الاستواء .

والذئب فى حالاته العادية يخشى الإنسان ويفر منه ، ولكنه إذا كان جائعاً وحال الإنسان بينه وبين فريسته هاجمه وفتك به . وإذا لم يجد الذئب قنيصة سوى الإنسان لم يتورع عن افتراسه . وقد يسهل له أن يتسلل إلى القرى والبيوت ويختطف منها الأطفال .

وفى الصيف حيث يتوافر الغذاء ، يعيش الذئب منفرداً أو مع أليفته وصغاره متنقلا بين الغابات والمزارع ، ومتخذاً بيته فى الكهوف أو فجوات الصخور أو تحت جذور الأشجار القديمة. وفى هذا الفصل يحاول الإنسان اصطياده ولكنه قادر على إخفاء أثره ، بحيث يتعذر تتبعه والوصول إلى مكمنه . وإذا حفرت له مصيدة نظر إلى مكانها باحتقار وابتعد عنه ، وإذا وضع فى طريقه طعم مسموم تجنبه ولم يمسه .

وفى الشتاء يندر الغذاء ويأوى بعض أنواع الحيوان إلى بيته الشتوى ، ويقضى شهور البرد فى سبات عميق ، ولا يجد الذئب إذ ذاك شيئاً يقتات به ، فيضطر للحصول على غذائه بأى وسيلة ممكنة . وهو يدرك أن فى الاتحاد قوة فيصرخ صرخة داوية ، يجمع بها حوله فريقاً من بنى جنسه ، ويخرج فى قطيع

جائع شره والويل إذ ذاك للبيوت التى لم تتحصن ضده ، وللانسان الذى يدفعه القدر فى طريقه ، وللماشية والدواجن التى لم تهيأ لها الحراسة الكافية .

ولقطيع الذئاب تقاليد موروثة ، بها يضحى الفرد بنفسه فى مصلحة المجموع . فالذئب عندما يكون وحيداً يغلب عليه الحرص ، ويخشى مهاجمة حيوان أكبر منه ، ولكنه وسط القطيع يخرج عن حرصه ، ويعرض نفسه للهلاك ، ولا يحجم عن افتراس حيوان أقوى منه ، وأكبر منه جسما ، وقد تصيبه من جراء ذلك ضربة مميتة ، من قرن الحيوان أو حافره ، ولكن هذا لا يؤثر فى القطيع ، إذ يتصدى للعراك فرد آخر ، وهكذا حتى تغلب الفريسة على أمرها ، وتصبح طعاماً سائغاً . وليس للذئب مخالب يضرب بها ، أو أنياب بارزة يفتك بها وهو لا يفترس إلا بأسنانه القوية ، يغرزها فى جسم فريسته بجرأة وخفة ، وقد تقذف به بعيداً عنها مرة بعد أخرى ، ولكنه يعود كالقضاء المحتوم حتى يتغلب عليها .

وكثيراً ما تشاهد هذه القطعان فى شمالى الروسيا عند ما يقبل الشتاء ، وتكتسى الأرض بالجليد . ويكون لكل قطيع قائد

وكشافة يسترشدون بحاسة الشم إلى مواقع الفريسة ، ويوجهون القطيع نحوها . وقد يلجأون إلى مناورة حربية طريفة ، فيضعون أنفسهم فى موقع ملائم ، بحيث تحمل الريح رائحتهم إلى الفريسة فتنزعج وتفر مسرعة مبتعدة عن المكان الذى هبت منه الرائحة ولكنها لا تدرى أن أفراداً من القطيع قد كمنوا من قبل فى طريقها ، واختبأوا فيه انتظاراً لمرورها والفتك بها .

ولقطيع الذئاب قدرة لا مثيل لها على العدو البعيد المدى . حقاً إن الكلاب المدربة تستطيع اللحاق بالذئب فى الأشواط القصيرة ، أما فى المسافات الطويلة فليس للذئب نظير فى المثابرة على الجرى وتحمل متاعبه . وأقرب شبيه له فى هذه الخاصية كلاب الاسكيمو التى تجر الزحافات على الجليد ، وربما كان السبب فى ذلك مشابهتها للذئاب . ولا يستطيع أقوى الخيول أن يفر من قطيع الذئاب ، لأنها إذا أرادت تتبعه فهى لاحقة به لا محالة . وقد يجرى القطيع فى إثر قافلة تجرها جياد قوية فيدب الذعر فى رجالها ويفكون أحد الخيول ويتركونه فى طريق الذئاب لتفترسه وتتعطل عن الجرى مدة من الزمن . ولكن هذا لا يجدى نفعاً لأنها تلتهم الضحية فى مدة قصيرة ، وتعود

المطاردة إلى سيرتها الأولى ، فيضحون بجواد ثان وثالث وهكذا حتى تصل القافلة إلى مكان أمين وإلا أدركها الموت بخيلها ورجلها . . .

رحلة إلى الهلاك

فى اسكندناوة نوع من الحيوانات القراضة يسمى اللامنغ (Lemming) يشبه الفأر ، إلا أن ذيله قصير وفروته السمراء القاتمة مميزة بخطوط وبقع كثيرة ، وطوله لا يزيد عن خمس بوصات . وهو يعيش فى مرتفعات النرويج والأراضى المجاورة لها حيث يبلغ الارتفاع عن سطح البحر نحو ٣٠٠٠ قدم . وغذاؤه الحشائش والطحالب والبراعم وجذور الأشجار اللينة وأغصانها . وهو يحفر مسكنه فى التربة المزروعة ، أو تحت الجليد الذى يغطى الأرض فى الشتاء . ويبطنه بالحشيش والشعر ، ويتخذه مأوى يربى فيه صغاره . وهو سريع التكاثر لأن أنثاه تصبح أمًّا عند ما تبلغ من العمر ستة أسابيع فقط .

وتمر الأيام ، وربما السنون ، بهذا الحيوان الصغير وهو يتغذى ويتوالد ، حتى ينمو عدده وتصبح الأسرة التى بدأت

ببضعة أفراد عدة آلاف ، وإذ ذاك يصبح مصدر الغذاء قاصراً عن أن يسد حاجاته . ويأتى الصيف بحره ، فتجف الخضرة من سطح الأرض وتزول ، ويشعر اللامنغ أن بيئته أصبحت غير صالحة لإنتاج الغذاء الذى يتطلبه عدده الوفير ، فيدب الخوف فى قلبه ، وتسرى موجة من الفزع الشديد فى جميع أفراد الأسرة ، وما هى إلا لحظة حتى يهبوا دفعة واحدة ، ويهجروا مساكنهم ويولوا وجوههم إلى مقر آخر ، يقصدونه متتبعين فى سيرهم طريقاً ثابتاً سبق أن طرقته أقدام أجدادهم فى القرون الماضية . وفى الطريق تنضم إليهم أسرة بعد أخرى ، وقبيلة تلو قبيلة ، وعمارة فى إثر عمارة حتى يتكون من الجميع جيش زاخر يبلغ الملايين ، ويواصل رحلته دون أن يقف فى سبيله عائق ، يتسلق الجبال ، وينحدر إلى السهول ، ويجتاز الأنهار والبحيرات ، ويخترق الأراضى المزروعة ، ويمر بالقرى والبلاد المسكونة . وتحوم حول هذا الجيش حيوانات مفترسة ، وطيور جارحة ، من ذئاب وقطاط وكلاب ونسور وبومات ، وتجد فيه غذاء سهل المنال ، فتشبع نهمها منه ، وتختطف منه الألوف . حتى الغزلان — آكلة العشب — لا تتردد فى الفرصة السانحة

عن أن تتذوق لحمه . ومع هذا الخطر الدائم يستمر الجيش فى زحفه ، دون أن يرده الفزع عن قصده ، حتى يصل إلى آخر رحلته . وقد يتبادر إلى الذهن أن اللامنغ قد استبدل ببيئته الجرداء مرتفعاً خصباً ومرعى يتوافر فيه غذاؤه ، ولكن الأمر بعكس ذلك لأن رحلته تنتهى عند شاطئ البحر ، وهناك يقذف بنفسه فى الأمواج المتلاطمة ، فتتلقفه الواحد تلو الآخر حتى يصبح هذا الجيش أثراً بعد عين .

وليس لهذه الرحلة الانتحارية نظير فى عالم الحيوان وهى لا تحدث بين فترات ثابتة من الزمن لأنها تتوقف على عاملين : هما وفرة العدد وندرة الغذاء . وقد وقعت إحداها سنة ١٩٢٣ وأخرى سنة ١٩٢٦ ، إلا أن الفترة التى تفصل بين رحلتين قد تبلغ أحياناً عشرين سنة .

وانتحار الجموع الزاخرة من هذا الحيوان لا يؤدى إلى انقراض نوعه لأن غريزته ترشده إلى أن يستبقى فى كل أسرة أفراداً يمثلونها ، وهؤلاء يبقون فى منازلهم ، فيتوالدون ويتكاثرون ، ويتجدد منهم جيش آخر ، فيفر من موطنه ويقذف بنفسه فى البحر وهكذا دواليك .

أسراب الجراد

عرفت مصر الجراد ، وأدركت خطره ، من عهد الفراعنة . فقد جاء فى التوراة أن موسى رفع عصاه فوق أرض مصر ، فهبت عليها ريح شرقية ، يوماً وليلة حاملة إليها جموعاً زاخرة من الجراد الذى غطى أديم الأرض ، ونزل على الزرع فأكله ، وعلى الأشجار فجردها من ثمارها وورقها ، ولم يترك فى مصر عوداً أخضر .

وليست مصر هى المملكة الوحيدة التى تزورها أسراب الجراد ، فهناك بلاد أخرى كثيرة معرضة لها كجنوبى أفريقيا وجزائر الفيليبين والملايو وسيبريا والروسيا وأواسط آسيا وبعض أقاليم أوروبا وجنوبى أمريكا . وربما كانت مصر أقل البلاد تأثراً بالجراد ، أما فى جنوب أفريقيا فالإصابة به خطرة مزمنة . وهى التى يكثر فيها الجراد الأسمر اللون .

وللجراد أعداء من الحيوان تقتنصه وتتغذى به . وأهمها طير اللقلق (Stork) الذى يكثر فى ألمانيا وهولاندا والنمسا . ومن خصائص هذا الطير أنه عندما يقبل الشتاء يهجر وطنه ويطير

مسافة لا تقل عن خمسة آلاف ميل ماراً ببولاندا وآسيا الصغرى وفلسطين ومصر وإقليم البحيرات ، ويحط رحاله أخيراً فى جنوبى أفريقيا حيث يتوافر غذاؤه من الجراد . وهناك طيور أخرى تفتك بهذه الحشرة كالصقر الأحمر (Kestrel) والسُّمانى (Quails) والكروان (Plover).

وتعتبر صحراء كلهارى بجنوبى أفريقيا مصدراً للجراد الأسمر، ففيها تحتشد جموعه العظيمة لتضع البيض . وفى هذه الصحراء القاحلة المترامية الأطراف يكون الجراد بمأمن من الإنسان والطيور ، لأن الإنسان لا يستطيع التوغل فيها ، والطيور عاجزة عن اجتيازها لأنها تحتاج إلى الماء ، وهو عديم الوجود بها .

ويفقس البيض ، وتخرج منه الحشرات ، وتكون فى أول أمرها عديمة الأجنحة وفى أسابيع قليلة . تنمو أجنحتها ، ويمكنها أن تطير ، وإذ ذاك تحتشد أسرابها فى جموع لا حصر لعددها ، وتقصد مواطن الإنسان ، فتفتك بمزروعاته وتتركها أرضاً جرداء كالصحراء التى وفدت منها .

وفى وسط الأراضى المزروعة تضع هذه الأسراب بيضها فيفقس ، وعند ما تستطيع الحشرات المولودة أن تطير تقصد إلى

الصحراء ، حيث تضع بيضها ، ويخرج منه جيش يزحف بدوره إلى المزروعات ليتغذى ، و يضع البيض ، وهكذ تتجدد المأساة . . .

والإنسان ضعيف الحيلة أمام الجراد الذى يفر إلى الصحراء ولكنه يستطيع معالجة الخطر فى حقوله المزروعة ، وذلك بقتل الحشرات التى تولد فيها ، فتمتنع هجرتها إلى الصحراء . والوسيلة الفعالة التى تلجأ إليها حكومات جنوبى أفريقيا هى استخدام مزيج سام من الزرنيخ والسكر . والطريقة التى يتبعها الفلاحون وأرباب الضياع فى استعماله هى أنهم ينتظرون حتى يفقس البيض وتظهر الحشرات العديمة الأجنحة ثم يخلطون المزيج بالماء ويرشونه بخفة فوق المزروعات ليقتل الحشرات عندما تتغذى بها . وليس لهذا المزيج تأثير على الإنسان أو الطيور التى تأكل الحشرات الميتة ، لأن نسبة السم فيه قليلة جداً .

ويضع الجراد بيضه داخل أغشية رقيقة يحتوى كل منها على نحو ٩٥ بيضة ، وقد جمع البيض مرة من مزرعة مساحتها ٣٣٠٠ فدان فبلغ وزنه ١٤ طناً ، وهو يمثل ١٢٥٠ مليوناً من الجراد . فكأن السرب الذى مر بهذه المزرعة يربو عدده على ضعف

سكان أوروبا . ويتضح من ذلك مبلغ الضرر الذى ينتج من هذه الحشرة الفتاكة المهلكة عندما تهجم على الزرع والنبات بمجموعها الزاخرة التى لا يحصيها عد . فلا عجب أن تترك وراءها الجدب والمجاعة والفقر .

والمعروف أن بيض الجراد لا يفقس إلا مع وجود الرطوبة التى لا تتوافر فى أرض الصحراء ، ولكنه إذا ترك فى الجفاف شهوراً وسنين لم يتأثر ، إذ تظل الحياة كامنة فيه حتى تسوق إليه الطبيعة قليلا من المطر ، وعند ذلك ينضج ويفقس ، وتمتلئ الصحراء بجيوش من الحشرات الفتاكة ، فتضيق ذرعاً بهم وترسلهم إلى العالم المتمدين . وقد أجريت بعض التجارب على بيض الجراد ، فحفظ فى صناديق معدنية جافة أربع سنوات ثم عرض للرطوبة فنقف ، وخرجت منه الحشرات . وتدل التجارب على أن البيض يبقى عشر سنوات فى الجفاف ، بدون أن تنعدم فيه الحياة .

والإنسان فى كفاحه ضد هذه الحشرة الضارة يبيد الملايين منها فى كل عام ، فنى الترنسفال وحدها يقضى على ٨٠٠٠ سرب فى السنة ، وفى ناتال على ٦٠٠٠ ، وفى روديسيا على ١٤٠٠٠ .

ويتعذر تقدير العدد الذى يحويه كل سرب ولكنه بغير شك يتألف من عدة ملايين . ومع هذا الفتك الذريع الذى يصيب الجراد فإنه لا ينفك يزور الإنسان مرات متتالية فى العام . لأن له مصدراً دائماً فى الصحراء ، كلما نزل عليه المطر نضج جانب منه ، واتخذ سبيله إلى العالم المسكون ، ليلتهم غلاته ونباته . وربما تمكن الإنسان فى المستقبل من ابتداع الوسائل التى تسهل له اجتياز الصحراء ، والقضاء التام على هذا الوباء الفتاك .

مدرسة للحضانة

فى الأقاليم الباردة الجنوبية يعيش نوع من الحيوان يسمى البنجوين (Penguin) (شكل ١٦) وأشهر مواطنه رأس هورن بجنوبى أمريكا وجزائر فولكلاند ورأس الرجاء الصالح ونيوزيلانده وأوستراليا وجزر المحيط المتجمد الجنوبى . وبالرغم من أنه يعتبر من الطيور فهو لا يستطيع الطيران ، لأن جناحيه لا يقويان على حمله ، وهما أشبه بزعنفتين كبيرتين ، وقد يستعين بهما وبقدميه العريضتين ذات الأغشية الممتدة بين الأصابع على السباحة فى الماء . ومن دأبه أنه يقف منتصباً على قدميه ، ويمشى على هذه الصورة .

وإذا حاول السير بسرعة اختل توازنه ، وهوى على الأرض . وهو إذا غضب ضرب بمنقاره وبجناحيه القويين الثقيلين . وغذاؤه مقصور على الأسماك، وهو يستطيع صيدها بسهولة ، لأن له قدرة عجيبة على السباحة والغوص فى الماء .



(شكل ١٦)

وبما أنه يعيش فى أشد بقاع العالم برودة فقد وهبته الطبيعة

وقاء يحميه من البرد القارس، فتحت كسائه الخارجى من الريش طبقة سميكة من الدهن ، كما غطى ريشه بغشاء زيتى يحول دون وصول المطر إلى جلده .

وهو يقضى أيامه ولياليه فى البحر بين الثلوج والأمواج المتلاطمة ، ولا يقيم على البر إلا عند ما يضطر لوضع البيض وتربية الصغار ، وفى الغالب يكون هذا فى أوائل صيف المنطقة المتجمدة الجنوبية . وتضع الأنثى بيضتين فى وكر من الحصى ، وتحتضنهما بالتناوب مع زوجها ، وبعد مضى خمسة أسابيع يخرج منهما فرخان كبيران شرهان ، ويغذيهما والداهما من الأسماك والحيوانات المائية الرخوة التى يحملانهما إليهما من البحر . وينمو جسمهما إلى عشرة أمثاله فى مدة أسبوعين ، ومثل هذا النمو السريع يستلزم كميات وافرة من الغذاء ، ولذا يصرف الوالدان معظم وقتهما بين البحر والوكر ، منهمكين فى صيد كميات كبيرة من الأسماك . وفى غيبتهما يتعرض الفرخان لخطر كبير، فقد تخطفهما بعض الطيور الجارحة، وقد يتحركان خارج الوكر ويضلان السبيل فلا يستطيعان العودة إليه ، ويموتان جوعاً لعدم وجود الغذاء على الصخور والثلوج ، وتعذر السباحة عليهما فى الماء وصيد الأسماك منه . وفى هذا الوقت من العام

يكون البر آهلا بمئات الألوف من طيور البنجوين التى تفد إليه من أنحاء مختلفة، لتضع بيضها، وتربى صغارها. وتكون الجزيرة أو الصخور والرمال البرية أشبه بعمل هائل للتفريخ، لا ترى فيه بقعة خالية من قدم تدب فيها. وفى مثل هذا الزحام لا تسلم الأفراخ الصغيرة، التى تترك أوكارها، من أن تداس بأقدام الطيور الكبيرة وتزهق أرواحها.

ولدفع هذه الأخطار تلجأ طيور البنجوين إلى حيلة غريبة تصون بها صغارها التى بدأ النشاط يدب فيها. فتجمعها فى مكان خاص، ويتعهد فريق من كبار الوالدين بحراستها والدفاع عنها، مع السماح لها بالتحرك واللعب داخل نطاق محدود، بينما يتعهد فريق آخر بشئون التغذية. وقد يكون بين الفريق الأول متطوعون ليس لهم أبناء، وقد يقوم أفراد من الفريق الثانى بتغذية صغار لا تجمعها بها صلة. ومثل هذه الطريقة فى الحراسة والتغذية لا تبعد كثيراً عن النظم المتبعة فى مدارس الحضانة عند الإنسان.

وعندما يكتمل نمو الأفراخ تصوم عن الأكل وتذهب إلى شاطئ البحر، وتبقى هناك حتى تسقط عنها آخر خصلة من الزغب، ويصبح جسمها مغطى بالريش، وعندئذ تثب فى الماء المثلوج،

وترحل عن البر مبتعدة عنه مئات الأميال، وتعيش على الأسماك التى تلتقطها من البحر. و بعد مضى سنتين تدفعها الغريزة نحو البر لوضع البيض وتنشئة الصغار . و إذ ذاك تصوم عن الأكل شهراً كاملا حتى تظهر الأفراخ . و بعد أن يهجرها أبناؤها إلى البحر يسقط عنها ريشها و ينمو غيره ، و فى أثناء هذه الفترة من التغير الجثمانى تنقطع عن الغذاء . فهذه الطيور تصوم قبل أن تلقى عليها مسئولية الأبوة ، وتصوم قبل أن تستقل بالجهاد فى حياتها، وتصوم بعد أن يتركها أبناؤها . ولا شك أن الصيام ضرورى لها كما هو ضرورى لبعض المخلوقات ومنها الإنسان .

معجزة الدب الأبيض

الدب الأبيض أقوى الحيوانات التى تعيش فى المنطقة المتجمدة الشمالية ، وأضخمها جثة ، وقد يبلغ طوله فى بعض الحالات ثلاثة أمتار ، ووزنه سبعة قناطير . وهو يعوم بسهولة فى الماء ، و يعدو بسرعة على الجليد ، و يتسلق أكوامه العالية. ومن دواعى الدهش أن مثل هذا الحيوان الكبير الجسم الثقيل الوزن يتحرك بخفة فوق الجليد الأملس دون أن ينزلق ، و يرجع

السبب فى ذلك إلى أن باطن قدمه العريضة مزود بخصلة من الشعر الطويل الخشن ، الذى يثبتها فوق الجليد ويمنع انزلاقها. وهو يتغذى بالأسماك وعجول البحر (Seal) التى يصطادها بنفسه، وبجثث الحيتان الميتة التى يقذف بها البحر إلى الشاطئ. وفى الصيف عندما تظهر الخضرة فى البقاع الشمالية يضيف الدب إلى غذائه أثمار التوت وبعض البقول والأعشاب. وفى الشتاء حيث تنقرض الخضرة ويندر الغذاء يأكل الدب كل ما يصادفه من أعشاب بحرية وأوراق جافة وأخشاب وغير ذلك .

والمبيت الشتوى مقصور على الأنثى التى تدفن نفسها تحت الجليد ، وتقضى شهور الشتاء فى سبات عميق . وفى هذه الفترة تلد ، وفى العادة تضع شبلين ، وتغذيهما بلبنها الذى يتدفق من ثديها بغزارة . وهى لا تخشى الاختناق تحت غطائها السميك من الجليد ، لأنها تترك فيه منفذاً يتسرب منه الهواء إليها ، ويظل هذا المنفذ مفتوحاً لا يسده الجليد وذلك بتأثير أنفاسها الساخنة والحرارة المنبعثة من جسمها .

وبالرغم من أنها تصوم فى أثناء مبيتها الشتوى ، فإن لبنها يدر بغير انقطاع لتغذية وليديها . وتعتبر هذه الظاهرة من المعجزات

الطبيعية ، إذ كيف يتيسر لها أن تدبر هذا السيل المستمر من الغذاء بدون أن تتناول شيئاً من الطعام . والسر فى ذلك راجع إلى أنها فى أثناء الصيف تلتهم كميات وافرة من الغذاء الذى يتحول بعضه إلى طبقة سميكة من الدهن تحت جلدها . وفى الشتاء يؤدى هذا الدهن ثلاث وظائف ضرورية لحياتها ولذريتها ، فهو يقيها البرد أثناء رقادها تحت الجليد ، ويتحول جزء منه إلى غذاء صالح لها ، ويتحول جزء آخر إلى لبن يعول وليدها .

وفى هذا المقام تحسن الإشارة إلى الضجة التى قامت بإنجلترا فى يوليو سنة ١٩٣٨ حول رجل شرقى ، مصرى الأصل هندى النشأة ، يسمى نفسه رحمن بك . إذ كان يرقد فى صندوق معدنى مصنوع بطول جسمه وعرضه ، ويأتى أعوانه فيغطون الصندوق ، ويحكمون إغلاقه ، ويضعونه فى قاع حمام السباحة ، ويتركونه تحت الماء ساعة كاملة ، ثم يرفعونه ويفتحونه فيرى النظارة رحمن بك حياً لم يصبه أذى . وقد حاول بعض العلماء تفسير هذه الظاهرة فقال إن الأوكسيچين المحتوى عليه الصندوق يكفى للتنفس طول المدة التى يظل فيها تحت الماء ، وأن بخار الماء

وثانى أوكسيد الكربون ، المتولدين من التنفس فى هذه الفترة لا يكفيان لإحداث الاختناق .

وربما كان هذا التعليل صحيحاً ، ولكن لم يجرؤ أحد على اختبار صحته بطريقة عملية . ومهما كان السر فى هذه العملية فإن هذا الساحر الشرقى يعجز عن محاكاة أنثى الدب الأبيض ، لأنه لا يستطيع أن يدفن نفسه فى الجليد طول شهور الشتاء ، ويعمل على استمرار تنفسه ، ويدبر أمر تغذيته مع طفلين راقدين بجانبه ، ثم يخرج بعد ذلك حياً لم يمسه الضرر. ألا إن فى الطبيعة لأسراراً تحار فى إدراكها عقول البشر ، ونواميس أحكم وضعها وتنسيقها .

القطيع

يعيش كثير من أنواع الحيوانات فى جماعات كبيرة كالبقر الوحشى ، والقرود ، والفيلة ، والغزلان ، والذئاب ، وبعض الطيور والحشرات . والأغراض التى يسهل تحقيقها باجتماع الحيوان بأفراد من نوعه هى سهولة التزاوج ، والتعاون فى البحث عن الغذاء ، والاشتراك فى الدفاع أو الهجوم وقت الخطر . وقد ساعدت هذه الأغراض على بقاء أنواع كثيرة من الحيوان إلا

فى الحالات التى تدخل فيها الإنسان بأسلحته ووسائله الفتاكة .
ففى أمريكا مثلا كانت قطعان البقر الوحشى (Bison) ترتاد السهول والمراعى ، ساعية للحصول على غذائها ، عاملة على تكاثر نوعها ، متحدية قطعان الذئاب ، ودافعة عن نفسها خطر الفهود وغيرها من الحيوانات المفترسة . وقد ظلت كذلك آلاف الأجيال محافظة على كيانها حتى كشفت أمريكا ، وهاجر إليها الجنس الأبيض فاتخذ من لحومها غذاء ، ومن جلودها كساء ، ومن مجرد صيدها لهواً ولعباً رياضياً . ثم مدت السكك الحديدية فى البقاع التى كانت مرتعاً لها ، وأنشأ فيها المساكن والضياع . فلم يمض نصف قرن من الزمان حتى كاد ينقرض هذا النوع من الحيوان ، بعد أن هلك منه عشرات الملايين . أما فى البقاع التى لم تتوغل فيها المدنية الإنسانية ، كبعض أجزاء أفريقيا آوسيا واستراليا فما زالت غريزة تكوين القطيع عاملة على بقاء أنواع كثيرة من الحيوان .

ومن المشاهد المألوفة فى كل قطيع من الحيوان ، أو سرب من الطير ، وجود قائد له أو أكثر يرشده فى حله وترحاله ، وينأى به عن مواطن الخطر . ولا يشترط فى القائد أن يكون

من الذكور الأقوياء ، إذ كثيراً ما يكون أنثى يقظة ماهرة ، كما هو الحال فى الغزلان أو الفيلة إذا لم يوجد بينها ذكر ذو أنياب ضخمة قوية .

وإن من الممتع مشاهدة الجماعات المختلفة من الحيوان أثناء إقامتها وتنقلاتها وما يصدر عنها من أعمال تدل على الحيلة والحذر وبعد النظر . فالبط البرى مثلا لا يحط فى مكان ليأكل ويشرب قبل أن يرسل إليه بضعة أفراد يقتصر عملها على الحراسة فإذا ما أحست هذه بالخطر صرخت صرخة عالية قام فى فى إثرها السرب دفعة واحدة محلقاً فى السماء مبتعداً عما قد يصيبه من أذى .

وإذا أراد قطيع من الغزلان أن ينزل فى مرعى خصيب أوفد إليه فرقة صغيرة من الكشافة لتتجسسه فتحوم حوله بحذر ، وتحلق فيما يحيط به من جهاته الأربع ، وتشم رائحة الهواء والأرض لتتأكد من أنه ليس هناك حيوانات مفترسة مختبئة عن كثب منه . فإذا ما اطمأنت إلى المكان أقبل القطيع بأجمعه وأخذ يروى ظمأه ، ويشبع جوعه تحت حراسة مستمرة من الكشافة . ثم ينقطع بعض الأفراد عن الغذاء ويعد نفسه

للحراسة وتعفى الكشافة من عملها لتنال نصيبها من الطعام .

ولقطيع الفيلة نظام محكم تتبعه عندما تريد الشرب . ففى سكون الليل يخرج قائدها من الأدغال التى اتخذتها مخبأ لها ، ويمشى نحو غدير الماء فى خفة وهدوء حتى لا يكاد يسمع دبيب أقدامه على الأرض ، أو احتكاك جسمه بأوراق الأشجار ، ثم يقترب من الماء ، ويقف هناك مدة من الزمن رافعاً أذنيه ليلتقط أخفت الأصوات ، ثم يعود من حيث أتى ويرجع مستصحباً معه خمسة من الفيلة ، ويضع كلا منها فى مكان خاص للحراسة والمراقبة ، ثم يعود ثانية إلى الأدغال ويجمع حوله القطيع ، ويخرج به فى حذر وصمت ، حتى يصل إلى الحراس وهناك يتركه ويمشى وحده نحو الماء ويقف بقربه مدة وجيزة منصتاً يقظاً حتى إذا اطمأن إلى سلامة المكان أعطى إشارة إلى القطيع فينزل فى الماء ويروى ظمأه ويرحل مسرعاً إلى الأدغال . وبعد ذلك يأتى دور الحراس فترد الماء فرادى وكلما شرب أحدها عاد إلى مكانه فى الحراسة وأخيراً ينزل القائد إلى الماء ويأخذ نصيبه منه ثم يجمع الحراس ويلحق معهم بالقطيع .

وإذا وقع فى أثناء هذه المناورة حادث يثير الشك ، كسقوط

غصن من شجرة ، أو اضطراب غير مألوف فى الماء لجأت الفيلة إلى الفرار ، إلا أنها لا تنسى أن بينها صغاراً قد تزل أقدامها وتموت ، ولهذا تحرص على وضع كل صغير منها بين فيلين كبيرين ، يدفعانه بينهما أثناء فرار القطيع ويحولان بينه وبين السقوط .

وتعيش الحمير الحمر المخططة (Zebra) فى قطعان كبيرة ، ومن غريب أمرها أنها تأتلف مع جماعات النعام ، وتشركها معها فى تجوالها ، وربما كان الجامع بين هذين النوعين اتفاقهما فى سرعة الجرى عند وقوع الخطر .

والطيور فى هجرتها تسير فى جموع زاخرة لا يحصيها عد وعند ما تقيم فى مكان معين كثيراً ما يحلو لها أن تطير فى شكل أسراب صغيرة . وإن من أجمل المشاهد الطبيعية منظر سرب من الطيور وهو يحلق بأجنحته فى السماء . فسرب الزُرزور (Starling) مثلا يسير وراء قائده كأنه فرقة مدربة من الجند لا يشذ فرد منها عن النظام . فكلها تسير بسرعة واحدة ، وترتفع ثم تنخفض بتوافق لا نشاذ فيه . وتدور وتلف فى الفضاء دون أن يخرج أحدها عن مكانه بالنسبة للآخرين حتى ليتوهم

الناظر أن السرب كله مسير بعقل واحد يصدر أمره فيتحرك الجميع حركات مؤتلفة منتظمة كأنه جسم واحد.

وإن الإنسان لتعلو وجهه حمرة الخجل إذا رأى سرباً من الطير، وتخيل بجانبه صورة جموع الآدميين التي تسير في المواكب والجنازات وغيرها، أو تحتشد أمام دور الملاهي ومحطات الترام إذ يختل فيها النظام، ويسود الهرج، ويكثر التدافع والتصادم، ويحاول كل فرد أن يتقدم على الآخرين أو يزيحهم عن أماكنهم ويصبح الحكم للقوة الجثمانية. وكثيراً ما يقع من جراء ذلك حوادث مؤلمة تستدعي تدخل رجال الأمن. فهل للانسان أن يتعلم النظام من الطير الذي لا يدانيه في الذكاء والفطنة وقوة الإدراك.

جناح الطائر

لو لم يكن للطائر ريش لما عاش على ظهر الأرض إنسان أو حيوان! لأن الريش هو الكساء الذي يغطي جسم الطائر ويصونه من حر الصيف و برد الشتاء، ولولاه لهلك الطائر وزال أهم عامل طبيعي يعوق نمو الحشرات فتنتشر بشكل مروع وتحصد

الزرع وتأكل الخضرة وتموت الحيوانات آكلة العشب ثم تموت الحيوانات آكلة اللحوم وتصبح الأرض قبراً لا دبيب للحياة فيه.

وفى الطبيعة توازن عجيب بين الحشرات والطيور . فالأولى تظهر فى أواخر الربيع من بيضة وضعت فى العام السابق ، أو من شرنقة كانت تضمها فى الشتاء . وفى نفس الوقت الذى تكثر فيه الحشرات تكون صغار الطيور قد خرجت من بيضها واحتاجت إلى الغذاء ، فيجمع لها أبواها الحشرات بمقادير كبيرة من مطلع الشمس إلى مغربها ، فينقص عدد الحشرات نقصاً بالغاً ، ولولا ذلك لأصبحت وباء يعجز الإنسان عن مكافحته .

ومن الريش يتكون جناح الطائر الذى يحمله من مكان إلى آخر باحثاً عن قوته . ويمكنه من الهجرة فى الشتاء عند ما يندر الغذاء وتقل الحشرات ، فيحل فى إقليم دفىء يجد فيه بغيته من الغذاء وضالته من الحشرات .

وفى الجناح قدرة خفية لا يعرف مصدرها . فالقطار مثلا يقطع المسافات الشاسعة بقوة البخار الدافعة ، ولكن جناح الطائر يحمله مئات الأميال بدون أن يستمد طاقة من الخارج . وقد يرفرف الجناحان بسرعة عظيمة مدة طويلة من الزمن مدفوعين

بقوة كامنة لا يدرك منشؤها ولا المورد الذى يغذيها . وتتضح هذه الظاهرة فى العصفور الطنان (Humming bird) الذى يزيد حجمه قليلاً عن النحلة ، فإنه يستقر فى الهواء تحت زهرة بها رحيق مرفرفاً جناحيه بسرعة مفرطة حتى ليخيل للرائى أنهما ساكنان .

ومن غرائز الطيور قدرتها على قطع المسافات الشاسعة دون أن يدركها التعب ، فمثلا البلبل الأمريكى الأصفر يقطع فى هجرته ٢٥٠٠ ميل فى أقل من يومين . وخطاف البحر (Tern) الذى يعيش فى الأصقاع الشمالية ، يطير من المحيط المتجمد الشمالى إلى المحيط المتجمد الجنوبى بسرعة تعجز عنها أقوى الطائرات التى ابتكرها عقل الإنسان . وشوهدت مرة بعض الغربان فى هليجولاند (Heligoland) وبعد مضى ثلاث ساعات كانت على الشاطئ الشرقى لإنجلترا فكأنها قطعت فى المتوسط مائة ميل فى الساعة ومن السهل على الكروان أن يطير ٢٤٠ ميلاً فى الساعة ، وهى توازى المسافة التى يقطعها القطار السريع فى نحو أربع ساعات . والسرعة المعتادة للطيور لا تقل عن ستين ميلا فى الساعة .

ويعيش فى الأقاليم الجنوبية ، وعلى الأخص فى رأس الرجاء

الصالح ، طائر يسمى الصخاب (Albatorss) ، وهو ضخم الجثة ويبلغ طول جناحيه، متى كانا ممتدين ١٢ قدما ، وله صوت مزعج يضاهى فى شدته نهيق الحمير . وبالرغم من كبر حجمه وثقل جسمه فإنه يطير بخفة وبسرعة فائقة ، وقلما يخفق بجناحيه ، ويمكنه أن يتبع السفن أياما متوالية دون أن يشعر بإعياء .

ويتعلم الطائر الصغير الطيران من أمه وهى تشجعه على استعمال جناحيه بقطعة من الطعام لذيذة الطعم . وإذا لم يفلح معه الإغراء عمدت إلى استعمال الشدة فتدفعه خارج العش وترغمه على المجازفة بالارتفاع فى الهواء ثم الطيران .

وعندما يجول الإنسان بنظره فى السماء وخلال الأشجار وعلى الأرض يرى عدداً محدوداً من الطيور، فيتوهم أنها قليلة ، ولكن الحقيقة بعكس ذلك إذ يوجد فى العالم نحو عشرة آلاف نوع من الطيور ، ويعد كل نوع بالملايين ، فعدد الطيور يقدر بملايين الملايين ، ولا يقاس بجانبه عدد الآدميين .

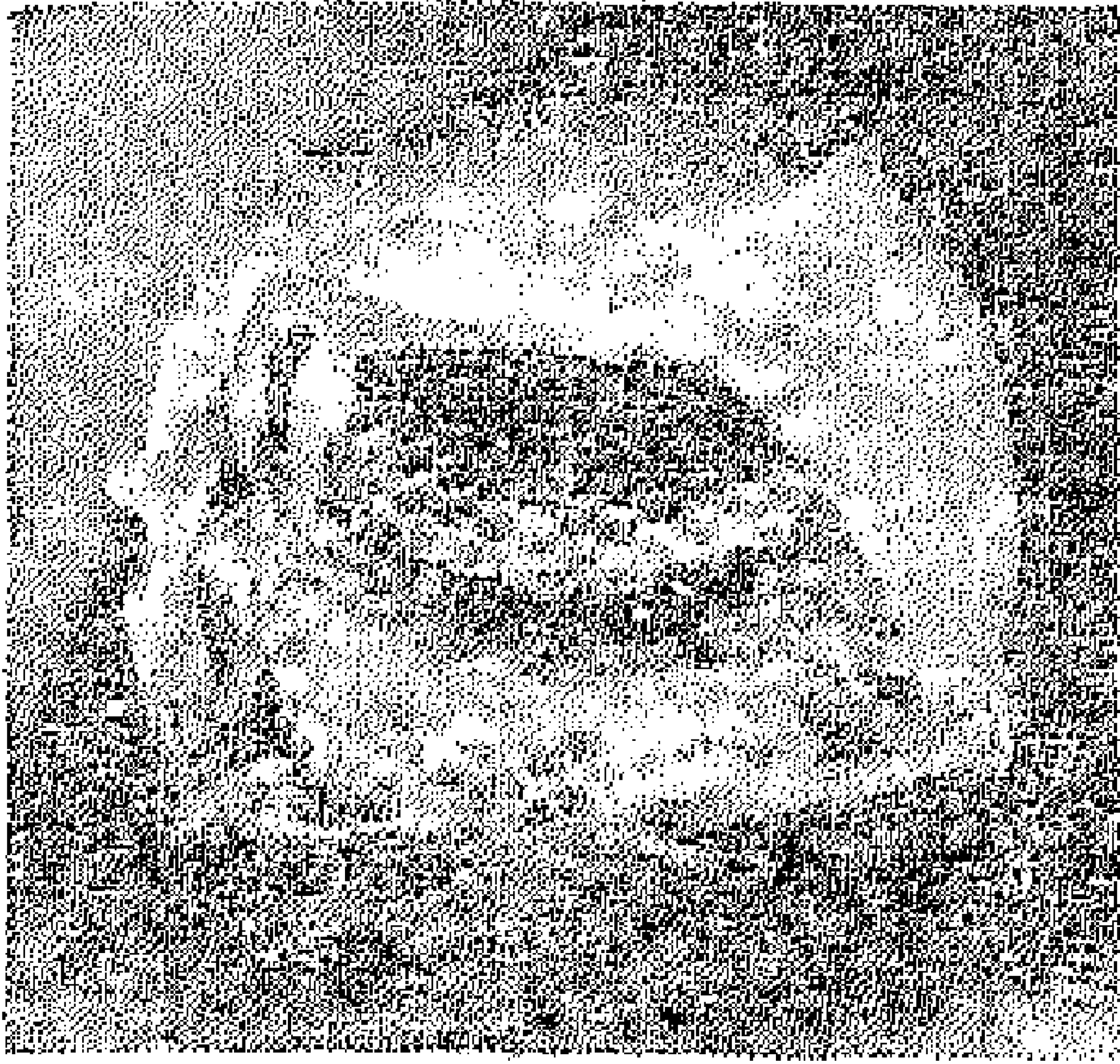
وجموع الطيور الهائلة ترى عند مُسْتَفْرَخها أو فى أسرابها المهاجرة . وقد قضى العالم الطبيعى الفرد برهم (Alfred Brehm) ردحا من الزمن بين جبال لابلاند (Lapland) حيث يأوى

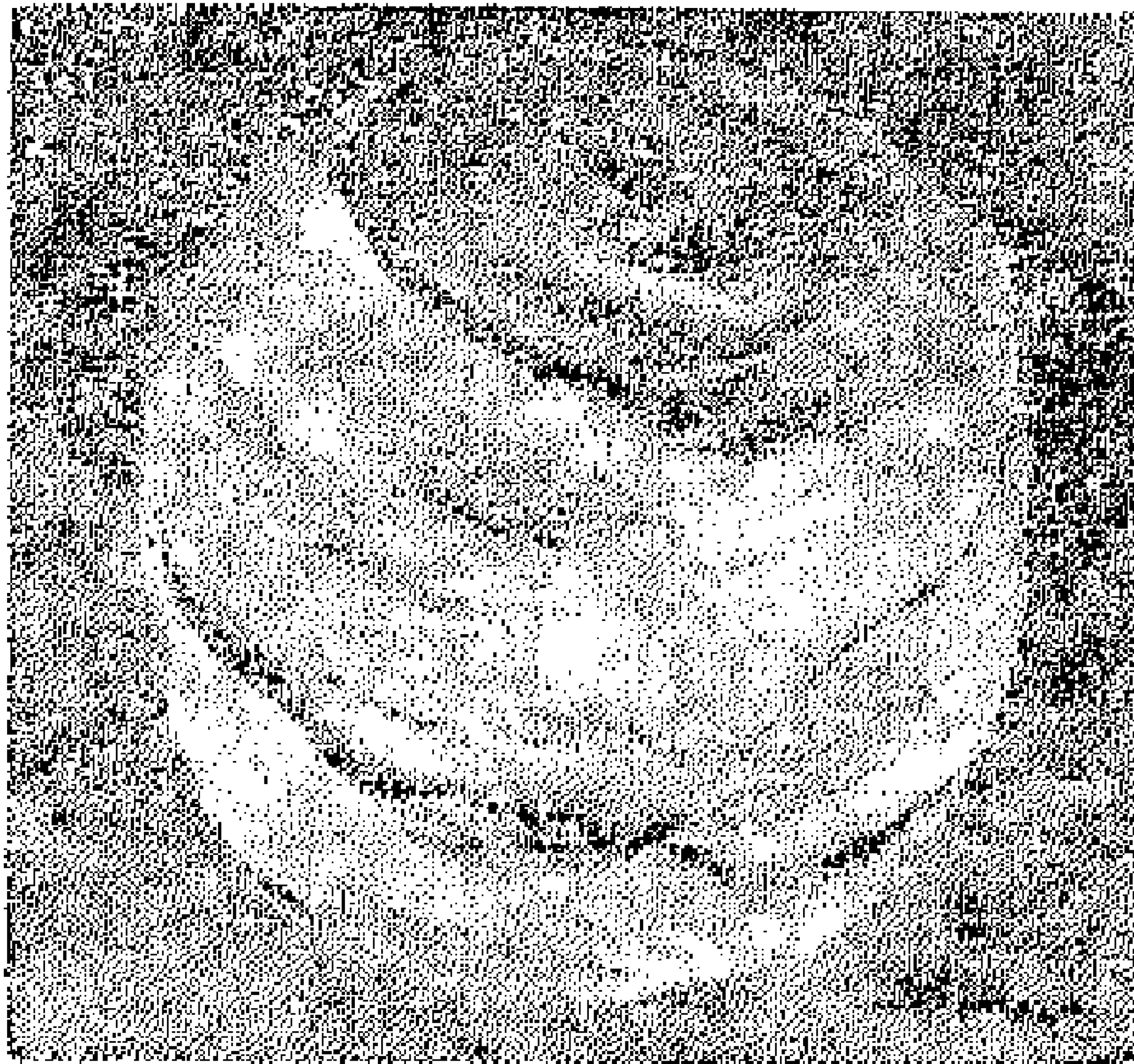
كثير من الطيور المائية للافراخ ، وهو يقدر عدد الطيور التى رآها على عدد قليل من الصخور ببضعة ملايين .

أما أودوبن (Audubon) العالم الطبيعى الأمريكى فقد لاحظ أسرابا من الحمام المهاجر تمر فى السماء أياما متوالية وهو يقدر عدد الحمام الذى مر فى ساعات فقط بألف مليون .

صانع الورق

ليس الإنسان أول مخلوق ينسب إليه صنع الوق ، فقد صنعته أنثى الزنبور ، قبل أن يتعلم الإنسان القراءة والكتابة بآلاف السنين . والطريقة التى تتبعها لهذا الغرض تتلخص فى أنها تجمع ألياف الاخشاب ، وبعض المواد النباتية ، وتقرضها بفكيها القويتين ثم تمزجها بسائل تفرزه بنفسها ، وتتركه ليجف ، فيصبح غشاء رقيقاً شبيهاً بورق اللف الأسمر الذى يستخدمه الإنسان فى المحال التجارية . ومن هذا الورق تبنى أنثى الزنبور مسكنها (شكل ١٧) . وهو يتكون من خلايا ، وطرقات تؤدى لها ، وفى الخلايا تضع الأنثى البيض ، ومنه تخرج الديدان ، وهذه تتحول إلى زنابير صغيرة .





(شكل ١٧)

وتظهر الصغار فى الصيف وتنمو وتتغذى بالحشرات الصغيرة ورحيق الزهور وقد تسطو على خلايا النحل لتسرق عسلها . وهى تعاون أمها فى توسيع المسكن وتزويده بالغذاء اللازم لأخواتها اللائى ما زلن فى طور النمو ولا يستطعن الخروج طلباً للقوت .

وعند ما يقبل الشتاء تموت الذكور كلها ، ولا يبقى إلا الإناث . وتأوى الأنثى فى أواخر الخريف إلى مكان أمين ، وتقضى فيه فصل الشتاء نائمة ، وتستيقظ فى مستهل الربيع ، فتجد مسكنها من الورق ، وتضع فيه البيض لتخرج منه ذرية تذهب عنها وحشتها وتلازمها فى فصلى الصيف والخريف حيث يتوافر الغذاء من مصادر متنوعة .

وهناك عداء موروث بين الزنانير والنحل ، ولكن أنثى الزنبور يحلو لها أحياناً أن تبني مسكنها داخل خلية النحل، لتجد غذاءها من العسل عن كثب منها . وقد لوحظت هذه الظاهرة في حالات قليلة ، وليس لها تعليل معروف سوى أن النحل يخشى مهاجمة الزنبور الذي يستطيع أن يفتك به ، وأن الزنبور يحجم عن مهاجمة النحل لأنه يعده بغذاء سهل المنال .

الادخار عند الحيوان

الادخار غريزة شائعة عند كثير من الحيوانات . فالثعلب يصطاد الأوز والدجاج وغيرهما. ويخبئ ما لا يأكله في مكان أمين، يعود إليه عندما يشعر بالجوع . والكلب الأليف الذي يعيش داخل المنازل ليس في حاجة إلى توفير الطعام ، ولكن غريزته الموروثة من أجداده تدفعه أحياناً إلى أن يحمل قطعة من العظم ويدفنها في أرض الحديقة أو في مكان آخر .

والسنجاب (Squirrel) وهو نوع من الحيوانات القراضة يجمع طول الخريف ثمار البلوط وأنواع النوى ، ويدخرها في وكره لتتغذى بها أثناء الشتاء .

وفى البلاد الواقعة بين المجر وآسيا يعيش نوع من الفيران الغيطية له حاسة غريبة يعد بها نفسه إلى وقت الحاجة. فهو يذهب إلى الحقول، ويقطع عيدان القمح بأسنانه القوية، وينظف الحبوب من القشور، ثم يحملها إلى سراديب محفورة تحت الأرض. ويستطيع الفأر الواحد أن يخزن نحو كيلتين من الحبوب. وفى الشتاء يبحث الفلاحون عن مخازن هذه الفيران ويحملون ما ادخرته فيها إلى بيوتهم للانتفاع به.

ويوجد نوع آخر من الفيران يميل بطبيعته إلى أكل الجذور التى تتوافر فيها عناصر التغذية، فيترقب نضجها، ثم يذهب إلى الحقول وينبش الأرض حول الجذر ويقتلعه من النبات، وينظفه مما يعلق به من الشوائب، ثم يحمله إلى جحره. وهو يمكنه أن يدخر نحو ٣٠ رطلا من هذه الجذور.

وتشاهد غريزة الادخار عند النحل والنمل. وهناك نوع من النمل يتبع فى ادخاره طريقة يقف أمامها العقل البشرى حائراً مبهوتاً فهو يحمل الحبوب إلى مسكنه تحت الأرض، وإذا تركت هناك فى الرطوبة والدفء مدة من الزمن فإنها لاتلبث أن تنبت، ولكنه يمنع استنباتها بوسيلة خفية غير معروفة ويعوق نموها بدون أن

تموت أو يصيبها تلف . و بعد مضى بضعة أسابيع يسمح لها بالإنبات، فتنمو ويظهر لها جذر وساق صغيران . وهذا النمو يستلزم تحول جزء من النشا والزلال فى الحبوب إلى مادة حلوة سكرية . و بعد أن يستمر النمو مدة من الزمن يقطع النمل السيقان والجذور ليمنع النمو، ويحمل البذور خارج مسكنه ويعرضها للشمس لتجف ثم يعود بها إلى مخزنه وقد أصبحت مادة حلوة الطعم يتمتع بها وقت الشتاء .

ويوجد نوع آخر من النمل يقطع أوراق النبات إلى أجزاء صغيرة مستديرة ، ويحملها إلى بيته ، ويعالجها بطريقة لم يكشف سرها إلى الآن ، ويتركها فى مكان رطب فتصبح مزرعة صالحة لنمو الفطريات التى يستعين بها النمل فى غذائه .

ولعل فى هـــــذه الأمثلة الرائعة التى تضربها الحيوانات والحشرات للانسان ما يكفى لغرس فضيلة الادخار فيه فيوفر فى يوم رخائه ماينفعه فى وقت عصيب .

العطف على الأبناء

من أفضل الغرائز التى وهبتها الطبيعة للحيوانات تعلقها بصغارها ، وعنايتها بها ، وحمايتها من الخطر . وهى مدفوعة إلى

ذلك بعامل المحافظة على كيانها ، واستبقاء جنسها . فأنثى الفيل مثلاً تكون فى العادة هادئة الطبع وديعة ، ولكنها تثور وتغضب إذا مس الضر ابنها ، وتدافع عنه حتى آخر رمق من حياتها ، وقد تصيبها المقذوفات النارية ، ويتقاطر الدم غزيراً من جسمها ولكنها لا تنفك عن صيانتها لابنها حتى يدركها الموت .

ووحيد القرن قد يفقد حياته فى سبيل دفاعه عن صغاره ، ومحاولته إنقاذهم . وفرس البحر (Hippopotamus) على ضخامة جثته وغلظ جلده ومنظره العام الذى يدخل فى روع الناظر إليه أنه فاقد الإحساس ، يمتاز بحنو وعطف شديدين على ابنه الصغير ، ويثور بعنف فى الدفاع عنه ، وإذ ذاك يكون شديد الخطر لأنه يستطيع أن يقاوم عشرة رجال ويغلبهم على أمرهم .

وأنثى الحوت تحب ابنها الرضيع * حباً جماً ، ويلازمه سنة كاملة ، تغذية فيها وتحافظ على سلامته ، وإذا مسه ضر أصابتها ثورة من الجنون ، وأصبحت أفظع حيوان فى الطبيعة ، ويمكنها إذ ذاك أن تحطم قارباً كبيراً وترسل من فيه إلى الهلاك . وهى

* الحوت من الحيوانات الثدية

تبقى بجانب ابنها حتى بعد أن يموت ، وتستمر فى الدفاع عنه إلى أن تخر صريعة بقربه .

ومن عادة عجل البحر (Seal) أن يربى صغاره على صخرة عالية بجانب الماء ، وكثيراً ما يذهب الصيادون لاختطافها لأن جلدها صالح لصنع معاطف السيدات . وقل أن يوجد فى الطبيعة مشهد أدعى للحزن والألم من منظر الأمهات وهن يدافعن عن صغارهن بكل ما وهبتهن الطبيعة من قوة وحماسة . ولو رأى السيدات هذه الأمهات وهن يضحين بدمائهن فى سبيل أبنائهن لحرمن على أنفسهن ابتياع هذه المعاطف ولبسها .

والدب الأبيض معروف بقوته وشراسته ، وقد قست عليه الطبيعة فأحاطته بالجليد الدائم والبرد القارس المستمر ، ولكن فى ضلوعه حرارة تستعر بالحنو الأبوى على أبنائه حتى ليقال إنه يفوق الآدميين فى هذه العاطفة .

وتروى أساطير كثيرة عن الدب الأبيض للدلالة على تعلقه بأبنائه وحنوه عليهم . ومن أروع هذه الأساطير ما تحدث به بحارة السفينة كاركاس (Carcass) التى جمد عليها الماء فى الأصقاع الشمالية ، وتعطلت مدة من الزمن عن المسير وخرج

البحارة يوماً على الجليد ، وأوقدوا ناراً للتدفئة ، وأشعلوها بقطع كبيرة من دهن الحوت ، و إذ ذاك أقبلت نحوهم دبة وجروان صغيران ، وقد ظهرت عليهم علامات الجوع المبرح ففر البحارة إلى السفينة واقتربت الدبة من النار ، بعد أن تركت ولديها بعيداً عنها ، ثم مدت مخالبها فى النار ، معرضة نفسها للخطر ، وانتشلت قطعة كبيرة من الدهن ، وسارت بها نحو ولديها ، وقسمتها بينهما ، بعد أن استبقت لنفسها جزءاً صغيراً . ورمى البحارة قطعاً من اللحم ، فأسرعت الدبة لالتقاطها ، واتجهت بها تريد توزيعها على ولديها ، و إذ ذاك أطلق البحارة بنادقهم فأصابوها مع ولديها . وهم يقولون إن الدموع سالت من عيونهم عندما رأوا حزن الأم وفزعها ، وهي لم تفهم هذه الطريقة الجديدة فى الاغتيال إذ لا عهد لها بها من قبل ،ولم تهتم بما أصابها ، وقصرت عنايتها على ولديها ، وأخذت تلحس جروحهما ، وتقدم إليهما اللحم والدهن وحاولت أن تقيم كلا منهما على قدميه ، ولما عجزت عن ذلك همت بالمسير ، وجرت بعيداً عنهما متوهمة أنهما سيتبعانها ، ولما لم تنجح هذه الحيلة عادت إليهما وكانا قد فارقا الحياة ، فصاحت صيحة ألم وفزع ، وأدركت أن الرجال فى

السفينة هم المسئولون عن هذه الكارثة ، فكشرت عن أنيابها وزمجرت بصوت كالرعد ، وأسرعت نحوهم تريد افتراسهم بالرغم من أن الدم كان يتدفق من جرحها ، ولكنهم أصابوها ببنادقهم وقضوا عليها ، فأراحوها من عوامل الألم والحزن .

إن البطولة ليست مقصورة على الإنسان ففى الحيوانات أمثلة رائعة لها ، تبدو واضحة لكل من يهتم بدراسة طبائعها .

حيلة الجناح المكسور

الطيور التى تبنى عشاشها على الأرض كالحجلة (Partridge) والكروان ، والقنبرة ، والبط البرى ، تشترك جميعاً فى غريزة واحدة يقصد بها إبعاد الخطر عن صغارها . وهى حيلة تدبرها بطرق مختلفة باختلاف نوعها .

فالبطة البرية مثلا تبنى عشها بقرب الماء، وتحرسه حتى يكتمل نمو أفراخها ، فإذا ما أحست بعدو يسير فى اتجاهه كقط أو كلب أو ثعلب أو آدمى خرجت منه وأظهرت نفسها للعدو ومشت متثاقلة بجوار الماء ، فيتبعها ويبتعد عن العش ، وإذا ما شعرت بأنه اقترب منها أسرعت فى خطاها ، فيجرى وراءها وتتسع

الشقة بينه و بين العش ، ثم تنزل فجأة فى الماء وتعوم مبتعدة عن الشاطئ . و إذا كان عدوها قادراً على السباحة تبعها فى الماء ، وسار وراءها شوطاً بعيداً ، وعندما تشعر بدنوه منها تحلق بأجنحتها وتطير تاركة عدوها فى حيرة وارتباك .

والحجلة تطير متعثرة من عشها ، وتسقط عن كثب من العدو ، كأنها مصابة بضرر جسمانى ، وتصرخ صرخات غريبة تشعره بما يساورها من ألم ، ثم تطير مبتعدة عنه وتسقط ثانية كأنها عاجزة عن الطيران ، فيتبعها محاولاً إمساكها ، ولكنها تكرر الطيران والسقوط لتغريه بمتابعتها ، وفى هذه الأثناء يخرج صغارها من العش ، وفى لمحة البصر يختفون بين الخضرة والأعشاب وعندما تشعر الحجلة أن عدوها سار فى إثرها مسافة طويلة ، وأن صغارها قد نجوا من شره اخترقت الفضاء بأجنحة قوية وجسم سليم واختفت عنه .

وطير النبّاح (Lapwing) يلجأ إلى مثل هذه الحيلة إلا أنه يتقن تمثيلها بطريقة تثير الإعجاب لأنه يجر فى أثناء حركاته جناحاً لا يشك الناظر إليه فى أنه مكسور ، فينخدع به العدو ، ويتوهم أن صيد الفريسة التى ظهرت أمامه أمر ميسور ، ولكنه يخفق

فى غرضه عند ما يكون قد ابتعد عن العش ، واختفت الأفراخ فى مكان أمين .

وربما كان صقر البحر (Skua) أمهر الطيور فى تنفيذ هذه الحيلة ، لأنه يظهر أمام عدوه بجناح مكسور ، ويبدو بحالة ضعف وألم وارتباك ، فيتدحرج على الحشائش ، ويتعثر فى مشيته ، ويسقط ثم يقوم مرة بعد أخرى كأنه قد فقد توازنه . ومثل هذا التمثيل المتقن لا يدع مجالاً للشك عند عدوه فى أنه سيفترسه فى أقرب وقت . وتظهر له استحالة ذلك عندما يكون قد ابتعد عن العش بمسافة كافية .

ولا شك أن الطيور التى تقوم بتمثيل دور الجناح المكسور تعرض نفسها أحياناً للخطر إذا كان عدوها سريع الجرى ، مدربا على القنص ، ولكنها تجازف بحياتها فى سبيل المحافظة على ذريتها . وهذه الغريزة التى أودعتها الطبيعة فى بعض الطيور تعتبر من الفضائل المحبوبة السامية وهى درس بليغ يتعلمه الانسان من الحيوان .

بانى السدود

الفأر والسنجاب وكلب الماء (Beaver) أنواع متباينة من فصيلة تسمى القوارض ، والأخير أكبرها حجماً ، إذ يبلغ طوله نحو ثلاث أقدام ، وقد حاربه الإنسان حتى كاد يقضى عليه ، لأنه يفتك بالأشجار فى الغابات . ومواطنه الآن مقصورة على كندا وغربى أمريكا وسيبريا وشرقى أوربا واسكندناوة ، وقد يرى فى نهرى الألب (Elbe) والرون (Rhone) .

وهو يحب الماء كثيراً ويقضى شطراً كبيراً من وقته فى السباحة والغوص ، وفى أثناء هذه الرياضة يسقط جفنه على عينيه ، وتسد أنفه ، وتتدلى أذنه الخارجية على فتحة حاسة السمع ، وبهذه الوسيلة التى كيفته بها الطبيعة لا يصل الماء إلى عينيه أو داخل أذنيه وأنفه .

ومن غريب أمره أنه يحب الماء ساكناً لا جارياً ، وذا عمق معين ، حتى إذا أقبل الشتاء وجمد الماء كان الجليد على السطح ، وبينه وبين قرار النهر مسافة ملائمة تمكنه من السباحة والاتصال

الدائم بمسكنه الذى يبنيه عادة وسط الماء بعيداً عن الذئاب والحيوانات المفترسة .

وإذا لم تتوافر فى الماء الشروط الضرورية لمعيشته سعى بنفسه إلى تحقيقها ، فيبنى سداً عبر النهر ليخفف من سرعته ، و يحجز أمامه كمية كبيرة من الماء ، و يتكون بذلك حوض عميق يقيم فيه مسكنه .

والمواد التى تلزم لبناء السد هى الأخشاب والحجارة والطين . ويحصل على الأخشاب من الأشجار التى يقطعها من جذورها بأسنانه الحادة القوية . والطريقة التى يتبعها فى ذلك هى أنه يعمد إلى شجرة عالية بجانب النهر ، ويحز فى ساقها بقرب الجذر أخدوداً على استدارة المحيط ، (شكل ١٨) و ينحته من الداخل جاعلاً فيه فجوة واسعة ، ثم يدخل فى هذه الفجوة ويستمر فى عملية النحت حتى يخيل للرائى أن الشجرة ستسقط عليه وتكتم أنفاسه ولـكنه أحرص من أن يعرض نفسه للأذى فبعد أن يصير موضع القطع فى الساق أشبه بمخروطين متقابلين فى الرأس وتستهدف الشجرة للسقوط يسرع مبتعداً عنها ، فتهوى فى النهر فى اتجاه يكاد يكون عمودياً عليه ، ثم يواصل عمله

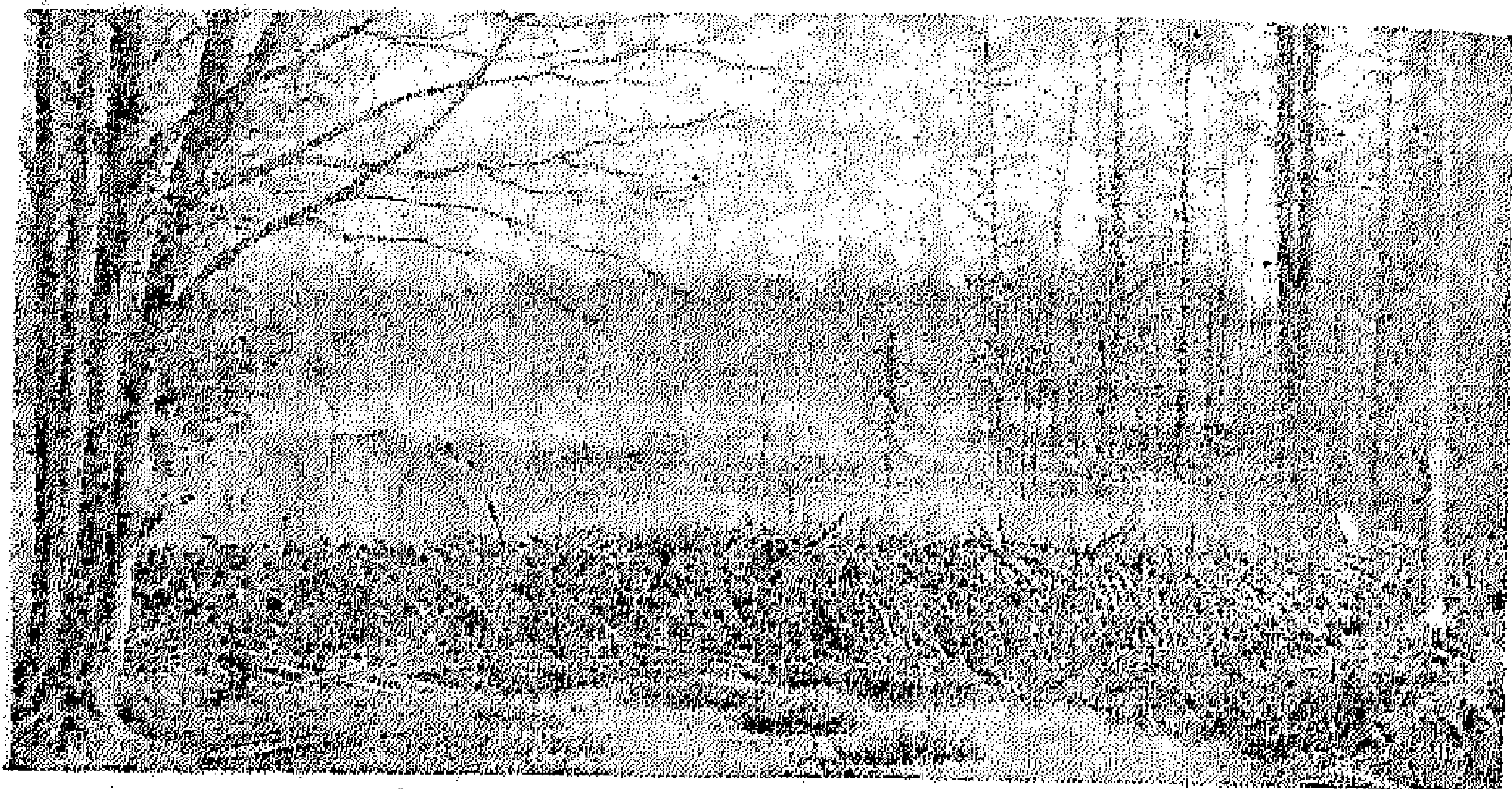
المهندسى ، فيجمع الأفرع حول الساق ، ويضع بينها كميات كبيرة من الحجارة والطين ، فتتماسك أجزاؤها وتصبح سداً يعوق جريان الماء ويرفع مستواه .



(شكل ١٨)

وإذا كان النهر واسعاً بحيث لا تكفى شجرة واحدة للامتداد بين جانبيه لجأ إلى حيلة أخرى، وأقام السد كله من قطع خشبية يكدسها فى الماء بعضها فوق بعض (شكل ١٩) . ويحصل على الخشب من الأشجار التى يقطعها بحيث تسقط على الأرض لا فى الماء ، و يفصل عنها الأفرع ، و ينزع عنها اللحاء ، ثم يقطعها إلى أجزاء يتراوح طولها بين ثلاث أقدام وست ، حسب قدرته على نقلها إلى الماء . وهو لا يحملها ولكنه يدحرجها بقدميه الأماميتين حافظاً اتزانه

فى أثناء ذلك بتثبيت ذيله العريض على الأرض .



(شكل ١٩)

وتستدعى إقامة السد قطع عدد كبير من الأشجار . وقد يكون موضعها بعيداً عن الماء ، ويستلزم نقل أجزائها مجهوداً شاقاً . وفى مثل هذه الحالة يحفر كلب الماء ترعة صغيرة تخرج من النهر ، وتصل إلى مكان قريب من الشجرة . ثم يدحرج القطع الخشبية حتى تسقط فى الترعة و ينزل وراءها فى الماء ويدفعها أمامه وهو سابح حتى يصل بها إلى موقع السد .

وبعد أن تتكدس أكوام الخشب فى النهر من جانب إلى آخر يلزم تقويتها بالطين والحجارة . وينقل الطين من الشاطئ

والحجارة من الغابات والصخور المجاورة ، وهو يحملها بين ذقنه وكفيه العريضتين . ويسهل عليه أن يحمل بهذه الطريقة حجراً ثقله ستة أرطال .

ويثابر كلب الماء على عمله المضنى الشاق حتى يكتمل بناء السد الذى قد يبلغ طوله أحياناً ربع ميل . وهو فى الغالب يبنيه مستقيما إلا إذا كانت سرعة الماء شديدة فإنه يجعله مقوساً ، بحيث يواجه سطحه المحدب اندفاع الماء فيقل الضغط الواقع عليه ولا يتهشم .

والسد لا يمنع تسرب الماء خلال فجواته الضيقة ، ولكنه يكون أشبه بصفاة تحجز وراءها كميات هائلة من الماء سطحها مرتفع إلى علو ملائم . وكمية الماء التى تنفذ من السد تكاد تكون مساوية لكمية الماء التى يجلبها التيار ، وبهذا يبقى ارتفاع الماء ثابتاً كما يريده كلب الماء .

وهنالك تعاون تام بين هذه الحيوانات ، إذ لا ينفرد أحدها بالعمل ، ولا يعتمد فرد منها على غيره ، فالأسرة تتكاتف بمجموعها فى قطع الأشجار وحمل الطين والحجارة وبناء السد وإقامة المسكن

ويبنى المسكن من نفس المواد التى تستخدم فى إقامة السد ويختار له موقع على السد نفسه ، أو فوق جزيرة فى حوض الماء

الناشىء من السد ، أو على حافة عالية فى الشاطىء . ويغطى سطحه الخارجى بالطين الذى يجمد ويتصلب وقت الشتاء . وتكون حظيرة النوم فوق سطح الماء لتصل إليها أشعة الشمس ، ويتخللها الهواء ، أما المخزن فيكون تحت سطح الماء وفيه توضع مؤنة الشتاء ، وهذه تكون عادة من أجزاء مختارة من أشجار الراتنج والصفصاف وبذور زنبقة الماء وأغصان بعض الأشجار الأخرى وقشورها .

وقد لايتسع المخزن لذخيرة الشتاء جميعها فى هذه الحالة يضع كلب الماء بعض الأغصان تحت الماء ، ويثبتها بالحجارة حتى لا تطفو بعيداً عن المسكن . وفى الشتاء لا يجمد الماء حولها نظراً لوجودها فى قاع الحوض بعيدة عن السطح ، ويستطيع كلب الماء أن يغوص تحت الجليد و يصل إليها ويحمل جانباً منها إلى مسكنه ليشبع جوعه .

و يبدأ بناء السد فى الخريف حتى إذا أقبل الشتاء اجتمع لدى كلب الماء بيت دفىء وغذاء موفور وماء هادىء عميق يتريض فيه سباحة وغوصاً . وفى الربيع والصيف عندما يذوب الجليد وتعتدل حرارة الجو وتجود الأرض بخيرها، يهجر كلب الماء مسكنه وتحلو له

معيشة الارتحال فيتنقل من مكان إلى آخر حيث يتوافر الخصب والغذاء المحبوب السهل المنال . وفى مبدأ الخريف يبدأ النشاط من جديد وتتخذ العدة لإقامة السد والمسكن ، وهكذا تتكرر الرواية فى كل عام .

والأعمال الهندسية التى يقوى هذا الحيوان الصغير على إنجازها غير مستعين بشيء من الوسائل إلا بأسنانه وكفيه أروع من أن تنسب إلى الغريزة وحدها فهذه تدفع بالحيوان في اتجاه معين ليسلك طريقة ثابتة لا تحوير فيها ولا تبديل . أما كلب الماء فيكيف أعماله تبعاً للظروف وطبيعة البيئة ، وتأتى ملائمة لها وموافقة لأحوال معيشته . ونحن لا ننصفه إذا جردناه من الإدراك أو أنكرنا عليه قسطاً من الذكاء . وهو فى تصميماته الهندسية أرقى من بعض الشعوب التى تعيش الآن على ظهر الأرض كسكان استراليا الأصليين الذين ما زالو هائمين فى الأدغال غير مسترشدين إلا بفطرتهم الأولى وطبائعهم الموروثة .

الصياد

إذا أردنا أن نضرب مثلاً للحيوان الذى اجتمعت فيه الصفات الضرورية للصيد فلن نذكر الأسد أو النمر أو الثعلب بل حيواناً صغير الجسم نحيفاً لا يزيد طوله عن عشرين سنتيمتراً ويعرف باسم « ابن عرس » . (Weasol) فهو أجرأ الحيوانات المفترسة وأقواها مثابرة على تتبع فريسته . يساعده على ذلك خفة حركاته وسرعة جريه وحدة حاسة الشم عنده .

إذا تملكته رغبة الصيد فَقَدَ كل مشاعره إلا ما كان منها لازماً لاقتناص فريسته . يشم من بعد رائحة الفأر فيتبعه ولو لم يره ويظل فى أثره متنقلاً من مكان إلى آخر مسترشداً بحاسة الشم وحدها . ويشعر الفأر بالعدو الذى يخطو وراءه فيرتجف خوفاً وفزعاً ، ويهرول مسرعاً محاولاً الابتعاد عنه ، وقد يدفعه الخوف إلى قطع الشارع من جانب إلى آخر فيتبعه ابن عرس بسرعة البرق ، وقد يصطدم فى أثناء ذلك بأقدام المارة معرضاً نفسه للخطر ، ولكنه لا يدرك ذلك ولا يهتم له لأن حواسه تتركز نحو غرض واحد لا تتعداه ، وهو القبض على فريسته.

وقد يلجأ الفأر إلى الحقول محاولاً الاختفاء بين المزروعات ، أو يدخل فى جحر مظلم تحت الأرض مهرولاً بين منحنياته ومنعطفاته ثم يخرج من منفذ آخر بعيد . ولكن هذه المحاولات لا تضلل غريمه الذى يتبعه كالقضاء المحتوم . وقد تختلط رائحة الفأر بروائح أخرى أثناء المطاردة ، ويلتبس الأمر على ابن عرس ، ولكنه يتغلب بسرعة على هذا الأمر المفاجىء فيدور دورة كاملة ليتميز الرائحة فى كل الاتجاهات ، ويدرك بعد ذلك الطريق الذى سلكه الفأر ، فيتبعه كظله ، وتقترب المسافة بين الاثنين شيئاً فشيئاً ، وتنتهى المطاردة بانقضاض ابن عرس على فريسته ، وما هى إلا لحظة قصيرة حتى تفارق الحياة ، لأنه يعضها فى رقبتها عضة واحدة يمزق بها وريداً كبيراً ثم يمتص دمها .

والصيد ظاهرة شائعة فى الطبيعة . فالنمر أو الأسد يصطاد الغزال وحمار الوحش . والثعلب يقتنص الأوز والدجاج . والحدأة تختطف الحمام وصغار الطير . والسمك الكبير يبتلع السمك الصغير . والعصفور يلتقط الدود من المزارع . والخفاش يلتهم الذباب ، والخطاف يأكل البعوض . وعالم الحيوان مسير بقانون طبيعى ثابت هو أن الحياة تعيش على الحياة . فلا غرابة أن

نرى الملايين من الحيوانات تصيد وتقتل غيرها وملايين أخرى تصاد وتقتل ، وقد يصيب الأولى ما يصيب الثانية فتقتل بدورها كأبى نقار مثلاً الذى يحلو له صيد السمك ولكنه لا يسلم من الافتراس إذا رغب فيه نسر أو طلبته حدأة .

وقد اعتدنا أن ننظر إلى الحيوانات المفترسة نظرة ازدراء وكراهية ونسمها بالقسوة، وهذه عاطفة كاذبة لأن النوع الإنسانى لم يسلم من غريزة سفك الدماء . والحقيقة أن الإنسان هو السفاح الأعظم لأنه يقتل كل يوم ملايين من الطير والماشية ليشبع بها جوعه . وهو لا يقنع بهذا لأنه كثيراً ما يلهو بصيد الأسماك والطيور والوحوش ويسمى هذا الميل للقتل وسفك الدماء بالرياضة البدنية .

ومن الخطأ أن نصف الحيوانات المفترسة بالقسوة لأنها تقتل لتعيش . وهى مدفوعة إلى الافتراس بعامل المحافظة على حياتها ، إذ لولاه لانقرضت من الوجود . وهى لا تقصد أن تقسو على فريستها أو تتعمد تعذيبها ، لأن حواسها تكون منصرفة نحو غرض واحد لا تحيد عنه ولا تفكر فى شىء سواه وهو القبض على الفريسة وهى تنسى نفسها أثناء المطاردة وقد تعرض نفسها

للخطر كما يحدث لابن عرس عند ما يخترق الشارع متتبعاً أثر الفأر .

وقد نرى القط يداعب الفأر قبل أن يقتله ، فنظن أنه يقصد تعذيبه ولكن هذا بعيد عن تفكير القط، فهو يلعب معه كما يلعب بكرة نرمى بها إليه .

ومن فضائل الحيوانات المفترسة أنها لا تقتل حبًّا فى القتل ، ولا تخرج للصيد إلا إذا دفعها الجوع إلى ذلك . فالثعلب مثلا يتتبع الدجاج أو الأوز ويختطف منه ما يكفى لإشباعه ، ومتى امتلأت معدته عاد إلى مخبئه مسرعاً ، وقد يصادفه فى الطريق أرنب برى فلا يلتفت إليه . والصقر إذا لم يكن جائعاً يلجأ إلى فرع شجرة ويقف عليه هادئاً ساكناً ، وتمر أمامه الطيور الصغيرة فلا يهتم بها وكذلك تفعل الحدأة والبومة .

وفى حديقة الحيوانات بالقاهرة رأى الزوار مرة حوضاً كبيراً به عدد من الثعابين الكبيرة التى تعيش فى الماء وقد وضع معها مئات من الضفادع الصغيرة . وكان المظنون أن تموت هذه الضفادع خوفاً وفزعاً ، أو أن تنقض عليها الثعابين فتقتلها جميعاً، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث إذ كانت الضفادع تلهو وتلعب

وتقفز وتسبح فى الماء غير هيابة ولا وجلة ، كأنها لا تشعر بوجود هذا العدو المخيف بقربها وكانت الثعابين تنساب فى الماء وخارجه لاهية عن غذائها الممتع الغزير الذى وضع عن كثب منها .

أليس فى كل هذه الشواهد ما يدل على أن غريزة الصيد لا تتحفز عند الحيوان إلا إذا عضه الجوع وأنه لا يقتل إرضاء لشهوة التعذيب أو القسوة أو التريض . وهل لنا أن نقول إن الحيوان المفترس أو الطير الجارح أفضل من الإنسان فى هذه الناحية العاطفية .

خاتمة

الغرائز التى صورناها فيما تقدم وغيرها مما يعرفه القارئ تجعل الحيوان مشتركا مع الإنسان فى كثير من صفاته . فالادخار من أظهر لوازم النحلة والنملة والسنجاب وبعض أنواع الفيران . والاقتصاد يتمثل بأجلى معانيه فى قرص العسل الذى تصنعه النحلة العاملة بأقل مقدار ممكن من الشمع ليسع أكبر حجم من العسل . والعطف على الأبناء يتضح فى دفاع الحيوان عن صغاره . حتى الأنواع الضخمة منه التى تظنها غليظة الكبد مجردة

عن الإحساس كوحيد القرن والحوت والفيل وفرس البحر تستميت فى حماية أبنائها حتى آخر رمق من حياتها . وعاطفة الشفقة على الغير ليست مفقودة فى الحيوان فبعض الطيور كأبى الحن و بلبل الحلفاء وأبيض العنق وأبى فصادة تعنى بتربية فرخ الكوكو الذى يفقس فى عشها وتثابر على تغذيته حتى يكتمل نموه بالرغم من أنه يعتدى على صغارها ويقتلها واحداً بعد الآخر . وحرص الحيوان يظهر فى قطيع الغزلان الذى لا ينزل فى واد خصيب قبل أن يرسل إليه فريقاً من الكشافة ليستطلعه و يتحقق من أنه مأمون . وكذلك فى جماعة الفيلة التى لا ترد الماء للشرب إلا بعد أن يتأكد قائدها من سلامة المكان وخلوه من الخطر و بعد أن يضع بنفسه الحراس فى أماكن مختلفة لتتفقده من جهاته الأربع عند ما تكون الجماعة منهمكة بشرب الماء . وتتضح مهارة الحيوان فى البيت الذى ينسجه العنكبوت بشكله الهندسى الجميل ، وفى السدود التى يقيمها كلب الماء عبر الأنهار ، وفى المساكن التى يشيدها بعض أنواع الأسماك فى قاع البحار . وتشاهد سعة الحيلة فى خديعة الجناح المكسور التى يمثلها بعض الطيور باتقان عجيب ويبعد بها العدو عن صغاره . وفى أشكال

المخابئ التى تحفرها بعض أنواع العناكب فتنجو بها من الخطر بعد أن تستهزئ بعدوها المطارد . والتطفل من صفات طير الكوكو البارزة لأنه لا يبنى عشاً لنفسه ، ويضع بيضه فى عشاش الطيور الأخرى لتحتضنه ثم تقوم بتنشئة صغاره ، وهو أيضاً من صفات ذكور النحل والديدان التى تعيش فى مسكن السرطان الناسك وتتغذى بما يجود به عليها . ودفاع الحيوان عن نفسه أمر طبيعى وهو لا يستخدم فيه إلا الوسائل التى هيأته بها الطبيعة كالمخالب أو الأنياب أو الحوافر أو القرون ، وقد يلجأ فيه إلى الحيلة فيتلون بلون الوسط الذى يحيط به كما تفعل الحرباء وحشرة العود ، أو يفر إلى مخبأ أعد للتغرير بالعدو كما تفعل بعض أنواع العناكب . والحيوان فى هذه الناحية يفضل الإنسان الذى ابتدع فى سبيل الدفاع عن نفسه وسائل جهنمية من شأنها أن تقضى على المدنية والعمران . وهى تحصد أرواح الأطفال والنساء والعجزة بلا شفقة ولا رحمة . وليس فيها مفخرة للنوع الإنسانى لأنها تدمغه بطابع القسوة والغلظة ، ولا نقول الوحشية لأن الوحوش لا تقترف مثل هذه الآثام . ولقد رأينا أن

نوبل* مخترع الديناميت ندم فى آخر حياته على ما صنعته يداه وأنبه ضميره فأوقف ريع ثروته الطائلة على جوائز سنوية تعطى لمن يتقدم بأحسن بحث علمى أو أدبى أو لمن يسعى بطريقة موفقة إلى نشر السلام بين الشعوب ، وقد يكون من سخرية القدر أن تعطى جائزة نوبل للسلام عن سنة ١٩٤٥ لمن ابتدع القنبلة الذرية . ومن ناحية النشاط الجثمانى نرى الحيوان أقدر من الإنسان . فأقوى العدائين مثلاً لا يقطع أكثر من عشرين ميلاً فى حين أن كلاب الإسكيمو تجر الزحافات مئات الأميال على الجليد . وسرعة الإنسان العادية فى المشى لا تتجاوز ستة أميال فى الساعة . مع أن متوسط سرعة طيران الطيور يزيد عن ستين ميلاً فى الساعة . ويستطيع بعض الطيور كخطاف

---

* الفرد برنارد نوبل (Alfred Bernard Nobel) كيميائى سويدى ومهندس . ولد سنة ١٨٣٣ ومات سنة ١٨٩٦ . اخترع الديناميت وجمع ثروة عظيمة من وراء إشرافه على صنعه وفى وصيته خصص ريع ثروته لخمس جوائز تعطى سنوياً لأحسن بحث فى (١) الطبيعة (٢) الكيمياء (٣) الفسيولوجيا أو الطب (٤) أدب اللغة (٥) الشخصية التى تنشر الإخاء والمحبة بين الشعوب وتسعى لإنقاص عدد الجيوش أو إلغائها وتعمل جاهدة لعقد مؤتمرات السلام . وقد بدئ بتوزيع الجوائز فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٠١ وهو يوم ذكرى وفاته . وتبلغ قيمة كل جائزة نحو ٨٠٠٠ جنيه

البحر أن يجتاز الكرة الأرضية على جناحيه من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى. ومتوسط ارتفاع الطيور فى الجو أثناء طيرانها ألف متر فوق سطح الأرض ولكن هناك طيوراً كالكركى (Crane) تتجاوز هذا الارتفاع إلى نحو ٥٠٠٠ متر. ويضرب المثل بنشاط النمل لأنه لو قدر للانسان أن يشتغل بمجهود النمل وبنسبة جسمه لتمكن بمفرده من أن يحفر قناة كقناة السويس، فى بضعة شهور.

والإنسان لا يدانى الحيوان فى قوة الاحتمال والصبر على المكاره. فهو لا يقوى على الجوع أكثر من أيام معدودات فى حين أن الثعابين والخفافيش تقضى الشتاء كله فى سبات عميق بدون أن تتذوق الطعام. وتدفن أنثى الدب الأبيض نفسها تحت الجليد طول الشتاء ولا تشعر بحاجتها للتغذية.

والصيد غريزة طبيعية فى الحيوانات آكلة اللحوم، وهى الوسيلة التى تحصل بها على قوتها، ولا تلجأ إليها إلا إذا عضها الجوع بنابه. أما الإنسان فيخرج للصيد فيقتل الوحوش الضارية والطيور الجارحة لا ليتغذى بلحومها ولكن ليرضى شهوة فيه يسميها الرياضه البدنية.

وقوة الذاكرة عند الحيوان ضعيفة جداً ولهذا فهو أسعد حظًا من الإنسان لأنه إذا حزن لفقد صغاره فلمدة وجيزة ثم ينساها . وإذا أدركه الخوف من عدو مفاجئ فللحظة التى يختبئ فيها أو يفر بعيداً عن الخطر ثم يطمئن ويزول عنه خوفه . وهو لا يفكر فى الموت ولا ينتظره ومثله فى ذلك مثل الطفل الصغير يعيش لساعته ولا يعرف للموت معنى .

« إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها » . والأمثلة التى سقناها عن الحيوان كفيلة برفع منزلته بين نفوسنا فليس من الإنصاف أن نحتقره أو نقسو عليه . ففيه خصال حميدة وفضائل قل أن يوجد لها نظير عند الإنسان الذى ثقفه التعليم وصقلته المدنية .

اقرأ

أول سلسلة من الكتاب الشهيرة تبث رسالة الفكر بين الجمهور وتشجعه على المطالعة المهذبة المفيدة .

آراء بعض كبار الأدباء :

- « مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر فى تغذية الأدب والثقافة » . . .

- « زاد فكرى فى مختلف أبواب العلم والأدب يستسيغه الجمهور وترضى عنه الخاصة » . . .

- « هذه السلسلة جهد فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات » . . .

احرصوا على الاحتفاظ بهذه المجموعة كاملة فهي ذخر ثقافى قليل النفقة كبير الفائدة وقد تكون فى كل منزل نواة لإنشاء مكتبة يستفيد منها الشيوخ والشباب .

الثمن بالنسخة

مصر	٥٠ مليما	سوريا ولبنان	٦٠ غرشا
السودان	٥٠ مليما	العراق	٦٠ فلسا

فلسطين وشرق الأردن ٦٠ ملا

اقرأ

المؤلفات التي ظهرت في سنتها الرابعة (١٩٤٦)

يظهر في أول ديسمبر سنة ١٩٤٦
الكتاب رقم ٤٩ وعنوانه

« بين البحر والصحراء »

بقلم الأستاذ شفيق جبرى بدمشق

مطبوعات حديثة

مـ		
٢٥	على هامش السيرة ثالث	للدكتور طه حسين بك
٢٠	دعاء الكروان	« « « «
٢٠	كرم على درب	للأستاذ ميخائيل نعيمة
١٢٠	تاريخ أوروبا في العصر الحديث	تأليف الأستاذ هـ . ا . ل . فشر تعريب الأستاذين أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع
٢٥	زنوبيا	للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك
٢٥	حركة الترجمة بمصر	للأستاذ جاك تاجر
٢٠	ترجمة الإمام أحمد	للأستاذ أحمد محمد شاكر
٥٠	عودة الروح أول وثان	للأستاذ توفيق الحكيم
٢٠	مجلة علم النفس	عدد أكتوبر ١٩٤٦

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مكتبة الأطفال

للمربى الكبير الأستاذ كامل كيلانى

مجموعة نفيسة تحتوى على أكثر من خمسين كتاباً مصوراً . وقد فازت بإعجاب رجال التربية والتعليم وبرضى الجمهور واستحسانه فى جميع البلاد العربية . وفيما يلى نخبة من آراء حضرات أصحاب الرفعة والمعالى والسعادة وزراء المعارف مرتبة أسماؤهم على الحروف الهجائية :

« ... وهكذا نجحت – يا أستاذ — فى أن تحبب إلى الأطفال مكتبتهم وتغريهم بالمطالعة ... »

أحمد لطفى السيد باشا .

« ... ولئن أدرك الأطفال — برياض الأطفال — مراداً بعيداً ، لقد فتحت لهم – بمكتبة الأطفال — فتحاً جديداً : أدركت أرب نفوسهم ، وأبدلتهم أنساً من عبوسهم ، وهجت للمعالى أشواقهم ، وحسنت لغتهم وأخلاقهم ... »

أحمد نجيب الهلالى باشا .

« ... والأستاذ الكيلانى — منشئ مكتبة الأطفال — أديب عالمى جدير بما يهدف إليه من نبيل الأغراض ... »

جعفر ولى باشا

« ... وإنه ليسرنى — إذ أتابع مع التقدير هذا الجهد العلمى المتواصل أن ألاحظ مقدار العناية التى تبذلونها فى هذا السبيل، والفائدة التى تعود على النشء منه، بتهيئة أذهان الأطفال وعقولهم لتقبل خير

الأفكار والمعاني ، وتقديمها لهم على مثل هذه الصورة الطريفة ... »

علي ماهر باشا

« ... فالله يكافئك على ما قدمته للعربية من روائع أدب ، تضيف إلى كنوزها كنوزاً ... »

محمد العشماوى باشا

« ... وإنى — وقد تتبعت هذا المجهود القيم المتصل — لا يسعنى إلا الإعجاب بما تساهمون به فى سد نقص يشعر به الآباء فى تعليم أطفالهم. »

محمد بهى الدين بركات باشا

« ... فشكر الله لك ما هدفت إليه من تنشئة الطفل : مشبوب الشغف بالقراءة والدرس ، موفور الحظ من متاع الفكر ، مستقيم اللسان على نهج البيان ... »

محمد توفيق رفعت باشا

« ... فهى تتمشى مع طباع الطفل الشرقى وغرائزه حتى يترعرع، وتجعل الحلقة متصلة بين المدرسة والبيت فى قصص مناسبة متماسكة مع نفسية الطفل وعقليته وبيئته وما يهوى سماعه أو يميل لوعيه ، بأسلوب صحيح فصيح ، إذا حفظه الصبى صغيراً نفعه كبيراً ... »

محمد حلمى عيسى باشا

« ... ومن ثم يشب الطفل ، وقد صحت ملكته ، وأشربت الفصحى فكرته ... »

محمد على علوبة باشا

تظهر قريباً

القصص الملونة الأولى

من مجموعة

روضة الطفل

أول سلسلة من نوعها فى مكتبة الطفل

قصص مشوقة مفيدة

صور مبتكرة حية

ألوان جذابة زاهية

تصدرها

دار المعارف بمصر

بمعاونة لجنة من كبار المربين

السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطب

مؤلفات الأستاذ أحمد الصاوى محمد

مدرسة النبوغ

ص		
٢٥	التلميذة الخالدة	(حياة مدام كورى)
٢٥	حياة بلزاك	(القصصى الأعظم)
٢٥	حياة شللى	(قبور فى جنة الخلد)
٢٥	حياة بيرون	(دون جوان)
٢٥	عرش وقلب	(لويس الرابع عشر)

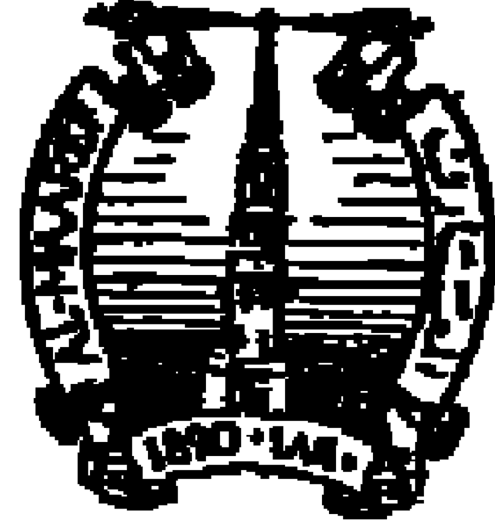
مدرسة المجتمع

٢٠	شباب الفولجا
٢٠	جرائم شرقية وغربية
٢٠	العاصية
٢٠	الموجة العذراء
٢٠	حياة قلب
٢٥	رجال ونساء ١
٢٥	« « ٢
٢٥	أنا الشرق
٢٥	الشيطان لعبته المرأة

مدرسة السياسة والحرب

ص	
٢٠	مأساة فرنسا
٢٠	أسرار انهيار أوروبا
٢٠	الرقص على البارود
٢٠	الطابور الأول
٢٠	الوحش الأصفر والدب الأحمر

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



دار المعارف

للطباعة والنشر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

المحل الرئيسى بالقاهرة	:	٧٠ شارع الفجالة
فرع الاسكندرية	:	٢ ميدان محمد على
مكتب السودان	:	شارع السردار بالخرطوم
مكتب فلسطين وشرق الأردن	:	شارع مأمن الله بالقدس
مكتب لبنان وسوريا	:	شارع المعرض بيروت

اقرأ

شفيق جبري

بين البحر والصحراء

بين البحر والصحراء

شفيق جبري

بين البحر والصحراء

اقرأ ٤٩

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٤٩ — ديسمبر سنة ١٩٤٦



فاتحة القول

فى صحارى جزيرة العرب نبتت أصول لغتنا التى حفظت لنا مبادئ ذوق العرب وحسهم وشعورهم وعاطفتهم وفكرهم ؛ وما زالت هذه اللغة تدرج من بدو إلى حضر حتى بلغت أمواج بحر الروم ، فدفعت إليها هذه الأمواج ما تحمله من فلسفات وعلوم.

فهل أستطيع فى هذا الكتاب أن أتنقل بالقارئ الكريم بين البحر والصحراء فنتمتع بقليل من مشاهدهما الفنية والفكرية : حس الطبيعة ، الأدب النفسى ، الأدب الوطنى ، فنوازن ولو موازنة يسيرة بين هذه المشاهد المختلفة ، فإذا استطعت شيئاً من ذلك فقد بلغت ما أريد ؛ أما الذى أريده فهو ليس بشئ أكثر من أن يظل أدبنا على تراخى الأحقاب ملء الذهن والقلب والنفس .

نزهة فى جزيرة العرب

من كلام بعض الإفرنجة : « حب الماضى مولود فى الرجل ، وإذا بحثنا عن السبب الذى من أجله يتلفت خيال البشر بأجمعه ، الزاهى منه والذابل ، الكئيب والفرح ، عن الحاضر إلى الماضى ، وينبسط إلى الخوض فيه ؛ وجدنا أن الماضى إنما هو نزهتنا الوحيدة ، والمكان الفرد الذى نستطيع فيه الإفلات من مضاجرنا ومن آلامنا ، ومن أنفسنا ».

فما أكثر المضاجر والآلام فى يوم مثل يومنا ! وما أمس حاجتنا إلى الهرب مما يقلق أنفسنا ويؤلمها بعد حرب ما عرف البشر نظيرها فى تاريخهم ، فلنجتهد فى التفتيش عن بقعة من ماضينا نعيش فيها ساعة من الزمن ، لعلنا نجد فى هذه البقعة عبرة لنا أو فرجة أو فائدة . وأظن أن أفضل بقعة نفزع إليها إنما هى البقعة التى انحدرت إلينا من أفيائها عروبيتنا ولغتنا وأدبنا ، فلنسرح فى صحارى الذين أورثونا هذه العروبية وهذه اللغة وهذا الأدب ، ولنتمتع من طبيعة هذه الصحارى فلعلنا نستريح من

حضارة غلب العلم فيها على الأخلاق ، فكانت غلبته سبباً فى فناء الناس وتهديم المدن وتقسية القلوب !

***

كتب لى فى سنة ١٩٣٥ أن أضرب فى منازل بنى تميم فى نجد وهى الدهناء ، وأن أبيت — فى ليلة من ليالى الشتاء الراعبة — على جوانب الزبيدية ، وهى بركة بين بغداد ومكة ، وأن أفترش ذراعى فى ظلام الليل على مقربة من جبلى طيء وهما : أجأ وسلمى . لقد ضربت فى طائفة من قفار جزيرة العرب ، ورأت عينى صفات هذه القفار فى الاتساع والاستواء والبعد والغلظ والصلابة والسهولة والارتفاع والانخفاض وغيرها من الصفات ، فأحطت بعض الإحاطة بيسير من رمال الجزيرة وجبالها وترابها وغبارها ورياحها وآبارها وبرقها ورعدها ومطرها ونباتها ، فما كدت أخرج من سواد العراق ، من ظلال هذه النخل الباسقات على ضفاف دجلة والفرات حتى انقطعت عن كل حضارة وعن كل عمران ، فلم أر إلاّ وحشة فى الأرض والسماء ، ولئن كنت عاجزاً عن تصوير هذه الوحشة فلم يعجز « بوفون » عن هذا التصوير ، فقد قال فى وصف صحارى البتراء : « تصوّر

بلداً لا خضرة فيه ولا ماء ، وشمساً محرقة ، وسماء مُجْهِمة ، وسهولا من رمال ، وجبالاً جرداً تقع عليها العين و يضيع فيها البصر من دون أن يرى أى شئ حى ، وأرضاً ميتة عرّتها الرياح لا تجد فيها إلا عظاماً وحصىً مبعثراً وصخراً منتصباً أو مقلوباً وقفراً مكشوفاً لا يتنفس فيه المسافر تحت ظل من الظلال ولا يصحبه فيه إلا ظله وحده ، لا شئ يذكّره الطبيعة الحية ، عزلة تامة أرهب من وحشة الغابات ، فالغابات لا تخلو من الأنس لأنها مخلوق من المخلوقات ، فالإنسان يرى نفسه فى هذه الصحارى وحيداً منعزلاً مجرداً تائهاً فى مواضع خالية لا حدود لها ، ينظر إلى الفضاء وكأن هذا الفضاء قبره ، إذا أضاءت الشمس كان ضياؤها أكأب من ظلمة الليل فلا يمتد هذا الضياء إلا ليضئ عُرْىَ الرجل وعجزه ، أو ليذكره هول حاله إذا بسط لعينيه عظمة المسافات التى تفصله عن الأرض المأهولة ، وهى مسافات يحاول عبثاً أن يقطعها لأن الجوع والعطش والحر يجعله فى كل مسافة منها واقفاً بين اليأس والموت ! » .

هذه الصورة الناطقة تكاد تكون صورة صحارى جزيرة العرب بمجامعها ، وعلى الرغم من هذا كله فقد رزقت العرب ما نسميه

فى هذا العصر : حس الطبيعة ، فتغنى شعراء جاهليتها بمحاسن أرضهم وسمائهم ، فانبثق نور من ظلام براريها وخرج مرح من عبوس آفاقها وتدفق بشر من تجهم سمائها وجاء خصب من جدب أرضها .

حسنُ الطبيعة

١

فى الجاهلية

إذا كان يتعذر علىّ فى فصل مثل هذا الفصل أن أستقصى فى ذكر الشعراء الذين حسُّوا الطبيعة فى الجاهلية وشعروا بفتنتها، فلا يتعذر علىّ أن أضرب بعض أمثال لهذا الحس والشعور. لم يجمد امرؤ القيس فى مشاهد الطبيعة، فإذا تحرك البرق فى السماء فتحركه فى شعره يحكى تحرك اليدين، وإذا أضاء فضوءه يحكى ضوء مصباح الراهب إذا أُفعم صَبُّ الزيت عليه، ففى مشاهد مثل هذه المشاهد يهتز امرؤ القيس فيدعو أصحابه إلى مشاركته فى هذا الاهتزاز، يدعوهم إلى أن ينظروا إلى السحاب وأن يرقبوا مطره ويشيموا برقه ويتأملوا عظم السحاب وغزارته وعموم جوده، ثم لا نراه يغفل عن فعل السحاب فى الأرض. ما هو هذا الفعل؟ ينصبّ سيل هذا الغيث من الجبال والآكام فيقلع الشجر العظام، ثم ينزل الأوعال العُصْم من الجبال من

شدة وقع مطره عليها وفرط انصبابه ، ثم لا يترك هذا الغيث شيئاً من جذوع النخل أو من القصور والأبنية إلاّ ما كان منها مرفوعاً بالصخور أو مجصّصاً، وقد يجد امرؤ القيس أن هذه الصّور غير ناطقة ، فينفخ فى السحاب بعض الروح ، فيرى أن الجبل الذى ينزل المطر عليه مثل سيّد قوم قد تلفف بكساء مخطط أو مثل أكمة تشبه لما أحاط بها من أغثاء السيل فلكة مغزل، ثم يمعن فى هذا الضرب من التصوير ، فكأن المطر فى نزوله تاجر يمانٍ وكأن أصناف النبات الناشئة عن هذا المطر أنواع من الثياب التى ينشرها هذا التاجر عند عرضها على البيع . وبعد أن يفرغ من الإشارة إلى آثار المطر فى الجماد والنبات يشرع فى وصف آثاره فى الحيوان فكأن المكاكى قد سقيت بعد هذا المطر سلافاً من رحيق مفلفل فى الأودية التى نزل المطر فيها لحدة ألسنتها وتتابع أصواتها ونشاطها فى تغريدها ، وإذا ترك الطير انتقل إلى السباع فكأن هذه السباع حين غرقت فى سيول المطر أصول البصل البرى لتلطخها بالطين والماء الكدر .

وكما لم يخلِ شعر امرىء القيس من حسّ الطبيعة فكذلك لم يخل شعر لبيد من هذا الحس ، فقد تغنى لبيد بديارٍ ودمن

رزقت أمطار الأنواء الربيعية فأمرعت وأعشبت لترادف الأمطار المختلفة عليها ؛ فمن هذه الأمطار مطر سحابة سارية ، ومنها مطر سحاب غاد يلبس آفاق السماء بكثافته وتراكمه، ومنها مطر سحابة عشية تتجاوب أصواتها . ماذا فعلت هذه الأمطار فى الأرض ؟ لقد أخرجت ضروباً من النبت وأصبحت الظباء والنعام ذوات أطفال بجانبي الديار التى تغنى بها لبيد ، ثم كشفت السيول عن أطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التراب إياها ، فكأن هذه الديار كتب تجدد الأقلام كتابتها !

أما عنترة فبعد أن شبه طيب نكهة حبيبته بطيب روضة ناضرة لم ترع ولم يصبها سرجين ينقص طيب ريحها ولا وطئتها دواب تنقص نضرتها أخذ يصور السحابة التى مطرت على هذه الروضة ، فقد مطرت عليها كل سحابة سابغة المطر لا برد معها ، أو كل مطر يدوم أياما ويكثر ماؤه حتى تركت كل حفرة كالدرهم لاستدارتها بالماء وبياض مائها وصفائه ، وفى كل عشية يجرى عليها ماء السحاب ولم ينقطع عنها ، وقد حل الذباب بهذه الروضة فلا يزايلها ويصوت تصويت شارب الخمر حين رجع صوته بالغناء ، وهو يصوّت حال حكه إحدى ذراعيه

بالأخرى مثل قدح رجل ناقص اليد قد أقبل على قدح النار .

***

هذه نماذج مختلفة من حسّ الطبيعة فى شعر الجاهلية ، ولقد رأينا فى نزهتنا فى جزيرة العرب قحط الأرض وعبوس السماء ، فإذا كان تصوير المطر أبرز شىء فى حس الطبيعة فى الجاهلية فالسبب في هذا عظم منزلة المطر والنبات فى الصحارى . على هذا المطر وهذا النبات تتوقف حياة القبائل والمواشى ، فعلى الرغم من موت الطبيعة فى صحارى الجاهلية كانت هذه الطبيعة مادّة وحى للشعراء . و إذا رجعنا من نزهتنا فى جزيرة العرب بنتيجة من النتائج فإنّا نرجع بالنتيجة الآتية : لقــد أعطى العرب جزيرتهم أكثر مما أعطتهم ، أعطتهم الشيح والقيصوم والسور والسلم والعرفج والرند والعرار فجعلوا من هذا النبات فى شعرهم ما يشبه الحدائق الغلب حتى يقول كل واحد منا فى نفسه : كيف ينشأ حس الطبيعة فى صحارى جزيرة تظهر آثار الموت على كل ناحية من نواحيها !

٢
فى القرآن

والقرآن نفسه لم يكن بعيداً عن حسّ الطبيعة ، أفلا نذكر الآيات التى تشير إلى انفطار السماء وانشقاقها وإلى انتثار الكواكب وانكدار النجوم وتكوير الشموس وتفجير البحار وتسيير الجبال ونسفها وعسعسة الليل وتنفس الصبح وعصف الريح الصرصر العاتية وإلى السدر المخضود والطلح المنضود والظل الممدود والماء المسكوب والسحاب المركوم والبحر المسجور .

وزيادة على هذا كله كان القرآن الكريم يدعو الناس إلى الطبيعة ، فمرّة يدعوهم إلى سمائها : «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزينّاها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد» .

ومرّة يدعوهم إلى حدائقها : « وهو الذى أنزل من السماء ماء

فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبًا
متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب
والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر
وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

٣

بركة البحترى وبحيرة « لامارتين »

إلاَّ أنَّا إذا أردنا أن نلمس حسّ الطبيعة فى أدبنا وأن نوازن بينه وبين بعض حس الطبيعة فى أدب الإفرنجة لزمنا أن نبعد قليلاً عن صحارى الجاهلية وأن نجعل نزهتنا فى قصور بنى العبَّاس وعلى شواطئ البحيرات وفوق عباب البحار بين عصف الرياح وضجيج الموج ، فإنا نرى فى نزهتنا الجديدة أن حس الطبيعة قد دخل فى طور غير طوره الأول ، فبدلا من أن نشم فى الشعر رائحة شيح الصحراء وقيصومها فإنا نشم روائح الورد والنرجس والآس وغيرها، وبدلا من أن نصعد فى جبال من رمال فإنا نشق جبالا من الأمواج ، وليس من الضرورى أن أذكر فى هذا المقام كثيراً من الشعراء الذين أفرغوا حس الطبيعة فى شعرهم فى قوالب تختلف عن قوالب امرئ القيس ولبيد وعنترة ، وإنما أجتزئ بعرض أنماط من أقوالهم لعلنا نهتدى إلى يسير من الفرق بين أدبنا فى هذا الباب وبين الأدب المنحدر إلينا من وراء البحار .

فلنسرع إلى حدائق البحترى وإلى بركته وبحيرة «لامارتين» .

أنس أبو عبادة البحترى بكل منظر من مناظر الطبيعة فتغنى بالربيع وهو ينمنم وشى حلتها الخضراء وبالخريف وهو ينسج لها حليتها الصفراء واستوفت عينه حظًّا من رباها وقد صبغها الليل بلونه الأسود ومن آفاقها وقد اختضبت بالصباح الورد وتملّت أذنه قبسَمها من هديل حمامها وحفيف ورقها وضجيج بحرها وزجل رعدها ، وأخذ أنفه نصيبه من نرجسها وودها وآسها وزعفرانها وأقحوانها ، فقد ملأ شعره من كل جزء من أجزائها ، من ذهب شمسها وفضة مائها ومن ركام ثلجها على الجبال واندفاقِ غيثها فى غداة مخضلة أو عشى مبتل .

لقد صقلت خياله نواح كثيرة فى هذه الطبيعة فما فتح عينيه فى صباه حتى رأى بلدته منبج ، فتمتع من طيب هوائها وعذوبة مائها ورقة نسيمها وصحة تربتها ، وما نشأ وترعرع حتى سرح فى أهاضيب لبنان وغوطة دمشق وبساتين حلب وجنات الساجور ونخيل العراق ، وعكف على قصور بنى العباس كالجعفرى والصبيح والمليح ، فتكامل خياله فى أفياء حيطان من زجاج وسقوف من ذهب وبرك من رخام ، فنشأت عن هـذا كله بينه وبين الطبيعة صلة محكمة ، فقد فهم لغتها وألحانها وعرف وجوهها

وألوانها ، فكان شعره قطعة من هذه الطبيعة .

كان يلجأ إلى الطبيعة فى كل حال يفتش فيها عن صورة من صور أحبته ، فلا يستلهمها لوناً من الألوان إلا ألهمته إياه ، ولا يستوحيها إلا أوحت إليه ، فكان لا يرى ضحك الأقاحي إلا رأى وراء هذا الضحك رضاباً بروداً ، وكان لا يرى جنوح الشمس للأصيل إلا رأى فى أضعافها جنوح حبيبته لو شك بعد أو فراق ، وكان لا يرى تعطف أملود البان إلا رأى فى ظلاله ميل هذه الحبيبة إلى العناق ، وما كان يبدو له صحن العراق وتكشف له سجوف الدجى عن ماء العراق ونخيله ويهدل الحمام في جنباته إلا ذكرته هذه المشاهد كلها أحبابه .

لقد غمره حب الطبيعة لأنها تشتمل على صور ترضى عينيه وأنفه وأذنه ، فلولا هذا التناسق بينه وبين الطبيعة لما وجد لها معنى من المعانى ، فأى معنى لتنفس الروض فى جنح بارد من الليل لو لم يذكره هذا الروض أنفاس أحبته ! وأى معنى لترقرق الندي فوق الشقائق لو لم تحمل هذه الشقائق دموع التصابى فى خدود الأحباب ! وأى معنى للمعان البرق لو لم يكن هذا اللمعان ابتسامة من الابتسامات !

على أنه كان ينفصل فى بعض الأحايين عن حرّاسه فلا يريد أن يرى فى الطبيعة صوراً تهز هذه الحواسّ ، وإنما كان يريد أن يرى لها حياة مستقلة ومزاجاً منفرداً ، فإذا رأى الربيع رأى له وجهاً يضحك ولساناً ينطق، وإذا رأى النوروز فى غلس الدجى رأى ورداً نائماً ينبهه هذا النوروز، وإذا رأى برد الندى رأى وراءه صدراً ضيقاً يحمل الحديث فلا يلبث أن ينث هذا الحديث المكتم .

غير أنه سرعان ما يعود إلى عادته من الاتصال بالطبيعة فينكر عليها الاستقلال بالحياة ولا يرى فيها إلا صور أحبته ، فلا تتعطف أشجار قصر من قصور الخليفة إلا كان هذا التعطف صورة مشى العذارى فى عشية من العشايا .

ولم يقتصر على التعلق بالطبيعة لأن فى كل جزء من أجزائها صورة أحبته وإنما تعلق بها لأنها تمثل له أشكالاً يفتقر إليها فنه ، فلما أشبعت هذه الطبيعة مجامع حواسه ، فقد أروت طائفة من فنّه ، فكان لا يرى حيطاناً من الزجاج فى قصر من قصور بنى العبّاس إلا مثلت له هذه الحيطان لجج البحر وهى تموج على الساحل ، وكان لا يرى تفويف الرخام فى هذا القصر إلا رأى

فى هذا التفويف حبك الغمام وقد رصفن بين ألوان متفاوتة وأشكال متباينة وكان لا يرى الذهب الصقيل الذى لبسته السقوف إلا رأى نوراً يضىء على الظلام ، فكانت الطبيعة مادة حسه ومادة فنه ، فألهمت هذا الحس ضروب الاهتزازات والابتسامات والتعطفات وألقت على هذا الفن حَليَها وحلاها ووشيها وديباجها .

ولكن الطبيعة أفسح من أن تكون مستودعاً لا يرى فيه الشاعر إلا صورة اعتدال القد واهتزاز الخصر وابتسام الثغر ، أوصورة سقوف من ذهب أو حيطان من زجاج، فلم يصل البحترى شعوره بالطبيعة وإنما وصل بها حواسه ، فاتصل بها من ناحية المادة وانفصل عنها من ناحية الروح ، وإذا تداعى الحمام فى بعض الأحايين وبعث هذا الحمام فى قلبه كمين الأسى وصل البحترى دمعه بنوح الحمام ولكن قلبه بقى محجوباً عن الطبيعة ، وقد يزيد الغمام حيناً فى شوقه ويهيجه زجل الرواعد تحت الليل ولكنه كان لا يناجى هذا الغمام ولا يناغى هذه الرواعد ، فلم يقاسم الطبيعة همومها ولم تقاسمه همومه ، ولم يشركها فى أفراحها ولم تشركه فى أفراحه ، وإذا أردنا أن نعرف كيف نألف الطبيعة

وكيف يألفها الإفرنجة وجب علينا أن نقارن بين يسير من نظراتنا ونظراتهم إليها .

وقف البحترى على بركة الجعفرى قرب « سرَّ من رأى » فعدَّ هذه البركة واحدة وعد البحر ثانيها فى العظمة ، فماذا رأى على أحفّة هذه البركة؟ رأى دجلة فى جوانبها وهى غَيْرَى تنافسها فى الحسن طوراً وتباهيها طوراً ورأى جنّ سليمان قد أبدعوها وأدقوا فى معانيها ، ورأى ماءها وكأنه الفضة البيضاء تسيل من سبائكها ورأى الصبا تعلوها فتبدى لها حبكاً مثل الجواشن قد صقلت حواشيها ورأى الشمس تضاحكها والغيث يباكيها ورأى سماء ركبت فيها من النجوم ورياضاً تحيط بها كأنها ريش الطواويس !

كل هذا حسن ! وكل هذا يلهى العين والأذن ؛ ولكن أفلا نجد على صفحات الماء إلا صوراً مادية ، أفلا يكون للقلب نصيب واف من فيض شعوره على هذا الماء !

وقف البحترى وقفته هذه ووقف بعض شعراء الإفرنجة على البحيرات ، فهل تشبه وقفة « لامارتين » على بحيرته وقفة البحترى على بركته ، إنى لا أحفظ إلا قليلاً من شعر « لامارتين »

فى بحيرته ، ولكن هذا القليل كاف على ما أعتقد فى بيان مبلغ فهمنا للطبيعة وفهم الإفرنجة لها .

ما الذى يهم « لامارتين » فى نزهته على بحيرة « بورجه » مع حبيبته « إلفير » ؟ إن الذى يهمه إنما هو أن تذكر هذه البحيرة أن « لامارتين » كان يجدف أمواهها مع حبيبته فى شىء من الصمت والهدوء وأن الآذان كانت لا تسمع على وجه الماء وتحت السماء إلا جَلَبة المجاديف التى كانت تصدم متناسق الأمواج ، ماذا كان يسمع «لامارتين» على هذه البحيرة ؟ كان يسمع أصواتاً تجهلها الأرض ، تأتى من ساحل البحيرة فتشق الأمواه ، كان يسمع أصواتاً يصغى الموج إليها كل الإصغاء ، ماذا فى هذه الأصوات ؟ فيها خطاب للأزمان والساعات ، فكأنها تطلب إليها أن تخفف سيرها ، وأن تفسح للامارتين فى التمكن من ذوق اللذات السريعة التى تحملها أيامه الحسنة ، ماذا كان يرى «لامارتين» على هذه البحيرة ، كان يرى صخرات خرساً وغابة مظلمة ، فكان يطلب إلى هذه البحيرة وإلى هذه الصخرات وإلى هذه الشجرات التى يبقى عليها الزمن أو يجدّد لها شبابها ، كان يطلب إليها وإلى الطبيعة الحسنة أن تحتفظ بذكرى هذا اليوم

الطيّب الذى قضاه مع حبيبته على وجه الماء !

نفخ « لامارتين » روحاً فى الطبيعة من عنده وأشركها فى آلامه وأحلامه ، فوصل بها كل ناحية من نواحى قلبه ، كان يجد فى هذه الطبيعة معبداً ، يسمع فيه على عزلته وعلى هدوئه أصواتاً تعلمه بما عند الله ، فالذى يجده فى الطبيعة إنما هو الرفق والهدوء والتناسق ، أى كل ما يبسط القلب ويرقّقه ، وكل ما يحمل النفس على طول التأمل والأحلام ، أمّا البحترى فلم يجد فى الطبيعة إلا ما يسرُّ الأذن والعين والأنف !

على أى شىء يشتمل شعر التأملات ؟ لقد شغلت المرأة التى أحبها « لامارتين » قلبه فى كل هذا الشعر ، فإذا طلع القمر كان لا يجد فى ضوء هذا القمر إلا أرواح الموتى التى انحدرت إليه بأحاديثها ، وإذا نزل الوادى الذى قضى فى ظلاله ميعة صباه كان لا ينزله إلا ليريح نفسه الألمية التى لم يبق فيها إلا الحب وحده ، وإذا تنزه على بحيرة « بورجه » مع حبيبته التى فقدها طلب إلى هذه البحيرة أن تحتفظ بذكرى سعادته السريعة ، وإذا طلع عليه الخريف وأضاءت هذا الخريف شمس مُمْتقعة عاد « لامارتين » إلى التلهف على الحياة وقد استعدَّ للموت ،

وهكذا شأنه فى بقية أشعاره التى مزج فيها روحه بالطبيعة ، وفى شعر النجوم أعار هذه النجوم روحاً من عنده ، وعدّ نفسه نجماً يلهم الناس الخير ، ويعزيهم : أيتها الشموس ! أيتها العوالم التائهة : قولى لنا أقال لك شيئاً ؟ أقال لك إلى أين نحن ذاهبون ؟

وفى شعر نبع الغابات نرى أن خرير الماء قد ولد فى ذهنه أفكاراً تشيع فيها التقوى والماليخولياء !

٤

بحيرة المتنبئ

إذا كان البحترى لم يستطع أن يصل — فى نزهتنا على جوانب بركة الجعفرى فى « سرّ من رأى » — نفوسنا بموج هذه البركة كما وصل بها حواسنا فلننتقل إلى سواحل بحيرة طبرية فلعلّ المتنبئ يعوّضنا فى أمواج بحيرات فلسطين ممّا فاتنا من اللذّة الروحية فى أمواج برَك العراق !.

قدم المتنبئ طبرية وضرب بعينيه على شواطئ بحيرتها ، فماذا رأى فى هذه البحيرة ، قال يخاطب علىّ بن إبراهيم التنوخى:

لولاك لم أترك البحيرة والغوْ ... رُ دفئ وماؤهـــا شَبِم
والموج مثل الفحول مزبدةً ... تهدر فيها وما بهـا قطم
والطير فوق الحباب تحسبها ... فرسان بُلقٍ تخونها اللُجم
كأنّها والرياح تضربهـا ... جيشا وغى : هازم ومنهزم
كأنّهـا فى نهارها قمـر ... حفّ به من جِنانها ظُلَم
تغنّت الطير فى جوانبها ... وجادت الأرضَ حولها الديمُ
فهى كماويّةٍ مطوّقةٍ ... جُرّد عنها غشاؤها الأدَم

لم ير المتنبئ من وجه الطبيعة على سواحل البحيرة إلاّ غوراً دفيئاً وماء بارداً، ولم ير من هذا الماء إلاّ موجاً هادراً، ولم ير فوق هذا الموج إلاّ الطير والرياح؛ فلا تكاد صور الجيش تفارق ذهنه لنشأته فى البادية على رؤية هذه الصور ولطول ألفته إيّاها فى حروب سيف الدولة، فلم يسمع المتنبئ تغريد الطير فى سماء طبرية وإنما رأى قتالها، ولم يسمع عصف الرياح فيها وإنما رأى ملاحمها. فلم تكن الطير والرياح تحت سماء طبرية فى نظر المتنبئ مشاهد طبيعة تسلّى الأذن والعين وإنما كانت مشاهد معركة: جيش هازم وجيش منهزم، خلق المتنبئ لتخليد المعارك التى اقتحمها سيف الدولة فمنع بها غوائل الروم عن ديار الشام، ولما لم يجد المتنبئ فى أرض طبرية حرباً يشهد هولها كما شهد هول حروب الروم من وراء حلب خلق فى سماء طبرية حرباً تلهو بها عينه وأذنه ولكن بدلا من أن تكون هذه الحرب بين العرب والروم كانت بين الطير والرياح. وهى حرب هادئة لم ينفجر فيها دم ولا انتثر فيها عظم وإنما انهزمت فيها الطير مرّة والرياح مرّة فلم يصبغ وجه طبرية بسببها بحمرة الدماء.

٥

بحيرة ابن الساعاتى

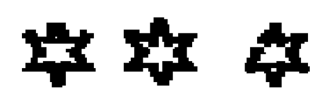
فلنبعد قرنين أو أكثر عن سيف الدولة وعن المتنبىء وعن حروب العرب والروم لنشهد حروباً ثانية بين العرب والصليبيين، ميدانها بقعة من فلسطين ، فعلنا نهتدى تحت سماء طبرية إلى شاعر أوحت إليه البحيرة غير ما أوحته إلى المتنبىء ، فنجد فى حسّ الطبيعة فى شعره من اللذّات الروحية ما لم نجده فى أبيات المتنبيء .

ذهب سيف الدولة وجاء صلاح الدين ، ولئن كان سيف الدولة مانعاً للروم عن التغلغل إلى ديار الشام لقد كان صلاح الدين مانعاً للصليبيين عن مثل هـــذا التغلغل ، فهل رُزق شعراء صلاح الدين من الخصائص فى حس الطبيعة ما لم يرزق الذين تقدموهم .

يخطر ببالى فى هذا المقام شاعر واحد من شعراء صلاح الدين وهو ابن الساعاتى الدمشقى ، فماذا أوحت إليه طبرية وبحيرتها ؟

لمّا فتح صلاح الدين طبرية سنة ٥٨٣ قال له ابن الساعاتى:

وما طبرية إلاَّ هـــدًى ترفّعُ عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء وسلْ عنها الليالىَ والسنينا
فضضت ختامها قسراً ومن ذا يصدُّ الليث أن يلج العرينا
لقد أنكحتها صمَّ العـوالى فكان نتاجها الحرب الزبونا
قسبتْ حتى رأت كفؤاً فلانت وغاية كل قاسٍ أن يلينا



لئن شهدنا فى تغنى المتنبيُ ببحيرة طبرية حرباً من الحروب، لقد شهدنا فى تغنى ابن الساعاتى بها عرساً من الأعراس ، وقد كان يستطيع ابن الساعاتى أن يجعل لموج البحيرة ولطيرها ولرياحها ولجنانها نصيباً من هذا العرس ، ولـكنه عدل عن هذا كله ولم نجد فى عرسه من أدوات اللهو والغناء كالعود والناى وأشكالهما ما نجده فى الأعراس عادةً ، وإنما أدواته صمُّ العوالى . وأخلق بعرسٍ من أدواته السيوف والرماح أن يكون قاسياً ولكن صلاح الدين حاذق فى تليين القاسين ، وحسبنا أن نخرج من أبيات ابن الساعاتى بهذه النتيجة وحدها، فهى تكاد تكون خلاصة عهد صلاح الدين !

٦

بحيرة « لوتى »

لقد عرفنا شيئاً يسيراً من خصائص شعر المتنبىء وابن الساعاتى فى بحيرة طبرية ، فإذا أردنا أن نعرف ما يفتقر إليه حسُّ الطبيعة فى شعرهما فلنسرع إلى كاتب غربى زار طبرّية .

مرّ « لوتى » ببقاع الجليل من نصف قرن ، وما زال ينتقل من يافا إلى القدس ومن القدس إلى نابلس ومن نابلس إلى الناصرة حتى وصل إلى طبرية ، فلنصحبه فى خروجه من الناصرة وانحداره إلى طبرية لنعلم كيف نظر إلى الطبيعة .

مرّ « لوتى » بهذه النواحى كلِّها ، فرأى بقاعاً خاليةً صامتة ، هادئةً ولا هدوء الموت ، كئيبةً ولكن كآبتها لطيفة ، ثم خرقت عينه شيئاً أبعد من الصمت والهدوء والكآبة فرأى الدم الفرنسى الذى جرى على تراب فلسطين أيّام الصليبيين وأيّام نابليون !

وما انحدر « لوتى » من الناصرة ووقعت عينه على تلال « حطين » حتى نفخ فى هذه التلال روحاً نخلق لها عيوناً لترى بها عظائم الماضى ، وخلق لها آذاناً تسمع بها دوىّ هذا الماضى ،

فنرى فى أدبه صلاح الدين ينقض على الصليبيين فوق تلال حطين فيحصدهم حصداً فى يوم من أيام الصيف فتأتى على وقعة حطين سبعة أو ثمانية قرون فنرى صلاح الدين بعد هذه الأحقاب المديدة فى فسطاطٍ عظيم يتلقى المغلوبين من الصليبيين وقد جهدهم العطاش فيسقيهم شراباً مثلوجاً ، ثم يذبحهم ذبحاً فيجرى دمهم على الأرض و يروى هذا الدم عشب الأرض حتى هدأةٍ من الليل !

يخلص « لوتى » من هذه الذكرى الأليمة فيرجع إلى الطبيعة ، فينفخ فيها روحه ، فقد أتت على تلال حطين سبعة قرون وهى جامدة صامتة ، لم يطأ عشبها الا الرعاة وأبناء السبيل .

ولكن فلنتحذر مع « لوتى » من حطين إلى طبرية ، فما كادت عينه تقع على بحيرة طبرية حتى أحس بخوف الدنو منها وبانصرافه إلى فكرة دينية ، فإن هذه البقاع تخطر سيدنا عيسى ببال الإنسان كما تخطر القبور الخرس موتاها بهذا البال .

شرع « لوتى » يخرج من ظواهر الطبيعة على بحيرة طبرية ليمعن فى بواطنها ، شرع ينسى وجهها ليرى جوفها ، والسيدالمسيح أول خاطر يخطر ببال المرء على شواطىء البحيرة ، فأين جماهير

الناس التي كانت تستيقظ من نومها لتسمع مواعظ المسيح ، لقد أحسنت الطبيعة الخضراء بتكفينها الأرض التي رأت تلك الجماهير .

ثم يترك « لوتي » هذه البواطن كلها ويرجع إلى الظواهر ، فينفخ فيها من روحه ، فلا حركة في هذه الربوع ولا ضوضاء ، إنك لاتجد فيها إلاّ سلاماً يشبه سلام أهل الجنة وكآبتهم ، فالطير تغني ويسمع « لوتي » غناءها ولكن هـذا الغناء لا يلبث أن يضيع في صمت الطبيعة تحت هذه السماء الشاحبة ، سماء التأمل والحلم ، ففي هذه البقعة هدوء لا تستطيع الألفاظ أن تصوره ، هدوء سماوي يستفيض في مهد النصرانية ، حتى أن « لوتي » نفسه يضطر في مثل هـذا السكون إلى تخفيف صوته من دون إرادة منه كأنّه في معبد من المعابد !

إن ألفاظ الأمل والمحبة التي سمعها البشر قديماً على بحيرة طبرية قد طارت في سماء ثانية وشاعت في الأرض لتعزّي البشر في أحقاب طويلة ، فهي ألفاظ ميتة كما ماتت شواطيء هـذه البحيرة ، ولكن اللهفة عليها لم تمت فإنها خالدة في أعماق نفس « لوتي » ، وطبرية على الرغم من كل شيء تبقى وطنه المقدّس.

رأى « لوتى » فى طبرية ما رآه المتنبىء، فقد رأى مرآتها المطوّقة وسمع تغريد طيرها وتمتع من شميم زهرها ، ولكنه رأى شيئاً أبعد من هذه الظواهر الجامدة ، فليس من السهل علىّ أن ألخص فى سطور ما توسع فيه « لوتى » فى صفحات . إنه يقدّس الطبيعة تقديساً ، ويحييها إحياء ، فكأنك تشاهد على شواطئ البحيرة جماعة الصيادين الذين كانوا يحيطون بالسيد المسيح ويسمعون رسالته وكأنك تسمع السيد المسيح يتكلم على المحبة وعلى الرحمة وعلى الصفح ، تسمع كلامه كما سمعته القصبات الممتدة على الشواطئ وكما سمعه صخر البحيرة !

٧

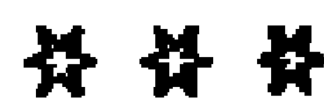
عواصف صقلية وسردانية

أما وقد فرغنا من نزهتنا على سواحل ماء هادئ ، ماء البرك والبحيرات ، فلنسرع إلى عُباب البحر الثائر ، بحر العواصف ، ولنصحب بعض الذين ركبوا هذا البحر وملكهم الخوف من هوله !

فلننفصل مع ابن جبير عن غرناطة ولنركب معه مركباً للروم الجنويين ولنقلع إلى الإسكندرية ، فماذا أصاب هذا المركب لما فارق برّ سردانية ، هذا ابن جبير يقص علينا هول العواصف :

« عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة كأنه شآبيب سهام ، فعظم الخطب واشتد الكرب وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة فبقينا على تلك الحال الليل كله واليأس قد بلغ منا مبلغه وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا فجاء النهار وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذي القعدة بما هو أشد هولا وأعظم كرباً وزاد البحر اهتياجاً واربدّت الآفاق سواداً واستشرت الريح والمطر

عصوفاً حتى لم يثبت معها شراع فلجىء إلى استعمال الشرع الصغار فأخذت الريح أحدها ومزقته وكسرت الخشبة التى ترتبط الشرع فيها وهى المعروفة عندهم بالقريّة فحينئذ تمكن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء إلى الله عزّ وجلّ وأقمنا على تلك الحال النهار كله فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور وسرنا فى هذه الحال كلها بريح الصوارى سيراً سريعاً وفى ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية وبتنا تلك الليلة التى هى ليلة الخميس التالية لليوم المذكور مترددين بين الرجاء واليأس فلمّا أسفر الصبح نشر الله رحمته وأقشعت السحاب وطاب الهواء وأضاءت الشمس وأخذ فى السكون البحر فاستبشر الناس وعاد الأنس وذهب اليأس » .



هذه صورة من صور العاصفة فى القرب من سردانية هبت عليه وهو منفصل عن غرناطة فلنشهد صورة ثانية للعاصفة التى هبت عليه فى القرب من صقلية فى خلال رجوعه إلى غرناطة :

« ثم انقلبت الريح غربية وأنشأت سحابة فيها رعد قاصف

وزجتها ريح عاصف وتقدمها برق خاطف فأرسلت حاصباً من البرد صبته علينا في المركب شآبيب متداركة فارتاعت له النفوس ثم أسرع انقشاعها وانجلى عن الأنفس ارتياعها وبتنا ليلة الجمعة مبيت وحشة وطالعنا بها اليأس من مكمنه فلما أسفر الصبح وطلع النهار أبصرنا برّ صقلية لائحاً أمامنا فيا لها بشرى ومسرة، لو لم يعد حسرة فى كرّة، فأمسينا ليلة السبت وهو أول يوم من دجنبر ونحن على إدراكه فى أقل من ثلثها أو منتصفها ولكل أجلٍ كتاب وميقات، وكم أمل تعترض دونه الآفات، فما كان إلّا كلا ولا حتى ضربت فى وجوهنا ريح أنكصتنا على الأعقاب وحالت بين الأبصار والارتقاب، وما زالت تعصف حتى كادت تنسف وتقصف فحطّت الشرع عن صواريها واستسلمت النفوس لباريها وتركنا بين السفينة ومُجريها وتتابعت علينا عوارض ديم حصلنا منها ومن الليل والبحر فى ثلاث ظلم وعُباب الموج تتوالى صدماته وتطفر الألباب رجفاته فنبذت نفوسنا كلّ أمنية وتأهّبت للقاء المنية وقطعنا هذه الليلة البهماء فى مصادفة أهوال ومكابدة أوجال ومقاساة أحوال يا لها من أحوال، ثم أصبحنا يوم السبت

ليوم عصيب أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب ، والأمواج والرياح تترامى بنا حيث شاءت وقد استسلمنا للقضاء ، وتمسكنا بأسباب الرجاء ، ثم تداركنا صنع الله تعالى مع المساء ففترت الريح ولان متن البحر وأسفر وجه الجوّ . . »

٨
عاصفة فى بحر الهند

وما علينا بعد أن سلمنا من عواصف صقلية وسردانية لو اقتحمنا عواصف بحر الهند ، فشهدنا أهوالها مع كاتب من كتّاب الطبيعة فى الإفرنجة وهو « برناردن » فلعلّنا نستطيع أن نوازن بين كتّابنا وكتابهم فى وصف مشاهد قلّما نجد لها آثاراً فى أدبنا وهى مشاهد البحار ، قال « برناردن » :

« لمــاّ اجتزنا رأس الرجاء الصالح ورأينا مدخل ترعة « الموزامبيك » عصفت علينا من الجنوب ريح راعبة ، وقد كانت السماء صافية ، فكنّا لا نرى فيها إلاّ قطعاً صغيرة من السحاب من لون النحاس، كأنّها بخار لونه بين الأحمر والأصفر، فكانت هذه السحب تقطع السماء بسرعةٍ أشد من سرعة الطير ، ولكن البحر كانت تشقه خمس أو ست موجات مستطيلة عالية كأنها سلاسل تلالٍ تفصل بعضها عن بعض أودية عريضة عميقة وقد كان كل تلّ من هذه التلال المائية ذا طاقين أو ثلاثة طيقان ، وكانت الريح تسلخ عن رؤوسها ذات الزوايا زبداً كأنّه

عُفْرة طبعت عليه من هنا ومن هنا ألوان قوس قزح وتحمل منها غباراً أبيض كان ينتشر بعيداً عنها فى أودية هذه التلال ، وهو مثل الغبار المنتشر فى الشوارع فى الصيف ، وأرعب شىء فى هذا كله أنَّا كنا نرى بعض رؤوس هذه التلال وقد زجَّتها الريح بشدة تنبسط على شكل قبابٍ عظيمة يستدير بعضها حول بعض وهى تهدر وتزبد ، ولو وقف فى وجهها أضخم مركب لانهار تحت أنقاضها ، وقد كانت حالة مركبنا وحالة البحر تتضافران على إدخال الفزع علينا ، لقد حطَّمت الصاعقة فى الليل شراعنا الكبير وذهبت الريح فى الصباح بشراع مؤخَّرة المركب ولم يكن عندنا غيره حتى عجز المركب عن السير ، فكانت الريح والأمواج تقذف به ذات اليمين وذات الشمال

وقد كنت جالساً فى المؤخرة متعلقاً بحبال الشراع أحاول أن آلف هذا المشهد المخيف وكنت إذا دنا منَّا جبل من هذه الجبال أرى رأس هذا الجبل على بعد أكثر من خمسين قدماً من فوق ولكن إذا مرَّ صفح هذا الجبل المفزع تحت مركبنا مال به ميلاً شديداً فتنغمس خشب الشرع فى البحر حتى منتصفها ويوشك المركب أن ينقلب بنا رأساً على عقب ، وإذا

علا المركبُ رأس الموج انتصب ثم انقلب فجأة على منحدره المعاكس في خطر لا يقل عن الخطر الأوّل والموج يمرُّ من تحته مسرعاً إسراع سدود الماء وكأنّه شليل من زبد .

ولم يستطع واحد منّا أن يعزّى صديقاً أو أن يعزيه صديق فإن الريح بلغت من الشدة كل مبلغ فلم يقدر الناس على سماع الكلام ولو كان وشوشة ، فكان الهواء يحمل الصوت ولا يمكننا من أن نسمع غير صفير حادٍ للخشب والجبال وضجيج خشن للأمواج وكأن هذا الصفير وهذا الضجيج زئير الوحوش الضارية

وبقينا على هذه الحال بين الحياة والموت من مطلع الشمس حتى العصر ! »

* * *

هذان مشهدان من مشاهد العواصف فى البحار تكاد تكون أمور كثيرة منها واحدةً متشابهة ، فلم نجد فرقاً كبيراً فى وصف هول البحر ، فالأمواج فى بحر صقلية وبحر الهند مثل الجبال والريح فيهما تكسر خشب الشرع ، والنفوس فيهما من شدة العاصفة بين اليأس والرجاء وبين الموت والحياة ، ولكن الألوان والحركات والأصوات فى عاصفة بحر الهند أكثر منها فى عاصفة

بحر صقلية ، فالسحب فى عاصفة بحر الهند لونها مثل النحاس ، وسرعتها أشد من سرعة الطير والأمواج فيها تنطبع عليها ألوان قوس قزح والغبار فيها لونه أبيض وللخشب والحبال صفير حاد وللأمواج ضجيج خشن ، فقد كانت عين « برناردن ». فى بحر الهند أنفذ من عين ابن جبير فى بحر صقلية ، وكانت أذنه أرقّ فاستطاعت هذه الأذن أن تسمع من الأصوات ما لم تسمعه أذن ابن جبير واستطاعت هذه العين أن ترى من الألوان والحركات ما لم تره عين رحّالتنا ، والذى نشعر به فى هذا الوصف أن اللغة العربية إذا شاءت أن تعبّر عن أصوات الريح وجدت لها أفعالاً تدلُّ على هذه المعانى فالريح عاصف، أمّا لغة الإفرنجة فقد لجأت إلى صفات عامةٍ ، فالريح فى عاصفة « برناردن » تارة مخيفة وتارة شديدة ، والخوف والشدة صفات عامة تطلق على كل شىء مخيف أو شديد أما العصف فإنه خاص بالريح وفى هذا نوع من تحديد المعانى .

٩

إله العواصف

وقد بلغ من عناية الإفرنجة بالطبيعة وحرصهم على إحياء مشاهدها أن جعلوا لها فى ثمرات قرائحهم أشباحاً لها هيآت خاصّة وألوان خاصّة ولحًى خاصة وشعر خاص ، فمن آثار الشاعر البرتغالى المشهور « كامونيس » ملحمة « اللوزياد » فقد تغنّى برحلات البحّار « فاسكودى غاما » وخلق فى أغانيه روح الأساطير .

تصوّر هـذا الشاعر أن لرأس الرجاء الصالح حارساً وهو « أداماستور » له طيف عظيم ، هيأته مهدّدة، وشكله موحش وسحنته صفراء ولحيته كثيفة وشعره أغبر وشفتاه سوداوان وعيناه تدوران تحت الأهداب السود وهمّا تبصان ، فلمّا رأى هذا الحارس البحّار « فاسكو دى غاما » يقتحم البحار هجم عليه ليحول دون مضيه فى سبيله وخاطب جماعته بهذا الكلام :

« أيها الشعب ! يا أجرأ الشعوب ! أفلم تبق حواجز فى وجوهكم تقف بكم ! يا رجال الحرب الذين لا يغلبون ! يا رجال

البحر الذين لا يتعبون ! إنكم تجسرون على ركوب هذه البحار المديدة التي خلقت حارساً لها على وجه الدهر ، هذه البحار التي لم ينتهك حرمتها في يوم من الأيام مركب غريب ، وأنا نفسي حرام عليّ ركوبها !

إنكم تنتزعون من الطبيعة السرّ الذي لم يستطع العلم ولا استطاعت العبقرية انتزاعه حتى اليوم ! أيها الميتون الجريئون ! اعلموا بالمصائب التي ستصيبكم على هذه السواحل العاصفة وعلى هذه البقاع البعيدة ..

ويل للمركب الذي يجرأ على انتهاك الحرمة ليمشي على آثاركم ! إني سأنقض عليه ، وسأسلّح الرياح والعواصف ! ويل لأول أسطول يقتحم سلطاني بعدكم ! فإذا ظهر هذا الأسطول على وجه بحاري فلا يلبث أن يُضرب ويشتت ويحطم بين الأمواج !

وسيهلك مع هذا الأسطول البحّار الكافر الذي رأى في خلال جولته التائهة منزلي المقدّس ودلّكم عليّ ، وليست هذه العقوبة المخيفة إلا أولى المصائب التي يعدها المستقبل لكم ولو كنت أعرف أن أقرأ في كتاب القضاء والقدر لجاءتكم كل سنة بنكبات جديدة ، وسيكون الموت أهون مصائبكم ! »

***

وكما قدّسوا البحار فإنهم قدّسوا كل جزء من أجزاء الطبيعة فإذا قلع الحطّاب سنديانة من السنديان نهض الشاعر فرثاها وعبّر لها عن اهتزاز نفسه من ضربة فأس هذا الحطّاب وصوّر لها الحزن العميق الذى شاع فى الغابة ، حزن الطير وحزن الماء .

أمّا الطير فقد حلقت بعد قلع السنديانة فى السماء كأنّها فى أجوازها سحابة صفراء وملأت الجوّ بأغاريدها الشجية ، وأمّا الماء المحزن فقد جمد فى الينابيع وكادت رؤس الجبال تزلزل زلزالها وأخذت الريح تردّد أصداء التأوهات العميقة الصادرة عن جوف الأرض !

***

من كل ما تقدّم يتبيّن لنا أن للطبيعة فى أدب الإفرنجة مقاماً جليلا ، وقد بلغ بأحد أدبائهم وهو « روسو » أن حمل أهل عصره على محبّة الطبيعة فصوّر لهم فتنة طلوع الشمس وصفاء ليالى الصيف وملاذّ الحقول وأسرار الغابات الصامتة الكئيبة ، صوّر لهم كل هذا العالم ، عالم الضياء والورق والزهر والطير والنسيم . و إذا كان أدب العرب لم يخلُ على تعاقب العصور

من حسٍّ الطبيعة فقد رأينا بعد مقابلات يسيرة بين حس الطبيعة فى أدبنا وبين حس الطبيعة فى أدب الإفرنجة أن أدباء الإفرنجة اتصلوا بالطبيعة بأرواحهم وحواسّهم فخلقوا لها قلباً يشعر شعورهم وعيناً تبكى بكاءهم وصدراً يفرح فرحهم، فشاطروها آلامها وشاطرتهم آلامهم و إذا كان فى بعض شعرنا شئ من أشباه هذه النزعات، إذا دعا بعض شعرائنا الحمام ليقاسموه الهموم أو عاتبوا شجر الخابور لأنه مورق لم يجزع على ابن طريف ، فهذا قليل أو أقل من القليل . لقد كانت الطبيعة فى أدبنا لذّة الحس ولم تكن لذّة الروح ، فلم يتضافر ضياء الشمس وورق الشجر وهديل الطير وهبّات النسيم وموج البحر على تعويدنا لذّة الروح ، فإذا ألهمتنا الطبيعة بعض صورٍ مادية فإن عواطفنا وشعورنا لا تزال جامدة أمام هذه الطبيعة . ينظر الإفرنجة إلى الطبيعة ولكنهم لا يكتفون بظواهرها ، فهم يريدون أن يتغلغلوا إلى بواطنها وأن ينفخوا فيها شيئاً من الروح ، فما هذا الصمت وما هذا الهدوء وما هذه الكآبة التى رآها « لوتى » فى الجليل إلا نفخة من هذه النفخات ، فالطبيعة فى أدبهم مثلها كمثل الأحياء فلها مزاج مثل أمزجتهم ، فطوراً نراها جذلة وطوراً نراها كئيبة ،

وحيناً تكون الكآبة لطيفة وحيناً تكون شديدة ، فكآبة الجليل مثلا لا يفرِّحها رونق الأزاهير ولا موسيقى الطير !

فإذا احتاجت الطبيعة فى أدبنا إلى شىء فإنها تحتاج إلى هذه الحياة حتى تصبح مثل الأحياء فتعيش عيشتهم وتشعر شعورهم كما يعيش القصب والصخر فى أدب « لوتى » وكما يعيش الموج فى أدب « لامارتين » .

١

الأدب النفسى

الحبّ فى الجاهلية

لقد أدّى حسّ الطبيعة فى أدبنا إلى ما أدى إليه فى أدب الإفرنجة ، ففى العصر الذى غلب على أدب الإفرنجة وهو عصر «روسو» مات الأدب النفسى ، لقد كان الرجل قبل هذا العصر موضوع الأدب ، فكان الأدباء ينظرون إليه من بواطنه ، أمّا فى عصر « روسو » فقد انضمّ إلى موضوع الرجل موضوعُ الطبيعة ، فأصبح الأدباء لاينظرون إلى الرجل إلاّ كما ينظرون إلى الطبيعة ، أى من ظواهره ، فالأدب فى ذلك العصر خرج عن أن يكون نفسياً ، فإنه إذا شاء أن يصف النفسٍ نظر إلى الجسم . هذه المرأة شقراء ، وهذه سمراء . . . وما شابه ذلك ، فنشأ عن هذا كله أن الذى يحس قلمه على وصف الأشكال الظاهرة وعلى الانفعالات الدقيقة التى تطبعها فى النفس إنما هو رجل تغلب قوة إحساسه على قوة عقله .

لقد جرى شبه هذا الشيء في بدء أدبنا ، فإذا دققنا في ناحية واحدة من نواحي النفس في شعرنا الجاهلي وهي ناحية الحب وجدنا أن الأنظار فيه تقف على الظواهر أكثر من وقوفها على البواطن ، فهذه أم الحويرث وأم الرباب في شعر امرئ القيس ، فإذا قامتا فاحت ريح المسك منهما كنسيم الصبا إذا جاءت بعرف القرنفل ونشره ، فامرؤ القيس لا ينظر إلى عرف النفس وإنما ينظر إلى عرف الجسم ، وإذا دخل خدر عنيزة فلا يهمه منها إلا العناق والشم والتقبيل ، ففي هذا مجامع لهوه ، وإذا تلفتنا إلى صور عشيقاته وجدنا هذه العشيقات على الصور الآتية:

كل عشيقة منها دقيقة الخصر ، ضامرة البطن غير عظيمته ، ولا مسترخيته ، صدرها برّاق اللون ، متلألئ الصفاء تلألؤ المرآة ، صافية اللون نقيته مثل الدرة الفريدة التي تضمها الصدفة ، خدّها أسيل ، وعينها مثل عين الظبية المطفل ، وعنقها مثل عنق الظبي وشعرها تام أسود فاحم كثير مثل العناقيد وقنوان النخل وكشحها لطيف وساقها صافية اللون ، دقاق المسك فوق فراشها الذي تبيت عليه وحياتها في دعة ونعمة وخفض ، بنانها رخص لين ناعم غير غليظ ولا كز ، تضيء بنور وجهها ظلام الليل.

فكأنها مصباح راهب منقطع عن الناس !

هذه هى الأشكال الظاهرة التى تقف عليهاعين امرئ القيس فى المرأة ، فلا ترى هذه العين إلاّ صفات الجسم أما صفات الروح فلا تعرف عنها شيئاً ، و إذا امتدت هذه العين إلى نفس العشيقة لتكشف عن دقائقها فلا تهتدىمن هذه الدقائق إلاّ إلى الشىء القليل :

أغرّكِ منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلبَ يفعل

و إذا انتقلنا من شعر امرئ القيس إلى شعر طرفة فإنَّا نجد فى حبه ما وجدناه فى حب امرئ القيس ، إنه لا ينظرفى حبيبته إلا إلى ظواهرها ، إلى ثغرٍ ألمى الشفتين كأنه أقحوان خرج نوره فى دعص ٍ ندٍ وقد سقى هذا الثغر شعاعُ الشمس ، و إلى وجهٍ نقى اللون لم يتشنج ولم يتغضّن كأنه الشمس ألقت عليه رداءها ، ونجد ندامى طرفة بيضاً كالنجوم تتلألأ ألوانهم وتشرق وجوههم ، ونجد المغنية التى تأتيهم وهى لابسة ثوباً مصبوغاً بالزعفران ناعمة اللحم ، رقيقة الجلد ، صافية اللون !

وكذلك النساء فى معلقة زهير عليهنّ دلال الإنسان الطيب العيش ، فيهنّ موضع لهوٍ للمتأنق الحسن المنظر ، وفيهن مناظر

معجبة لعين الناظر المتتبع محاسنهن وسمات جمالهن .

ونجد المرأة فى معلقة عمرو بن كلثوم لها ذراعان ممتلئتان لحماً كذراعى ناقةٍ طويلة العنق ولها ثدى مثل حقٍ من عاج بياضاً واستدارة ، وهى محرَّزة من أكف اللامسين، ولها ورك يضيق الباب عنها لعظمها وضخمها وامتلائها باللحم ولها ساقان كاسطوانتين من عاج أو رخام بياضاً وضخماً .

ونجد حبيبة عنترة لها ثغر ذو حدَّةٍ ، واضح لذيذ المطعم ، عذب المقبّل ، طيب نكهتها مثل طيب ريح المسك أو مثل طيب ريح روضة ناضرة ، تصبح وتمسى فوق فراش وطىء .

ولا أرى بى حاجة إلى التقصى فى هذا النوع من الحب ، فإن الحب فى شعر الجاهلية يكاد يكون واحد الأشكال والصفات، فالشعراء لا ينظرون فى معشوقاتهم إلاّ إلى ظواهر أجسامهن أما بواطن النفوس فليس لهم مداخل عليها ، وإذا تتبعنا المرأة فى شعر الشعراء الذين غلب الحب على شعرهم مثل المرقش الأكبر أو عبدالله بن العجلان أو عروة بن حزام أو غيرهم ، فلا نجد لهذه المرأة إلّا صفات ظاهرة ، أما الصفات الباطنة فقد أشكلت على عيون الشعراء .

٢

الحب بعد الجاهلية

وما أظن أن الأمر جرى على هذا الشكل فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية ، ومن المتعذر علىّ فى مقام ضيق مثل هذا المقام أن أتتبع الشعراء الذين انصرفت عيونهم بعض الانصراف عن مناظر الطبيعة ولم يعد لحسّ الطبيعة المحل الأول فى شعرهم، وعلى الرغم من هذا الطور الجديد الذى دخل فيه شعراء النسيب قد يحتوى شعرهم على وصف الأجسام ولـكنه يحتوى أيضاً على صفات النفوس ، فهذا جميل بن معمر قلما تغلب على شعره الألفاظ التى تدل على الأشكال الظاهرة مثل ضمور البطن وصفاء اللون وسواد الشعر ولطافة الـكشح ونقاوة الوجه وغير ذلك من الصفات كما غلبت على هذا الشعر الألفاظ التى تدل على المعانى النفسية مثل النسيان والذكر والمنى والوصال والهجر وحفظ الغيب والتجلّد والصبابة والتفكير والوعد والهوى والوجد والالتقاء والتفرق وأمثال هذه الألفاظ المجرّدة ، فلم يكتف شعراء النسيب فى هذا العصر الجديد بالأشكال الظاهرة ولـكنهم تغلغلوا إلى

النفوس بعض التغلغل وأفصحوا عن بواطنها أكثر من إفصاحهم عن ظواهرها ، ولئن لم نجد عمق العواطف فى شعورهم فإنا نجد هذه العواطف على كل حال ، فهى ظاهرة بيّنة ، و إذا قابلنا بين شعر جاهلى فى النسيب و بين شعر أموى تبين لنا الفرق بينهما فى هذا المعنى ، وليس من الضرورى أن أسترسل فى ضرب الأمثال و إنما ألجأ إلى أىّ مثل كان : لمّا نذر أهل بثينة دم جميل وأهدره السلطان لهم ضاقت الدنيا به فكان يصعد بالليل على قور رمل يتنسم الريح من نحو حى بثينة ويقول :

أياريح الشمال أما ترينى أهيم وأننى بادى النحول
هبى لى نسمة من ريح بثنٍ ومنى بالهبوب إلى . جميل
وقولى يا بثينة حسب نفسى قليلك أو أقل من القليل

فليس فى هذه الأبيات لأشكال الجسم الظاهرة من النصيب ما للعاطفة النفسية ، لقد رقت العاطفة بعض الرقة وصار النسيب حديث النفس بعد أن كان حديث الجسم ؛ ومن أراد أن يطلع على حقيقة هذا الأمر فليرجع إلى شعر جميل و إخوانه لأن المقام يضيق عن اختيار قصائد لهم فى هذا الباب ، إلا أن ذكر أبيات

قليلة يجعل لنا رأياً فى هذا الشعر من ناحية اشتماله على الصفات النفسية فى الحب .

لها فى سواد القلب بالحب منعة هى الموت أو كادت على الموت تشرف
وما ذكرتك النفس يا بثن مرة من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وإلا اعترتنى زفرة واستكانة وجاد لها سجل من الدمع يذرف
وما استطرفت نفسى حديثاً لخلة أسر به إلا حديثك أطرف

فإذا كنا لا نجد فى هذا النحو من الشعر العواطف العميقة الدقيقة التى نجدها فى الشعر الغربى فإنا نجد فيه عواطف بسيطة حلت محلّ الأشكال الظاهرة التى كانت مستفيضة فى الشعر الجاهلى .

وكذلك الأمر فى شعر عمر بن أبى ربيعة فإن الألفاظ المجردة كثيرة فى شعره مثل حاجة النفس وعزاء الفؤاد والتجريب والصرم والوصال والحديث والملاطفة وتصابى القلب والسحر والملام ونجوى الصدر والوساوس وهذا نموذج من حبه الروحى .

أغـرّك أنى عصيت الملا م منك وأن هوانا هواك !
وأن لا أرى لذة فى الحياة تقرّ بها العين حتى أراك
فكان من الذنب لى عندكم مكارمتى واتباعى رضاك

فليت الذى لام فى حبكم وفى أن تزارى بقرن وقاك
هموم الحيـــاة وأسقامها وإن كان حتف جهيد فداك !

فهذا الشعر يعرض علينا صورة من الطور الذى دخل فيه الحب فى عصر بنى أمية وقد تتفاوت منازل الشعراء فى هذا المجال، وليس هذا الموضع بموضع موازنة بينهم أو بموضع نقد و إنما الغاية كلها التنبيه على أن حسّ الطبيعة قد ضعف أثره فى الشعر الأموى بعد الجاهلية فانتقل الحب من الأشكال الظاهرة إلى الأشكال الباطنة ، فلم يعد لألوان الجسم وأشكاله فى الشعر المقام الذى أصبح لألوان النفس وأشكالها ، وقد يكون لكل شاعر من شعراء النسيب خصائص فى الحب النفسى ، فعمر بن أبى ربيعة مشهور فى هذا الباب بالحياة التى نفخها فى شعره روح القصص .

٣

بخلاء الجاحظ وبخيل « موليير »

وإذا بعدنا قليلاً عن الشعراء الذين تقدم ذكرهم وجاورنا العصر الذى استفاضت فيه الفلسفة واختمرت فى النفوس فإنا نجد للتحليلات النفسية فى الشعر أثراً أبلغ ، فإن قول المتنبي :

إذا غدرت حسناء وفت بعهدها فمن عهدها أن لا يدوم لها عهد
وإن عشقت كانت أشد صبابة وإن فركت فاذهب فما فركها قصد
وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضى وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد
كذلك أخلاق النساء وربما يضل بها الهادى ويخفى بها الرشد

يشتمل على شيء من كشف الغطاء عن نفوس النساء، على أن المجال الذى يتسنّى لنا فيه النظر إلى بواطن النفوس إنما هو مجال النثر لأن مجال الشعر فى هذا المعنى ضيق .

فلنترك الآن الشعر ولنلتفت إلى النثر حيث نستطيع أن نقابل بين نظرة العيون فى الجاهلية إلى ظواهر الطبيعة وبين نظرتها فى عصر العبّاس إلى بواطن النفوس ، ثم نستطيع أن نقابل بين نظرتنا إلى هذه البواطن وبين نظرة الإفرنجة إليها .

أعمد فى هذا الباب إلى كاتبين كتبا فى موضوع واحد وهما : الجاحظ و « موليير » فالأول كتابه : « البخلاء » مشهور ، والثانى كتابه : « البخيل » معروف .

لم يبعد الجاحظ فى أدبه عن مشاهد الحياة الخاصة ، فكأنه دخل فى « بخلائه » دور طائفة من الناس ، فعاين مآكلهم ومشاربهم وملابسهم ، وخالطهم فى تدبير منازلهم فلم يفته شىء من أساليبهم فى الطبخ والأكل واللبس والعلاج والاستصباح والاستحمام وما شابه ذلك ، وكأنه شاهد كيف يتداوون فى السعال بماء النخالة وكيف يطبخون الشاة فلا يضيعون جزءاً من أجزائها وكيف يأكلون بالبارجين ويقطعون بالسكين ويلزمون عند الطعام السكتة ويتركون الخوض ، وعرف وجوههم فى الكراء والشراء ونحوهما ، فكانت المطابخ والموائد والأوانى والمواعين مادّة أدبه ، فلم يتقزز فى هذا الأدب من أن يملأ أنفه من روائح اللحم والتوابل والسمن والخل والثوم أو من روائح السكباج والطباهج وغير ذلك .

وليست هذه الأمور وحدها هى التى عاينها ولاحظها ولكن الاستقصاء فى ذكرها أمر عسير فالجاحظ قد دخل من كل باب

وجرى مع كل ريح ولكنه لم يدخل من هذه الأبواب كلها إلا ليخرج منها بحجة طريفة أو بحيلة لطيفة أو بنادرة عجيبة .

حاول الجاحظ فى « بخلائه » التنبيه على عيب مشهور ، وهو البخل ، فبسط لنا نماذج كثيرة من البخلاء و بين كيف يأكلون وكيف يشربون وكيف يلبسون وكيف يكنزون إلى غير ذلك من الصور الظاهرة التى تضحك القارئ قبل كل شيء حتى يكاد هذا الإضحاك يصرفه عن معرفة خصائص البخل .

من طبائع بخيل الجاحظ أنه يلاحظ اللقمة ، فإذا انتخب أكيل هذا البخيل أكلته واختار كل منهوم فيه ومفتون به استلب البخيل من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازى وانحدار العقاب ، فقد صوّر الجاحظ حركات العين كيف تلاحظ اللقمة وحركات اليد كيف تستلب هذه اللقمة من الأكيل أو كيف تكتفه كتفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً .

هذه صورة ظاهرة تدلنا على نوع واحد من الحركات وهى حركات العين واليد أو أمثالها ولكنها هل تدلنا على حركات النفس ، فهل كان بخيل الجاحظ عالمياً غير خاص ببلد أو بعصر ،

وإنما هو بخيل كل العصور وكل البلدان ، قد طبع على ما يطبع عليه البخيل فى أى عصر كان وفى أى بلد كان؟ هذا سؤال يسهل الجواب عنه إذا قارنا بين وصفنا لعيوب النفس وأمراضها وبين وصف الإفرنجة لهذه العيوب والأمراض .

فلنقابل بين بخلاء الجاحظ وبين بخيل « موليير » دون شىء من التوسع .

لقد ثبّت « موليير » فى بخيله نموذج البخيل الحقيقى ، فلم تقتصر روايته على تصوير ما يساور صاحب المال من قلق ، ولكنها صورت البخل فى كل ما يشتمل عليه من سخرية وكراهية وفظاعة ، فلم يعدْ بخيل «موليير» البخيل القديم الذى يكنز ذهبه ، وإنما هو بخيل متمول ، يقرض ماله ويفرط فى الربا ، فهو مُرْبٍ عصرى يثمّر ماله حتى يكاد حبُّ الربح ينسيه واجب الأدب .

أما الجاحظ فلم يظهر فى بخلائه آثار السخرية والكراهية والفظاعة ، ومعنى هذا أنه لم يصور البخلاء فى صور تجعلهم ضُحْكة للناس أو فى صورٍ تبغضهم إلى الناس أو فى صورٍ يستفظعهم فيها الناس ، فقد كان همه الإضحاك قبل كل شىء ،

حتى أنه اعترف للقارئ بأن كتابه لا يصوّر له كل شئ ولا يأتى له على كنهه وعلى حدوده وعلى حقائقه ، فكان يحكى بعض الحكايات ويوّد لو أن القارئ رأى الحكاية بعينه لأن بعض هذه الحكايات لا تطيب جداً إلاّ إذا رآها بعينه ، فلم يكن بخيله عالمياً ، أى بخيل كل العصور وكل البلدان ، فقد أهمل تصوير قلق البخيل وتصوير ما يولّده فى الناس من سخرية وكراهيةٍ وفظاعةٍ ، فاذا كنّا نضحك من بخلاء الجاحظ فالذى يضحكنا إنما هو ظاهر البخيل ذاته لا صورة البخيل ولا حركات نفسه .

و إذا أردت أن تعرف صورة البخيل الحقيقى ، بخيل كل العصور وكل البلدان ، فانظر إلى بخيل « موليير » فهو لا يريد أن يرى خادم ابنه منصوباً فى داره كالرمح يعاين ما يقع فى هذه الدار وهو لا يريد أن يرى أمامه جاسوساً تشاهد عيناه الملعونتان أعماله وتأخذان ما يملكه وتدوران فى كل جهة لعلّهما تريان شيئاً يمكن استلابه .

هذه صورة البخيل الحقيقى ، إنه يخاف كل شىء ويسىء الظن بكل شىء فهو دائماً فى قلقٍ واضطراب ، إن خرج الخادم

من عنده فتّشه ، وظن أنه قد سرق له شيئاً ، مرّة يفتش يده اليمنى ومرة يده اليسرى ، ومرّة يفتش اليدين ثم يفتش القدمين، ثم يفتش الجيوب إلى آخر هذه الحركات التى تدل على حركات نفس البخيل ، فهو يعتقد أن كل البشر يسرقون ماله .

فالجاحظ قد تغلغل إلى غايات نفس البخيل البعيدة ، مثل تغلغل « موليير » وعرف مراميها الدقيقة مثل معرفة « موليير » ولـكنه لم يعرض علينا هذا القلق الذى يغالب البخيل وهذه الشقاوة الباطنة التى يشقاها فى الخوف على ماله فهو يخاف كل شىء حتى هذه الصناديق التى يكنز فيها ماله فلا يأمنها ولا يطمئن إليها لأنها قد تسرق له المال الذى استودعها إيّاه ، فهو يكتم أهله ماله ويظهر لهم الفقر حتى لا يطمعوا فيه فهم فى نظره أعداء له وهم خونة يخونونه ، ويكتم الناس ماله حتى لا يهجموا عليه وحتى لا يقتلوه ولا يسلبوه.

قد تتفق العبقريتان : عبقرية العرب وعبقرية الإفرنجة فى وصف بعض حالات ظاهرة ، فبخيل « موليير » لا يريد أن يرى شيئاً من الإسراف والتبذير فإذا رأى على ابنه ثياباً فاخرة لامه ووبّخه ، ومثل هذه الحالات الظاهرة كثيراً ما نجدها فى

بخلاء الجاحظ وربما كان الجاحظ أوفر صوراً من « موليير » في هذا المعنى .

ولكن الجاحظ لم يتفنن في الكلام على حركات البواطن تفننه في الكلام على حركات الظواهر ، فإن بخيل «موليير » إذا سمع في بستانه كلباً ينبح سبق إلى ذهنه أن هذا الكلب ينبح لأنه رأى لصوصاً هجموا على الدار ليسرقوا ما فيها ، فهو ذو فكر ثابت لا يتغير ، إنه خائف على ماله ، مشغول البال بهذا المال .

أجل ، قد تتفق العبقريتان في تصوير الحالات الظاهرة ، فمن جملة هذه الحالات أن بخيل « موليير » وبخلاء الجاحظ لا يعرفون كلمة « خذ » ولكنهم يعرفون كلمة « هات » ، ومن جملة هذه الحالات أنهم يخافون على أثاث الدور من أن تمتد إليه الأيدي ويحذرون الناس من فرك الثياب حتى لا تتفزر ، ومن مسح الأواني حتى لا تتكسر ، ولا يريدون أن يكثر الضيف من الأكل ، فالإنسان يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل. هذه حكمة يريد بخيل « موليير » أن يكتبها بمداد من ذهب على مدخنته .

قد تتفق العبقريتان في هذا كله ولكن الاختلاف يشتد في

تصوير حركات النفس وفى تصوير قلقها واضطرابها وجنونها ؛ فإن بخيل « موليير » لما سُرِق ماله طار عقله وأخذ يصرخ هذه الصرخات الخالدة فى تصوير حالة البخيل النفسية : يا للسارق ! يا للقاتل ! يا للعدل ! لقد ضعت ! لقد قتلت ! لقد خنقونى ! لقد سرقوا مالى ! أين السارق ! أين مكمنه ! إلى أين أركض ! أهو هنا ! أهو هناك ! ويبلغ منه الجنون مبلغاً يظن فيه أنه سرق نفسه ، فيقبض على ذراعيه ، ثم يعرف هذا فيصرخ : اضطرب فكرى ! إنى أجهل من أنا ! وأجهل أين أنا ! وأجهل ما أعمل ! إلى آخر هذه الصفحة الخالدة فى رواية «موليير» .

قد يصعب علىّ أن أنحصر فى سطور آيات الجاحظ فى بخلائه وآيات « موليير » فى بخيله فما قصدى الاستقصاء فى هذا الباب ولا غايتى الموازنة بين الكاتبين وإنما تصديت للموضوع من وجه واحد ، فقد أحببت أن أبيِّن الفرق بين الأدبين ، أدب العرب وأدب الإفرنجة من حيث تصوير ظواهر النفس وبواطنها .

لقد نفذ « موليير » سخرية البشر ، فصوّر على المسرح عيوب الناس وكان يؤلمه أن يعيبوه بأنه فى التصاوير التى صورها كان يمر بباله واحد من أهل عصره ، فإن غايته كانت تصوير

الأخلاق دون الالتفات إلى رجل بعينه ، إن الصور التى عرضها إنما هى صور خيالية لا تمثل رجالاً حقيقيين ، أمّا الجاحظ فقد التقط فى بخلائه أحاديث أصحابه وأحاديث ما رآه بعينه ، فبخلاؤه منهم الصديق والولىّ ومنهم المستور والمتهتك ، وكان يؤلم «موليير» أن يرى وجه شبه بين صورة يعرضها على المسرح وبين صورة رجل من عصره لأن غايته كانت تمثيل العيوب بوجه عام وخاصة عيوب عصره وعلى هذا كان يتعذر عليه أن يصوّر صورة من دون أن يجد لها فى عصره رجلاً توافقه .

فالجاحظ لم تكن غايته تصوير البخل بوجه عام فبخيل الجاحظ لم يكن عالمياً ، وقد يجمع هذا البخيل طائفة من صفات بخيل كل العصور وكل البلدان ولكننا لا نرى عليه آثار القلق وشغل البال ، من هذا كله يتبين لنا أنا نحتفل فى أدبنا بالظواهر وأن الإفرنجة لا يكتفون بالظواهر وحدها فهم يتسربون فى البواطن ، وقد نبرع فى الاهتمام بالظواهر براعة خاصة فإن كل حكاية من حكايات بخلاء الجاحظ قد تكون موضوع رواية فى ذهن كاتب من كتّاب الإفرنجة ، فقد أتقن التدقيق فى ظواهر البخيل سواء أكان هذا البخيل يطبخ شاة أم يؤجر داراً أم يوصى ولداً أم يطعم ضيفاً أم

يسرج مصباحاً ، ولكنه هل أتقن التدقيق فى بواطن البخيل ؛ لاشك فى أنه عرف أسرار البخلاء وعرف دخائلهم ولكنه هل صوّر حركات هذه الدخائل، فإذا أعوز أدبنا شىء فإنما يعوزه هذا الطراز من التعمق الفلسفى الذى يكشف الغطاء عن حركات النفس بعد كشف هذا الغطاء عن حركات اليد والعين !

٤

تصوير الجاحظ للحسد

ولئن لم يتغلغل الجاحظ إلى أعماق أحد أمراض النفس وهو البخل ولم يكشف الغطاء عن حركات هذا المرض الباطنة وإنما اقتصر على حركاته الظاهرة فقد تعمق فى الكشف عن أسرار مرض آخر وهو الحسد ، فحلّ عناصره وفكّ أجزاءه ثم وصف ظواهره وبواطنه بوصف معالجته ، عرّف الجاحظ هذا الداء على الوجه الآتى :

« والحسد ، أبقاك الله من داء ينهك الجسد ويفسد الأود ، علاجه عسر وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض وأمر متعذر ، وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداويه فى عناء . . . »

وبعد أن فرغ من تعريف هذا المرض الذى ينهك الجسد ، أمعن فى تصوير نفس الحاسد ، فعرض هذه النفس فى أوضح معارضها وبين الأمور التى يشغل بها الحاسد نفسه :

« قال بعض الناس لجلسائه : أىُّ الناس أقلّ غفلة ، فقال بعضهم : صاحب ليل إنما همّه أن يصبح . فقال : إنه لكذا

وليس بكذا . وقال بعضهم : المسافر إنما همه أن يقطع سفره ، فقال : إنه لكذا وليس بكذا . فقالوا له : فأخبرنا بأقلّ الناس غفلة ، فقال : الحاسد إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التى أعطاكها فلا يغفل أبداً » .

لقد وضَّح لنا الجاحظ بهذا الكلام حقيقة صورة الحاسد ، فكل همّ الحاسد أن ينزع الله من ذى نعمةٍ نعمته .

ثم لجأ إلى تتميم هذه التعريفات الوجيزةِ ببيان صفات الحاسد ، مستعيناً بكلام بعض الأعراب : «نفس دائم، وقلب هائم وحزن لازم » .

هذه بواطن الحاسد ، أمّا ظواهره فلم يغفل عنها الجاحظ ، فقد قال :

« وما لقيت حاسداً قط إلاّ تبين مكنونه بتغير لونه وتخوص عينه وإخفاء سلامهِ والإقبال على غيرك والإعراض عنك والاشتغال لحديثك والخلاف لرأيك ».

ثم أمعن فى وصف هذا الداء الذى يغلب على ظاهر صاحبه وباطنه فضرب الأمثال الناطقة :

« وأنا أقول حقاً ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه

ولا قدر على تشحينه وكتمانه حتى يتمرّد عليه بظهوره و إعلانه فيستعبده و يستميله و يستنطقه لظهوره عليه فهـو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ومن السلطان على رعيته ومن الرجل على زوجته ومن الآسر على الأسير ، وكان ابن الزبير بالصبر موصوفاً وبالدهاء معروفاً وبالعقل موسوماً وبالمداراة متهوماً فأظهر بلسانه حسداً كان واظب عليه أربعين سنة لبني هاشم فما اتسع قلبه لكتمانه ولا صبر على اكتتامه لمّا طالت في قلبه طيلة أظهره وأعلنه مع صبره على المكاره وحمله نفسه على خسفها وقلة اكتراثه والتفاته لأحجار المجانيق التي تمر عليه فتذهب بطائفة من قومه ما يلتفت إليهـا ، حدثت بذلك عن علي بن مسهر ، عن الأعمش عن صالح بن حباب ، عن سعيد بن جبير قال : قدت ابن عباس حتى أدخلته على ابن الزبير قال : أنت الذي تؤنبني، قال : نعم، لأني سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول ليس بمؤمن من بات شبعاناً وجاره طاوٍ ، فقال له ابن الزبير : لئن قلت ذلك ، إني لأكتم بغضكم أهل البيت منذ أربعين سنة . فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنهما عسيبا نخلٍ ثم قال لابن الزبير : نعم ، فليبلغ ذاك منك ما عرفتك ، ولقـد

أجلت الرأى ظهراً لبطنٍ وفكرت فى جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسد فلم أجده ، وكانت وخزة فى قلبه فلم يبدها وفروع بنى هاشم حول الحرم باسقة وعروق دوحاتهم بين أطباقها راسية ، ومجالسهم من أعاليها عامرة ، و بحورها بأوراق العباد زاخرة وأنجمها بالهدى زاهرة فلما خلت البطحاء من صناديدها استقبله بما أكنّ فى نفسه ، والحاسد لا يغفل عن فرصته إلى أن يأتى الموت على رمته ، وما استقبل ابن عباس بذلك إلاّ لما رأى من تقدمه على أهل القدم ونظر إليه وقد أطاف به أهل الحرم فأوسعهم حكماً وثقبوا منه رأياً وفهماً وسبقهم علماً وحلماً » .

ولم يكتف الجاحظ بهذه الأمثال الناطقة ، فقد أخذ فى بيان أساليب الحاسد فى سيرته مع الناس :

« ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنياً أن يو بخه على المال فيقول : جمعه حراماً ومنعه أيتاماً وغلب عليه محاويج أقاربه فتركهم له خصماً ، وأعانهم فى الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر فقال ، لقد كفروا معروفك وأظهروا فى الناس ذمّك ، ليس أمثالهم يوصلون ؛ فإنهم لا يشكرون ، وإن وجد لهم خصماً

أعانه عليهم ظلماً ، وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشه أو تفضل عليه بمعروف كفره أو دعاه إلى نصير خذله وإن حضر مدحه ذمّه وإن سئل عنه همزه وإن كانت عنده شهادة كتمها وإن كانت منه إليه زلة عظمها ، يحب أن يُعاد ولا يعود و يرى عليه القعود . وإن كان المحسود عالماً قال : مبتدع لرأيه ، متبع ، حاطب ليلٍ ومبتغى نيل ، لا يدرى ما حمل ، قد ترك العمل ، فأقبل على الحيل ، قد أقبل بوجوه الناس إليه وما أحمقهم إذا انثالوا عليه فقبحه الله من عالم ! ما أعظم بليته وأقلّ رعيته وأسوأ طعمته ! وإن كان المحسود ذا دين قال : يتصنع أن يوصى إليه ، ويحج بشىء عليه ويصوم لتقبل شهادته ويظهر النسك ليودع المال بيته ويقرأ فى المسجد ليزوجه جاره ابنته ويحضر الجنائز لتعرف شهرته » .

وبعد هذا كله يعرض الجاحظ لنتائج الحسد الوخيمة فى المجتمع :

« منه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ومفرّق كل جماعة وقاطع كل رحم من الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء وملقح الشر بين الحلفاء . . »

ثم يصف لهذا المجتمع الدواء الذى ينبغى له أن يتداوى به اتقاء لشر الحاسد :

« وما أرى السلامة إلاَّ فى قطع الحاسد ولا السرور إلا فى افتقاد وجهه ولا الراحة إلاَّ فى حرم مداراته ولا الربح إلا فى ترك مكافأته فإذا فعلت ذلك فكل هنيئاً مريًّا وعش فى السرور مليًّا . »

* * *

وأظن أنا نستطيع بعد هذا الطرز من التحليل النفسى أن نقول : هل غادر الجاحظ من متردَّم فى باب الحسد !

٥

أبو حيّان التوحيدى

وإذا ذكرنا الجاحظ فى تصويره لطائفة من أمراض النفس فلا نستطيع أن نهمل ذكر أبى حيّان التوحيدى فإنه فى رأس نقاد الأخلاق وجهابذة الأحوال الذين قد فرّغهم الله لتتبع الأمور واستخراج ما فى الصدور واعتبار الأسباب فقد نجد فى كتابه : «الإمتاع والمؤانسة» بعض الصور كشف فيها عن الظواهر والبواطن أجتزئ فى هذا المقام بصورة الصاحب بن عبّاد ، فقد انتجعه أبو حيان وخبره وحضر مجلسه ووقف على أخلاقه ومذهبه وعادته وعلمه وبلاغته ، وقد يكون فى هذه الصورة شىء مما نسميه التحامل لأن أبا حيان اعترف بأنه رجل مظلوم من جهة الصاحب وعاتب عليه فى معاملته وشديد الغيظ لحرمانه فإذا وصفه انتصف منه ؛ ولو كان معتدل الحال بين الرضا والغضب أو عارياً منهما جملةً كان الوصف أصدق والصدق به أخلق ، على أنى لا أهتم بهذا الوصف من جهة أنه صادق أو غير صادق

وإنما أهتم به من جهته الفنية فقد كشف أبو حيّان عن حالة الموصوف العقلية وعن أخلاقه وعن مواطن الضعف فيه وعن السخرية به وعن حركات جسمه ، وفى هذا كله شىء من فنٍّ التصوير النفسى .

بدأ أبو حيّان بوصف عقل الصاحب بن عبّاد أو ثقافته على تعبير هذا العصر :

« إن الرجل كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد نتف من كل أدب خفيف أشياء وأخذ من كل فنٍ أطرافاً والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابته مهجّنة بطرائقهم ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد وليس عنده بالجزء الإلهى خبر ولا له فيه عين ولا أثر وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ويقول الشعر وليس بذاك وفى بديهته غزارة وأمّا رويّته فخوّارة ... »

لقد أحطنا فى هذه القطعة بمقدار ثقافة الصاحب بن عبّاد بالنسبة إلى العصر الذى عاش فيه ، وإذا شئنا أن نقف على مبلغ طائفةٍ من أخلاقه وشميه ومزاجه وسيرته فلنسمع ما قاله أبو حيّان .

« ولا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة والناس كلهم محجمون عنه لجرأته وسلاطته واقتداره و بسطته ، شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذىء اللسان ، يعنى كثيراً قليلاً (أعنى يعطى الكثير القليل) مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، بعيد الفيئة ، قريب الطيرة ، حسود حقود حديد وحسده وقف على أهل الفضل وحقده سار إلى أهل الكفاية ، أمّا الكتّاب والمتصرفون فيخافون سطوته وأمّا المنتجعون فيخافون جفوته وقد قتل خلقاً وأهلك ناساً ونفى أمّة نخوةً وتعنتاً وتجبراً وزهواً . . »

وبعد أن يفرغ من هذا الشكل من الوصف الخلقى والنفسى يأخذ فى بيان مواطن الضعف فى الصاحب :

« وهو مع هذا يخدعه الصبي ويخلبه الغبى لأن المدخل عليه واسع والمأتى إليه سهل وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أُعار شيئاً من كلامه ورسائل منثوره ومنظومه ، فما جبت الأرض إليه من فرغانة ومصر وتفليس إلا لأستفيد كلامه وأُفصح به وأتعلم البلاغة منه ، لكأنما رسائل مولانا سور قرآن وفقره فيها آيات فرقان واحتجاجه من ابتدائها إلى انتهائها برهان فوق برهان ، فسبحان من جمع العالم فى واحد وأبرز جميع قدرته فى

شخص ، فيلين عند ذلك ويذوب ويلهى عن كل مهم له وينسى كلَّ فريضة عليه ، ويتقدم إلى الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورق والورِق ويسهّل له الإذن عليه والوصول إليه والتمكن من مجلسه ، فهذا هذا . . »

ثم يمعن فى السخرية به :

« ثم يعمل فى أوقات كالعيد والفصل شعراً ويدفعه إلى أبى عيسى بن المنجم ويقول : قد نحلتك هذه القصيدة ، امدحنى بها فى جملة الشعراء وكن الثالث من المهج المنشدين ، فيفعل أبو عيسى وهو بغدادى محكك ، قد شاخ على الخدائع وتحنَّك ، وينشد فيقول له عند سماعه شعره فى نفسه ووصفه بلسانه ومدحه من تحبيره : أعد يا أبا عيسى ! فإنك والله مجيد ! زه ! يا أبا عيسى والله قد صفا ذهنك وزادت قريحتك وتنقحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا فى العيد الماضى ، مجالسنا تخرِّج الناس وتهب لهم الذكاء وتزيد لهم الفطنة وتحول الكودن عتيقاً والمحمرَّ جواداً ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنية وعطية هنية ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعاً ولا يزن بيتاً ولا يذوق عروضاً ... »

فإذا انتهى من هذه السخرية الأليمة ومن هذا التحليل الدقيق شرع فى تفصيل أسباب هذه المواطن الضعيفة :

«والذى غلطه فى نفسه وحمله على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه أنه لم يُجبَهْ قط بتخطئةٍ ولا قوبل بتسوئة ولا قيل له : أخطأت أو قصَّرت أو لحنت أو غلطت أو أخللت ، لأنه نشأ على أن يقال : أصاب سيدنا وصدق مولانا ولله دره ! ولله بلاؤه ! ما رأينا مثله ولا سمعنا من يقاربه ، من : ابن عبد كان مضافاً إليه ، ومن . ابن ثوابة ، مقيساً عليه ، ومن . إبراهيم بن العباس الصولى إذا جمع بينهما ، من : صريع الغوانى ، من أشجع السلمى إذا سلك طريقهما ومتح برشائهما وقدح بزندهما . . . »

وكأن أبا حيَّان قد أدرك أن وصف هذه البواطن كلها لا يتمّ إلا بشىء من وصف الظواهر فيعمد إلى حركات جسم الصاحب ابن عبَّاد فيوجز الكلام عليها .

« فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوّى ويتبسّم ويطير فرحاً ويتقسم ويقول : ولا كذا . . . ثمرة السبق لهم وقصرنا أن نلحقهم أو نقفو أثرهم ونشق غبارهم أو نرد غمارهم وهو فى كل

ذلك يتشاكى و يتمايل و يلوى شدقه و يبتلع ريقه و يرد كالآخذ و يأخذ كالمتمنع و يغضب فى عرض الرضا و يرضى فى لبوس الغضب و يتهالك و يتمالك و يتقابل و يتمايل و يحاكى المومسات و يخرج فى أصحاب السماجات . . . »

٦

مقامات الحريرى

ولم يقتصر أدبنا التفسى على التصوير والتحليل وإنما تصدّى لموضوعات أعم ، فإذا أحببنا أن نصرف النظر عما تضمنته مقامات الحريرى من جدّ القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله وغرر البيان ودرره ومُلح الأدب ونوادره أو عما وشحها به صاحبها من الآيات ومحاسن الكنايات ورصّعه فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجى النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبَّرة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية ونقتصر على الناحية الثانية التى توخاها وهى التنبيه والتهذيب وجدنا فى المقامات صوراً للأخلاق ولبعض المذاهب يخرج بها الحريرى عن أشكال الناس الظاهرة إلى صفاتهم الباطنة ، وقد كنت أودّ لو تمكنت من تلخيص بعض هذه الصور ولا بأس بالإشارة إلى صورتين منها ، لا شك فى أن العصر الذى نعيش فيه لا يتسع لهذا الطراز من الإنشاء ولكن غايتنا فى هذا المقام معنى الكلام لا مبناه ؛ فنى المقامة الرابعة الدمياطية نجد صورتين

متناقضتين لنوعين من سيرة الناس ولدهما الحريرى على لسان أبى زيد السروجى وابنه ، يقول صاحب الصورة الأولى :

« أرعى الجار ولو جار ، وأبذل الوصال لمن صال ، واحتمل الخليط ولو أبدى التخليط وأورى الحميم ولو جرّ عنى الحميم وأُفضل الشفيق على الشقيق وأفى للعشير وإن لم يكافىء بالعشير واستقل الجزيل للنزيل وأغمر الزميل بالجميل وأُنزل سميرى منزلة أميرى وأحل أنيسى محلّ رئيسى وأودع معارفى عوارفى وأولى مرافقى مرافقى وألين مقالى للقالى وأديم تسآلى عن السالى وأرضى من الوفاء باللفاء وأقنع من الجزاء بأقل الأجزاء ولا أتظلم حين أُظلم ولا أنقم ولو لدغنى الأرقم . . »

أما الصورة الثانية فإنها تناقض الأولى فإن صاحب هذا الرجل لما سمع هذا الضرب من الكلام قال له :

« لكن أنا لا آتى غير المواتى ولا أسم العاتى بمراعاتى ولا أصافى من يأبى إنصافى ولا أواخى من يُلغى الأواخى ولا أُمالى من يخيب آمالى ولا أبالى بمن صرم حبالى ولا أُدارى من جهل مقدارى ولا أعطى زمامى من يخفر ذمامى ولا أبذل ودادى لأضدادى ولا أدع إيعادى للمعادى ولا أغرس الأيادى

فى أرض الأعادى ولا أسمح بمواساتى لمن يفرح بمساآتى ولا أرى التفاتى إلى من يشمت بوفاتى ولا أخص بحبائى إلاً أحبّائى ولا أستطب لدائى غير أودّائى ولا أملك خلتى من لا يسد خلتى ولا أصفى نيتى لمن يتمنّى منيتى ولا أخلص دعائى لمن لا يفعم وعائى ولا أفرغ ثنائى على من يفرّغ إنائى ، ومن حكم بأن أبذل وتخزن وألين وتخشن وأذوب وتجمد وأزكو وتخمد، لا والله بل نتوازن فى المقال وزن المثقال ونتحاذى فى الفعال حذو النعال حتى نأمن التغابن ونكفى التضاغن وإلا فلمَ أعلّك وتعلّى وأقلك وتستقلّنى وأجترح لك وتجرحنى وأسرح إليك وتسرّحنى وكيف يجتلب إنصاف بضيم وأنَّى تشرق شمس مع غيم ومتى أصحب ودّ بعسف وأىّ حرّ رضى بخطة خسف . . . »

✡✡✡

هاتان صورتان تكاد تكون كل واحدة منهما تصويراً لنوع خاص من الحياة ، فنى الأولى صورة حياة إنسانية واسعة المدى ، مديدة الآفاق ، وإن كانت البشرية لم تصل بعد إلى هذا النوع من الكمال ، وفى الثانية صورة حياة أقرب من الحقيقة أى من الأمر الواقع ، ولست فى مقام الموازنة بين هذين النوعين من

السيرة ، ففى الحياة الإنسانية المذكورة فى الصورة الأولى أمور لو عملت بها أمة من الأمم فى عصر مثل عصرنا تتكالب فيه البشرية على المادة لذهبت هذه الأمة بين سمع الأرض و بصرها فإن الأمة التى لا تتظلم حين تظلم لجديرة بأن يهدمها الظلم فلا يبقى لها أثر . وفى الحياة الواقعة المذكورة فى الصورة الثانية أمور تصح أن تكون المثل الأعلى فإن الأمة التى لا ترضى بخطة خسف إنما هى أمة جديرة بالحياة ، والخلاصة أن الأدب فى هذا الشكل من الوصف قد عدل عن الأشكال الظاهرة وأخذ فى أعماق النفوس فإذا لم نقتصر فى المقامات على النظر إلى الوجهة الفنية وحدها ونظرنا إليها من الوجهتين الفنية والمعنوية وجدنا فيها نوعاً من الخواطر الفلسفية ، وقد تكون هذه الخواطر غير عميقة بالنسبة إلى عصرنا ولكن ليس بقليل أن ينشأ كاتب من كتّابنا فى القرن الخامس وأن تخطر بباله أمثال هذه الخواطر التى تصور نوعاً خاصًّا من السيرة والحياة ، ولست فى حاجة إلى الاستقصاء فى المقامات كلها و إنما اكتفيت بضرب المثل لا غير ، أما التوسع فى معرفة ما اشتمل عليه فريق منها من تصوير خلقى أو فلسفى فلا يتسع له مثل هذا الكتاب ولا ريب فى أن معالجة موضوعات

جليلة مثل الموضوعات التى عالجها الحريرى بأساليب مشتملة على بعض الهزل قد تزيد فى قوة التنبيه والتهذيب اللذين رمى إليهما صاحب المقامات فليس من الضرورى أن يكون التهذيب مُضجراً مقلقاً وقد كان أكابر كتّاب الإفرنجة وفى مقدمتهم « فولتير » يهذبون البشر بكتاباتهم وهم يهزلون و يسلُّون !

٧

فى عالم النفس

لا بأس بأن أختم الفصل الثانى من هذا الكتاب وهو الأدب النفسى بالكلام على الروح الفلسفى الذى استفاض فى أدب الإفرنجة، لعلنا نستطيع أن ندرك الفرق بين الروح الفلسفى فى أدبهم و بين تغلغل كتّاب أمثال الحريرى وأبى حيّان والجاحظ إلى أعماق النفوس ، فإن الحاجة إلى الفلسفة ماسّة فى كل زمن ، و إذا كان من الممتنع أن نعرف وجه الفلسفة فى المستقبل فليس من الممتنع على نحو ما قال « فاكه » أن نعرف أن الفلسفة خالدة فى كل عصر ، وأنها تقضى حاجة من حاجات العقل البشرى وتجمع المستنبطات العلمية فى نظام من الأفكار العامة العظيمة ، وتجتاز العلم ، فتبحث وتنقب على قدر الإمكان عن لغز الكون وسره ، فلا الفلسفة ولا علم ما وراء الطبيعة ينطويان فى يوم من الأيّام ؛ فالحياة لاقيمة لها كما قال « نيتشه » إلا من حيث أنها آلة المعرفة ، ومهما تطمح البشرية إلى المعرفة الجزئية فإنها تظل شديدة التطلع إلى المعرفة الكلية ، فلا تكلّ

فى سبيل الوصول إلى هذه المعرفة ، ولا تفتر رغبتها فيها .

* * *

للروح الفلسفى فى أدب الإفرنجة مظاهر شتى .

فمرّة يعرض كتّابهم لنفس المرأة فيمعنون فى بواطن هذه النفس حتى تنكشف هذه البواطن للعيون كما فعل « بورجه » فى روايته « أكاذيب » فإنه لمّا قال فى بعض مواطن هذه الرواية : « من النساء طائفة لهنّ أساليب سماوى فى الإغضاء عن انبساطات ينبسطها الرجال فى حضرتهن . . . » كشف الغطاء عن حيلةٍ خالدة من حيل النساء .

ولمّا قال فى الرواية ذاتها : « تشعر النساء بفرح عظيم إذا قلن فى شيء من الابتسام حقائق لا يؤمن بها الرجال الذين يسمعونها منهنّ ، فإنهنّ يشعرن فى مثل هذه الحال بقليل من الخطر الذى يهزّ أعصابهنّ هزاً لذيذاً . . . » عرض ملاحظة ثمينة فى معرض حديث أصاب فيه كلّ الإصابة .

ولمّا قال أيضاً : « كلما قلّ نصيب استحقاق النساء للشفقة عليهنّ ازدادت رغبتهنّ فى خلق هذه الشفقة فى القلوب

و إلمام هذه القلوب إياها . . . » صوّر طائفة يسيرة من روح المرأة فى صورة جديدة .

لقد كان « بورجه » أستاذ الروايات النفسية . إنها وصف النفوس وحالاتها ونشوؤها وتحوّلها وصفاً قوياً تعمق فيه كل التعمق، ففى روايته «أكاذيب» وصف كيف يكون حب النساء المنصرفات إلى الملاذ ، أو حبّ النساء المنخفضات فى عصرنا هذا . وفى روايته « التلميذ » وصف ماذا تستطيع أن تنشئه العقيدة الفلسفية فى النفس التى عزمت على أن تطابق بين فكرها وعملها ففى هذه الرواية مائة وخمسون صفحة فى التحليل تكاد تكون أعجب ما كتب فى هذا الباب .

ومرّة يعرضون لتصوير غرائز النساء اللواتى يندفعن فى أعمالهنّ مطيعات لحمهنّ ودمهنّ ، إنهنّ ألاعيب الطبيعة وهنّ يجهلن القوة التى تدفعهنّ . و إلى القارىء صورة عاطفة من عواطف أحد الأشخاص الذين صورهم « موباسان » فى قصته : « اليد اليسرى »: « هل تعلم هذه المرأة فى معظم الأحوال ، هل تعلم هاته النساء، حتى أدقهنّ نظراً وأشدهنّ تراكباً لماذا يعملن!

إنهن يجهلن ذلك كما يجهل الدولاب لماذا يدور فى الهواء ، فكما تهب ريح غير محسوسة على هذا الدولاب فتدير سهمه المركب من حديد أو من نحاس أو من خشب فكذلك يظهر عامل من العوامل لا تدركه الحواس فيحرك قلب النساء المتقلب ويدفع هذا القلب إلى عزيمة من العزائم ، سواء أكانت هذه النساء من المدن أم من الأرياف أم من الضواحى أم من الصحراء .

وبعد هذه الحركات يستطعن أن يدركن ، إذا كنّ يعقلن ويفهمن ، لماذا عملن هذا الأمر بدلاً من ذاك ، أما فى وقت تحركهنّ للعمل فإنهن يجهلن سبب التحرك لأنهنّ ألاعيب حواسهنّ العجيبة فهن عبدات طائشات يخضعن للحوادث وللبيئات وللانفعالات وللاتفاقات التى تهتز منهنّ نفوسهنّ ولحمهنّ ! »

وفى بعض الأحايين يتصدّى الكتّاب لمرض من أمراض النفس فيصفون مبلغ تأثيره فى النفس ، قال « أناتول فرانس » فى وصف الحسد :

« يعمل فينا الحسد عمل الملح فى الجليد ، إنه يحل تجاليد الإنسان بمجامعها ويعجّل فى حلها تعجيلاً راعباً ، فمثل الحاسد كمثل الجليد فإن الحاسد ينحل فى الوحل ، فالحسد نوع من العذاب

والنار ، والحاسد محكوم عليه بالعذاب الذى يصيب من يريد أن يعرف كل شىء وأن يرى كل شىء ! »

ومرّات يصف كاتب من الكتاب مزاجاً من الأمزجة فيتجلّى فى هذا الوصف روح عقيدة فلسفية بجملتها كما تجلى روح التفاؤل فى وصف السيدة « سارمى » لمزاج والدها فى مقال علق منه بالحفظ ما يلى :

« كان أبى ينهض بأعباء الحياة الثقيلة والابتسامة على شفتيه فقد كان جذل الظاهر والباطن يستقبل المحن وهو هادئ البال حتى كنت أقول فى نفسى : أفلم تجر دمعة فى قلبه ، وكان ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن فإذا حدث حادث واستطاع بعده أن يغط قلمه فى الحبر ويتم مقاله الذى بدأ به لم يبال بهذا الحادث مهما يكن عظيماً ، ومن رأيه أن لا يهتم الإنسان بأمر قيمته نسبية ، فالذين هم من هذه الفطرة سعداء لأنهم يفخرون بسكوتهم فى آلامهم ؛ كان قوىّ الطبع ، وما دام قادراً على أن يعارك ويعلم ويقرع الناس ويقرعوه ويغمزهم ويغمزوه فالحياة فى نظره حسنة طيبة » .

ولكن التعمق فى التحليل لا يظهر فى شىء ظهوره فى وصف

حالة من حالات النفس كالفرح والكآبة والتغلغل إلى هذه الحالات وكشف الغطاء عن دقائقها المتباينة .

شهد مرّة « أناتول فرانس » رواية : هاملت ، فى المسرح الفرنسى فى باريز ، فتكلم على هذه الرواية فى كتاب من كتبه الخالدة : « الحياة الأدبية » قال فى جملة كلامه مخاطباً هاملت نفسه : لقد شعرت فى رؤيتى إياك يا أميرى بفرح كئيب ، وهو أكثر من الفرح الفارح !

قسم « أناتول » الفرح فى عبارته هذه قسمين : الفرح الكئيب والفرح الفارح أو الفرحان ، وهذا غاية فى دقة التحليل .

ومن هذا القبيل قوله فى الكآبة ، وقد تكلم على كتاب من كتب « لوتى » فقال :

« قصّ علينا « لوتى » أنباء الأسابيع الأخيرة التى قضاها فى بلاد اليابان ، إن فى قصَصَه هذا صفحات منتخبة ، لكنها غاية فى الكآبة ، وسواء أوصف البلد المقدّس « كيوتو » وألمح إلى معابده الآهلة بعجائب المخلوقات من قديم الدهر ، أم صوّر الجماعات الحسان فى « يدو » التى تنسحب على أذيال أوربة فى أزيائها

ورقصها ، أم مثّل لنا الإمبراطورة في سحرها الغريب ، إنه ينشر في صفحاته كآبة غامضة دقيقة نافذة ، تغشى قلبك كما يغشى الضباب الجوّ !

فغموض الكآبة ودقتها ونفاذها غاية في التعمق في معرفة حالات النفس .

وكما كانت الكآبة في هذا المقام غامضة دقيقة نافذة ، فقد كانت في مقام آخر ذات صفات مختلفة عن هذه الصفات ، فقد تكلم « أناتول » مرّة على « فلورى » الذى كان له في النقد الأدبي وفي الصحافة المقام الأول ، كفّ بصر « فلورى » في أواخر عمره ، فكان يزوره « أناتول » في داره ، وفي زيارة من هذه الزيارات طاف « فلورى » حول مكتبته و « أناتول » قابض على ذراعه ، يدله على الطريق ، فكان « فلورى » يضع يده على كتاب من الكتب فيعرفه بمجرّد اللمس ، و إنه ليضع هذه اليد على كتاب اسمه : شيشرون ، إذ أخذت هذا الشيخ هزّة ، و بعد أن ذكر لأناتول تأريخ هذا الكتاب وكيف صار إليه قال أناتول :

« و إنه ليتكلم إذ بلّل الدمع عينيه ، وكنت معه وحدى

لا يراه غيرى ، فلمسنى بيده ، فكأنما اجتمعت لى الشيوخ كلهم فى صورته ، أفلا تلفنا ذكريات شبابنا الطائر بكآبة لطيفة لذيذة فى خاتمة حياتنا !» .

فأضاف « أناتول » إلى الكآبة فى هذا الموضع صفات اللطف واللذة ، وفى موضع آخر جعل لها صفات تختلف عن كل ما تقدم ، فقد نشر «موباسان» قصصاً سمَّاها : «اليد اليسرى» فى الوقت الذي نشر فيه « لوتى » رحلته إلى اليابان وسمَّاها : «يابانيات الخريف» . فقال «أناتول» فى قصص « موباسان » :

« إنها تترك فى القلب أثر الكآبة ولكن « موباسان » لا يفصح مثل « لوتى » عن كآبة الأشياء ، ولا يظهر عليه أن تفاوت قوانا وآمالنا يعمل فيه عمله ، فالحقيقة أنه خال من القلق على أنه ليس بجذل ، فالكآبة التى ينشرها إنما هى كآبة بسيطة، قاسية ، صافية ! »

وكما يتجلى روح الفلسفة فى إمعانهم فى بواطن النفس ، وفى كلامهم على الغرائز وفى تصويرهم للأهواء وفى وصفهم للأمزجة وفى تحليلهم لحالات النفس ولدقائق هذه الحالات فكذلك يتجلى هذا الروح الفلسفى فى تعليلاتهم ، فبعد أن تكلم « أناتول »

على كآبة « لوتى » و « موباسان » أخذ يبسط أسباب هـذه الكآبة فقال :

« لقد أكلنا ثمر شجرة العلم ، ولم يبق منه فى الأفواه إلا طعم الرماد ، وضربنا فى مناكب الأرض وخالطنا أمماً شتى منها السود والحمر والصفر ، وبان لنا اختلاف البشرية ورأينا أن هـذا الاختلاف أعظم مما كنا نتصوره ووجدنا أنفسنا أمام إخوان أجانب لا تشابه أرواحهم أرواحنا إلا بقدر ما تشابهها أرواح الحيوانات ، ثم جلنا فى الأحلام كل مجال فقلنا : ما هذه البشرية التى تتغير سحناتها وأرواحها وآلهتها بتغير مباءاتها ، ولمّا كنّا لا نعرف من الأرض إلا حقولها التى كانت تدرّ علينا الخيرات كانت هذه الأرض كبيرة فى أعيننا فلمّا عرفنا مقامها فى العالم تصوّر لنا صغرها فقد علمنا أنها ما كانت إلا قطرة طين، فوضع هذا العلم منّا ، وكنّا محمولين على الظن بأن أشكال الحياة والعقل كانت أعظم مما تمثّل لنا وأن فى الكواكب والعوالم بمجامعها مخلوقات تفكر ، ففهمنا بعد ذلك أن عقلنا صغير . الحياة فى ذاتها لا طويلة ولا قصيرة ، فالرجال الذين تغلب عليهم البساطة فيقيسونها بالنسبة إلى مدتها الوسطى يقولون وحقاً

ما يقولون إن الإنسان إذا مات بعد أن يخطه الشيب فقد شبع من عمره. أمّا نحن فماذا صنعنا، فقد شئنا أن نحزر عمر الأرض القديم وعمر الشمس وها نحن الآن نقيس حياة البشر على أدوار طبقات الأرض وعلى أعمار العوالم فرأينا بعد هذا القياس أن الحياة قصيرة، غرقنا فى بحر الزمن والمسافة، فتبيّن لنا أنّا لم نك شيئاً فثقل علينا هـذا الأمر ولم نشأ أن نقول شيئاً لـكبريائنا فاصفرّت وجوهنا، والخطب الجلل أن إيماننا ذهبَ بذهاب جهالتنا الحسنة، ذهب رجاؤنا واضمحلّ أملنا، فلم نؤمن اليوم بالذى كان عزاء لآبائنا، وهذا شديد علينا، فقد كان الإيمان بجهنم نفسها يطيب و يعذب.

ومِمّا زاد فى بؤسنا أن تكاليف الحياة المادية أصبحت أثقل من قبل، فإن الجماعات الحديثة قد جوّزت ضروب الأمانى، فاستثارت بذلك مجهود الإنسان، وأصبح التزاحم على الحياة أشدّ من كل دهر، وصار الظافرون فيها أكثر حمقاً، والمنكسرون أعظم انكساراً، لقد أضعنا حبّ الخير بضياع الإيمان والرجاء، وكانت هذه الفضائل الثلاث تحمل الأرواح البائسة على ظهر هذا البحر، بحر العالم، فمن الذى يأتينا اليوم بالإيمان والرجاء وحب الخير! »

١
الأدب الوطنى

إذا كان حسُّ الطبيعة فى الأدب يؤدى إلى التعلق بالأشكال الظاهرة ويصرف العيون عن الأشكال الباطنة على نحو ما تقدمت الإشارة إليه فإنه من جهة ثانية يقوى صلة المرء بوطنه ، وهذه فضيلة من فضائله غير قليلة ، وأعنى بالصلة الوطنية فى هذا المقام ما يعنى بها شارل موراس فى كتابه : أفكارى السياسية ، فالوطنية فى رأيه إنما هى الحنو على بقاع الوطن وتقديس أرض الأجداد والفضيلة التى تشتمل عليها الوطنية إنما هى حماية هذه الأرض ودفع الأجنبى عنها .

فالفرق بين الوطنية وبين القومية ظاهر ، فالقومية بدلاً من أن تكون غايتها محبة أرض الآباء والأجداد فإن غايتها محبة الآباء أنفسهم والحنو على دمهم وعلى ما أورثونا إياه من آثار عقولهم وأخلاقهم . . .

فالأدب الوطنى عبارة عن تصوير هذا الحنو الذى أشار إليه « موراس » فى تعريفه وهذا التقديس الذى ذكره . إن تعريفاً

مثل تعريف « موراس » للوطنية يخلو من كل تزويق ، فالوطنى من يحنو على أرض آبائه وأجداده ويقدس هذه الأرض ويدفع الأجنبي عنها ، وعلى هذا الشكل فإن أساتيذ الوطنية إنما هم الكتاب والشعراء لأنهم يستطيعون وحدهم أن يتغنوا بوطنهم وأن يعلموا الناس محبة أشكال هذا الوطن وألوانه وأن يحملوهم على ذوق محاسن هذه الأشكال والألوان ، وعلى ما به فكل وطنية مجردة من هذا الحنو ، منسلخة من هذا التقديس إنما هى وطنية فارغة ، وعبثاً يحاول السياسى أن يدعى هذه الوطنية فمهما تكن أساليبه فى هذه السبيل بارعة فإن وطنيته لا تكون صحيحة إلا إذا كانت مبنية على محبة أرض آبائه وأجداده ، إنا لا ندفع الأجنبي عن أرضنا إلا إذا أشربت قلوبنا محبة هذه الأرض وتسلسل هذا الحب أحقاباً طويلة ، ولا يحسن إفراغ هذه المحبة على قلوبنا مثل الكتاب والشعراء ، فهم القادرون على تصوير محاسن الوطن ، وهم القادرون على قذف محبته فى نفوسنا ، فلنقدس الأدب إذا أردنا تقديس الوطن . . .

لننظر كيف كان كتابنا وشعراؤنا يحنون على أوطانهم فى متعاقب العصور .

٢

فى الجاهلية

آثرت العرب فى القديم سكنى البوادى والحلول بالبيداء ، فلم تنحصر فى المدن والأبنية ، فتراها فى خلال السنة تنتقل من برّ أفيح إلى مثله ، فهى تسكن حيث تشاء دون أن تكون محكّمة فى الأرض ، فعافت الأبنية والتحويط وفضّلت التصرف فى الأرض والجولان فيها ، فلم تألف وطناً بعينه ، وإنما لها فى خلال فصول السنة أوطان شتى ، وعلى الرغم من هذا الجولان فى الأرض نرى شعراء الجاهلية قد بكوا على عفاء ديارهم وانمحاء منازلهم وانقطاع دمنهم وحنّوا إلى ديارهم ، وليس من الضرورى الاستقصاء فى أشعارهم حتى نعرف هذا البكاء وهذا الحنين فلا تكاد قصائدهم تخلو من آثار هذا كله .

إنى إذا ذكرت قول امرئ القيس :

بكى صاحبي لمّا رأى الدرب دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا

أدركت السرّ فى هذا البكاء فكأنما صاحب امرئ القيس قد مرّ بوطن غير وطنه ونزل بأهل غير أهله فاجتاز جبالاً وآجاماً

لا عهد له بمثلها من قبل فغلبت عليه الوحشة ، تلك الوحشة التى تغلب على صاحبها إذا ترك ربوعه ومرّ بأماكن قد خلعت عليها الطبيعة جلابيب العظمة مثل جبال طوروس التى مرّ بها صاحب امرىء القيس ومثل غابات الأناضول ، ولمّا أدركته الوحشة حنّ إلى أهله وبكى على فراق وطنه وودّ لو حملته الرياح إلى مضاربه . . .

لقد اشتمل شعر الجاهلية على أشياء غير قليلة من هذا النوع أكتفى بالإشارة إليها حتى قال الجاحظ فى الحنين إلى الأوطان : وترى الأعراب تحن إلى البلد الجدب والمحل القفر والحجر الصلد وتستوخم الريف ، وترى الحضرى يولد بأرض وباء وموَتان وقلة الخصب فإذا وقع ببلاد أريف من بلاده وجناب أخصب من جنابه واستفاد غنى حن إلى وطنه ومستقره .

٣

وطن محمد

ثم جاء القرآن وجاء بإشارة إلى منزلة الوطن فى النفوس ، فمن آياته البينات : « ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم » . فقرن الضنّ بالأوطان إلى الضنّ بمهج النفوس .

وإذا بحثنا عن الوطن الذى نشأ فيه سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فإنا نجد أن أرض هذا الوطن لم تضحك سماؤها ولا اخضلّ شجرها ولا رفّت تعاشيبها ولا ماجت أنهارها وإنما نشأ فى صفاح جبال سودٍ تدخل الكآبة على القلوب تحت سماء كامدة اللون ، بين صحارى صاهرة الشمس لا تأنس فيها العين بخضرة ربيع أو صفرة خريف ولا تنعم فيها الأذن بنوح عندليب أو بحفيف ورق أو بخرير ماء ، فقد حرم الله سيدنا محمداً محاسن الطبيعية التى تفتح العقول وتلهم العبقريات وتوحى الكمالات .

وكأنى لا أزال أرى غار حراء الذى كان يتحنث فيه ، هذا الجبل الأسود الذى لم ينبت فيه نبت ولا اهتز فيه شجر كأنى لا أزال أرى هذا الغار الذى كان يفزع إليه فى خلواته هارباً من ضوضاء الحياة ، راغباً فى هدوئها . كنت أقول فى نفسى وأنا فى صفح حراء أفى مثل هذا الغار تنبثق عبقرية أم يبرع فضل أم يصفو ذوق أم ينمو شعور أم ترق عاطفة ، وإنى لا أذكر الطبيعة التى نعمت برؤيتها فى إيطالية وسويسرة وفرنسا وإنجلترة ولا أفكر فى هذه العبقريات التى نشأت فى سهولها المديدة بين جبال شجيرة وأنهار مائجة وبحيرات باسمة وحدائق غلب إلاّ ازدادت معجزة سيدنا محمد عظمةً فى عينى . أى رسالة توحى جبال مكة والمدينة ، أى نبوّة تلهم هذه القفار الرهيبة والرمال المتراكبة !

وعلى الرغم من هذا كله كان سيدنا محمد يحب جباله المظلمة وقفاره الصاهرة وسماءه العابسة ، وسواء عليه أرفت الطبيعة تحت سماء مكة أم كدت ، وسواء عليه أنضّرت جبالها بالشجر أم جرّدت تجريداً ، وسواء عليه أ آذته مكة أم لم تؤذه ، أنه أحبّ

كآبتها وظلمتها وكمدتها وأذّن فى الناس بالحج إليها فأتوها رجالاً وعلى كل ضامرٍ من كل فج عميق فَشهدوا فيها منافع لهم وذكروا اسم الله فى أيَّام معلوماتٍ وقضوا تفَثَهم وأوفوا نذورهم وطوفوا بالبيت العتيق !

٤

أبو قطيفة

وإذا تغلغلنا فى أدبنا وجدنا أن هذا الأدب لم يخل من الحنوّ على بقاع الوطن وتقديس أرض الآباء والأجداد. وإذا كان المقام يضيق عن إشباع الكلام على الشعراء والكتّاب الذين حنّوا على أوطانهم وقدّسوها تقديساً فلا أقلّ من إشارةٍ مختصرة إلى بعضهم حتى نستطيع أن نقابل بين بعض أدبنا الوطنى وبين بعض أدب الإفرنجة فى هذا المعنى .

***

أبو قطيفة شاعر من شعراء بنى أُمية أخرجوه من ثلاثة عشر قرناً من وطنه ، فأذاب الهمّ قلبه وأتى عليه فرط النزاع على نحو ما يصيب الذين يحوّلونهم إلى غير أوطانهم .

لما شمّر عبد الله بن الزبير للخلافة ودعا الناس إلى بيعته نفى بنى أُمية عن المدينة إلى الشأم .

وكان أبو قطيفة المعيطى مع من نفاهم ، وأبو قطيفة هذا من العنابس ، من بنى أُمية .

قدم الشام أبو قطيفة وفيها بنو أمية ، فيها عزّ خلافتهم وبشاشتها ، فهل ألهته قصور يزيد بن معاوية فى دمشق عن قصور المدينة وآطامها ؟

القصر ، فالنخل ، فالجماء بينهما أشهى إلى القلب من أبواب جيرون
إلى البلاط فما حازت قرائنه دور بعدن عن الفحشاء والهون !

فلم تشغله أبواب جيرون فى ظلال مسجد بنى أمية فى دمشق عن قصر سعيد بن العاص وعن نخله ، وعن الجمّاء وغير ذلك من أماكن المدينة .

يبعد المرء عن مائه وأرضه وسمائه ، وقد يَرِدُ ماء أعذب من مائه وترحِّب به أرض أكرم من أرضه ، وتظلّه سماء أضحك من سمائه ولكن المرء لا يبعد عن أى ماء ولا عن أية أرض ولا عن أيّة سماء ، وإنما يبعدونه عن هذا الماء الذى ورده آباؤه وأجداده وعن هذه الأرض التي اشتملت على عظام قومه ورفاتهم وعن هذه السماء التى باركت لهؤلاء القوم ، إنهم يبعدونه عن لحمه ودمه وعظمه ، عن منابت فكره وشعوره وعاطفته !

هل كان يعوز أبا قطيفة وهو فى دمشق بين إخوانه وعشيرته شيء من عذوبة الماء ورقة الهواء وحسن السماء ؟ أما كان فيها

عزيز الجانب موفور الكرامة والخليفة أموى والقوم أمويون !

أجل ! كان يعوزه شىء أعظم من هذه الأمور المادية ، كان يعوزه مراتع رتعت فيها أفكاره وعواطفه فى صباه .

فلننظر كيف كان يذكر هذه المراتع التى رتعت فيها خواطره فى الماضى .

لمّا حنّ وهو فى دمشق إلى القصر وإلى النخل وإلى الجمّاء كانت عاطفته فى هذا الحنين مجرّدة من كل تزويق ، فالمدينة أشهى إلى قلبه من أبواب جيرون فى دمشق ، وإذا أحببنا أن نستنبط علّة هذه الشهوة وجدنا أن السبب فيها بُعد دور المدينة عن الفحشاء والهوان !

عاطفة بدوية ، منزّهة عن الفحشاء ، خالصة من الذل ، هذا شكل من شعر أبى قطيفة الوطنى فلنلتمس لنا شكلا آخر من هذه الوطنية :

بكى أحد لما تحمل أهله فكيف بذى وجد من القوم آلف

من أجل أبى بكر جلت عن بلادها أميـــة والأيام ذات تصارف

وأبو بكر هذا إنما هو عبد الله بن الزبير ، فقد كان يكنى بأبى بكر ، ففى هذا الشعر شكل غـير الشكل الأول ،

لقد جعل أبو قطيفة فى هذه الأبيات حياةً للطبيعة على نحو ما يفعله شعراء الإفرنجة فى فيض خواطرهم وصوب قرائحهم ، فقد شرك الطبيعة فى عاطفته وشعوره وألمه ، لقد استحكمت الألفة بين جبال المدينة و بين الذين أُخرجوا منها ، فبكت هذه الجبال بعد جلائهم وحنّت إليهم .

كان أبو قطيفة فى دمشق مشغول الفكر ، لا يدرى هل بقيت قصور وطنه على حالها أم تغيّرت :

ليت شعرى ،هل البلاط كعهدى والمصلّى إلى قصور العقيق !

لقد كان فى هذا الشعر الكريم يخرج من هذا النوع من الوطنية إلى نوع آخر من القومية فكما بكى على أرض آبائه وأجداده وحنّ إليها فكذلك بكى على قومه أنفسهم واشتاق إليهم:

وهل برحت بطحاءَ قبر محمدٍ أراهط غُرّ من قريش تباكره
لهم منتهى حبى وصفو مودّتى ومحض الهوى منى وللناس سائره

وقد ردّد هذه النغمة فى مقام آخر حيث قال :

أقطع الليل كلّه باكتئابٍ وزفير ، فما أكاد أنام
نحو قومى إذ فرّقت بيننا الدا رُ وحادت عن قصدها الأحلام
خشية أن يصيبهم عَنَت الدهـــــــر وحرب يشيب منها الغلام

فما أرقّ هذه القومية ! لا يكاد أبو قطيفة يملكه غمض الليل وهو فى دمشق ، ولماذا هذا الأرق ؟ إنه يخشى أن يصيب قومه عَنَت الدهر ، وإنه يخشى الحرب بينهم فهو كئيب البال الليل كله ، لقد كان قلبه مشتتاً فى الحنين إلى أرضه مرّة و إلى قومه مرّة ، كان مشغول الفكر بالحجاز يضرب بعينه إلى السماء حتى إذا رأى السحاب متوجهاً نحو الحجاز هاج شوقه واشتد نزاعه:

إذا برقت نحو الحجاز سحابة ... دعا الشوق منى برقها المتيامن

لم تقع عينى من شعر أبى قطيفة إلاّ على أبيات قلائل فى الأغانى ، ولكن هذا القدر اليسير من الشعر يحتوى على أشياء كثيرة من الوطنية ، و إذا كانت الوطنية على مصطلح عصرنا ضرباً من الحنو على بقاع الوطن وتقديس أرض الآباء والأجداد فأبو قطيفة قتله هذا الحنوّ والتقديس ، لقد جمع فى شعره بين الوطنية والقومية ، فتغنى بأرض آبائه وأجداده و بكى على عشيرته و إخوانه وما أشد الحالة التى كان فيها بعد أن أخرجوه من المدينة وقذفوا به إلى الشام :

أحنّ إلى تلك الوجوه صبابةً ... كأنى أسير فى السلاسل راهن

وهل من حالةٍ أشد من حالة الأسر ، فكيف يكون ليل

الأسير ونهاره إذا كان هذا الأسير شاعراً رقيق القلب ، لطيف الحس ؟ والمؤلم فى هذا كله أن أبا قطيفة بعد فرط هذا الحنين وبعد هذه الدموع التى سكبها على وطنه وعلى قومه أذن له ابن الزبير فى الرجوع إلى المدنية لأنه عطف عليه لما بلغه شعره وقال : من لقيه فليخبره أنه آمن ، فليرجع ، ولكنه مات فى الطريق قبل أن يتمتع من هذه الأرض التى أحبَّها ومن هؤلاء الإخوان الذين أحبَّهم .

إلاَّ أن حبَّه لأرضه وعشيرته لم يمت ، فقد بقى خالداً فى هذه الأبيات القليلة التى تناهت إلينا ، وهذا صداه بعد أن أتى عليه ثلاثة عشر قرناً ، فرحم الله شاعرنا الأموى ورحم الله وطنيته الكريمة .

٥

الجاحظ — البحترى — ابن الرومى — المتنبيء

ثم جاء عصر بني العباس ، فاختمرت الفكرة الوطنية فى القلوب ، حتى ألف بعض الكتاب رسائل خاصّة فيها ، ورسالة الجاحظ فى الحنين إلى الأوطان مشهورة وهو الذى يقول فيها :

« وأنت لو حوّلت ساكنى الآجام إلى الفيافى، وساكنى السهول إلى الجبال ، وساكنى الجبال إلى البحار وساكنى الوبر إلى المدر لأذاب قلوبهم الهم ، ولأتى عليهم فرط النزاع » .

فالجاحظ الذى يقول مثل هذا القول صاحب نزعة وطنية ، وقد ذهب فى نزعته مذهباً بعيداً ، فجاز من وطنه الأصغر وهو البصرة إلى وطنه الأكبر وهو جزيرة العرب ، فمن بعض كلامه : «وأنا أقول فى هذا قولاً وأرجو أن يكون مرضياً ولم أقل : أرجو ، لأنى أعلم فيه خللا ، ولكنى أخذت بآداب وجوه أهل دعوتى وملتى ولغتى وجزيرتى وجيرتى وهم العرب ! » .

فما أعذب قوله : دعوتى وملتى ولغتى وجزيرتى وجيرتى ! ما أعذب هذه الياءات كلها ! إنها تدل على ولع صاحبها بقومه

وكَلَفه بوطنه ولهجَه بلغته ، فقد جعل من جزيرة العرب ملكاً خاصًّا به حبس عليه قلبه .

* * *

وكان البحترى متشوقاً يتذكر أُلافه ، وكانت له نفس تتبع أوطانها ، فقلبه فى أدبه الوطنى رقيق ، وشعره فى هذا المعنى نضير اللون لأن صاحبه ربيب الحضارة والحدائق والقصور فإذا حنّت ركابه وهو فى العراق إلى الشأم فقد كانت تحن لأنها يشوقها برد الشأم وريفه وتشوقها مدافع الساجور وتقابل تلاعه وكهوفه على ضفتيه فطالما هاجه خيال زاره من هذه الأماكن كلها ، ما يغب مطيفه ، وطالما حنّ إلى قصور البليخ وأفدانها وإلى صوامع زكّى ورهبانها .

* * *

أمّا ابن الرومى فقد كان الناس يتشوقون إلى أوطانهم ولا يفهمون العلّة فى ذلك حتى أوضحها لهم فى قصيدة لسليمان بن عبد الملك بن طاهر يستعديه على رجل من التجار أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرها :

ولى وطن آليت أن لا أبيعه وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا

عهدت به شرخ الشباب ونعمة كنعمة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إليهمُ مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمُ عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

فوطنيته فى هذه الأبيات قريبة من وطنية عصرنا هذا .

* * *

ولقد تغنَّى المتنبىء بجزء من أرض آبائه وأجداده على الرغم من تردده فى الحنين إلى الوطن ، وعلى الرغم من تناقضه أحياناً فى هذا الحنين ، فقد أحبَّ حمصاً إلى خناصرة لأن كل نفس تحب مَحْياها ، وتذكّر مصيفه فى حمص ومشتاه فى الصحصحان على النحو الذى يصيف عليه أهل البدو ويشتون فالأثر الذى أبقاه فى أدبه الوطنى إنما هو أثر بدوى لأنّ أبا الطيب كان ابن البادية وربيب القبائل ، وقد بقيت فى ذهنه صور البادية كل عمره فــلا يهمه فى مصيفه فى حمص ومشتاه فى الصحصحان إلاّ روضة ترعاها خيله وحِلّة يغزوها وعانة يصيدها وقطعة من الإبل يسطو عليها !

٦

ابن الساعاتي

ولكن الشاعر الذى كان منقطع النظير فى النزعة الوطنية إنما هو ابن الساعاتى .

لم يختم الشعر بالمتنبىء ، ولا ختم بالمعرى ولا بالشريف الرضى ولا بكشاجم ولا بابن الخياط الدمشقى . لقد ظهر شعراء بعد هذه الطبقة المبرزة المبدعة ، ولئن كان لكل واحد من المذكورين ميدان يجول فيه وأفق يطير إليه ، فقد ظهر بعدهم شاعر انفرد بميدانه و بأفقه ، ظهر ابن الساعاتى الدمشقى فى القرن السادس ، عصر صلاح الدين الأيوبى ، وأخلق بشاعر مثل ابن الساعاتى ، ينشأ فى عصر مثل عصر صلاح الدين أن يأتى بقلائد تشبه قلائد المتنبئ فى سيف الدولة ، لئن كان سيف الدولة حصناً حصيناً فى وجه الروم ، لقد كان صلاح الدين مثل هذا الحصن فى وجه الصليبيين ، ولكن سيف الدولة خلقه الله وخلق له المتنبئ حتى يخلد غزواته وحروبه ، فهو وشاعره متلازمان ، أما صلاح الدين فلم يكن له نصيب من ابن الساعاتى فى تخليد حروبه فليس لنا

أن نفتش فى شعر ابن الساعاتى عن قصائد نسمع فيها صهيل الخيل وقعقعة اللُّجُم وصرير العوالى كما سمعنا هذه الأنغام فى شعر المتنبى فما هو من فرسان هذا الميدان ، ولكنه فارس ميدان لم يجل فيه غيره جولته ولا برّز فيه تبريزه فقد أرسله الله فى عصر اختمرت قبله لغة الشعر كل الاختمار ، فما على ابن الساعاتى إلاّ أن يغرف من بحرها الخضمّ وما عليه إلا أن يُصرّف هذه اللغة الناضجة فى أشرف الغايات وأسماها ، فلست بمتعرض فى هذا الباب لفنون شعره ولما اشتملت عليه هذه الفنون من مدح أو غزل أو رثاء وإنما أريد أن أشير فى هذه الكلمات المختصرة إلى ناحية من شعره ظهر مثلها فى عصرنا هذا وكنّا نظن أنا المخترعون لها ، السابقون إليها ، وإذا بابن الساعاتى يردّنا إلى الصواب ، لم ينبت شعرنا الوطنى فى العصر الذى نعيش فيه ، وإنما نبت هذا الشعر من عصور بعيدة ، لقد تغنى الشعراء بأوطانهم فى أحقاب متطاولة ، كما بيَّنت ذلك فى أول هذا الفصل ، ولكن ابن الساعاتى برع فى هذا الباب، لقد تغنى بوطنه أعذب غناء ، فلست ذاكراً من شعره الغزير إلاّ هذه الناحية وحدها ، فقد تفنن فيها ، وكثرت محاسنها فى آفاقها ، وإذا

أردت أن أختار له صفة اختصه بها فلا أسميه إلاَّ شاعر الوطنية، فما عرف أحد من الشعراء فضل الوطن معرفته ولا نعم بفتنة الطبيعة نعمته ولا ألف أفياءه أُلفته ولا اشتاق إلى أرضه وسمائه اشتياقه ولا ذكر إخوانه في ظلاله ذكره لهؤلاء الإخوان فابن الساعاتي ذاب في محبة وطنه، ذاب في محبة دمشق، ومتنزهات دمشق، ذاب في محبة كثبانها وباناتها وآصالها وأسحارها ونسيمها وجوها وخمائلها وجنّاتها ودوحها وبلابلها وظلها ومائها وتربها وحصاها ونرجسها وبهارها ووردها وبنفسجها وجلّنارها ورمّانها، ذاب في هذه المحاسن كلها وذابت هذه المحاسن في شعره فلست ترى في هذا الشعر الوطني إلاّ آثار منازل لهو في دمشق ماتت فيها الكروب أو صور طبيعة نفخت فيها الحياة حتى غدت لمياهها قلوب تعشق بها وتحب ولدوحها معاطف تشبه معاطف الراقصات، وحتى غدا الدوح في هذا الشعر يهزه نغم القماري ويميل من مرح الشباب إلى الدلال، لقد ملكت دمشق على ابن الساعاتي قلبه ولبه فإذا غاب عنها بكى على شرخ شبابه وعلى أيام جهله فيها وشكا تلون عهود أهلها واشتاق إليهم ورجا أن يقرّب الله مزارهم فهو لا يسلو عنهم، إنه وافٍ لمن غدر منهم

حافظ لعهود من ضيّع كل عهدٍ ، وقد يشتد به الشوق إلى دمشق وإلى محاسن دمشق وإلى أهل دمشق فيتمنى وهو فى مصر لو تمرّ غادية شامية تحمل إلى نفسه من أهل دمشق مُنى هذه النفس ، وتنقل إليها أحاديث الحب ، لقد خلق الله له نفساً حرّة تصبو إلى إخوانه وتبكى إذا غابت عن هؤلاء الإخوان :

وما أرقّ شعور ابن الساعاتى ! ما ألطف حسه ! ما أشد ذوقه لمحاسن الطبيعة ! فقد أعطاه الله عيناً لا يفوتها حسن من محاسن هذه الطبيعة وأنفاً لا يفوتة شىء من شميم روائحها الطيبة وأذناً فتنت بسماع ألحانها وأنغامها ولقد أعطاه الله شيئاً أجلّ من هذا كله ، أعطاه قدرة على تصوير هذه الطبيعة وعلى إحيائها فى شعره ، فهو شاعر الوطنية الدمشقية ، شاعر طبيعة دمشق وخمائل دمشق وبلابل دمشق وكل جزء من أجزائها وكما رزقت دمشق الخلود فى البلدان فقــد رزق شاعرها الخلود فى الشعراء ، فإنه صورتها الواضحة ومرآتها الصافية ولسانها البليغ ولحنها العذب ؛ هذه هى الناحية التى شغلتنى فى شعر ابن الساعاتى عن كل نواحيه الشعرية ، ولقد يذهب الشاعر فى فنون شتّى ، فيضعف فى أكثرها ويقوى فى واحد منها فيجيئه الخلود من هذا الفن

الذى قوى فيه ، وابن الساعاتى خالد من ناحية شعره الوطنى وهى كافية ، إنه ليس فى حاجة إلى غيرها ، فهو خالد من هذه الناحية التى يحن فيها إلى أخلائه :

وجيرة السفح من لبنان جادكم نظير دمعى إذا ما انهلّ أو هطلا
تلوّنت مثل أيامى عهودكم واستبد لونى ولم أطلب بهم بدلاً
مهىً خلعت الصبا والشمل مجتمع خلع الرداء على أيامهم حللا
سمّوا الظلام على أقماره شعراً ويانع الورد فى أغصانه خجلا
واهاً لشرخ شباب كنت مغتبطاً به وعمر وصالٍ كان مقتبلا
شكوت أن هزّنى ذو منظر بهج أو لذّ صفو حياةٍ بعدكم وجلا
كم موقف مثل حدّ السيف دونكم مضيت فيه وحدّ السيف قد نكلا
وزورة لى وعين النجم ناعسة من السرى وخضاب الليل ما نصلا
جهلت فيها فأدركت المنى كثباً وإنما يدرك اللذّات من جهلا
وإن نار الهوى بالدمع ما خمدت كما زعمتم وجرح الشوق ما اندملا
آهاً لقلب أسير فى رحالكم نصحته فيكم جهدى فما قبلا

وهو خالد من هذه الناحية الثانية التى يقول فيها :

يا أخلاى وإن شطّ بنا حادث الأيام عنكم وثناها
حبّذا غادية شاميـــــة حملت عنكم إلى النفس مُناها

ما حداها الرعد إلاّ قصَّرت شقـة الفسطاس ممدود خطاها
وجـد القطر سهاماً فرمى ومن البرق سيوفاً فانتضاها
فأصابت مقلة داميـــــة وفؤاداً طال فيكم ما اتقاها
نقلت عنكم أحاديث الصبا فأقرّ الله عينَيْ من وعاها
بلغت عنكم شفاهـاً حبذا حبّذا ما بلغت عنكم شفاها
لا تلم عينى على طول البكا كيف لا تدمع والبين قذاها
وقليبٌ القلب ما زال به فاتحاً إنسانها حتى أماها
طال ليلى طول وجدى بكمُ فزمانى ليلة مات ضحاها
لو يسير الطيف فى أثنائه — وهو الطيف — أو النجم اتاها
ما على ماطل دينى لو قضى وعلى قاتل نفسى لو وَداها
فقرها إلاّ اليكم مشتهى وجميل عنكم إلاّ غناها
وجدت من نأيكم ما وجدت فإلى عالم بثى مشتكاها
قسماً ما بقيت عن سلوة إنما يحمل عنها من بلاها
أمر الدهر عليها ونهى يأمر الحرص بما ينهى نهاها
دعوة الشوق لكم مسموعة فإذا ما هتفت كنت صداها

٧

الوطنية فى أدب الغرب

ولكن شعراءنا المتقدمين ، على الرغم من هذا الصباغ الوطنى الذى تبرق ألوانه فى شعرهم أو تكمد لم يبلغوا فى تقديس أوطانهم مبالغ الإفرنجة ، فلم يقبّلوا فى قصائدهم هذا التراب الذى غذّى أممهم في الماضى ، أفلا نعلم أن كل ناشىء من نشء هذه الأمم قد أبقى فى هذا التراب أثراً من الآثار ، فلا فرق بين جزء وجزء من هذا الوطن ، إنه واحد لا يتجزأ ، وكأنّ كل مدينة من مدنه وشى منقوش على ثوب الوطن ، فلا تقع العين على أى قصرٍ من قصوره وعلى أى مسجد من مساجده وعلى أى هرم من أهرامه من دون أن يذهب الفكر إلى آلاف من أهلنا الذين مضوا ولم نعرفهم . فى أجزاء هذا الوطن نشأت لغتنا ولهجتنا ، فلم نعرف كيف ننفخ روحاً فى كل شكل من أشكاله ، فى غدرانه وغابه وقصوره ، ولم نعرف كيف نحيي أى لونٍ من ألوانه.

إن مدن الوطن فى نظر الإفرنجه بمنزلة الكتب ولكنها كتب مصورة ، يقرأون فيها أخبار أجدادهم و يرون فيها صور هؤلاء

الأجداد ، إنهم يقدسون دور أحقر مدينة من مدنهم لأن هذه الدور قد أوى إليها الحب والبغض واللذّة والألم فى قرون متوالية، إنها تحتفظ بأسرار رهيبة وتعرف أشياء كثيرة عن الموت والحياة ولوكانت حجارتها تتكلم لقالت لأهلها أشياء تضحك وأشياء تبكى ، ولكن الحجارة لا تكلّم إلاّ الذين يعرفون كيف يصغون إليها ، هذا ما قاله أحد كتّاب الغرب فى بعض كتبه .

كيف يحنو أدباء الإفرنجة على أوطانهم ؟

من أقوال « جول لومتر » :

« إذا سمعت الناس يرفعون أصواتهم فى الكلام على محبة الوطن جمدت مكانى وطويت حبى فى قلبى حتى يكون فى عزلة عن ترّهات البيان التى تجعل منه حباً باطلاً فارغاً ، ولكنى إذا وقفت فى منعطف من منعطفات الساقية وأحاط نظرى بنهر « اللوار » المنبسط أمامى بحدائقه وحوره وجُزُره المذهبة وقصبه الأزرق وسمائه الخفيفة وهوائه اللطيف ثم امتدّ هذا النظار فرأى على مقربة من النهر فى هذا البلد المحبوب ، بلد ملوكنا القدماء ، قصراً مصقولا كما يصقل الجوهر ، يذكرنى وطنى القديم وما كان عليه فى العالم شعرت حينئذٍ بفرط الحنوّ على هذه الأرض حيث

نبتت لى فى كل ناحية من نواحيها فروع كأنّها غاية فى الدقة والقوّة » .

ولما سمع « أناتول فرانس » هذا الطراز من الكلام اشتهى أن يكون هو قائله واشتهى خاصّة أن يكون قائله على هذا الوجه نفسه فإنه يرى أن دين الوطنية لا يتمّ إلاّ إذا أدخل صاحبه على شريعته المقدّسة أمثال هذه الوسوسات اللطيفة التى تجعل لكل المعتقدات نوعاً من الحياة والفتنة ، فالوطنية المجرّدة فاترة فى نظر بعض الذين تهزّهم الأشكال والألوان ، فلا يحبون من الوطن إلاّ ما يمكن أن تحيط به العيون .

و بلغ من حنوّهم على أوطانهم أنهم جعلوا الطير جزءاً من أدبهم الوطنى فقد نام « موريس بارس » ذات يوم على العشب فى مدينة « كومبورغ » ولمّا استفاق من نومه رأى أن الشمس قد انحدرت وكان طائر الربيع ، وهو ما نسميه فى الشام : السنونو ، يقطع صفحات الغدران . فنظر إليه « بارس » نظرات ملؤها الحب لأن هذا الطائر فى معتقده جزء من أدبه الوطنى . فإن أساليبه فى تتبع الحشرات وفى الانقضاض فى الهواء مرّة وعلى وجه الماء ليبلّ جناحيه وفى تشبثه بالقصبات التى تنعطف

من خفّته بعض الانعطاف وتغمرها أغاريده الغامضة . إن هذا كله يوحى إلى أساتيذ البيان موضوعاً من الموضوعات .

ولكن ألوان الصباغ الوطنى تكاد تنطق فى هذا الكلام الذى تقوله مدينة « أو » الصغيرة لجماعة السيّاح الذين يشاهدونها من رأس التل الواقعة عليه ، وقد روى لنا كلامها «أناتول فرانس» :

« انظروا ! إنى قديمة ، ولكنى حسنة . لقد شيَّد أولادى الأتقياء على تربتى بروجاً وقصوراً وأنشأوا النواقيس . إنى أم صالحة أعلم الناس العمل ومجامع فنون السلام . وأغذّى أبنائى على ذراعىّ . فإذا انقضى عملهم درجوا واحداً بعد واحد فرقدوا على مقربة من قدمى تحت هذا العشب الذى ترعاه الغنم إنهم يمضون ولكنى باقية لأحتفظ بذكراهم فأنا منهم بمنزلة ذاكرتهم ولهذا فإن لى عليهم حقوقاً كثيرة لأن الرجل لا يكون رجلاً إلا إذا كان يتذكر الأمور . لقد مُزِّق ردائى وطعنت فى ثديى فى الحروب ولكنى عشت لأنى أمّلْتُ . فتعلّموا منى هذا الأمل المقدّس الذى ينجّى الوطن ، فكّروا فىّ لتفكروا فيما وراء نفوسكم . انظروا إلى هذا الصهريج وإلى هذا المستشفى . وإلى هذه السوق التى تركها الآباء للأبناء . واعملوا لأبنائكم كما عمل

أجدادكم لكم . فكل حجر من حجارتى يجلب الخير لكم ويعلمكم الواجب . انظروا إلى كنيستى وإلى داري العامة وإلى مستشفاى . بجّلوا الماضى ولكن فكّروا فى الآتى . وسيعلم أبناؤكم بالحِلَى التى وشيتم بها ثوبى الحجرى » .

* * *

أظن أن أدبنا الوطنى لا يزال مفتقراً إلى أشباه هذا الشعور العميق وهذه العاطفة الدقيقة !

بيان مثل هذا البيان ترسخ محبة الأوطان في القلوب .

اقرأ

تصدر منذ يناير ١٩٤٣

السلسلة الشعبية الأولى التى تبث رسالة الفكر فى الجمهور وتعمل على توجيه الشعوب العربية إلى طريق الخير والحق والجمال.

آراء بعض كبار الأدباء :

- « مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر فى تغذية الأدب والثقافة » . . .
- « زاد فكرى فى مختلف أبواب العلم والأدب يستسيغه الجمهور وترضى عنه الخاصة » . . .
- « هذه السلسلة جهد فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات » . . .

احرصوا على الاحتفاظ بهذه المجموعة كاملة فهى ذخر ثقافى قليل النفقة كبير الفائدة وقد تكون فى كل منزل نواة لإنشاء مكتبة يستفيد منها الشيوخ والشباب ..

الثمن بالنسخة

مصر	٥٠ مليما	سوريا ولبنان	٦٠ غرشا
السودان	٥٠ مليما	العراق	٦٠ فلسا

فلسطين وشرق الأردن ٦٠ ملا

اقرأ

المؤلفات التي ظهرت في هذه السلسلة

١٥	بايرون	للسيدة أمينة السعيد
١٦	دمشق	للأستاذ محمد كرد على
١٧	شكسبير	للأساتذة محمد فريد أبو حديد وزكى نجيب محمود وأحمد خاكى
١٨	قنديل أم هاشم	للأستاذ يحيى حقى
١٩	سيدة القصور	» على بك الجارم
٢٠	الملك فاروق*	» كريم ثابت بك
٢١	أبو نواس	» عبد الحليم عباس
٢٢	جحا فى جانبولاد	» محمد فريد أبو حديد
٢٣	صوت أبى العلاء	للدكتور طه حسين بك
٢٤	لافوازييه	للأستاذين عبد الحميد يونس وعبد العزيز أمين
٢٥	قصة البنسلين	للدكتور مصطفى عبد العزيز
٢٦	العشاق الثلاثة	للدكتور زكي مبارك
٢٧	بغداد مدينة السلام	للأستاذ طه الراوى
٢٨	بوشكين	» نجاتي صدقى
٢٩	النار والنور	للأستاذ أمين إبراهيم كحيل
٣٠	قطر الندى	للأستاذ محمد سعيد العريان
٣١	الغزالى	للأستاذ طه عبد الباقى سرور

كَرْمٌ على دَرْبٍ

مجموعة شذور وأمثال

فى طبعـــة فاخرة

بقلم الأستاذ

ميخائيل نعيمة

« ... ومن محاسن هذه الأوابد أنها تكافئ قارئها على زيادة المشقة بزيادة الحقيقة وزيادة المتعة بالاهتداء إليها » .

عباس محمود العقاد

« ... كتاب كهذا جدير بأن تزدان به مكتبة كل فرد فإنه كتاب الحياة فى صميمها » .

جريدة المقطم

الثمن ٢٠ قرشاً



ملتزم الطبع والنشر

دار المعـارف بمصر

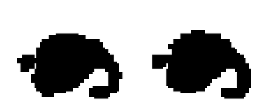
لطلاب السنة التوجيهية

التوجيه فى الأدب العربى

وضع الأساتذة

على الجارم بك ومحمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبو بكر إبراهيم ومحمد السيد عامر وعبده زياده عبده وحسنين حسن مخلوف

الثمن ٧ قروش



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مؤلفات

الدكتور طه حسين بك

ص	
٢٠	على هامش السيرة أول
٢٠	« « « ثان
٢٥	« « « ثالث
٢٠	دعاء الكروان
١٨	صوت باريس (جزءان) ثمن الجزء
٢٥	شجرة البؤس
٢٥	جنة الشوك
٤٠	مستقبل الثقافة فى مصر
١٨	الحب الضائع
٢٥	الأيام (جزءان) ثمن الجزء
٣٥	فصول فى الأدب والنقد
٢٥	أديب
١٨	لحظات (جزءان) ثمن الجزء
٤٠	حديث الأربعاء ثالث
٢٥	مع أبى العلاء فى سجنه

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

مؤلفات فى علم النفس

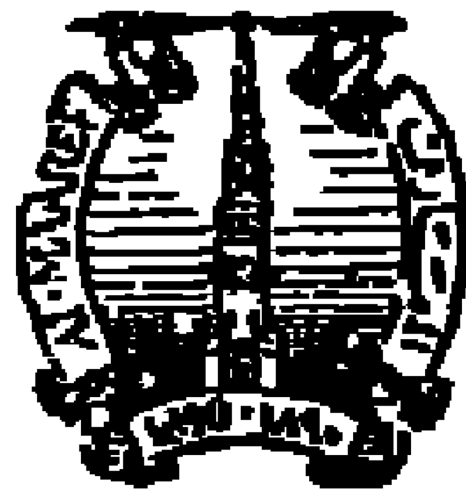
٤٥	مشكلة السلوك السيكوباتي	للدكتور صبرى جرجس
٣٥	علم النفس الفردى	للأستاذ إسحق رمزي
١٠	علم النفس وآثاره فى التربية والتعليم	للأستاذين على الجارم بك ومصطفى أمين بك
٣٠	مشكلات الأطفال اليومية	تأليف الدكتور دجلاس توم وتعريب الأستاذ إسحق رمزى
٢٠	مجلة علم النفس	رئيسا التحرير الدكتور يوسف مراد والدكتور مصطفى زيور

تحت الطبع

الإدراك الحسى عند ابن سينا	للأستاذ محمد عثمان نجاتى
مبادىء علم النفس العام	للدكتور يوسف مراد

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر



دار المعارف

للطباعة والنشر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

المحل الرئيسي بالقاهرة	:	٧٠ شارع الفجالة
فرع الإسكندرية	:	٢ ميدان محمد علي
مكتب السودان	:	شارع السردار بالخرطوم
مكتب فلسطين وشرق الأردن	:	شارع مأمن الله بالقدس
مكتب لبنان وسوريا	:	شارع المعرض ببيروت

اقرأ

نجاتي صدقي

تشيخوف

دار المعارف للطباعة والنشر

تشيخوف

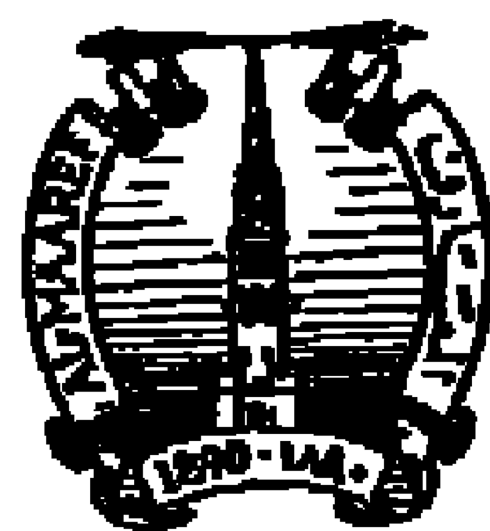
نجاتي صدقي

تشيخوف

اقرأ ٥٠

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٥٠ — يناير سنة ١٩٤٧





أنطون باڤلوڤيتش تشيخوف

١٨٦٠ — ١٩٠٤

تمهيـــد

ما إن صدر « بوشكين » فى سلسلة « اقرأ » ، وانتشر بين القراء حتى تفضل عدد كبير من أدباء البلاد العربية وكتابها وشعرائها ، وحثنى إما بالمراسلات الخاصة ، أو على صفحات المجلات ، أن أضع فى العربية مؤلفاً جديداً يستمد مادته من الآداب الروسية الكلاسيكية ، فوقع اختيارى على الدكتور أنطون تشيخوف ، مع أنه أكثر الكتاب الروس انتشاراً فى الأدب العربى الحديث .

وكثيراً ما يلجأ كتاب القصة فى البلاد العربية اليوم إلى تشيخوف فى محاولتهم وضع قصص محلية نابضة بالحياة ، ملأى بالصور الفنية ، غنية بالألوان الزاهية ، طافحة بالوقائع والمحسوسات خالية من الثرثرة ولغو الكلام ، وهذا ما حدا بى أن أترجم لخالق القصـة الروسية القصيرة ، وأبين مكانته بين أدباء الروس العظام .

ويجدر بى أن أذكر فى هذا المضمار أننى لست أول من

يعرب صفحات من الأدب الروسي من مصادره الأصلية مباشرة؟
فهناك فريق من الأدباء الذين تخرجوا من المعهد الروسي
التبشيري في الناصرة (فلسطين) في أوائل هذا القرن، قد
ترجموا لتشيخوف، وتولستوي، وتورغينيف وغيرهم، إبان
الحكم العثماني، إلا أن ترجماتهم هذه كانت يسيرة جداً، وفيها
من حرية التصرف ما فيها. زد على ذلك ما تركته الخطة
التبشيرية التي تمشي عليها معهد الناصرة من أثر في بعض أولئك
الأدباء، مما أدى إلى حصرهم في نطاق محدود من التفكير
الأدبي الكنسي، وإبعادهم عن تعريب النواحي القوية في أدب
صقالبة الشمال. والدليل على ذلك أنه ما إن تدهورت روسيا
القيصرية سنة ١٩١٧ وزال شبحها عن الشرق العربي حتى
نفض أولئك الأدباء أيديهم من الآدب الروسية. وبعد مضي
ربع قرن من الزمن نسوا اللغة الروسية على وجه التقريب.

* * *

لقد انتقيت لكتابي هذا مجموعة من مسرحيات تشيخوف
من ذوات الفصل الواحد، كما انتقيت له طائفة من قصصه
الروسية الصميمة، ونقلتها إلى اللغة العربية، محافظاً على روح

المؤلف ومزاجه وتعابيره ، بحيث لا يتعذر على القارئ العربي أن يلمس أنه يطالع أدباً غير أدبه ، ويشاهد مجتمعاً غير مجتمعه .

وقدمت في مطلع الكتاب دراسة عامة لحياة تشيخوف وتآليفه ، ليستعين بها القارئ على تتبع مراحل تفكير ذلك العبقري الروسي ، وإدراك كنه مسرحياته وقصصه :

فعسى أن أكون قد أحسنت اختيار المؤلف ، وأصبت في انتقاء بعض مآثره الخالدة

نجاتي صدقي

أنطون باڤلوڤتش تشيخوف

حياته . تآليفه . اتجاهاته الأدبية

تاغنروغ . . .!

ومن منا لم يسمع بهذه المدينة إبان الحرب الألمانية السوفياتية؟. أجل ! إن تاغنروغ هذه التي تقع في أقصى شمال بحر آزوف ، هي مسقط رأس القصصي والكاتب المسرحي العالمي أنطون باڤلوڤتش تشيخوف .

ولد في السابع عشر من شهر يناير سنة ١٨٦٠ ، وكان جده لأبيه رقيقاً للسادة تشرتكوف . أما أبوه فكان وكيلا لأملاك خاصة ، ثم تاجراً . وكانت أمه أوجيني يا كوڤليڤا تنتمي إلى أسرة عريقة في التجارة معروفة بأسرة موروزوف .

تلقى أنطون علومه الأولية في المدرسة اليونانية الابتدائية في تاغنروغ التابعة لكنيسة القيصر قسطنطين ، ثم تدرج منها إلى المدرسة الثانوية القائمة في المدينة . وقد جاء في مذكرات أخيه ميخائيل تشيخوف أن زملاء أنطون في المدرسة كانوا يلقبونه بـ « أنتوشا تشيخونته » لأنه كان هادئ الطبع ، سكوتاً ،

شاحب اللون ، قمرى الوجه، منطو ياً على نفسه ، قليل الاختلاط بالناس . . وكان أنتوشا التلميذ ، يحس فى قرارة نفسه أنه شىء تافه فى هذا الوجود ، فكتب لأخيه ميخائيل مرة رسالة ختمها بقوله : « واسلم لأخيك الضئيل ! . . » فرد عليه أخوه معنفاً إياه بقوله : « لا يعجبنى قولك : "أخوك الضئيل" . أتدرى أمام من يجب أن تقر بضآلتك ؟ يجب أن تقر بها أمام الله . . . أمام العقل ، والجمال ، والطبيعة ، وليس أمام الناس . . . فعليك ألا تقر أمامهم إلا بكرامتك . . فأنت شاب شريف ، والشريف يحترم نفسه . وعليك ألا تمزج بين الطاعة والاعتراف بالضآلة » .

ويبدو أن هذه الكلمات قد تركت أثرها فى نفس أنتوشا ، ونبهته إلى ضرورة الخروج من العزلة ، والشعور بالكرامة الذاتية فكتب بعد مدة رسالة لأخيه قال فيها : « أتدرى يا أخى أن إدارة المدرسة تتغاضى عن كل طالب من الطلاب الداخليين مبلغ ثلاثمائة وخمسين روبلاً سنوياً ، لكنها تقدم لهؤلاء المساكين غذاء لا تستسيغه معد الكلاب » .

وأخذ أنتوشا يصدر فى المدرسة مجلة للتلاميذ ، سماها :

«الأرنب» ، وكان هو محررها الأول ، يغذيها بنكته ومداعباته؛ وساهم فى إنشاء مسرح فى المدرسة أيضاً، وكان يضع له المسرحيات المدرسية ويمثل فيها .

ولما أتم المدرسة الثانوية بتاغنروغ ، وقد بلغ من العمر تسع عشرة سنة ، أحس بميل يدفعه إلى دراسة الطب ، لأن الطب فى نظره هو أسمى الأعمال الإنسانية ، فالتحق سنة ١٨٧٩ بكلية الطب التابعة لجامعة موسكو .

وبعد مضى أربع سنوات غدا أنتوشا يلقب بالدكتور أنطون تشيخوف .. وهذه الناحية الطبية فى حياته يجهلها معظم قرائه؛ فالذى يعرفونه عنه أنه كاتب قصص ومسرحيات ليس إلا . .

حقاً إن الدكتور تشيخوف لم يمارس الطب كمهنة دائمة فى حياته ، ويعزو أخوه السبب فى ذلك إلى حادثين وقعا له فى بدء ممارسته فن التطبيب أولهما أنه وصف يوماً لأحد المرضى علاجاً أخطأ فى تحضير عقاقيره . . ولم يفطن للخطأ إلا فى الليل ، فهب من فراشه مسرعاً إلى بيت المريض الذى كان على وشك تناول الجرعة الأولى قبل النوم . . وربما كانت النومة الأخيرة . . .
وثانيهما أنه كان يعالج أسرة مريضة بداء السل ، ويعودها بين

حين وآخر ، وحدث أن اشتد المرض على أحد أفرادها وأسلم الروح ويده بين راحتي الدكتور تشيخوف . . .

ومع ذلك اشتغل الدكتور أنطون تشيخوف فى دائرة الصحة فى موسكو ، وكان طبيباً لقرية لوباسنا الواقعة بالقرب من العاصمة الروسية ، واشترك سنة ١٨٩٢ فى مكافحة عدوى الكوليرا وكان على الجملة محباً للطب ، مقراً بأن العلوم الطبية واختباراتها كان لها الأثر العميق فى نفسه ككاتب قصص ومسرحى .

والطريف فى حياة تشيخوف أن نزوعه إلى الأدب وميله إلى الطب لم يتعارضا قط ، بل كانا يكمل بعضهما بعضاً ، وعلى سبيل المثال نقول إن أولى قصصه كتبها وهو يتلقى العلوم الطبية فى الجامعة وعنوانها : « رسالة إلى جار عالم » ويجدها القارئ مترجمة فى هذا الكتاب وهى قصة تهكمية نقدية ، يسخر فيها الكاتب من « غنيّ أميّ » يطيب له أن يتحرش بالعلماء و « يناظرهم » . . . وقد نشرت هذه القصة فى مجلة « الذبابة الفارسية » سنة ١٨٨٠ ، ثم صار فى تلك الأثناء يكتب فى عدة مجلات نذكر منها « موسكو » و « المنبه » و « الشظايا » و « النور والظلام » و « الصرصور » و « صحيفة بطرسبورغ » .

وكانت كتاباته فى هذه المجلات أقاصيص هى أصغر من منقار الغراب ! . . وقد بلغت إحداها أحد عشر سطراً . . وبالرغم من ذلك كان يقول له السيد ليتينسكى صاحب مجلة « المنبه » :
أقاصيصك طويلة يا بنى . . اختصر . .

وكان تشيخوف ينحو فى قصصه هذه نحو الهزل والنكتة ، وتحمل كتاباته أسماء مستعارة مختلفة منها « أنتوشا تشيخونته » . وإذ كان يشعر دائماً بأنه بحاجة ماسة إلى شخصيات ومواضيع هزلية ، أعلن فى البيت ، وذلك بعد أن لحقت به أسرته من تاغنروغ ، أنه مستعد لشراء أية حكاية مضحكة بمبلغ عشرة كوبيكات ، أما إذا كان الموضوع يصلح لقصة كاملة فيشتريه بعشرين كوبيكا . ويظهر أن أسعاره هذه أغرت أحد إخوته* فكان يمده دائماً بالطرائف والملح ، ومن ثم أصبح « متعهده » الخاص .

ووضع تشيخوف فى تلك السن — أى وهو فى الرابعة والعشرين من عمره — ثلاث روايات هى « زهور متأخرة »

* كان للكاتب أربعة إخوة وأخت

و « الجديلة الذهبية » و « فوز لا لزوم له » لكنها لم ترق له فيما بعد ، ولم ينشرها فى مجموعاته ، واندثرت تماماً .

وفى سنة ١٨٨٥ وضع رسالة فى التوجيه الأخلاقى لها قيمتها لصدورها عن شاب فى الخامسة والعشرين ، وكانت هذه الرسالة دستور تشيخوف طيلة حياته ، وإلى القارئ ترجمتها الحرفية :

« إن المهذبين من الناس ليتحلون بالصفات التالية :

أولاً — إنهم يحترمون الشخصية الإنسانية ، ولذا تراهم دائماً متواضعين ، مرنين ، متساهلين ، فإذا ما خالطوا أحداً من الناس فلا يقولون له « يتعذر العيش معكم » . . إنهم يغتفرون للصخب والبرد ، والحرارة ، والتطرف ، ولوجود الغرباء فى بيوتهم .

ثانياً — إنهم لا يتألمون للفقراء والحيوانات الضعيفة فحسب ، بل إن نفوسهم لتتألم أيضاً لأشياء لا تراها العين... وهم لا ينامون الليل لأنهم فى تفكير دائم فيمن يعجز عن دفع الأقساط المدرسية عن إخوته ، أو لا قدرة له على كسو أمه .

ثالثاً — إنهم لا يعبثون بملك غيرهم ، وهم دائماً يسددون ما عليهم من ديون .

رابعاً — إنهم أتقياء القلوب ، ويخشون الكذب كما يخشى

المرء النار . فالكذب فى نظرهم مهين للسامع ومحط من قيمة المتكلم . . إنهم لا يتذبذبون فى حياتهم ، فسلوكهم فى الشارع لا يختلف قط عن سلوكهم فى البيت . . وهم لا يحقرون إخوتهم الصغار ، كما أنهم غير ثرثارين ، فلا يتفوهون بما لا يسألون عنه وإذا ما تكلم غيرهم التزموا الصمت .

خامساً — إنهم لا يتمسكنون لاستثارة الشفقة عليهم ، وهم لا يضربون على أوتار قلوب غيرهم ليفوزوا بتأوهات من أجلهم. وهم لا يقولون : « لا يفهموننى » لأن هذه العبارة لا تدل إلا على ضآلة ووقاحة وتزييف .

سادساً — إنهم لا يحملون الهموم فى نفوسهم ، ولا تبهرهم الأحجار الكريمة الكاذبة ، كالسعى للتعرف إلى الأشخاص البارزين ، أو العمل على مصافحة أيدى السكيرين ! . . وهم يهزأون بمن يتباهى بقوله : « إننى ممثل الصحافة » ، ويكدون من أجل قوتهم فقط ، فلا يقتنون ياقة بمائة روبل ، ولا يهتزون إعجابا إذا ما سمح لهم بارتياد أماكن محظورة على غيرهم ، فالنباهة الحقيقية فى نظرهم هى العمل فى الظلمة ، بعيداً عن الضجة والإعلان . . أو لم يقل كريلوف : « إن البرميل

الفارغ يحدث ضجيجاً أكثر من البرميل الملآن . . . ؟ »

سابعاً — إنهم يقدرون ذكاءهم ، فيضحون من أجله بالراحة والخمر والنساء . وهم جد فخورين بعقولهم ، ويدركون أنهم مدعوون للتأثير على غيرهم بتعاليمهم . يضاف إلى ذلك أنهم صعاب المراس .

ثامناً — إنهم لا يتصنعون تهذيب نفوسهم ، لأن نفوسهم مهذبة بطبيعتها ، وهم لا يهجعون بلباسهم ، ولا يهملون شقوقاً فى الحائط مليئة بالحشرات ، ولا يستنشقون الهواء المسمم ، ولا يسيرون على أرض نثر عليها البصاق . . . ولا يتغـذون فى أوعية قذرة ، وهم يسعون بقدر المستطاع إلى تقييد غريزتهم الجنسية والتسامى بها ، فهم لا يريدون من النساء فراشاً ؛ إنهم أشبه بالفنانين يريدون من النساء نضارة وجمالاً وإنسانية وكفاءة ليصبحن أمهات ... وهم لا يقبلون على احتساء الفودكا ، ولا يتشممون الخزائن مثل الخنازير ، ومبدؤهم : « العقل السليم فى الجسم السليم » .

هؤلاء هم المهذبون . . !

فلكى تكون مهذباً ولا تهوى إلى أقل من المستوى الذى

أنت فيه لا يكفيك أن تطالع كتاب « بكفيك » أو أن تردّد حواراً من « فاوست » ، بل عليك أن تعمل على صقل نفسك باستمرار ، وأن تطالع دائماً ، وأن تدرس ، وتشد عزيمتك . فكل ساعة تمر من حياتك لا تقدر بثمن » .

وفى هذه الآونة ، أكب تشيخوف على وضع رواياته الصغيرة « بلا أبوة » و « ليس عبثاً صاحت الدجاجة » و « الرواية الكبيرة » . ثم أنجز مأساته المسرحية : «على الطريق العام » وقد حظرت الرقابة الروسية وقتئذ طبعها لتحدثها عن طائفة من الحجاج والقساوسة وأبناء السبيل.. .

وفى سنة ١٨٨٦ نشر أنتوشا تشيخونته أول مجموعة من قصصه تحت عنوان « قصص براقة » تتناول النكتة والمداعبة والنقد التهكمى اللاذع ، فجلبت له الشهرة فجأة . وفى سنة ١٨٨٧ أعقب تلك المجموعة بمجموعة أخرى ونشرها بعنوان « الشفق » وموقعة باسمه الصريح الجدى « أنطون تشيخوف » . . فتلألأ نجمه على إثرها فى عالم الأدب الروسى ، ونال الجائزة الأدبية للأكاديمية الروسية المعروفة بجائزة بوشكين .

هذه هى المرحلة الأولى من حياة الكاتب الروسى الكبير ،

وقد عرف فيها أنه كاتب «يَعِدُ كثيراً» ويبشر بخير أدبي وافر، فهو يضع فيضاً من القصص الصغيرة لتنشر في جميع المجلات . ولما سئل فيما بعد : « كم وضعت من القصص في تلك الفترة ؟ » أجاب : « أظن أنها بلغت الألف » ! . . ثم شرع ينتقل من وضع الأقاصيص التي تنطوي على النكتة والملاحة، وحدة الذهن، إلى القصص الكبيرة ومحاولات في الرواية . وكان القوم وقتئذ ينظرون إليه بوصفه شاباً فطناً ، إلا أن أحداً منهم لم يدر بخلده أن هذا الشاب الفطن سيدخل في عداد الكتاب الكلاسيكيين الروس .

بعث تشيخوف يوماً برسالة للكاتب الروسي الشيخ « غريغوريفتش » قال له فيها : « كنت أكتب القصص كما يكتب مخبرو الصحف أنباء الحرائق ، كنت أكتبها وأنا في غمرة من الذهول ، وكأني في حالة لاشعورية ، غير مهتم بالقارئ أو بنفسي ، وغير ساع لأن أضع في القصة أشكالا وأشخاصاً كانت عزيزة علي ؛ والله وحده يعلم ما الذي كان يحدو بي لأن أحتفظ بها وأدخرها » .

وفي سنة ١٨٨٧ وضع تشيخوف مسرحيتين هزليتين من

ذوات الفصل الواحد ، وهما « الدب » و « وطلب زواج .»
— ويجد القارئ المسرحية الأولى مترجمة فى هذا الكتاب — وقد لاقتا لدى الجمهور الروسى نجاحاً كبيراً ؛ ثم أعقبهما سنة ١٨٨٨ بأولى مسرحياته الكبيرة « إيڤانوف » فحالفها التوفيق وجابت له الثناء والمال معاً .

وفى سنة ١٨٨٩ ، وضع روايته الكبيرة « القفر » ومسرحية هزلية مؤلفة من فصل واحد « مفجوع رغم أنفه » — يجدها القارئ مترجمة فى هذا الكتاب أيضاً — ثم أعقبهما بمسرحيته الكبيرة « جنى الغابة » ، طلبها منه مسرح « كيرش » فى بطرسبورغ ، ورجاه أن يسرع فى وضعها ، فكان تشيخوف يضع كل يوم فصلا فيحمله الرسول إلى مدينة بطرس ويعرضه على الرقيب قبل أن يجف حبره ، ثم يحيله إلى الممثلين ليستعدوا عليه .

والمعروف عن تشيخوف أنه كان يمقت « جنى الغابة » . وقد أصر على عدم إعادة طبعها وتمثيلها ، ثم عدلها بعد سنوات وأدمجها فى مسرحية « العم ڤانيا » .

وفى هذه المرحلة الثانية من حياته الأدبية يعترف به القوم

بأنه « من أنبه الكتّاب » ؛ فتقل كتابته ، و يبدو عليه التحفظ ، و يتحدث الناس عن كل شيء يكتبه ، وتفتح له المجلات الكبرى صدورها ، لكنه يتهم « باللامبدئية » . .

وحدث فى تلك الأيام أن أثار جماعة من الأدباء الكلام عن تشيخوف فى حضرة الشيخ غريغوريفتش ، فقارنوه بكاتب أقل نبوغاً منه ، لكنه يفوقه فى « المبدأ » فتنمر الكاتب الشيخ وقال : « إن هذا الكاتب المبدئى، لا يستحق أن يقبّل أثر البرغوث الذى يلسع تشيخوف ! »

و يندمج الكاتب فى هذه المرحلة بجميع الأوساط الأدبية والفنية فى العاصمتين الروسيتين ، و يظهر فى المجتمعات متواضعاً ، محباً للإصغاء والتأمل ، مقلاً من الكلام ، وتأخذ شهرته فى الانتشار والذيوع ، ويحس الكاتب فى هذه المرحلة أيضاً بميل إلى الرحلات فيتجه صوب القوم والقوقاس والفولغا ، ثم يعقد النية على السفر إلى آسيا الوسطى و إيران، غير أنه يتلقى نبأ وفاة أخيه ميخائيل وهو فى باكو ، فيقفل راجعاً إلى موسكو .

ثم لم يلبث أن عمد إلى إعداد مشروع للسفر إلى جزيرة «سخالين» جزيرة المنفيين والمبعدين . ومما قاله فى تلك الجزيرة :

« ربما لا يهم أمر سخالين تلك الفئة من الناس التى ليس لها فيها الآلاف من الإخوان والبنين ، ولا تنفق عليهم الروبلات بالملايين . فسخالين هذه موطن آلام لا تطاق . . ولا يقوى على احتمالها الأحرار أو المستعبدون . حقاً إنه ليؤسفنى أننى غير عاطفى. وإلا لنصحت الناس بأن يحجوا إلى سخالين جيلاً بعد جيل كما يحج المسلمون إلى مكة ، وأما البحارة والسجانون فعليهم أن يتطلعوا إلى سخالين كما يتطلع المحاربون إلى سواستوبول».

وقام برحلته هذه سنة ١٨٩٠ ، وظل فى الجزيرة مدة ثلاثة أشهر لم يترك فيها مكاناً إلا زاره ، وبعد عودته وضع سفراً قيماً يقع فى أربعمائة صفحة ، وصف فيه الجزيرة وسكانها وصناعتها وزراعتها ودوائرها ومنافيها ، حتى إن وزارة المعارف الروسية حينذاك أذنت بتدريس «فصوله الجغرافية» فى مدارسها.

وما إن استقر تشيخوف فى موسكو ثانية ، حتى بدأ يمل ويتضجر ، ويقول لأصدقائه : « إيه أصدقائى . . ما هذا الملل المستولى علىّ . . إن كنت طبيباً فإننى بحاجة إلى مرضى ومستشفى ، وإن كنت أديباً فعلىّ أن أعيش فى وسط الناس، لا فى زقاق مالايا.ديمتروفكا . . إننى بحاجة ماسة إلى « قطعة » من

الحياة السياسية والاجتماعية . . وأما هذه الحياة بين جدران أربعة ، حيث لا صحة ولا شهوة ، ولا أناس ولا وطن ! فهى ليست حياة و إنما هى الموت بعينه ! » .

وسرعان ما أقبلت عليه « القطعة » المطلوبة من الحياة الاجتماعية والسياسية ، ملبية نداءه ، إذ حدث أن المجاعة ضربت أطنابها فى روسيا سنة ١٨٩١ ، فهب الكاتب يجمع للجياع اللباس والقوت . وفى سنة ١٨٩٢ رجل إلى مواطن المجاعة فى نيجيغورودسكى وأخذ يشرف بنفسه على عملية إغاثة الفلاحين المنكوبين .

وفى السنة ذاتها عمد تشيخوف إلى إنشاء حياة جديدة له تكون حافلة بالنشاط والإنتاج ، فابتاع قطعة أرض مهجورة فى قرية ميليخوفة ، بالقرب من موسكو ، وأخذ يفلحها ، و يعبد طرقها ، و يحفر فيها الآبار ، و يقيم عليها المستشفيات و يغرس فيها الأشجار ، و يعتنى بها كما يعتنى المرء بأطفاله .

وفى ميليخوفة هذه وضع تشيخوف مسرحيته « النورس » — وهو طائر مائى فى حجم الحمام أو أكبر يعلو فى الجو ثم يزج نفسه فى الماء ، ولا يأكل غير السمك — ومثلت على مسرح

ألكسندريفسكي فى بطرسبورغ سنة ١٨٩٦ ، لكنها باءت بالفشل الذريع لأن الممثلين فى ذلك المسرح الحكومى اعتادوا التمثيل الفنى بلا حياة ، فلم يفقهوا تشيخوف فى روايته.. فكانت العبارات الشعرية فى روايته تثير ضحك الجمهور . . وكانت أقوالها الانتقادية تؤخذ على علاتها فيعلق عليها النظارة بالتفكيت والسخرية . . ولما انتهى التمثيل أقبل المداهنون يهنئون الكاتب وهو واقف خلف الستار فلم يقو على احتمال هذه الهزيمة ، وفر من المسرح ، وراح يسير على ضفة نهر نيفا على غير هدى ، وكان الطقس رطباً بارداً ، فأثر ذلك فى رئتيه المريضتين ، وأسرع فى تقصير أجله .

إن حكم نظارة المسرح أسرع من القراء وأشد قسوة ، فالرواية يطالعها الناس وتنقضى مدة من الزمن حتى يفطن أحدهم لانتقادها ، وأما المسرح فترتفع فيه أصوات آلاف النظارة فوراً وتصدر فى المسرحية حكماً سريعاً لا رحمة فيه ، ثم تهب الصحف بعد ذلك وتدين تلك المسرحية مستندة إلى الحكم الذى أصدره جمهور النظارة فى المسرح .

وقد تلقى تشيخوف على أثر فشل « النورس » رسالة من

لينسكى ، وهو أحد كبار ممثلى المسرح الإمبراطوزى الصغير ، قال له فيها : «أنت تعرف مقدار حبي لك ، وتقديرى لذكائك ، ولذا أرى لزاماً على أن أكون صريحاً معك . . فهاك نصيحتى الخالصة : لا تكتب للمسرح ، فالمسرحيات ليست من اختصاصك » . . .

إلا أن فشل « النورس » و « نصيحة » ، لينسكى وغيره لم تحدّ من نشاط تشيخوف المسرحى ، فتابع وضع المسرحيات ، وأخرج إلى الوجود « العم ڤانيا » سنة ١٨٩٦ ، و « الأخوات الثلاث » سنة ١٩٠٠ ، و « حديقة الكرز » سنة ١٩٠٣ ، وقد تبنى مسرح موسكو الفنى جميع هذه المسرحيات بما فيها « النورس » ومثلها أفضل تمثيل بما يطابق روح تشيخوف وطراز تفكيره المستمد من وخزات الحياة ودقائقها .

ولما احتفل بانقضاء عشر سنوات على تأسيس مسرح موسكو الفنى وقف الممثل ستانيسلافسكى وقال عن « النورس » : «لقد جاءنا هذا النورس طائراً من بيت تشيخوف ، وجلب لنا معه السعادة وأنار لنا طريقاً جديدة فى حياتنا الفنية » .

وقال الكاتب المسرحى الروسى الأشهر نميروف دانشنكو

فى خطابه الموجه إلى تشيخوف إبان عرض « حديقة الكرز » سنة ١٩٠٤ : « إن مسرح موسكو الفنى مدين لذكائك ولقلبك الرقيق ، ولنفسك الطاهرة ، فيحق لك أن تقول : إن هذا المسرح مسرحى » .

وقال تشيخوف فى إحدى رسائله عن المسرح المذكور : « إن المسرح الفنى هو أروع صحيفة فى ذلك الكتاب الذى سيوضع يوماً ما عن المسرح الروسى المعاصر » .

وهكذا توطدت الصلات بين المسرح الفنى وتشيخوف حتى غدا الاثنان متلازمين ملازمة الروح للجسد . ولما عرض المسرح المذكور « العم فانيا » للمرة الأولى فى موسكو كان الكاتب فى القرم يعالج مرض ذات الرئة فقرر الممثلون السفر إليه ليقوموا بتمثيل روايته أمامه . . . وتوجهوا فعلاً إلى يالتا ، حيث كان يصطاف مكسيم غوركى ، وعدد كبير من الكتاب وأسرهم ، ومثلوا « العم فانيا » بحضور أنطون تشيخوف وأقاموا فى حديقة بلدية يالتا حفلة تعارف كبرى بين الكتاب والفنانين .

فمسرحيات تشيخوف لم تنل فى بادئ الأمر النجاح من الجمهور لضعف فيها ، أو لعدم استعداد الجمهور لفهمها ، بل لأن

الممثلين والمخرجين كانوا يتقيدون بقواعد بعيدة عن واقع الحياة ، فتعذر عليهم إخراج مسرحيات تشيخوف كما يريدها هو ، ولم يتخط هذه العقبة إلا مسرح موسكو الفنى الذى أتينا على ذكره.

قال أحدهم : لكى تكتب المسرحية يجب أن تكون ذكياً ، ولكى تخرجها يجب أن تكون نابغة ! . . .

وشخصيات تشيخوف فى مسرحياته خلو من كل صباغ ، هم أناس بسطاء ، يتحدثون عن أبسط الأمور بلغة بسيطة . . فليس فيهم ندّاب بكاء ، ولا مَنْ يتعلق بأهداب المثل العليا الخيالية ، وليس بينهم أبطال يتباهون بجلائل الأعمال ، بل على النقيض من هذا كله فالمؤلف يعرى شخصياته ، ويكشف عن نواحيها السيئة ، ويشير إلى نزعاتها الأنانية ، فيحس قارئ مسرحياته والناظر إليها أن قلبه يميل إلى الحنان والتعطف على أناس غير واضحين ، وأن أحلاماً غير واضحة تدغدغه وتنبهه إلى حياة أفضل ، وإن كانت غير واضحة ! . . .

. . وترافق هذه البساطة فى التعبير ، موسيقى خلابة ، وكوخ مهجور ، وليلة قمراء ، وهدوء « سارة » المكبوت ، وأحزان « إيفانوف ، وكمان العزاف الرقيق ... وكل ذلك طبيعى لا تصنع

فيه ولا تكلف ، لأن تشيخوف لم يتبع أى تمييز فى الألوان والألحان التى خلعها على شخصياته ، وقد حصر همه فى إخراج المسرحية بطبيعتها ، غير باحث عن أشكال جديدة ، وغير ساع لأن يكون مجدداً فى المسرح الروسى ؛ وكل ما كان يسعى إليه هو إيجاد أدوار جديدة للممثلين مصوراً شخصياته كما يراها فى الحياة متصلة بما يحيط بها من حقائق ووقائع . . فتتضمن مسرحياته الحديث عن الفجر الوردى ، والأمسيات الساحرة ، والمصابيح ، والمواقد ، وغلايات الشاى ، والبيانوات ، والآلات الموسيقية ، والتبغ ، والأخوات ، والخالات ، والعمات ، والجيران والأغانى . . وغير ذلك من مئات وآلاف الأشياء الصغيرة التى تبعث الدفء فى الحياة .

فتشيخوف نظر إلى الناس بعينيه لا بأعين تولستوى ، ودستويفسكى ، وتورغينيف . . فلا أبطال لديه وإنما أمزجة مختلفة من الناس .

قيل له يوما : أقرأت « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى ؟ فأجاب : أرجأت قراءتها حتى أبلغ الأربعين ! . . ولما بلغها سئل:

أقرأتها ؟ . . فأجاب : أجل قرأتها ولكنها لم تترك فى نفسى أثراً كبيراً ! . .

فتشيخوف صاحب اتجاه خاص فى تآليفه ، فهو كما ألمعنا يصور أمزجة الناس ، وحالاتهم النفسية على مختلف أشكالها ، كما يصف طباعهم وسلوكهم وعاداتهم ، ويتناول وخزات الحياة الدقيقة ، التى لا ينتبه لها المرء لكنها هى التى تولد بالتدريج حالات شتى من التعقدات النفسية والفكرية . . فالوخزة — أى أتفه متاعب الحياة — هى محور شخصيات تشيخوف ، وهى المقياس الذى يقيس به قيم الحياة الإنسانية .

وفى هذه المرحلة الثالثة من حياة الكاتب يُعْتَرَف بأنه من كبار الكتاب المسرحيين ، ويبدو فى هذا الدور بأنه يعمل على تهذيب فنه العظيم ، ويفسح المجال لشخصياته لتفكر وتمحص ، ويتناول بصورة خاصة أشكالا من حياة المتعلمين الروس ، التائهين فى عالم المتناقضات ، الغارقين فى الأحلام ، وانعدام الإرادة . . وفى غمرة هذه التأملات يعثر المرء على أفكار للمؤلف حكيمة ، فاضلة ، أعرب عنها برشاقة وفن عظيمين ، كما أن أغنية « عدم المبدئية » اندثرت تماماً ، وغدا

اسمه يأتى بعد اسم تولستوى مباشرة .

***

إن كل من يطالع قصص تشيخوف ومسرحياته لا يسعه إلا أن يقر بعبقرية هـذا الكاتب الفنان العالمى ، وإذا استقصينا السر فى هذه العبقرية لا نجده فى كفاءاته الشخصية فحسب ، بل فى فهمه العميق لروح القصة والمسرح أيضاً .

حدثنا الكاتب الروسى تيليشوف — وهو أحد معاصرى تشيخوف وأصدقائه — قال : تعرفت إلى تشيخوف فى سهرة شتوية ؛ ولما قربت تلك السهرة من نهايتها قال لى : لقد لاح الصباح ، والمدعوون يتفرقون إلى منازلهم ، وحان لنا أن نخرج أيضاً ، فهل رافقتنا لنشرب الشاى مع الزميل غيلياى وأخى ميخائيل بافلوفتش ؟ . . فقبلت الدعوة وخرجنا أربعتنا فى طلب الشاى ، وبعد بحث متواصل فى الحارات والأزقة وجدنا مقهى أضىء مصباحه ، فدخلناه وكان قذراً حقيراً . . فقال تشيخوف معلقاً : هذا ما نستحقه الآن ، وإذا وضعنا كتباً جيدة استحققنا أن نتناول الشاى فى مقاهٍ فاخرة ! . .

ولما كنا فى ملابس السهرة الرسمية اعتبرنا أصحاب المقهى من

خدم الموائد الارستقراطية الذين أنهوا عملهم فى حفلة عرس كبرى . . ! فاغتبط تشيخوف لذلك وقال : هذا شىء نفيس . إنكم لتشكون من قلة المواضيع للكتابة .. أو ليس هذا بموضوع؟ هنا مادة لقصة طويلة ! . .

وكان حائط المقهى قذراً ، وقد ظهرت عليه بقع سوداء ، تركتها رؤوس الحوذيين المخضبة بالزيوت ، فتطلع الكاتب إلى هذه البقع وقال : كيف لا توجد مواضيع للكتابة ، المواضيع موجودة فى كل مكان . . . انظروا إلى هذا الحائط : ها هو ذا يبدو لكم لأول وهلة أن لا شىء فيه يسترعى الاهتمام ، ولكنكم إذا أنعمتم النظر فيه رأيتم شيئاً « خاصاً به » ، لم يعثر عليه أحد بعد ! فتحدثوا عن هذا الشىء . وأؤكد لكم أنكم تضمنون حينئذ قصة جيدة ... وأضرب لكم مثلا بالقمر : لم يبق كاتب أو شاعر إلا تحدث عن القمر ، ومع ذلك بوسع المرء أن يجد فى القمر شيئاً « خاصاً به » ويكتب عنه .

والتفت الكاتب فجأة إلى النافذة المطلة على الشارع ، وكان ضياء الفجر آخذاً فى الانتشار وقال : انظروا ألا ترون قساً يحمل كتابه بيمينه وهو فى طريقه إلى برج الكنيسة ألا تشعرون أن

الموضوع الطريف يثير نفسه بنفسه . . هناك شيء مفجع ، قس في السواد وفجر ممتقع ! . .

كان أنطون تشيخوف يقول للكتاب الناشئين : لا يجوز للكاتب أن يجلس بين أربعة جدران ، وأن يستولد المواضيع من ذاته ، بل عليه أن يرى الحياة والناس ويلمسهما ، وعليه أن يستمع إلى أحاديث القوم كما هي لا كما يتخيلها ، وأن يسعى دائما إلى الأسفار والاحتكاك بمختلف العناصر والشعوب ؛ ونصح الكاتب مرة أحدهم بقوله : سافر إلى اليابان ! . . ونصح غيره بقوله : سافر إلى أستراليا ! . .

وصادف الكاتب مرة صديقه تيلنشوف راكباً قطار الضواحي فبادره قائلا : لا تسافر إلى مصيفك الريفي ، لأنك لن تجد هناك شيئاً يذكر ، سافر إلى مكان قصي ، يبعد عن هذه المنطقة ألفاً أو ألفين أو ثلاثة آلاف فرسخ . . ارحل إلى آسيا ، وإلى البايكال في سيبيريا . . فالمياه هناك عذبة صافية ، وإذا لم تجد متسعاً من الوقت فسافر إلى جبال الأورال حيث الطبيعة مائعة خلابة . . . أجل تخط حدود بلادك إلى أوروبا حتى إذا ارعدت شعرت بأنك تقف على تربة آسيوية ! . . وبعد ذلك

ارجع إلى منزلك أو إلى مصيفك وأنت تحمل الشيء الكثير من المواد والمعلومات ، بل الكثير من القصص ! . . فني الأسفار تشاهد كيف تعيش الشعوب ، وتكون مرغماً على أن تقضى الليل فى الحانات أو الأكواخ ، فتتقلب على الفراش الخشن ، والبراغيث تلسعك وتقض مضجعك .. وإذا ما أتممت ذلك كله فعد إلى واشكرنى . . ونصيحتى إليك ألا تجلس فى القطار الذى تسافر فيه إلا فى عربات الدرجة الثالثة . . . امتزج بالشعب الساذج ، وإن لم تفعل ذلك فلن يبلغ مسمعيك شيء له أهميته . . فإذا أردت أن تكون كاتباً فما عليك إلا أن تبتاع تذكرة إلى منطقة نيجنى، ومن ثم أبحر فى نهر الفولغا، ثم فى نهر كاما.

وعمل تيليشوف بنصيحة تشيخوف فأبحر سنة ١٨٩٤ فى نهر الكاما الممتد وراء جبال الأورال ، وتعرف هناك إلى حياة المستعمرات الروسية التى يقطنها الفلاحون الروس ، ولمس بؤسهم الذى يشبه الخرافات والأساطير ، ولما عاد إلى موسكو كان يحمل فى جعبته مجموعة رائعة من قصص سيبريا ، فتزاحمت عليها كبريات المجلات الروسية فى ذلك الحين .

ويروى لنا تيليشوف قصة طريفة من حياة الكاتب فيقول :

كنت يوما أركب القطار فى الدرجة الثالثة فاجتمعت فيه بفلاح مسافر إلى قرية لوباسنا ، مصيف تشيخوف ، وبحكم جوارى لذلك الفلاح تجاذبنا أطراف الأحاديث ، فلما عرفت أنه من قرية لوباسنا قلت له : لى صديق فى قريتكم أعرفه . .

قال : من هو ؟ . .

قلت : الدكتور تشيخوف . . .

قال : ها . . أنطون باڤلوڤيتش ؟ . . قال ذلك مبتسماً مسروراً ، ولكن سرعان ما تجهم وجهه وأردف قائلاً : حقا إنه لشخص غريب الأطوار ، مشوش الأفكار !

قلت : من ؟ . .

قال : الدكتور أنطون باڤلوڤيتش . . نقلت له زوجتى العجوز وعالجها وشفاها . . ثم مرضت بدورى وعالجنى وشفانى . . ولما قدمت له أجراً رفض قبوله رفضاً باتاً . فقلت له : أى عزيزى أنطون باڤلوڤيتش كيف ترفض الأجر ، ومن أين ستعيش إن لم تتقاض منى ومن غيرى أجراً ... أنت لست بالرجل الغبى ! هلا فكرت فى مستقبلك قليلا . . تصور أنك فى ساعة من ساعات القدر العاتية ستضطر إلى ترك عملك ، فما أنت فاعل ؟ أتشتغل

بالتجارة وأنت تجهلها ! .. وإلى أين تذهب ويداك خاليتان من المال؟ .. فضحك أنطون باڤلوڤيتش وقال : إذا أخرجت من عملى أتزوج من امرأة تاجرة ! .. قلت : وأية تاجرة تقبلك بعلاً لها وأنت لا مركز لك له أهميته . . . وكان جوابه أن ضحك ثانية كأن الحديث لا يعنيه البتة .

كان جليسى يحدثنى بذلك وهو يلوى رأسه ويتنهد ، ثم أردف قائلا : أجل ! إنه لرجل طيب أنطون باڤلوڤيتش . . غير أنه سيعانى مصاعب جمة فى كبره . . إنه لايدرك قسوة الحياة عندما تكون بلا حساب ! .

أما هذه الحياة التى « بلا حساب » فى حياة تشيخوف فتظهر بكل وضوح وجلاء فى الحادث التالى :

اتفق الكاتب سنة ١٨٩٧ مع الناشر الألمانى ماركس، صاحب دار « نيڤا » للنشر ، على أن يضع تحت تصرفه كل مؤلفاته التى كتبها والتى سيكتبها فى حياته مقابل خمسة وسبعين ألف روبل ونصت الاتفاقية على أنه لايحق للكاتب أن يسمح لأحد بنقل شىء من مؤلفاته حتى ولو كان القصد من ذلك عمل الخير . أو مساعدة أية هيئة من هيئات الإحسان ! . . .

وبعد أن وقع الطرفان هذه الاتفاقية شرعت دار النشر « نيفا » فى طبع مؤلفات تشيخوف فى اثنى عشر مجلداً ، وعرضتها على الجمهور . فأدرت عليها بعد مرور سنة من الزمن أرباحاً طائلة عوضت عليها أضعاف ما دفعته للكاتب .

وما إن انتشر خبر هذه الاتفاقية حتى أحدث ضجة كبرى فى الأوساط الأدبية الروسية . وأسرع ما كسيم غوركى فى كتابة رسالة لأنطون تشيخوف ينصحه فيها بأن يفسخ اتفاقيته مع ماركس . وقال له فيها :

« ابعثوا بهذا اللص إلى الشيطان . . . إننى أتقدم إليكم بالنيابة عن نفسى ، وبالإصالة عن دار « المعارف » أن تفسخوا اتفاقيتكم مع ماركس ، أعيدوا إليه الخمسة وسبعين ألف روبل مع الفائدة ونحن نتعهد لكم أن نساعدكم فى ذلك . إننا نضع تحت تصرفكم كل ما تحتاجون إليه من مال . . . ثم خولونا حق نشر مؤلفاتكم . أى ادخلوا شريكا فى دار « المعارف » وتولوا بنفسكم نشر كتبكم . . . إننا نعدكم بتسليمكم كل الربح الذى نجنيه من نتاجكم الفكرى . وتظلون المالك الشرعى لذلك النتاج طيلة حياتكم . واتفاقكم معنا يمكنكم من طبع كميات كبيرة من

كتبكم . و بيعها بأسعار زهيدة تنافس أسعار ماركس . . إن الناس اليوم يقرؤونكم فى القرى ، كما يقرؤكم قراء المدن ، وهؤلاء يتعذر عليهم دفع روبل وخمسة وسبعين كوبيكاً ثمناً للكتاب الواحد .. أى عزيزى ابعثوا بهذا الألمانى إلى الشياطين .. فوالله إنه لينهبنكم بكل قحة .. افسخوا اتفاقيتكم معه ، ودار «المعارف» تضمن لكم دخلاً سنوياً معلوماً قدره خمسة وعشرين ألف روبل . فكروا فى ذلك ! . . »

ولما كانت البلاد الروسية تتأهب فى ذلك الحين للاحتفال بمرور خمس وعشرين سنة على حياة تشيخوف الأدبية . اجتمع فريق من الأدباء والشعراء والعلماء ، والفنانين ، واتخذوا قراراً بالاحتجاج على اتفاقية ماركس و بعثوا له بالرسالة التالية :

« فى هذه الآونة التى تستعد فيها روسيا بأسرها للاحتفال بمرور ربع قرن على حياة أنطون تشيخوف الأدبية ، تبرز أمامنا قضية خطيرة تهم المجتمع الروسى قاطبة . ومفاد هذه القضية أن هناك عدم تناسب مريع بين ما قدمه و يقدمه أنطون بافلوفيتش من خدمات أدبية جليلة من جهة ، وعدم ضمان حالته المادية من جهة أخرى .

عمل أنطون بافلوفيتش ربع قرن فى إيقاظ ضمائر الناس و إنارة أفكارهم بما قدمه لهم من تآليف نفيسة خطها بمداد قلبه المحب الحى . وله الآن ملء الحق فى أن يجنى ثمار مجهوده الفكرى ، وإلا فالعار العار ! . .

إن المؤلفين والكتاب فى البلاد الغربية يصيبون القدر الكبير من الثروة والاستقلال مما يقدمونه لأقوامهم من تآليف . وأما تشيخوف روسيا فهو لا تنقصه الثروة فحسب — إذ لا يعقل أن يحلم الكاتب الروسى بالإثراء - بل إنه لا يملك أيضاً القدر المتوسط من المال الذى يمكنه من الركون إلى الراحة فى كبره دون أن يفكر فى قوت غده .

أجل . هذا هو المصير الذى ينتظر رجلا تتجه إليه اليوم أنظار الروس ، وهى تشع بوميض الفرح والابتهاج لمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على حياته الأدبية الطافحة بروائع الإنتاج ، والتى وضعته فى مصاف الكتاب العالميين .

فمنذ أشهر فقط عمد بلد صغير مثل بولونيا إلى إظهار عواطفه الإنسانية السامية نحو شاعره القومى سينكيفتش . فأكرمه بسخاء فى يوبيله الأدبى الفضى . وأما تشيخوف روسيا العظمى

فيقابله الدهر الخؤون بحرمانه أبسط حق من حقوقه المعاشية . . .

لقد اطلعنا على الاتفاقية المعقودة فيما بينكم وبين أنطون بافلوفيتش تشيخوف والتى يحق لكم بمقتضاها أن تضعوا يدكم على جميع مؤلفاته مقابل خمسة وسبعين ألف روبل . والتى تخولكم الحق أيضاً فى أن تدعوا ملكية كل ما ينتجه فى المستقبل مقابل أجر زهيد لا يزيد على المكافآت العادية التى يدفعها أصحاب المجلات للأدباء والكتاب . والفارق بينكم وبين تلك المجلات أن هذه تكتفى بنشر المقال مرة واحدة وأما أنتم فتنشرون تآليف تشيخوف مراراً عديدة . وإننا لعلى علم تام بأنكم قد تمكنتم ، بعد مرور سنة على عقد تلك الاتفاقية ، من تعويض ما دفعتموه لتشيخوف أربعة أضعاف ! . . .

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذه الأرباح الطائلة التى جنيتموها ، والتى ستجنونها فى المستقبل ، من بيع تآليف تشيخوف ؛ نصل حتما إلى نتيجة محزنة أليمة لا ريب فيها ، وهى أن الكاتب الكبير لم يصب إلا جزءاً ضئيلاً جداً مما يستحقه .

ولاتفاقيتكم هذه شرط سلبى آخر وهو إرغام أنطون تشيخوف على أن يقدم لكم كل تآليفه الجديدة مقابل ثمن بخس . فهذا

الشرط الجائر لابد أن يكون حملاً ثقيلاً على نفس الكاتب .
وسيترك أثراً سيئاً فى سير إنتاجه الأدبى .

وفى الاتفاقية نص آخر يفرض على الكاتب غرامة قدرها خمسة آلاف روبل على كل ملزمة مطبوعة فى أية دار نشر غير دار « ماركس » . وهذا يعنى أيضاً حرمان الكاتب من إصدار طبعات شعبية زهيدة الثمن ، فتكون جميع الكتب الحديثة — الصادرة فى طبعات شعبية — فى متناول الجميع حاملة أسماء كل الكتاب ، غير اسم عزيز علينا ، هو اسم أنطون بافلوفيتش تشيخوف . . .

إنا نرجوكم فى هذا اليوبيل الفضى الأدبى المقام للكاتب الكبير أن تعدلوا ذلك الجور غير المختار الكامن فى طيات اتفاقيتكم . وإنا لنفترض بأنكم وأنطون بافلوفيتش لم تتمكنا فى أثناء عقد الصفقة فيما بينكما من لمس ما ستسفر عنه تلك الصفقة من نتائج ، ولذا نتوجه إلى ضميركم وعدلكم أن تفسخوا الاتفاقية ، ونعتقد جازمين أن الاعتبارات الشكلية فى مثل هذه الأحوال يجب ألا تلعب دوراً هاماً على الإطلاق .

ونلفت أنظاركم إلى أن اتفاقيات مماثلة فسخت فى الماضى ،

ونضرب لكم مثلا بالاتفاقية المعقودة بين إميل زولا ودار « فيسكل » للنشر ، فقد عقدت هذه الاتفاقية بين الفريقين فى وقت لم يكن فيه زولا كاتباً كبيراً ، له قراؤه . . . ولما شغل زولا المكان اللائق به فى الأدب الفرنسى ، عمدت دار « فيسكل » إلى فسخ الاتفاقية وتحرير اتفاقية ثانية تضمن للكاتب الفرنسى الحرية والضمان » . .

ووقع هذه الرسالة عدد من الكتاب ، والعلماء ، والفنانين ، بينهم مكسيم غوركى وليونيد أندرييف ، وفيودور شاليابين ، وإيفان بونين ، ونيقولاى تيليشوف وغيرهم .

ولما بلغ تشيخوف خبر هذه الرسالة سأل القائمين بها أن يكفوا عن جمع التواقيع ، وألا يبعثوا بها إلى « ماركس » قائلا : لقد وقعت تلك الاتفاقية مختاراً ، ولا يليق بى أن أتخلى عن الالتزامات التى قطعتها على نفسى ، فإذا رَخُصْتُ فأنا الملوم ! لقد ارتكبت حماقة ، والسيد « ماركس » غير مسؤول عن حماقات غيره . . فى مرة أخرى سأكون حذراً ! . . .

وفى هذه الآونة . . أى حوالى سنة ١٨٩٥ ، تعرف تشيخوف إلى إيف تولستوى ، وتطور هذا التعارف إلى صداقة ،

ثم إلى حب واحترام ، فى حين أن الشخصين كانا على طرفى نقيض فى طريقتهما ، ونمط تفكيرهما ، ولا يتقابلان فى نقطة واحدة ؛ فالأول واقعى إلى أبعد حدود الواقعية والثانى صوفى مغال فى صوفيته . وبالرغم من ذلك كان تولستوى من جهته يجل تشيخوف أيضاً كفنان عظيم ، وإنسان سام ، وشخصية فذة ، ويغفر له عبادته للعلم والثقافة ، ويسر جداً لتآليفه ، ويعجب بها ، وهكذا توطدت عرى الصداقة بين الارستقراطى العظيم المتحدر من أسرتى فولكونسكى وتولستوى ، والرجل الشعبى الصاعد من الفلاحين الأرقاء ! . .

قال تولستوى مرة : تشيخوف هو بوشكين روسيا فى النثر !

وقال أيضاً : تشيخوف شخص فاتن ، متواضع ، لطيف المعشر ، ويسرنى أن أتحدث عنه . . .

وكان تشيخوف يقدر تولستوى العبقرى حق قدره ، ويدرك كنه قيمته الأدبية ، ويتبين لنا ذلك من المثل التالى :

أصيب تولستوى سنة ١٩٠٠ بمرض عرض حياته للخطر ، وكان تشيخوف طبيبه الخاص فأخذ يعالجه ويعوده يومياً ، وإذ خرج من عنده مرة قال لأصدقائه : « إننى أخشى موت

تولستوى ، ففقدانه سيحدث فراغاً عظيماً فى حياتى ، لأننى أولا لا أحب أحداً أكثر منه ، وثانياً لأن وجوده فى معترك الحياة الأدبية يسهل على المرء أن يكون أديباً ، وأن يتذوق الأدب حتى ولو أنه لم يفعل ولن يفعل للأدب شيئاً ! . . فتولستوى يعمل للجميع ! . . وثالثاً لأن فى بقائه على قيد الحياة بناء قوة معنوية تكبح جماح الأذواق القبيحة ! . . ورابعاً لأن فى بقائه ما يحفظ الأحاسيس الأدبيـة واتجاهاتهـا على أن تظل فى مستوى عال معلوم » . ومن غريب تصرفات الدهر أن الشيخ تولستوى شفى من مرضه ، وبعد سنوات قلائل ، كان فى جملة من شيع تشيخوف إلى لحده ! . .

فنى سـنة ١٨٩٧ اكتشف الكاتب فجأة أنه مصاب بالتدرن الرئوى ؛ فسافر إلى بيارتس فى فرنسا للاستشفاء ، ثم انتقل إلى نيس . وفى سنة ١٨٩٨ عاد إلى روسيا فباع أملاكه فى قرية ميليخوفة ، وتوجه تواً إلى يالتا فى القرم برفقة شقيقته ماريا باقلوفنا ، فابتاع هناك أرضاً فى قرية آوتكه ، وشيد عليها بيتاً صغيراً حسب ذوقه ، وأحاطه بحديقة غناء ، زرع فيها أشجاراً توحى له جو المناطق الروسية الشمالية التى كان يتعشقها ، ومع

ذلك كان ينظر إلى القرم وكأنه منفى لا مكان للاستشفاء والتمتع بجمال المناطق الطبيعية الجنوبية ، مخالفاً فى ذوقه هذا معظم شعراء الروس وكتابهم ، الذين كانوا يتمنون العيش عند سواحل القرم أو على جبال القوقاس .

ونرى الكاتب فى القرم كما عهدناه فى قرية مليخوفة ، منشئاً ، اجتماعياً ، يعنى بمعالجة المرضى والضعفاء ، كما أن مرضه لم يفقده حبه للنكتة ، وخفة الروح ، والتحدث عن صغائر الأمور ، والمداعبات المستحبة .

وحدث فى خريف سنة ١٩٠٢ أن زاره فى بيته* فى القرم جماعة من الأدباء والكتاب بينهم غوركى ، وبونين ، وبعد أن تناولوا العشاء تطوع بونين بأن يقرأ على الحضور قصة مرحة لتشيخوف، وكان المؤلف قد نسيها لقدمها.. فأنصت الجميع لبونين، وقد سحرهم بحسن إلقائه ، وإحكام لفظه ، أما تشيخوف فقد عبس فى أول الأمر ، ثم ابتسم ثم أخذه الضحك . ولما انتهى

---

* فيلا تشيخوف هذه لا تزال قائمة بالقرب من يالتا فى القرم ، وهى اليوم متحف لآثار الكاتب الكبير ، وكل شىء فى هذه الفيلا باق مكانه كما تركه ، فهنالك غرفة نومه ، ومكتبته ، وملابسه ، ومجموعة آخر رسائله . . فيخيل للزائر أن صاحبها آت بعد لحظات ! . .

بونين من القراءة علق الكاتب المريض بقوله : « أنتم محظوظون يا كتاب اليوم ، فالناس يخلعون عليكم آيات الثناء على ما تقدمونه لهم من قصص قصيرة . . أما أنا فقد مر بي زمن كان الناس فيه ينهالون على بالشتائم لأنني أكتب القصة ! . . لأنهم كانوا يعتقدون أن الكاتب لا يكون موضع الاحترام والاعتراف بالجميل إلا إذا وضع رواية كبيرة ! . . غير أنني بينت عقم هذه الفكرة ، وخرقت الحائط بجبيني من أجل القصص القصيرة .

وفي ٢٥ مارس سنة ١٩٠٢ تزوج الكاتب من إحدى ممثلات مسرح موسكو الفني ، وهي أولغا ليوناروود وفنه كنيبر ، وكان زواجاً دام سنتين فقط .

وفي سنة ١٩٠٢ أيضاً انتخب تشيخوف ، وغوركي ، وكورولينكو* أعضاء في الأكاديمية الروسية ، لكن القيصر نيقولا الثاني أبى على غوركي عضوية الأكاديمية وحرمه منها قائلا : « إنني جد متألم من انتخاب غوركي » ، فما كان من تشيخوف إلا أن رفض عضوية الأكاديمية احتجاجاً على

---

* دلاديمير غالاكتيونوفتش كورولينكو (١٨٥٣ — ١٩٢١) كاتب روسي كبير ، ومن مؤلفاته البارزة « الموسيقار الضرير »

تصرف القيصر المشين ، ومناصرة لزميله الكاتب الشعبي الكبير .

وفى سنة ١٩٠٣ وضع الكاتب تمثيلية « حديقة الكرز » فقرر مسرح موسكو الفنى أن يمثلها فى ١٧ يناير سنة ١٩٠٤ ، أى فى ذكرى ميلاد تشيخوف ، وفعلاً مثلت فى حضوره ، وبعد الانتهاء من التمثيل وقف صاحب التمثيلية على المسرح والجمهور الغفير يقدم له الزهور ، والهدايا ، والبطاقات ، وكان الكاتب — وقد اشتد عليه المرض — يبدو شاحباً هزيلاً ، متصوراً أن الجمهور يجرى تجربة كبرى لتشييع جثمانه ! . .

وفى شهر يونيو سنة ١٩٠٤ ألح الأطباء على تشيخوف بأن يسافر إلى بادن فيلير فى ألمانيا للاستشفاء ، وقبيل مغادرته القرم زاره أصدقاؤه فرأوه هيكلا ضئيلا ، شمعى اللون ، وعيناه « لا تبتسمان » كما كانتا فى السابق . . فقال لهم : الوداع إننى ذاهب لأموت . . تحياتى إلى جميع الأصدقاء والمعارف ، وقولوا لبونين أن يواظب على الكتابة ، لأنه سيصبح كاتباً له شأنه .

وانتقل الكاتب إلى بادن ليقضى آخر أيامه فيها ، وفى ١٥ يوليو سنة ١٩٠٤ ، وبعد أن استنفدت جميع وسائل الطب ، أشار الطبيب بتقديم كأس من الشمبانيا ، ولما كان تشيخوف طبيباً

لم يفته المعنى من تقديم الكأس المذكورة ، فنهض فى فراشه وقال للطبيب بالألمانية : إننى أموت !.. ثم رفع الكأس بيده وقال لزوجته مبتسما : لقد مضى علىّ زمن طويل لم أذق خلاله طعم الشمبانيا . : وأفرغ الكأس فى جوفه حتى الثمالة ، واضطجع بهدوء على جنبه الأيسر ، وسكت سكتته الأبدية .

وعند مطلع فجر اليوم التالى نقل جثمان الكاتب إلى الحدود الروسية فتلقاه أناس من الموظفين لم يسمعوا باسمه قط ! . . فوضعوا نعشه فى عربة كتب عليها « عربة الأسماك والمحارات » ثم وصل الجثمان إلى بطرسبورغ ولم يدر به أحد بسبب سوء تفاهم وقع فى إرسال برقية النعى. وفى السابع عشر من يوليو سنة ١٩٠٤ نقل الجثمان إلى موسكو ، وكان فى استقباله جمهور غفير من النواب ورجالات الفن والأدب والعلم يحملون مئات الأكاليل وباقات الزهور ، وكان ذلك الاستقبال بمثابة كلمة شعبية كبرى فى تقدير فداحة الخسارة .

ومن ثمّ شُيع أنطون بافلوفيتش تشيخوف إلى « دير العذارى » المعروف بدير نوفوديفيتشى بالقرب من موسكو ودفن فيه .

وفى ١٦ يناير سنة ١٩٣٣ أى بعد تسع وعشرين سنة على

وفاة الكاتب الروسى العظيم ، نبش القبر بحضور رهط من الناس يمثلون مسرح موسكو الفنى و « الجمعية التشيخوفية » ، وذوى الكتب وأخرجوا النعش المطوق بالزنك ، ونقلوه إلى مقبرة جديدة فى موسكو أعدتها الحكومة السوفاتية لنوابغ الكتاب والفنانين الروس ، ودفن فى ضريح فخم يليق بمقامه الأدبى ، وكان موقع الضريح فى « حديقة الكرز » تذكاراً لآخر تمثيلية وضعها الكاتب فى أواخر أيامه .

* * *

كلمات مأثورة لتشيخوف :

« آن الأوان ! إن إحداثاً هائلة تقترب منا ، إن عاصفة قوية عنيفة تسير نحونا قدماً ، إنها تقترب شيئاً فشيئاً ، وستنسف من مجتمعنا السآمة والكسل وعدم المبالاة والنفور من العمل »

من مسرحية « الأخوات الثلاث »

« من الأقوال الدارجة إن الإنسان بحاجة فقط إلى ثلاث أذرع من الأرض ، والواقع أن هذه الأذرع الثلاث تلزم لجثة الإنسان فقط ، وأما الإنسان الحى ، فلا تسعه ثلاث أذرع من الأرض ، ولا بيتاً كاملا : وإنما الطبيعة قاطبة ، بل الكرة

الأرضية بأسرها ، ليتمكن فى فسحتها من إظهار جواهر روحه وخصائصها »

من قصة « عنب الثعلب »

« مهمة الإنسان إما فى لا شىء ، وإما فى شىء واحد : الحب المتناهى للقريب »

و « هناك طراز من الناس يتعمدون الهزء بغيرهم فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، وهم لا يستطيعون العبور بجائع أو منتحر دون أن يقولوا له قولاً لئيماً »

من قصة « الرجل المجهول » .

« يقولون إن الفلاسفة والحكماء « لامبالون » ، وهذا قول غير حقيقى فاللامبالاة هى شلل النفس ، هى الموت قبل الأوان » .

من قصة « السيرة المملة »

« الزواج بلا حب كالعبادة بلا إيمان ، وهذا ضرب من النذالة لا يليق بكرامة الإنسان » .

من قصة « المبارزة »

« حياة البطالة والفراغ مشوبة بالقذارة »

من مسرحية « العم فانيا »

« ماذا تكون حالنا لو أن الحياة الإنسانية كانت مبنية على عدم مقاومة الشرور ؟ !

— لا شيء بتاتاً . . فعدم مقاومة الشرور يفسح المجال لعبث الإرادة الآثمة ، وهذه — والمدنية معها — لا تبقيان على الأرض حجراً على حجر ! . .

— ومن يتبقى على الأرض إذن ! . .

— جماعات من الأشقياء ! . .

من قصة « أناس طيبون »

مسرحيات من فصل

١ — أغنية التم .　　　٢ — الدب .
٣ — مفجوع رغم أنفه .　　　٤ — ضرر التبغ .

أغنية التم

أشخاص الرواية :

ڤاسيلى ڤاسيليڤتش سفتلوڤيدوف ، ممثل هزلى ، له من العمر ثمان وستون سنة .

نكيتا إيفانيتش ، ملقن المسرح ، شيخ أيضاً . .

(تجرى الرواية داخل مسرح ريفى ليلا . وذلك بعد الانتهاء من حفلة التمثيل . المسرح خاو . وإلى اليمين منه عدة أبواب غير مزينة وقد ثبتت بلا إحكام ، وكلها تؤدي إلى غرفة التزيين والملبس ، وفى صدر المسرح ، وإلى يساره ، أكوام من سقط المتاع . وفى وسطه مقعد مقلوب . الوقت ليل . . ظلمة حالكة . . . .
سفتلوفيدوف ، في لباس المهرج ، يخرج من غرفة التزيين والملبس ، يحمل شمعة بيده و يقهقه)

سفتلوفيدوف : حقاً . . إنها لنكتة . . بل ومهزلة المهازل . . لقد غفوت فى غرفة التزيين والملبس . . انتهى التمثيل منذ وقت طويل وخرج كل من كان في المسرح . وأما أنا ، فبقيت فى مكانى

هادئاً . . أرسل الشخير تباعاً ، إيه أيها الشيخ المتضجر . .
إنك لأشبه بكلب عتيق... تكومت على كرسيك وغفوت..
إنك لرجل ذكى تستحق الثناء (يصرخ) إيغوركا ! . .
إيغوركا ! . . يا للشيطان . . أين أنت يا بتروشكا ! . .
أغفوتما أيها اللعينان ؟ . . فليتنفس من فميكما مائة شيطان
وعفريت . . إيغوركا ! . . (يعدل المقعد ، ويجلس عليه
ويضع الشمعة على الأرض) : لا أسمع شيئاً سوى الصدى . .
نقدت اليوم كلاً من إيغوركا و بتروشكا ثلاثة روبلات
مقابل ما أبدياه من جهد فى التمثيل ثم خرجا . . وهيهات أن
أعثر عليهما ولو بمساعدة كلاب الأثر . . ويغلب على ظنى
أن هذين اللعينين أقفلا علىّ باب المسرح (يهز رأسه)
إننى ثمل . . أف . . كم صببت فى جوفى من النبيذ والجعة
من أجل « الجمعية الخيرية » يا لله . . إننى أشعر كأن النار
تلتهم جسمى . . وكأن اثنى عشر لساناً تهجع فى فمى . . إنه
لأمر مستقبح حقاً (يتوقف) يا للغباوة . . . سكرتَ أيها
الأحمق العتيق (يخاطب نفسه) لقد كنت وأنت تجرع الخمر
فرحاً مسروراً دون أن تدرك الداعى لسرورك هذا .. أف ..

رباه .. إن خاصرتىّ تتمزقان ، ورأسى يتصدع ، والرعشة تنتاب جسمى كله ، ونفسى فاترة قاتمة .. وكأنها ترقد فى أعماق قبر .. فإذا كنت لا أشفق على نفسى ، فعلىّ على الأقل أن أشفق على شيخوختى .. (يتوقف) أجل .. الشيخوخة ، فكيفما راوغت وتشجعت وماجنت فلقد عشت أيامى .. ثمان وستون سنة انصرمت .. بَخٍ .. بَخٍ .. احتراماتى ! .. لا مفرّ من النهاية .. لقد أفرغت الزجاجة كلها فى جوفى ، ولم يبق فى قعرها إلا الشىء القليل ، والقليل جداً .. بقيت الثمالة أجل .. هكذا هى الحياة يا فاسيوشا .. فعليك — سواء أردت أم لم ترد — أن تُعوِّد نفسك تمثيل دور الموت ! .. وهل ملك الموت فى مكان قصى ؟ (يتطلع إلى الأمام) ويلاه .. إننى أشاهد لأول مرة هذا المسرح فى ظلمة الليل ، بالرغم من مضى خمس وأربعين سنة على عملى فيه . حقاً إنه لشىء طريف (يقترب من صف الأنوار) لا أرى شيئاً ... غير أن كوة الملقن تتراءى لناظرى قليلاً ، وهذا هو صندوق الرسائل ، ومقرأ النوتات أيضاً .. وكل ما تبقى ظلام حالك بل هوة دكناء سحيقة ... إنها لأشبه بالقبر

الذى يختفى فيه الموت .. (أخ) .. ما هذا البرد ؟ ..
ريح تهب فى قاعة للسرح كما تهب فى مدخنة الموقد ..
ها هنا المكان الحقيقى الذى تستدعى فيه الأرواح ..
يا للشيطان .. إنها لحالة مرعبة تسرى الزعدة فى الجسم .
(يصرخ) : إيغوركا ، بيتروشكا .. يا للأبالسة .. أين أنتما ؟..
رباه .. مالى أردد هذه الشتائم ؟ ، علىّ ألا أستعمل الألفاظ
النابية .. وأن أهجر الخمر .. لقد أصبحت طاعناً فى السن
وحانت ساعتى .. فالناس فى الثامنة والستين من عمرهم
يتفرغون إلى الصلاة والعبادة ، و يتأهبون لاستقبال الموت ..
وأما أنا .. آه .. يا إلهى لا أزال أردد العبارات البذيئة ،
وهيئتى هيئة سكير مدمن ، وهأنذا أرتدى رداء المجون ..
كلا .. علىّ أن أسرع وألقى بهذا الرداء جانباً، يا للهول إنى
إن بقيت على هذه الحالة طيلة الليل فيحتمل أن أهلك رعباً
(يذهب إلى غرفة التزيين والملبس ، وفى هذا الوقت يخرج
نيكيتا إيفانيتش من غرفة التزيين وهو يرتدى رداء
أبيض اللون ..)

سفتلوفيدوف : (يرى نيكيتا إيفانيتش، فيصرخ من الذعر ، و يرتد

على عقبيه) من أنت ؟ . . ماذا تريد ؟ . . من تريد ؟ . .
(يضرب الأرض بقدميه) من أنت ؟ . .

نيكيتا إيفانيتش : هذا أنا !

سفتلوفيدوف : من أنت ؟

نيكيتا إيفانيتش : (يقترب منه على مهل) هذا أنا ، الملقن نيكيتا إيفانيتش .

سفتلوفيدوف : (يرتمى على المقعد خائر القوى ، و يتنفس بمشقة وهو يرتعش فرقاً) رباه من هذا ؟ أأنت نيكيتوشكا ؟ ماذا تفعل هنا ؟

نيكيتا إيفانيتش : إننى أقضى الليل فى غرفة التزيين ، فرجائى إليك ألا تطلع ألكسى فوميتش على جلية الأمر . . ثق بأننى لا أجد مكاناً آوى إليه .

سفتلوفيدوف : آه يانيكيتوشكا ... دعانى الجمهور هذه الليلة ست عشرة مرة للظهور على المسرح ، وقدم لى ثلاث باقات من الزهور ، وأشياء كثيرة أخرى . .. لقد كاد الناس يطيرون فرحاً . . لكن أحداً منهم لم يحاول إيقاظ هذا الشيخ السكير ولم يحمله إلى بيته . . نيكيتوشكا . . إننى شيخ . . ولى

من العمر الآن ثمان وستون سنة . . إننى مريض . . ونفسى يتلاشى شيئاً فشيئاً .. (لقى بنفسه على كتف الملقن ويبكى) لا تذهب يا نيكيتوشكا إننى شيخ عاجز .. لقد حانت ساعتى يا للهول .. يا للهول . .

نيكيتا إيفانيتش : (بلطف واحترام) فاسيلى فاسيليتش . . لقد آن لك أن تعود إلى بيتك هيا . .

سفتلوفيدوف : لن أذهب . . . ليس لى بيت . . كلا . . كلا . . كلا . .

نيكيتا إيفانيتش : رباه . . أنسيت أين تسكن ؟

سفتلوفيدوف : لا أريد الذهاب إلى بيتى لا أريد . . إننى وحيد ولا أهل لى ولا أقارب . لا زوجة لى ولا أطفال . . إننى وحيد مثل الهواء فى الخلاء ! . . سأموت وان يذكرنى أحد . . إننى أخشى البقاء فى بيتى وحيداً . . ليس هناك من يشمل هذا السكير بعنايته . . ليس له من يهدهده ويحمله إلى فراشه . . فمن أنا ؟ وأى نفع يرجى منى ؟ ومن يحبنى ! لا يحبنى أحد يا نيكيتوشكا . .

نيكيتا إيفانيتش : (بعين دامعة) كفاك أن الجمهور يحبك !

سفتلوفيدوف : لقد خرج الجمهور بعد التمثيل وتفرق ، إنه يغط فى نومه الآن وقد أسدل ستار النسيان على ممثله الهزلى ، كلا .. إننى أصبحت على هامش الحياة . . وليس لى من يحبنى فلا زوجة لى ولا أطفال . .

نيكيتا إيفانيتش : أهذا هو ما يحزنك ؟

سفتلوفيدوف : إننى إنسان مخلوق حى . . وتجرى فى عروقى دماء لا ماء ! . . إننى شريف ومتحدر من أرومة كريمة . . كنت قبل أن أتردى فى هذه الهوة جندياً فى مدفعية الجيش ، كنت شاباً قويا جميلاً أميناً جريئاً متحمساً . . رباه أين ذهب ذلك كله ؟ ثم وأى ممثل كنت فيما مضى من الأيام ؟ (ينهض مستنداً إلى يد الملقن) أين ذهب ذلك كله ؟ أين هى تلك الأيام ؟ . . . رباه إننى لأتطلع إلى هذه الهوة الآن وأذكر كل شىء ، لقد ابتلعت هذه الهوة خمساً وأربعين سنة من حياتى ، وأية حياة حافلة كانت يا نيكيتوشكا ؟ . . إننى لأسدد نظرى إلى أعماق هذه الهوة فأرى فيها كل شىء واضحاً بجميع دقائقه ، أرى مرح الشباب

والإيمان ، وحرارة العواطف ، وحب النساء ، أجل . .
النساء يانيكيتوشكا . .

نيكيتا إيفانيتش : آن لك أن تنام . ڤاسيلى ڤاسيلتش ، هيا .هيا . .

سفتلوفيدوف : أذكر أنه حدث — لما كنت ممثلا فتياً ، وكانت حرارة عواطفى فى أوجها — أن أعربت لى إحدى الفتيات عن إعجابها بتمثيلى وأحبتنى . . كانت فتاة رشيقة ، ممشوقة القد كشجرة الحور ، غضة ، بريئة ، شريفة ، تلتهب غيرة مثل فجر الصيف ، فابتسامتها اللطيفة تتألق نوراً ، وعيناها الزرقاوان تشعان بالبريق ، لو سلطتا على ظلام حالك لبددتاه وانتشر الضياء . إن أمواج البحر تتكسر على الصخور ، ولكن على أمواج شعرها المجعد تتكسر الجلاميد وكتل الجليد ! . . أذكر مرة أننى وقفت أمامها ، كما أقف أمامك الآن وكانت رائعة وقتئذ أكثر من أى وقت مضى فألقت على نظرة لن أنساها حتى فى القبر ، كلها دلال . . قطيفة مخمل . عمق بريق . . صبا . . سكرت لمرآها هذا ، وسقطت أمامها راكعاً ، وقد غمرنى شعور بأننى أسعد مخلوق (يتابع بصوت خافت) وكانت تقول لى : اهجر المسرح . . اه . . . جر . .

ا . . . . . مسـ . . . . ر . . . ح . . . أتفهم ما أقوله لك ؟ .
كان بوسعها أن تحب ممثلاً لكنها أبت على نفسها أن تكون زوجة له . . وأذكر أنني مثلت في ذلك اليوم دور الماجن المنحط . . . كنت أقوم بدوري وأحس أن عيني تتفتحان على حقيقة ما . . لقد أدركت إذ ذاك أن ما يسمونه فناً مقدساً إن هو إلا خداع وهذيان ، وأنني لست إلا عبداً مهرجاً وألعوبة يتلهى بها الناس . . أجل فهمت الجمهور وقتئذ فلم أعد أثق بالتصفيق ولا بباقات الزهور ، ولا بالتظاهر الحماسي . . كان الجمهور يصفق لي ويبتاع رسمي ومع ذلك كنت غريباً عنه ، بل رجساً ، فاجراً على وجه التقريب ، كان يتحكك بي ويتعرف إلى لإرضاء خيلائه فقط ، لكنه لا يتنازل أن يزوجني إحدى شقيقاته أو بناته . . إنني لا أصدق الجمهور (يهبط على المقعد) إنني لا أثق به . .

نيكيتا إيفانيتش : لقد ضمر وجهك يا ڤاسيلي ڤاسيليتش فغدوت مخيفاً . أرجوك أن تذهب معي إلى بيتك . .

سفتلوفيدوف : كنت في شبابي أتمتع بتمام صحتي وعافيتي ، وبعد تلك القصة — قصة الفتاة — أصابني السقم ، وأخذت

أتسكع بلا هدف ، وأعيش مضطرباً ذاهلاً . لقد مثلت أدوار الهازلين الماجنين ، فأفسدت العقول والنفوس ، فانحط لسانى واعوج ! . . وفقدت صورتى وملامحى ! . . لقد مضغتنى تلك الهوة السوداء وابتلعتنى ... إننى لم أشعر بذلك سابقاً وأما اليوم فقد استيقظت فتطلعت إلى الخلف فوجدت نفسى أجر ثمانى وستين سنة . وجدت الشيخوخة . . . لقد غنيت أغنيتى (ينتحب) لقد غنيت أغنيتى . .

نيكيتا إيفانيتش : عزيزى فاسيلى فاسيليتش . . أبتاه . . هدئ من روعك (يصرخ) بتروشكا ! . . إيغوركا ! . .

سفتلو فيدوف : لدىّ المواهب ، والقوة ، والفصاحة ، وفى هذا الصدر (يدق بقبضته على صدره) أوتار جمة تصدح بجميع الألحان ، آه . . سأختنق . . اسمع أيها الشيخ . . دعنى أتنفس قليلاً . . اسمع هذا المقطع من رواية « بوريس غودونوف » :

« ظل إيفان الرهيب تبنانى . . .
ومن القبر أحيا ديمترى . . .
وبذا الاسم دعانى . . .

هييج الشعوب إلى جانبي .
وكان « بوريس » من قرباني . . . .
أنا ولى العهد . . كفانى الرضوخ لتلك البولونية المتنزة . . كفانى . . . » .
والآن (بسرعة) قِف . . استمع إلى هـذه لمقطوعة . . من «الملك لير» تصور سماء تكاثفت فيها الغيوم القاتمة . . والمطر يهطل . . والرعد ر ر ر . . . والبرق ز ز ز . . . ثم :
« اغضبى أيتها الرياح . .
واعصفى . . حتى تتمزق الوجنات . .
وأنت أيتها المياه الهاطلة . .
تدفقى كريح زعزع . .
واغمرى الأبراج
وابلغى « ديك الرياح » . .
وأنت أيتها النيران الـكبريتية المتأججة . .
يا مكتسحة الأحراج . .
يا نذيرة سهام الرعود القاصفة . .

هبّى فوق رأسى . . وألهبى شيبتى
وأنت أيتها الرعود السماوية المزعزعة
انقضى على الطبيعة دفعة واحدة .
واسحقى الكرة الأرضية بأسرها . .
وبعثرى فى الهواء تلك البذور
التى تلد الناس الكافرين بالنعم . . .
(على عجل) إلىّ إلىّ بكلمات النديم . . هات جواب النديم
إذ ليس لدى متسع من الوقت . . .

نيكيتا إيفانيتش (يمثل دور النديم) : « إيه إشبينى . . أفضل لك أن تقبع تحت سقف البيت من أن تتسكع فى الخارج تحت هذا المطر المنهمر . . فنصيحتى لك أيها العم أن تسأل بناتك الصفح ، فهذه ليلة ممطرة ، لا تميز فى مصيبتها بين الحكيم والأحمق » . .

سفتلوفيدوف : « وأنت أيتها النيران والعواصف . .
ازأرى بكل ما أوتيت من قوة . .
اعصفى ، وحطمى ، واحرقى . .
فما الذى يدعوك إلى الشفقة بى ؟ . .

أنتن لستن بناتى . .

ولن ألومكن على قسوتكن . .

ولستن من أورثتهن ملكى . .

وأوليتهن حنانى وعطفى » . .

قوة . . موهبة . . فنان . . لنأخذ شيئاً آخر قديماً يهز العواطف . لنأخذ مقطوعة من « هاملت » . . (يقهقه بملء شدقيه) سأشرع ، هيّا (يمثل دور هاملت) . « ها هم العازفون على المزامير . . هات المزمار (يوجه الكلام إلى نيكيتا إيفانيتش) يخيل إلىّ أنك تضايقنى كثيراً » .

نيكيتا إيفانيتش : « ثق أيها الأمير أن الداعى لذلك كله هو حبي لك و إخلاصى للملك » .

سفتلو فيدوف : « إن هناك أموراً لا أدرك كنهها كل الإدراك . اعزف لى شيئاً »

نيكيتا إيفانيتش : « لا أستطيع أيها الأمير » .

سفتلو فيدوف : أناشدك الله أن تعزف شيئاً » .

نيكيتا إيفانيتش : « إننى لا أحسن العزف على المزمار بتاتاً » .

سفتلو فيدوف : « إن العزف على المزمار سهل كالكذب ! . . .

خذ المزمار بيديك هكذا ، وضع شفتيك هنا ، وأصابعك هناك . . واعزف . . . »

نيكيتا إيفانيتش : « إننى لم أتعلم العزف قط » .

سفتلو فيدوف . « احكم الآن أنت بنفسك . . . من أنا بنظرك ؟ أتريد أن تلعب بى وأنت عاجز عن اللعب بهذا المزمار ؟... اعتبرنى كما تهوى وتحب ، وبوسعك أن تذيقنى مر العذاب ، لكنك لن تستطيع اللعب بى ، (يضحك سفتلو فيدوف ، ويصفق ويخاطب نفسه قائلاً) : عافاك . . أعد ، عافاك ، يا للشيطان . . أية شيخوخة هذه ؟ . . إنه لمن السخف أن أدعوها شيخوخة . . وإنما هى قوة تجرى فى عروقى . . هذا هو الشباب . . النضارة . . الحياة . . فحيث تكون المواهب يا نيكيتوشكا لن يكون محل للشيخوخة . . . آه . . وهنت قواى . وخارت . . قف دعنى أستعد شعورى . . آه . يا إلهى . . رباه . . استمع الآن إلى هذه المقطوعة التى تطفح رقة وعذوبة ، إنها الموسيقى بعينها صه . . صه :

« أوكرانيا . . . لياليها هادئة . . وسماؤها صافية شفافة . . ونجومها ساطعة براقة . . لياليها تقهر الوسن . . وتأبى

الهواء . . وتكتفى بالنسيم ليداعب أوراق شجر الحَوْر الفضية . .»(يسمع قرقعة عند الباب و يصرخ) من هناك ؟ . .

نيكيتا إيفانيتش . . أظن أن بتروشكا و إيغوركا قد عادا .. مواهب يا فاسيلى فاسيليتش ... مواهب ! . .

سفتلو فيدوف . . (يتطلع إلى الباب حيث القرقعة و يصرخ) إلىّ يا نَسْرىّ . . (ثم يخاطب نيكيتا إيفانيتش) هيًّا لنرتد ملابسنا . . ليست هنالك أية شيخوخة ، وكل ما يقال فى هذا الصدد إن هو إلاّ لغو وهذر . . (يضحك مغتبطاً)ما الذى دهاك يا نيكيتوشكا . . ما الذى يدعوك إلى البكاء و يحملك على التَّنَحْنُح ؟ كلا أيها الشيخ كلا ...هذا أمر غير مستحب ، تشجع . ارفع رأسك (يحتضنه ودموعه تسيل على خديه) لا لزوم للبكاء ، فحيث الفن والمواهب ، لن يكون مجال للشيخوخة ، والعزلة . . والمرض ، بل الموت نفسه يكون بعيداً . (يبكى هو أيضاً) إيه نيكيتوشكا . . . لقد غنينا أغنيتنا . . . وما هى المواهب التى بقيت لدينا . . إننى لَيمونة قد عصرت ! .. إننى أسطوانة من جليد مدلاة ! .. إننى مسمار يعلوه الصدأ . . وأنت . . أنت . . برذون مسرح عتيق . .

هيّا بنا . . (يذهبان)

سفلتوفيدوف : أين هى مواهبى الآن ؟ إننى لم أعد أصلح للمسرحيات الجدية ، بل ولا لدور فى حواشى هذه المسرحيات . . أتذكر ذلك المقطع من « عُطيل » يا نيكيتوشكا ؟« أسألك الصفح يا راحتى . . ويا رفاهيتى . . واصفحوا عنى أيها الجنود . . . ويا معارك المجد والفخار . . ويا حصانى الجموح . . ويا ذوى الطبول . . ويا نداء الأبواق . . وعلم المملكة . . ويا مجالى الشرف والعظمة . . ويا بطولة المقاتلين الأمجاد . . اصفحوا عنى جميعاً . . »

نيكيتا إيفانيتش : مواهب . . مواهب . .

سفتلوفيدوف : إليك هذا المقطع أيضاً من مسرحية « ويلٌ من الحكمة » لغريبويدوف : « فلاً نطلق من موسكو . . . . إننى لن أعود إلى هذا المكان ثانية . . إننى لأركض دون أن أتلفت يمنة أو يسرة . . أركض فى هذا الكون باحثاً عن ركن تلجأ إليه الكرامة المهانة . . هات العجلة . . هاتها »

(يخرج مع نيكيتا إيفانيتش) .

(ويسدل الستار ببطء .)

الدُّب

أشخاص الرواية :

إيليفا إيفانوفنا بوبوفا — أرملة . على وجنتيها بعض النقر .
غريغوري ستبانوفيتش سميرنوف — غني في العقد الرابع من عمره .
لوقا — خادم بوبوفا ، شيخ طاعن في السن .

(في بيت بوبوفا . وفي غرفة استقبالها . بوبوفا في لباس الحداد . تمسك بيدها صورة فوتوغرافية . ولا ترفع النظر عنها ولوقا الخادم يقف أمامها) .

١

لوقا : مولاتي . . إنك لتجلبين الأذى لنفسك فقط . . فالخادمة والطاهية خرجتا تتنزهان ، وتجمعان التوت البري من الأحراج . وكل كائن حي . . يسر في هذا الطقس اللطيف . . حتى إن قطتنا تسعى إلى ما يسرها ، فها هي تروح وتغدو في الفناء تصطاد العصافير . .

وأما أنت . . . فإنك تقبعين طيلة النهار في الغرفة ، كأنك في دير . لقد انقضت سنة كاملة ، وأنت حبيسة في دارك .

بوبوفا : لن أخرج من هذا البيت أبداً . . وما الذي يدعوني إلى الخروج ؟ ؟ . . انتهت حياتي ! فهو يرقد في القبر ، وأنا

قبرت نفسي بين هذه الجدران الأربعة . فكلانا ميت ! . .

لوقا : لا . . لا سمح الله . . يا مولاتي . . توفى الله نقولاى ميخايلوفتش ، فهذه إرادته ، وللمرحوم ملكوت السموات. وأما أنت ، فقد حزنت على زوجك ما فيه الكفاية ، ولا يجوز لك أن تقضي العمر كله في البكاء والنحيب . وأقول لك بهذه المناسبة : إن عجوزتي أيضاً قد توفاها الله في يوم من الأيام . فحزنت عليها ، وبكيتها شهراً . ثم سلوتها . . لأن الحداد عليها طول العمر . . لن يبعثها ثانية إلى الحياة (يتنهد) . . لقد نسيت جيرانك كلهم يا سيدتي ، وأقلعت عن الأسفار والرحلات ، وغدوت لا تقبلين الزائرين . . وأستمحيك العذر إن قلت لك إننا أصبحنا نعيش مثل العناكب ولا نرى للنهار ضوءاً . أما رداء خدمتي ، فقد أكلته الفيران ، لعدم استعمالي إياه . . ربما كنتِ على حق في منهجك هذا لو لم يكن حواليك أناس طيبون ، غير أن المنطقة تعج بالسادة الأفاضل ، ففي قرية ريبلوفه يعسكر طابور وضباطه يقطرون حلاوة . . . وهناك في كل أسبوع حفلة راقصة وفي كل يوم تعزف الموسيقى العسكرية . . إيه

يا مولاتى . . إنك لصبية جميلة فاتنة . . إنك مزيج من الدم والحليب . . ولا ينقصك شيء سوى الحياة والابتهاج . . فالجمال لا يمنح للمرء إلى الأبد . . فإذا ما انقضت عشر سنوات ، من عمرك . . . وجدت نفسك تواقة للتبختر فى الطرق . . . تجرين ثوبك الفضفاض ، وتثيرين الغبار فى أعين الضباط . . فأسرعى . . قبل فوات الأوان ! . .

بوبوفا : (بإصرار) أرجوك ألاّ تعود إلى مثل هذا الحديث . . فأنت تدرى تماماً أن الحياة فقدت كل قيمة فى نظرى منذ أن توفى نيقولاى ميخايلوفتش . وإذا ما تراءى لك أننى حيّة ، فما ذلك إلا مظهر خارجى لا غير . . لقد أقسمت بألا أنزع لباس الحداد وألا أشاهد النور حتى أنزل القبر . . أسامع أنت ؟ . . فليكن شبحه شاهداً على ما أكنه له من حب . . أجل . . لا أفشى سراً إن قلت لك إنه كان يعاملنى معاملة جائرة قاسية . . بل ولم يكن أميناً فى حياته الزوجية . . ومع ذلك . . فإننى سأظل مخلصة له حتى النفس الأخير . وسأبرهن له ، كيف يكون حبى له ، وسيرى فى ذلك العالم الآخر أنى لا زلت أمينة له ، كما كنت قبل مماته .

لوقا : أليس من الأفضل لك يا مولاتى أن تخرجى إلى الحديقة لتتنزهى بدلا من إضاعة الوقت فى مثل هذا الحديث ؟ . . أتأمرين أن أعد لك الحصان « توبى » أم « المائل » ؟

بوبوفا : آه . . . . (تبكى) .

لوقا : مولاتى . . أماه « ماتوشكا » . . . ما بك ! . . ليكن المسيح معك . .

بوبوفا : لقد أحب المرحوم الحصان « توبى » ، وكان دائماً يمتطيه فى زياراته لأسرتى كورتشاغين وفلاسوف ، أتذكر كيف كان يجذب لجامه بشدة ، ويسوسه ببراعة تامة ! أتذكر تلك الطلعة الفروسية الجميلة ؟ آه . . مسكين «توبى» إنى آمر السائس بأن يقدم له حصة إضافية من الشوفان . .

لوقا : تأمرين أمراً . .

(رنين جرس عنيف)

بوبوفا : (وقد أصيبت برعدة) من ذا ؟ قل للزائر : إننى لا أقابل أحداً أبداً . .

لوقا : سمعاً وطاعة (يخرج)

٢

(بوبوفا وحدها)

بوبوفا : (تنظر إلى رسم فوتوغرافى) ها أنت ترى يا نيقولاى كيف أستطيع أن أحب وأسامح ، وثق بأن حبي لن ينطفئ إلا عندما يقف قلبي عن نبضه . (تضحك من خلال الدموع) ألاتخجل من سلوكك نحوى؟ . . إننى زوجة أمينة ، أقفلت الباب على نفسى ، وسأظل أمينة لك حتى القبر . . آه منك ألا تخجل من أفعالك ؟ لقد كنت تخوننى ، وتسبب لى المشاكل ، وتتركنى فى البيت وحيدة أسابيع بكاملها . .

٣

(بوبوفا ولوقا)

لوقا : (يدخل مرتبكا) فى الباب رجل يريد مقابلة مولاتى

بوبوفا : ألم تقل له إننى منذ وفاة زوجى لم أقابل إنساناً ؟

لوقا : قلت له ذلك ، إلا انه أبى الإصغاء إلىّ ، وقال إنه أتاك فى مسألة هامة جداً . . .

بوبوفا : إننى . . لا أقابل زائرين أبداً .

لوقا : أفهمته حقيقة الأمر ، لكنه رجل ملحاح ، شتام ، اقتحم البيت عنوة ، وهو الآن فى قاعة الطعام

بوبوفا : (مضطربة) لا بأس، دعه يتفضل . . ياله من جاهل . .

(يخرج لوقا)

بوبوفا : هؤلاء الناس ، صعاب المراس . ما الذى يريدونه منى ! لماذا يعكرون على راحتى وهدوئى ؟ (تتنهد) كلا . . لا بد من الانتقال إلى الدير (تتأمل قليلا) أجل إلى الدير .

٤

(بوبوفا ، لوقا ، سميرنوف)

سميرنوف : (يدخل ويخاطب لوقا) حقاً إنك لشيخ سمج، ثرثار ، حمار ، (وإذ يرى بوبوفا ينحنى أمامها باحترام) سيدتى لى الشرف بأن أقدم لك نفسى . أنا غريغورى ستيبانوفيتش سميرنوف ضابط فى المدفعية متقاعد ، ومالك أراض ، اضطررت إلى إزعاجك لسبب هام جداً .

بوبوفا : (دون أن تقدم له يدها) وما الذى تريده !

سميرنوف : كان لى الشرف بأن أكون من معارف المرحوم زوجك . وتوفى وهو مدين لى بمبلغ ألف ومائتى روبل ، ولما

كانت علىّ فوائد مستحقة الدفع غداً للبنك الزراعى أتيتك راجياً أن تتفضلى ، وتدفعى لى اليوم ، المبلغ المطلوب من زوجك .

بوبوفا : ألف ومائتا روبل ؟ . ولأى شى ؟

سميرنوف : هى ثمن الشوفان .

بوبوفا : (تتنهد وتقول للخادم لوقا) لا تنس يا لوقا أن تطلب من السائس أن يقدم حصة إضافية من الشوفان للحصان « توبى » .

(يخرج لوقا)

بوبوفا : (تخاطب سميرنوف) إذا كان المرحوم نيقولاى ميخايلوفتش مديناً لك بالمبلغ الذى ذكرته ، فمن البديهىّ أن أقوم بتسديده . لكننى الآن لا أحمل المبلغ المطلوب فأرجوك أن تنتظر إلى بعد غد حتى يعود وكيلى من المدينة وآمره أن يسدد الحساب . أجل ، لن أتمكن الآن من تلبية طلبك ولا بأية صورة كانت . يضاف إلى ذلك أن فى هذا اليوم تكتمل السنة على وفاة المرحوم زوجى ، وترانى فى حالة نفسية لا أرغب معها البحث فى مسائل مالية .

سميرنوف : وأنا الآن فى حالة نفسية أشعر معها بأننى إن لم أدفع الفوائد غداً للبنك الزراعى فستحجز أملاكى ، وستنقلب حياتى رأساً على عقب .

بوبوفا : بعد غد فقط تقبض مالك . . .

سميرنوف : إننى بحاجة ماسة إلى المال اليوم ، وليس بعد غد .

بوبوفا : المعذرة . إننى عاجزة عن دفع المبلغ اليوم .

سميرنوف : وإننى عاجز عن الاصطبار حتى بعد غد .

بوبوفا : وماذا أفعل مادمت عاجزة عن الدفع الآن ؟

سميرنوف : إذن أنت عاجزة عن الدفع ؟

بوبوفا : أجل عاجزة .

سميرنوف : وهذه هى كلمتك الأخيرة ؟

بوبوفا : أجل الأخيرة .

سميرنوف : الأخيرة نهائياً ؟

بوبوفا : نهائياً .

سميرنوف : أشكرك جداً . . فلنحرر ذلك (يهز كتفيه) ويريدون منى أن أكون هادئ الأعصاب . سيقابلنى المحصل فى الطريق ويسألنى : ما الداعى إلى غضبك هذا ياغريغورى

ستيبانوفيتش ؟ فأجيبه : حلمك . . وكيف لا أغضب ؟ إننى بحاجة قصوى إلى المال . . سعيت فى طلبه منذ أمس الباكر ، وعرّجت على مدينىّ جميعاً ، ولم يدفع لى أحد منهم دينه . . لقد كدت أهلك مثل الكلب ... قضيت ليلى فى العراء منطوياً على نفسى إلى جانب برميل ماء . . . وأخيراً جئت إلى السيدة ميخايلوفتش بعد أن قطعت مسافة سبعين فرسخاً مسافراً على أمل أن أقبض دينى وإذا بها تطعمنى « حالات نفسية » ، أفلا يحق لى أن أغضب ؟

بوبوفا : أظن أنى قلت لك بصريح العبارة : عندما يعود وكيلى ، تقبض مالك . .

سميرنوف : إننى لم آت إلى الوكيل وإنما أتيت إليك . ولأى عفريت يلزمنى وكيلك ؟ عفواً ! . .

بوبوفا : إننى لم أعتد سماع مثل هذه العبارات النابية ، واللهجة المستغربة ، ولن أصغى إليك أكثر مما أصغيت . . . (تخرج بسرعة)

(سميرنوف وحده)

سميرنوف : ياللدلال .. حالة نفسية .. إن سنة انقضت على وفاة

زوجها . . ولـكن أينبغى أن أدفع الفائدة أم لا ؟ هه . . مات زوجها . . وحالة نفسية . . والوكيل سافر إلى مكان ما . . وغير ذلك من الخزعبلات . . ماالعمل ! أأفر من أصحاب الديون فى منطـاد ؟ . . أم أضرب رأسى بالحائط ؟ ذهبت إلى غروزديف فلم أجده فى بيته . . . وذهبت إلى ياروشيفيتش فاختبأ ، وذهبت إلى كوريتسين فتشاتمنا وكدت أقذف به من النافذة . . وذهبت إلى مازوتوفا فوجدتها مريضة بالكوليرا . . وجئت إلى هذه وإذا هى فى « حالة نفسية » لا تسمح لها بالدفع . . لم أقبض من هؤلاء الأشقياء شيئاً ، والسبب فى ذلك أننى كنت قد دللتهم أكثر مما يستحقون . . أأنا مربية لهم أم خادمة ؟ أجل . لاطفتهم فى السابق كثيراً . وأما الآن ، فسيعرفوننى . . إننى لن أسمح لأحد بممازحتى أبداً . وسأظل مقيماً هنا إلى أن أقبض حقى . إننى جدُّ حانقٍ اليوم ، ونفسى من الحنق منقضبة . . . رباه . . . إننى تعب اليوم

(يصرخ) أيها الخادم ! . .

٦

(سميرنوف ولوقا)

لوقا : (يدخل) ما حاجتك ؟

سميرنوف : ايتنى بقدح من الكفاس* أو الماء . . .

(يخرج لوقا)

سميرنوف : (يخاطب نفسه) وأى منطق هذا ؟ . . رجل بحاجة ماسة إلى المال ، و يهدد نفسه بالشنق إن لم يحصل عليه فيأتى إلى هذه السيدة طالباً دين زوجها ، فتأبى الدفع لأنها غير مستعدة اليوم للحديث فى المسائل المالية .. حقاً إنه لمنطق نسوى مُشوّش .. إنه الذى حدا بى إلى عدم حب النساء أو التحدث إليهن ، وغدوت أشعر أنه يهون علىّ الجلوس على برميل بارود من أن أجلس إلى جانب امرأة وأتحدث إليها ! . . إننى جد مغتاظ من هذه السيدة . وأحس برعشة تنتاب جسمى من شدة الغيظ . . إنني لا أطيق رؤيتها ولا رؤية مثيلاتها من المخلوقات الشعرية ، ويبدو لى أننى إن

---

* شراب روسى يستخرج من الخبز الأسود .

رأيت إحداهن ولو عن بُعد فسترتعد فرائصى ، وسأصرخ طالباً من الديدبان النجدة . .

٧

(سميرنوف ولوقا)

لوقا : (يدخل ويقدم له الماء) السيدة مريضة . وهى غير مستعدة لمقابلة أحد.

سميرنوف : اُخرج ! . .

(لوقا يخرج)

سميرنوف : تقول إنها مريضة ولا تستقبل أحداً ، وماذا يهمنى من أمرها ؟؟ . إننى باق هنا ولن أخرج حتى تدفع لى مالى . . (يخاطبها بصوت عال) إن بقيت على فراش المرض أسبوعاً فسأبقى إلى جانبك أسبوعاً ، وإن بقيت سنة فسأظل إلى جانبك سنة أيضاً . . سترين كيف آخذ حقى منك . . يا أماه « ماتوشكا » . . . ثقى بأن حدادك ، والنقر التى على وجنتيك لن تؤثر فىّ . . إننى أدرى بهذه النقر ! . . (يصرخ من النافذة مخاطباً سائق عربته) سيمون ! . .

ارفع المدة عن الفرس . . إننا لن نرحل عن هذا المكان
على وجه السرعة . . إننى باق هنا . . وأما أنت فاذهب
وقل للجماعة فى الاصطبل أن يقدموا الشوفان للخيل . .
آه منك أيها البهيم ألا ترى أن العنان اشتبك بساق الفرس
الأيسر ؟ .

سيمون : (متهكما) لا بأس ! .

سميرنوف : (يرد عليه) سأريك ما المعنى من لا بأس . . .

سميرنوف : (يبتعد عن النافذة) . شىء ردىء . . حر لا يطاق . .
كلهم يرفض دفع المال . . . وبالأمس قضيت ليلة على أسوأ
حال ممكنة . . . وهذه السيدة تقول لى إنها تجر ثوب الحداد . . .
ونفسيتها مضطربة . . . آه إننى أشعر بوجع فى رأسى . . .
أأشرب فودكا ؟ . . . أم ماذا ؟ (يصرخ) أيها الخادم . . .

لوقا : ما الذى تريده ؟

سميرنوف : اتينى بكأس من الفودكا . .

(لوقا يخرج)

سميرنوف : (يجلس ويقلب النظر فى نفسه) لا بأس بى . .
هيئة حسنة . لباسى مغبر ، وحذائى موحل ، وجسمى قذر ،

وشعرى غير مرتب ، وحلتى معفرة بالتبن . فيأيتها السيدة . ما الذى حدا بك لأن تستقبلينى كقاطع طريق ؟ . . (يتثاءب) حقاً . . إنها قلة حياء منى أن أظهر فى غرفة استقبال كهذه وأنا على هذا الشكل . . ولكن لا بأس من ذلك ، فإننى لم آت إلى هذا البيت ضيفاً وإنما دائناً ، ولا يطلب من الدائنين أن يظهروا بهندام حسن .

لوقا : (يدخل ويقدم الفودكا) أتسمحون لنفسكم بالبقاء طويلا هنا يا سيدى ؟

سميرنوف : (بحنق) ماذا ؟

لوقا : إننى . . إننى . . لا شىء . . لقد أردت . .

سميرنوف : مع من تتكلم . . اُصمت ! . .

لوقا : (على جانب) لقد جلس هذا العفريت على رأسنا . فياله من حمل ثقيل . .

(لوقا يخرج)

سميرنوف : إننى حانق . . وقد بلغ حنقى درجة أحس معها كأننى سأسحق العالم بأسره . . رباه . . أشعر بوعكة (يصرخ) أيها الخادم !

٨

(بوبوفا وسميرنوف)

بوبوفا : (تدخل ذابلة العينين) سيدى الكريم . . تعودتُ في وحدتى الطويلة الابتعاد عن الأصوات البشرية ، كما أننى لا أطيق الصراخ بتاتاً. .فرجائى إليك ألا تقلق راحتى

سميرنوف : لن أخرج من هذا البيت قبل أن تدفعى لى الدراهم

بوبوفا : أفهمتك بلغة روسية أننى لا أحمل المبلغ الذى تطلبه الآن فانتظر إلى بعد غد .

سميرنوف : ولى الشرف أن أفهمك بلغة روسية أيضاً أن المبلغ الذى أطلبه يلزمنى اليوم وليس بعد غد . فإذا لم تدفعى لى دراهمى اليوم ، فسأجد نفسى غداً مضطراً إلى الانتحار .

بوبوفا : حقاً إنك غريب الأطوار . قلت لك إننى لا أملك المبلغ الذى تطلبه الآن فما عساى أن أفعل ؟

سميرنوف : ففى حالة كهذه أرى نفسى مضطراً للبقاء هنا . . سأظل فى بيتك إلى أن أقبض المبلغ .سأجلس هكذا حتى تدفعى . . (يقفز فجأة) إننى أسألك سؤالاً صريحاً : أينبغى

أن أدفع الفوائد أم لا ؟ . . أو تظنين أنى أمازحك ؟

بوبوفا : سيدى الكريم ، رجائى إليك ألا تصرخ هنا ، فالمكان الذى أنت فيه ليس اصطبلاً . .

سميرنوف : إننى لا أسألك عن الاصطبلات ، و إنما أسألك : أأدفع الفائدة المستحقة علىّ غداً أم لا ؟ .

بوبوفا : إنك لا تحسن السلوك فى الأوساط النسائية . .

سميرنوف : إنك لعلى خطأ عظيم .. إننى أتقن السلوك بين النساء كل الإتقان .

بوبوفا : كلا إنك تجهل ذلك تماماً ، إنك رجل غير مهذب، فظ ، فالناس المؤدبون لا يخاطبون النساء على هذا الوجه الذى تخاطبنى به .

سميرنوف : حقاً إنها لقضية عجيبة . كيف تأمرين أن أخاطبك ؟ أأخاطبك بالفرنسية أم بغيرها من اللغات ؟ (يتحدث إليها بغضب ، ويلثغ فى اللفظ) مدام ، جى فو پرى . . . (Je vous pris) إننى جد سعيد لأنك لا تدفعين لى الدراهم آه . . پاردون لأننى أزعجتك . . الطقس اليوم جميل جداً .

ولباس الحداد الذى تلبسينه يليق بك ، و ينسجم على قدك
(يسير متبختراً) .

بوبوفا : يا للحماقة والخشونة .

سميرنوف : (يغيظها) يا للحماقة والخشونة . . إننى أسىء السلوك فى أوساط النساء . . يا مولاتى لقد شاهدت فى حياتى نساء أكثر مما شاهدت أنت من طير الزرازير . . تبارزت ثلاث مرات من أجل النساء ، وهجرت اثنتى عشرة امرأة ، وتسع هجرننى . . كانت لى أيام ماجنت فيها ، وغازلت ، وصارحت بحبى ، ونمقت الكلمات المعسولة ، وتبخترت فى سيرى . أجل كانت لى أيام أحببت فيها ، وتعذبت ، وذبت .. وتجمدت ، وتأوهت فى ضوء القمر و بكيت . . تذوقت الحب العنيف فى جميع أشكاله وألوانه ، وكنت أصرخ كما تصرخ العقاعق ! .. كنت عاطفيًا ، رقيق الحواس إلى أقصى حد ، وأما الآن ، فلن أتأثر بالنساء كفانى ما رأيته منهن ، وثقى بأننى لن أدفع الآن درهماً واحداً فى سبيل العيون السود والنظرات المغرية ، والشفاه الحمر ، والنقر على الوجنات ، والأقمار ، والهمسات ، والأنفاس المتقطعة ! . . إننى لا أعنى

بذلك حضرتك بالذات، و إنما عنيت كل النساء . . فصغيراتهن وكبيراتهن مداهنات منافقات نمامات حقودات كاذبات حتى عظام الدماغ ! . . مهمومات حقيرات حائرات عديمات الفهم والمنطق . . يبدون فى الظاهر وكأنهن مخلوقات شعرية جزء من الأثير . . شبه آلهة . . و إذا ما تطلعت إلى نفوسهن لا ترى فيهن إلا تماسيح عادية . . (يتشبث بكرسيه فيطقطق ويتكسر) غير أن المثير فى هذه التماسيح تصورها أن الحس الدقيق هو من مميزاتها الخاصة . . فالمرأة لا تحب أحداً سوى كلبها الصغير، وهى إن أظهرت للرجل حباً فى الانتحاب والتنخع فقط . و إذا ما ضحى الرجل فى سبيل حب امرأة وتألم ، وبادلته هذا الحب فإنما بحركات الدلال محاولة القبض على أنفه بشدة ؛ فمن سوء طالعك يا مولاتى أن تكونى امرأة ! . . و إنك ولا ريب اختبرت الطبيعة النسوية فى ذاتك . . بالله ، ألا أخبرتنى صراحة : هل رأيت فى حياتك امرأة أمينة مخلصة ثابتة الوفاء؟ لم ترى طبعاً . لأن الأمينات الثابتات هن العجائز الكسيحات فقط . ويسهل على الإنسان أن يرى هرة بقرنين من أن يرى امرأة أمينة .

بوبوفا : المعذرة ياسيدى . . فمن هو الأمين الثابت فى الحب؟
أهو الرجل ؟

سميرنوف : أجل ! . . هو الرجل . .

بوبوفا : (تضحك بحقد) الرجل أمين ثابت فى حبه ! . . يا له من نبأ جديد ! . . (بحدة) كيف تجيز لنفسك القول بأن الرجال أمناء ثابتون ! إن أحسن رجل عرفته فى حياتى هو المرحوم زوجى . . أحببته بكل جوانحى ، حب فتاة صبية مفكرة ، قدمت له صباى وسعادتى وحياتى وملـكى. . كنت أتنفس به . . وأعبده كما يعبد الوثنى صنمه . . ومع ذلك كله كان زوجى — هذا الذى اعتبرته أحسن رجل بين الرجال — يخوننى كلما سنحت له الفرص . . . ولقد عثرت فى درج مكتبه بعد وفاته على صندوق ملىء بالرسائل الغرامية. وكان فى حياته — و يا لفظاعة الذكرى ! — يتركنى وحيدة أسابيع كاملة . ولا يتورع عن التودد إلى النساء أمامى ، فيخوننى، و يبذر نقودى ، و يستخف بشعورى . . و بالرغم من مسلكه الشائن هذا ، كنت أكن له الحب والإخلاص. . والأنكى من ذلك أننى لا أزال ثابتة على حبى له حتى بعد مماته . .

لقد حكمت على نفسي أن أدفن بين جدران هذا البيت إلى الأبد ، وأن لا أنزع عنى ثوب الحداد هذا حتى أنزل إلى القبر وراءه . .

سميرنوف : (يضحك بسخرية) حداد ! . . لا أفهم ... من تظنيني . . كما أننى لا أدرى السبب الذى يحملك على أن ترتدى السواد ، وتقبرى نفسك بين أربعة جدران فى بيت . . حقًّا إن حياتك هذه لشعرية محاطة بهالة من الأسرار الخفية. إنك ولا ريب تودين أن يمر ببيتك أحد تلامذة المدرسة الحربية ، أو شاب شويعر . . فيتطلع إلى نافذتك و يقول : « هنا تقطن تمارا . . . ذات الأسرار . . التى دفنت نفسها بين جدران منزلها فى سبيل حبها لزوجها » أجل . . نحن أدرى بهذه الألاعيب . . أيتها السيدة . .

بوبوفا : (ثائرة) ماذا ؟ . أتجرؤ على أن توجه إلىّ مثل هذا الـكلام ؟ . . .

سميرنوف : لقد دفنت نفسك حيّة، ولـكنك لم تنسى أن تضعى المساحيق على وجهك ! . .

بوبوفا : كيف تتجاسر وتخاطبنى على هذا النحو ؟

سميرنوف : رجائى إليك ألا تصرخى فى وجهى ، واسمحى لى أن أنعت الأشياء بأسمائها . إننى لست وكيلك ، كما أننى لست امرأة . . فمن عادتى أن أعرب عن رأيى فى صراحة . آمل ألا أسمع صراخك ثانية .

بوبوفا : إنك أنت الذى تصرخ فى بيتى .. ألا تتفضل وتتركنى فى هدوئى !

سميرنوف : ادفعى لى نقودى ومن ثم أغادر هذا المكان . .

بوبوفا : لن أدفع لك شيئاً .

سميرنوف : بل تدفعين .

بوبوفا : ونكاية فيك . . لن أدفع لك كوبيكا واحداً . . هلا تدعنى وشأنى ؟

سميرنوف : ثقى بأنه لايسرنى بتاتاً أن أكون خطيبك أو زوجك . فأحسنى المخاطبة ولا تتحرشى بى (يجلس) إننى أمقت المشاكل . .

بوبوفا : (بغضب شديد) أتجلس أيضاً . .

سميرنوف : أجل .

بوبوفا : تفضل واخرج

سميرنوف : ادفعى لى مالى (يتنحى جانباً) إننى حانق اليوم . إننى لجد حانق .

وبوفا : ألا تفهم ؟ إننى لا أود التحدث إلى الوقحين ! تفضل وانصرف . .

(وقفة)

بوبوفا : ألا تخرج ؟

سميرنوف : كلا . . .

بوبوفا : كلا ؟

سميرنوف : كلا . . .

بوبوفا : لا بأس (ترن الجرس)

٩

(بوبوفا . . سميرنوف . . لوقا)

بوبوفا : لوقا . . أخرج هذا السيد ! . .

لوقا : (يتقدم من سميرنوف) أيها السيد . . لقد صدر الأمر بخروجك حالاً من البيت . فليس لديك ما تفعله هنا .

سميرنوف : (يقفز) اصمت . . و إلا صنعت منك «سلطة » !

لوقا : (يرتعد رعباً) رباه . . يا أصحاب الكرامات . .

(يقبع على الكرسى) يكاد يغمى علىّ . . شىء منكر . .

بوبوفا : أين داشا ؟ . . داشا ! . . (تصرخ) داشا ! . . بيلاغيا ! . . داشا ! . . (ترن الجرس)

لوقا : ذهب كل من فى البيت إلى الحرج ليجمعوا التوت البرى . . آه يكاد يغمى علىّ : : ايتونى بالماء . . .

بوبوفا : تفضل وانصرف

سميرنوف : ألا يحسن بك أن تخاطبينى بلطف ؟

بوبوفا : (تجمع قبضتيها وتضرب الأرض بقدميها) أنت فلاح . . دب فظ . . وحش هائل . .

سميرنوف : ماذا ؟ . . ماذا تقولين ؟

بوبوفا : قلت إنك دب . . ووحش مخيف . .

سميرنوف : (يتقدم نحوها) بأى حق تهينينى ؟

بوبوفا : أجل أهينك . . أو تظن أننى أخشاك ؟

سميرنوف : أو تظنين أن كونك مخلوقة شعرية يخولك الحق بأن تهنينى دون أن يلحقك عقاب . إننى أدعوك إلى المبارزة

لوقا : رباه . . يا أصحاب الكرامات . .

سميرنوف : إلى المبارزة بالمسدسات ! . .

بوبوفا : إننى لا أخشاك ، رغم اعتقادك بأن لك حلق ثور ، وقبضتين قويتين ، هه . . حقاً إنك لدب فظ ! . .

سميرنوف : إلى المبارزة . . إننى لا أسمح لأحد أن يحقرنى ، ولا يهمنى كونك مخلوقة ضعيفة .

بوبوفا : (تحاول الصراخ) دب . . دب . . دب .

سميرنوف : لقد آن الأوان لـكى نضع حداً لذلك الوهم الشائع القائل بأن الرجال وحدهم هم المجبرون على دفع ثمن الإهانات فما دامت المرأة تطالب بالمساواة فلتكن . . يا للشيطان . . هَيَّا إلى المبارزة .

بوبوفا : أتريد المبارزة بإطلاق النار ؟

سميرنوف : أجل . . وفى هذه اللحظة .

بوبوفا : انتظرنى دقيقة واحدة . سأذهب وآتى بالمسدسات التى خلفها المرحوم زوجى . (تروح وتغدو على عجل) أية مسرة أجدها فى إفراغ رصاصة فى رأسك الدُّبِّى . . فيختطفك إبليس (تخرج)

سميرنوف : سأطلق النار عليها كما أطلقها على عصفور . إننى لست طفلاً ، ولا خنوصاً ولا أعترف بوجود مخلوقات ضعيفة .

لوقا : أبتاه . . وارحمتاه . . (يجثم على ركبتيه) كن طيباً . . وأشفق على هذا الشيخ . . تفضل واخرج من هذا البيت . لقد كدت أهلك من الرعب ، وتريد المبارزة أيضاً ؟

سميرنوف : (لا يصغى إلى توسلاته) المبارزة بالمسدسات هى المساواة فى الحقوق . وهذا هو أسُّ الدعوة إلى تحرير المرأة ، فالجنسان فى هذه الحالة يكونان متساويين . سأطلق النار عليها مبدئياً !.. (متهكماً).. «فليختطفك إبليس .. وسأفرغ رصاصة فى رأسك الدُّبِّى » . . أية امرأة هذه ؟ لقد تحمست واتقدت عيناها حنقاً ، وقبلت الدعوة بلا تردد . . الواقع أننى لأول مرة فى حياتى أشاهد امرأة فى مثل هذه الصلابة والعناد .

لوقا : أبتاه . . تفضل واخرج . . وسأصلى لك طيلة حياتى !..

سميرنوف : ما هذه المرأة ؟ حقاً إنها لامرأة بكل معنى الكلمة ، فهى ليست من النوع المائع المتصنع ، وإنما هى شعلة بارود ، شهاب ، وقتلها خسارة !..

لوقا : (يبكى) أبتاه . . رجائى إليك أن تخرج . .

سميرنوف : إننى معجب بها... أجل ... إنها لتعجبنى بالرغم من

النُقَرِ المنثورة على وجنتيها ... وأجد نفسى على تمام الاستعداد لأن أسامحها فى الدين وأغفرلها إهاناتها، حقاً إنها امرأة عجيبة.

١٠

(سميرنوف ، لوقا ، بوبوفا)

بوبوفا: (تدخل وهى تحمل المسدسات) إليك المسدسات ! تفضل أرنى كيف تستعمل قبل أن نشرع فى المبارزة . . إننى لم أقبض على مسدس طيلة حياتى

لوقا : أنقذنا يا رب وارحمنا . علىّ أن أهرع فى طلب النجدة من البستانى والسائس وغيرهما . . رباه . . من أين جاءنا هذا البلاء ؟ (يخرج)

سميرنوف : (يقلب المسدسات) انظرى . . هناك عدة أنواع للمسدسات منها ما هوخاص بالمبارزة ، و يعرف باسم مورتيميرا ، أما هذه التى فى حوزتك فهى من طراز سميث وفيسون ، وتستعمل عادة للضرب المُرَكَّز . حقاً إنها لمسدسات جيدة ، يباع الواحد منها اليوم بتسعين رو بلاً . . أما طريقة استعمالها فتقبضين على المسدس هكذا (يلتفت جانباً) رباه ما هذه النظرات . . امرأة شعلة ! . .

بوبوفا : أأقبض على المسدس على هذا الشكل ؟

سميرنوف : أجل هكذا . . تصوبين الفوهة نحو الهدف . . . وتجعلين رأسك يميل إلى الخلف قليلا ، أجل هكذا . . . ثم تضغطين على هذا الزناد وينتهى الأمر . والأهم من ذلك كله ألا تحتدمى ، وأطلقى النار بأعصاب هادئة ، واحذرى أن تضطرب يدك .

بوبوفا : شكراً . . لكننى لا أستحسن المبارزة فى الغرفة ، فلنخرج إلى الحديقة . .

سميرنوف : هيا . . لكننى أحيطك علماً بأننى سأطلق النار فى الهواء !

بوبوفا : وما معنى ذلك ؟

سميرنوف : وأنت ما يعنيك مما أفعل ؟ هكذا أريد ! . .

بوبوفا : أجبنت أيها الرعديد ؟ . . هه . آ . . آ . . آ . . . كلا لن يكون لك ما تريد . تفضل واتبعنى . وأقسم لك بكل عزيز بأنه لن يهدأ لى بال حتى أضرب بالرصاص جبهتك البغيضة هذه . . أجبنت أيها الرعديد ؟ قل لماذا عدلت عن المبارزة ؟

سميرنوف : لأننى أعجبت بك !

بوبوفا : (تضحك بغيظ) لقد أعجبتك ! . . إنه يجرؤ ويقول

إننى أعجبته (تشير إلى الباب) اُخرج ! . .

سميرنوف : (يضع المسدس على المائدة دون أن يتفوه بكلمة . ثم يأخذ قبّعته . ويسير نحو الباب ويقف ، فيتبادلان النظر لحظة ثم يخاطبها) : ألا تزالين ساخطة علىّ ؟ إننى أيضاً مهتاج حانق ولكن هل لك أن تفهمينى ؟ . فالمسألة هى كما ترين وبكلمة موجزة ، هى .(يصرخ) وما ذنبى إذا ما أعجبت بك ؟ . . إننى معجب بك أتفهمين ؟ إنى على وشك الوقوع فى هواك .

بوبوفا : أغرب عن وجهى ، وإلا أطلقت عليك النار .

سميرنوف : أطلقى النار علىّ ، فإنك لا تدركين السعادة التى أجدها فى الموت مشيعاً بهاتين العينين البرّاقتين العجيبتين . وأن أُقتل بمسدس تقبض عليه هذه اليد المخملية . . لقد جُننت ... ففكرى فى الأمر . . وأصدرى حكمك إننى رجل شريف مؤدب ، وأملك دخلاً سنويا يقدر بعشرة آلاف روبل . . وإننى صياد ماهر أصيب قطعة النقود فى الهواء بطلقة واحدة . . عندى خيول ممتازة . . أفلا تريدين أن تكونى زوجة لى ؟

بوبوفا : (حانقة تهز المسدس) هيّا إلى المبارزة ...أسرع ! . .

سمبرنوف : لا أفقه شيئاً .. جُننت . . أيها الخادم ايتنى بقدح من الماء .

بوبوفا : (تصرخ) هيّا إلى المبارزة . .

سميرنوف : جُننت . . أحببت .. مثل الولد الصغير . . بل مثل الأحمق . . (يمسكها من يدها وهى تصرخ من شدة الألم) أحبك . . (يجثو على ركبتيه) أحبك أكثر من جميع اللائى أحببتهن فى حياتى . . هجرت اثنتى عشرة امرأة ، وتسع هجرننى ، لكننى لم أحب أية واحدة منهن بقدر حبى لك . . ها أنا جاثم أمامك مثل الأحمق . . أطلب يدكِ ، فوا خجلاه ! . . خمس سنوات انقضت لم أذق خلالها طعم الحب ، فقد آليت على نفسى ألاّ أحب .. وإذا بسهم الحب يصيبنى فى قلبى على حين غِرّة ... إننى أطلب يدك . أفلا تجيبيننى بنعم أو بلا ؟ أتأبين الإجابة ؟ لا بأس ... (يقف ويتجه بسرعة نحو الباب)

بوبوفا : قف !

سميرنوف : (يقف) نعم ! ...

بوبوفا : لا شيء ... اذهب . ولكن قف !... كلا ... اخرج اخرج ! ... إننى أمقتك . ولـكن كلا لا تخرج ! ... إننى حانقة ... إننى ساخطة ... (تلقى المسدس على الطاولة) ... لقد ورمت أصابعى من هذه الآلة الكريهة ... (تمزق منديلها من الحنق) ألا تزال واقفاً ؟ انصرف ! ...

سميرنوف : الوداع ؟ ...

بوبوفا : أجل اخرج (تصرخ) إلى أين أنت ذاهب؟ قف؟.. اذهب ؟ ... رباه إننى حانقة ساخطة ... لا تقترب منى . لا تقترب ...

سميرنوف : (يقترب منها) يا لعجبى من نفسى لقـــد أحببتك كما يحب تلميذ المدرسة الإعدادية . . جثمت أمامك على ركبتى وشعرت بموجة من الصقيع تمزق جسدى . . (بخشونة) أحبك ! . . إننى كنت فى غنى عن هذا الحب ولم يخطر لى ببال قط . . وكيف أفكر فى الحب ، وعلىّ غداً أن أدفع الفوائد للبنك الزراعى . . وموسم الحصاد على الأبواب ، وإذ بك تعترضين سبيلى ، (يطوقها من خصرها) إننى لن أغتفر لك ذلك أبداً .

بوبوفا . ابتعد عنى . . ارفع يدك عن خصرى . . . إننى أمقتك . . هيا إلى المبارزة ! . .

(تقبيل متواصل)

١١

(يدخل لوقا عليهما وهو يحمل فأساً . . وبصحبته البستانى يحمل مِسحلة . . والسائس يحمل شوكة حصاد ، وعددٌ من العمال يحملون قطعاً من الخشب)

لوقا : يراهما متعانقين . رباه . . يا أصحاب الكرامات ! . .

(وقفة)

بوبوفا (منخفضة العين) لوقا . . قل لسائس الإسطبل أن لا يقدم اليوم شيئاً من الشوفان للحصان « توبى » ! . .

(يسدل الستار)

مفجوع رغم أنفه

من حياة الاصطياف فى الريف

أشخاص الرواية

إيفان إيفانوفيتش تولكاتشوف — رب عائلة .

ألكسى ألكسيفتش موراشكين — صديقه .

تجرى حوادث الرواية فى بطرسبورغ فى بيت موراشكين

(مكتب موراشكين حسن الفرش ، يجلس موراشكين وراء مكتبه ، فيدخل عليه تولكاتشوف وهو يحمل بين يديه زجاجة مصباح ، ودراجة أطفال ، وثلاث علب تحتوى على قبعات ، ورزمة كبيرة تتضمن ثوباً نسائياً ، وكيساً فيه زجاجات خمر ، ورزمة صغيرة أخرى ، يتطلع بعينين تائهتين ، ويرتمى على المقعد متهالكا) .

موراشكين : مرحى إيفان إيفانوفيتش . . . إننى جد مغتبط برؤياك . . من أين أنت آت !

تولكاتشوف : (يتنفس بصعوبة) آه يا عزيزى لى رجاء لديك أتوسل إليك ، أقرضنى مسدسك حتى الغد ! . . كن صديقاً صدوقاً وأقرضنى إياه . .

موراشكين : وما حاجتك بالمسدس ؟

تولكاتشوف : إننى فى مسيس الحاجة إليه . . أبتاه . . أسعفنى بقليل من الماء ، أسرع بالماء ، أجل لا بد لى من الحصول

على المسدس ، لأننى سأسافر هذه الليلة إلى المصيف ، وأخترق الأحراج المخيفة بمفردى ، وأرى أن أحمل مسدساً حذر الطوارىء . . أقرضنى إياه . . أتوسل إليك . .

موراشكين : كفاك هذراً يا إيڤان إيفانوفيتش . ما هذا الخور؟ أنت رب عائلة ، ومستشار دولة ، فاخجل من نفسك . .

تولكاتشوف : وأى رب عائلة أنا ؟ إننى شهيد . . بل بهيمة حقيرة إننى زنجى ، عبد منحط ، لا أزال أمنى النفس فى هذه الحياة ، ولا أفعل شيئاً لينقلنى إلى دار البقاء . . . إننى خرقة بالية ، سخيف أحمق ، فما معنى عيشى هذا ؟ ألا تقل لى لم أنا عائش ؟ وما الذى يدعوننى لتحمل كل هذه الآلام المعنوية والجسدية . إنه ليرضينى أن أكون شهيد فكرة ما ، ولكننى لن أقبل ـ بأية صورة من الصور ـ أن أكون شهيد أثواب نسائية ، وزجاج مصابيح ! . كلا لن أكون ذلك . كفانى . .

موراشكين : لا تصرخ يسمعك الجيران . .

تولكاتشوف : دعهم يسمعون . . فالأمر عندى على حد سواء . . . فإذا لم تقرضنى المسدس فغيرك يقرضنى إياه . لقد تقرر الأمر ،

ولن أبقى فى عداد الأحياء بعد اليوم

موراشكين : قِفْ ، لقد قطعت عروقى ، تكلم بهدوء ، إننى لا زلت أجهل الأمر الذى يؤلمك فى حياتك .

تولـكاتشوف : أتسألنى الأمر الذى يؤلمنى فى حياتى ؟ تفضل واسمع قصتى ، سأعترف لك بحقيقة الأمر ، ولعل فى اعترافى هذا ما يخفف الحمل عن نفسى ، فلنجلس .. أصغ ، آه .. أماه ، دعنى أتنفس قليلا ... خذ على سبيل المثل ما حدث لى هذا اليوم : شرعت فى عملى المضنى فى الديوان من الساعة العاشرة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر ، وكان الجو حاراً خانقاً ، والذباب يشنها حرباً لا هوادة فيها ، وكان الوضع غيرطبيعى فى الدائرة ، فالسكرتير فى إجازته ، وخرابوف راح يتروح ، وصغار الموظفين لا يفكرون إلا فى الاصطياف الريفى ، وفى الحب ، والحفلات المسرحية ، والأنكى من ذلك كله أن السكرتير بالنيابة مصاب بطرش فى أذنه اليسرى ، وعاشق .. وهكذا ترى كل شىء هاجماً مشلولا فى الدائرة ، فى حين أن طلاب الحاجات يهرعون فى خَبل من مكان إلى آخر دون طائل ، يسرعون ويتسابقون ، يهددون ويحتجون ،

فيحدثون بلبلة وتشويشاً عظيمين . . وكلهم بين مستفهم وصاحب مصلحة . وما أكاد أفرغ من هذا العمل الممل الذى يجرى على وتيرة واحدة ، وَمَثلهُ مَثلُ الإسفنجة تمتص الماء وتلفظه . . أجل ما أكاد أغادر الدائرة حتى تستولى على رغبة ملحة فى أن أتناول الغداء ، وأستلقى على الفراش ، أطلب النوم الهنىء . ولكن أنّى لى ذلك ؟ أتذكرساعتئذ أننى رب عائلة مصطافة وما أنا إلا خلمها ، بل عبدها وممسحتها . . أجل أيها العزيز موراشكين لقد انتشرت فى مصيفنا عادة جديدة لطيفة ، ومفادها أن المصطافات يشعرن بأن لهن من السلطة ما يخولهن الحق بأن يطلبن من الرجل المصطاف الذاهب إلى المدينة أن يجلب لهن معه كل ما هن فى حاجة إليه من ملبس ومأكل ولوازم بيتية أخرى ، وفى صبيحة هذا اليوم طلبت منى زوجتى أن أعرّج على الخياطة وأن أوبخها على إخراجها كمى الثوب عريضين ، وجعلها كتفه ضيقاً ، وسألتنى أن أستبدل حذاء ابنتنا سونتشكه بغيره ، وأن أشترى لكنتى شريطاً من الحرير ، وثلاث أذرع من القماش . . حلمك أيها الصديق الصدوق ، سأقرأ لك القائمة

مفصلا (يخرج من جيبه ورقة ويقرأ فيها) : «زجاجة مصباح ، أوقية طحال ، مسامير وبراغى بخمسة كوبيكات ، زيت خروع لميشا ، عشر أواق سكر ناعم ، وبودرة بعشرة كوبيكات ، وعشرون زجاجة بيرة ، ثم علىّ أن أعرج على البيت وأن أجلب منه الطاس المعدنى ، وعلبة السكر وزجاجة حامض الكربونيك ، وعلبة المسحوق الفارسى لمكافحة البق ، وزجاجة روح الخل ، وبالطو ميشا الخريفى ، وكورسيه المدموازيل شانسو» . هذه طلبات الزوجة والعائلة ، أما طلبات المعارف والجيران — ليت إبليس يختطفهم — فهى أن اشترى دراجة لأسرة فلاسين بمناسبة عيد ميلاد تولوديا ، وأن أدعو القابلة لتزور زوجة الرئيس العسكرى فيخرين ، وأن أسلم خمس رسائل لبعض الأسر فى المدينة . .

وعلى ذلك يا أبتاه ، ترانى فى الفترة التى تتخلل انتهاء عملى فى المكتب ، وقيام القطر أركض من مكان لآخر وأنا ألعن الحياة . . فمن الحانوت إلى الصيدلية ، ومن الصيدلية إلى الخياطة ، ومن هذه إلى اللحام ، ومن هذا أعود ثانية إلى الصيدلية . . ويحدث أحياناً أن تعثر قدمى فى مكان، وأفقد

نقودى فى مكان آخر ، وأنسى أن أدفع ثمن البضاعة فى مكان ثالث ، فيعدو ورائى صاحب البضاعة مثيراً ضجة فاضحة ، وأدوس على رداء سيدة فى مكان رابع . . أف . . إن هذه التمرينات المتوالية تجمد الدم فى عروق الإنسان ، وتشل أعصابه وتجعله يحس طيلة ليله أن هناك من يكسر عظامه ، وأن تماسيح تزاوده فى أحلامه .

حسناً . لقد نفذت الطلبات والتوصيات ، وابتعت كل شىء فكيف لى بعدئذ أن أؤلف بين هذه الموسيقى المختلفة الألحان؟ كيف أضع مثلا العلبة المعدنية الثقيلة مع زجاجة المصباح ؟ أو حامض الكربونيك مع الشاى ؟ أو زجاجات البيرة مع الدراجة ؟ إنها أشغال شاقة فرعونية . . ومن الواجب إنعام الفكر فيها ، إنها معضلة شديدة التعقيد . فكيفما حاولت تدبر الأمر ، والاحتيال عليه ، فلا مفر من أن يتهشم شىء مما أحمله ، أو ينساب من بين يدى إلى الأرض . . ثم أدخل عربة القطار فأرى فيه ازدحاماً عظيماً فأضطر إلى الوقوف مسنداً بعض الرزم إلى ذقنى ، ويتحرك القطار فيتماوج المسافرون ويميل بعضهم على بعض ، وتتطاير حوائجى هنا وهناك . .

ويرتفع صراخ المسافرين من كل الجهات قائلين : لقد شغلت بحوائجك أماكن غيرك .. ارفعها وإلا استدعينا المفتش وسألناه أن ينزلك من القطار فى أقرب محطة .. فأداريهم ، وأصبر على مضض ، وأتسمر فى مكانى مثل الحمار العنيد ! . . واسمع الآن يا صديقى الصدوق تتمة قصتى : وأخيراً أصل إلى المصيف وأحس بحاجة شديدة إلى الأكل ورغبة فى شرب كأس من النبيذ . . غير أن سوء الطالع يلازمنى فى المصيف أيضاً ، فلا أكاد أبلغ البيت وأفرغ الحمل ، وألعق القليل من الحساء ، حتى تدخل علىّ زوجتى وتقول لى : هيا إلى المسرح ، أو إلى حلقة الرقص ! . . وهل بوسعى أن أحتج ؟ فإننى زوج . . وكلمة « زوج » تعنى بلغة أهل الاصطياف « بهيمة » معدة للركوب وحمل الأثقال ، لا تجد من يشفق عليها حتى ولا جمعية الرفق بالحيوان ! . .

فأسير مع زوجتى رهين أمرها ، فنشاهد رواية « فضيحة فى أسرة فاضلة » ، أو رواية « مرتيو » ، فأصفق بإشارة منها ، ثم أعطس وأتثاءب . . هذا إذا ذهبنا إلى المسرح . أما إذا ذهبنا إلى حلقة الرقص فعلىّ هناك أن أبحث عن فرسان

يراقصون زوجتى ! و إذ نعود إلى البيت من المسرح أو حلقة الرقص بعد منتصف الليل ، أشعر فى قرارة نفسى بأننى جيفة لا تصلح إلا لتلقى إلى السباع والطيور الجارحة . وعند ما أبلغ ما أصبو إليه وهو الفراش أستلق عليه ، فتغمرنى الغبطة وأغمض عينى وأنام ، ويتراءى لى أن كل شىء يحيط بى عذب لطيف شعرى ، فلا صوت أطفال يقلق راحتى ولا زوجة تزعجنى . كل شىء هادئ دافئ . . وعلى حين غرة أسمع (د زز . . زز . .) يا لله ! البعوض «يثب» . أجل، البعوض الشقى الكافر اللعين «يهدد بقبضتيه» ، البعوض هو الإعدام الفرعونى ! . . هو محاكم التفتيش الإسبانية ! دززز . . البعوض يدندن بصوت شاك محزن ، كما لو أنه يقدم لك استرحاماً ، وفجأة إذا بهذا اللئيم يلسعك فتقضى الساعات الطوال وأنت تحك جسمك .

ثم تنفث الدخان عليه ، وتهشه ، وتخفى رأسك تحت اللحاف دون جدوى ، وفى النهاية تبصق وتستسلم للعذاب وتقول . « تغذوا أيها المناكيد ! . . » ولا تكاد تعتاد لسع البعوض حتى يتناولك نوع آخر من المنغصات ألا وهو مدرس الغناء . .

هناك طبقة من المغنين يناموننهاراً و يسرحون ليلا ، فيجوبون بيوت محبي الغناء و يحيون فيها الحفلات أو يلقنون الدروس .. وزوجتى مغرمة بالغناء ، و يأتيها أستاذها بين ليلة وأخرى ، فيرفع صوته ، وتتبعه هى فيخطئها ، فتعيد الصراخ ، إنه لعذاب أشد من لسع البعوض ..و يل لذاك المغنى حين ينشد: « لا تقولى إن عهد الصبا قد اندثر فهأنذا أقف أمامك ثانية مأخوذاً» يا له من مغن وغد . . . و يا لها من تلميذة أنانية .. يواصلان الغناء فينتزعان منى الروح ، ولا أجد وسيلة لتهدئة نفسى إلا أن أتسلى بالنقر على صدغى إلى أن يكف المغنى على الغناء فى تمام الساعة الرابعة صباحا ، آه .. إلى بالماء ياصديقى الصدوق . . و بعد ذلك أنام ساعتين فقط فأنهض فى الساعة السادسة صباحاً ، وأسرع إلى المحطة مجتازاً الطريق الموحلة ، والضباب يكتنفنى من كل جانب ، والصقيع يسرى فى جسمى ، وأركب القطار وأبلغ المدينة ، ثم تبتدئ الأغنية من أولها !.. إنها لحياة منحطة ساقطة ، لا أريدها لألد أعدائى ، إننى مريض ، قصير النفس ، مصاب بحرقة فى صدرى ، ومعدتى لا تهضم الأكل ، وعلى عينى غشاوة ، وأحس

دائماً بأنني أخشى شيئاً أجهله ! . . ثق بأنني جننت .
(يتطلع هنا وهناك) أرجو أن يظل هذا الخبر سراً فيما بيننا وسأذهب الآن إلى الطبيب تشتشيتو أو مرجيفسكي ليفحصني.
آه يا صديق ! لا يسعك أن تتصور حالتي في أويقات ضيق الصدر وتوتر الأعصاب، فإذا ما لسعني البعوض أو غنى المغنى في بيتي بعد منتصف الليل ، تظلم الدنيا في ناظري ، وأثب فجأة ، وأركض في جميع أرجاء البيت كمن اشتعلت في ثيابه النيران ، وأصرخ قائلا : « أتعطش للدماء . . للدماء . . »
وتمتلكني في هذه الآونة الرغبة في أن أطعن أحداً بخنجر ، أو أن أهوى بكرسي على رأس أحدهم . . هذا هو ما أوصلتني إليه حياة الاصطياف . . ألا يوجد بين الناس من يمنحني شفقته أو عطفه لا ضحكه وسخريته ؟ . .
إنني مخلوق حي ، أود العيش مثل باقي الناس . وقصتي هذه ليست أنشودة هزلية و إنما هي فجيعة محكمة الحلقات . أصغ إلى الآن : إن أبيت أن تعطيني مسدسك فامنحني عطفك على الأقل ! . .

موراشكين : إنني عليك لعاطف ! ...

ولكاتشوف : هه ... لقد بينت لى عطفك هذا . . الوداع ، إننى ذاهب فى طلب السمك ، والنقانق ، و بودرة الأسنان، وغير ذلك الشيء الكثير . . ثم . . إلى المحطة . .

موراشكين : أين يقع منزلك في مصيفك ؟

تولكاتشوف : بالقرب من نهير الرمة . .

موراشكين : (مغتبطاً) أحقاً تقول ؟ ألا تعرف هناك أين تسكن المصطافة السيدة أولغا باڤلوفنا فينبرغ ؟ .

تولكاتشوف : كيف لا أعرف ؟ إنها جارتنا ومن معارفنا .

موراشكين : أحقاً ما تقول ؟ يا لها من مصادفة حسنة . :

تولكاتشوف : عسى أن يكون الأمر خيراً . .

موراشكين : أى عزيزى وحبيبى . ألا تود أن تقدم لصديقك خدمة صغيرة ، كن عند حسن ظنى بك . وأعطنى كلمة شرف أنك ستنفذ لى رجائى .

تولكاتشوف : خيراً ! ماذا هناك ؟ . .

موراشكين : أتوسل إليك أيها الصديق الصدوق أن تبلغ السيدة أولغا باڤلوفنا تحياتى ، وأن تخبرها أننى حىّ معافى ، وأن تقبل يدها نيابة عنى ، ثم أرجوك أن تأخذ لها هذا الشيء

الصغير بيدك . . لقد سألتني أن أشترى لها ماكينة خياطة تدار باليد ، فاشتريتها غير أنني محتار فى كيفية إرسالها لها ، خذها معك ياعزيزى . . . أرجوك ، ثم أتوسل إليك بهذه المناسبة أن تحمل لها أيضاً هدية منى ، وهى عبارة عن قفص فيه شحرور ، واحذر أن ينكسر باب القفص و يفلت الطير ، ما لك تحدق فىّ هكذا ؟

تولكاتشوف : ماكينة خياطة تدار باليد ؟ وقفص فيه شحرور ؟

موراشكين : إيڤان إيفانتش ماذا دهاك ؟ وما الداعى لقتمان وجهك؟

تولكاتشوف : (يخبط الأرض بقدميه) ايتنى بالماكينة ! . . أين القفص ! ؟ واجلس أنت عليهما أيضاً . . افترسنى ، قطعنى (يهدد بقبضتيه) اتعطش للدماء . . للدماء . . للدماء ! . .

موراشكين : أجننت ؟

تولكاتشوف : (يهجم عليه) أتعطش الدماء . . للدماء ! . .

موراشكين : (فى هلع) لقد جنّ (يصرخ) بتروشكا . . ماريا . . : أين أنتما ؟ النجدة يا ناس . . أتقذونى ؟ . .

تولكاتشوف : (يعدو فى أثر موراشكين فى الغرفة) أتعطش الدماء . . للدماء ؟ : .

(يسدل الستار)

ضرر التبغ

الممثل الوحيد — إيفان إيفانوفيتش نيوخين ، زوج امرأة تدير مدرسة للموسيقى وتشرف على بانسيون للفتيات .

نيوخين (وقد أرخى شعر خديه ، وحلق شاربيه وذقنه ، وارتدى فراكاً قديماً ، يدخل المسرح بخيلاء ، فينحنى أمام الجمهور ويعدل صديريته ويقول) : سيداتى الفاضلات . . ولدرجة ما سادتى الأفاضل ، (يمشط شعر خده) لقد طلب من زوجتى أن ألقى فى هذا الحفل محاضرة توجيهية ، فلم يسعنى إلاّ أن ألبى الطلب ! . . وإليكم المحاضرة ما دام لا بد منها ، فالأمر عندى على حدٍ سواء . . إننى لست فى الواقع أستاذاً بل وبعيد كل البعد عن مستوى العلماء ، ومهما يكن من أمر فلقد انقضت ثلاثون سنة من حياتى لم أنقطع خلالها عن العمل فى معالجة مسائل لها من الخصائص العلمية ما لها . . فكنت أنطوى على نفسى أفكر ، وأكتب أحياناً المقالات العلمية ، إنها ليست علمية دقيقة ، وإنما هى شبيهة بالعلمية . . .

والشيء بالشيء يذكر ، فلقد وضعت فى الأيام الأخيرة مقالة

كبيرة عنوانها : « حول ضرر بعض الحشرات » وقد أثارت هذه المحاضرة إعجاب بناتى ، وخاصة ذلك الموضع منها الذى تناولت فيه البق وطرق مكافحته . و بعد أن ألقيت تلك المحاضرة مزقتها ولكن ثقوا أننى مهما كتبت في مكافحة البق فلا بد من استعمال المسحوق الفارسى ، ولا أخفى عليكم أن البق تسرب إلى بيانو بيتنا . . أما موضوع محاضرتى لهذا اليوم فهو الأضرار التى تلحق بالإنسانية من جراء استعمال التبغ .

إننى من المدخنين . إلا أن زوجتى أرادت أن ألقى عليكم اليوم محاضرة عن ضرر التبغ . إذن لا مفر من ذلك . .

فها كم حديث التبغ ما دام ذلك الحديث هو المطلوب ، فالأمر عندى على حدٍ سواء وإننى لأقترح عليكم ، أيها السادة الأفاضل ، أن تعيروا محاضرتى هذه ، كيفما كانت ، ما تستحقه من اهتمام . وألفت نظركم إلى أنه إذا كان بينكم من تخيفه المحاضرات العلمية الجافة ، أو لا تعجبه بتاتاً فباستطاعته ألاّ يستمع إليها وينصرف (يعدل صديريته)

وأرجو من حضرات الأطباء الحاضرين ، بصورة خاصة ، أن ينتبهوا إلى محاضرتى هذه ، إذ بوسع الكثير منهم أن يستمد

منها الشيء الوافر من المعلومات المفيدة . . فالتبغ — عدا فعاليته المضرة — يستعمل أيضاً فى الطب . وأضرب لـكم مثلا على ذلك : إذا أخذنا ذبابة ووضعناها فى علبة الدخان ، فما من ريب فى أن مصيرها الموت المتسبب عن تمزيق جهازها العصبى ! . .

فالتبغ هو أولا نبات . . من عادتى سيداتى وسادتى أن أغمز بعينى اليمنى وأنا أحاضر ، فرجائى إليكم ألا تكترثوا لذلك . . إذ أننى على الجملة عصبى المزاج ، وقد أخذت عينى بالغمز منذ الثالث عشر من أيلول سنة ١٨٨٩ ، أى فى ذلك اليوم الذى وضعت فيه زوجتى ابنتنا الرابعة فارفارا . و بناتى كلهن ولدن فى الثالث عشر من أشهر السنة . . عفواً (ينظر إلى الساعة) آمل ألا أكون قد انحرفت عن الموضوع .. فالوقت ضيق . . لـكن علىّ أن أقول لـكم إن زوجتى تدير مدرسة للموسيقى ، وتشرف على بنسيون خاص ، فهو ليس بنسيوناً على الوجه الأكمل وإنما هو شبيه بذلك .

ولا أذيع عليكم سراً إن قلت لكم إن زوجتى تشكو دائماً من النقص فى المال ، مع أنها تملك ما يفيض عن حاجتها ، تملك أربعين أو خمسين ألفاً من الروبلات ، فى حين أننى لا أملك

كو بيكا واحداً . . آه . . ما عساى أن أقول لكم ؟. إننى أعمل فى البانسيون بمثابة مدير للادارة ، فأشترى المواد الغذائية ، وأحاسب الخدم ، وأقيد النفقات ، وأخيط الدفاتر ، وأكافح البق ، وأنزه كلب زوجتى ، وأتصيد الفيران . . وقد طلبت منى زوجتى فى الليلة البارحة أن أقدم للطاهية الدقيق والزيت لتصنع الفطائر للتلميذات ، ولما أعدّت الطاهية الفطائر ، هرعت زوجتى إلى المطبخ لتعلن أن ثلاث تلميذات لا يردن أكل الفطائر لأن غددهن متورمة . . وهكذا اتضح لنا أننا أعددنا كمية من الفطائر أكثر من المطلوب ، فما العمل ؟ . لقد طلبت زوجتى فى أول الأمر أن نحتفظ بهذه الفطائر فى السرداب ، ثم فكرت ملياً وقالت لى : « كلْ أنت هذه الفطائر أيها المغفل » ، ومن عادة زوجتى أن تدعونى وهى مضطربة النفس « بالمغفل أو الأفعى أو الشيطان » . وزوجتى دائماً مضطربة النفس . . وخلاصة القول : أخذتُ منها الفطائر و بلعتها بلعاً لشدة جوعى .

و بالأمس مثلاً حرمتنى زوجتى الغداء قائلة : «ليس من داعٍ لإطعامك أيها المغفل » ، ولكن المعذرة ، سيداتى وسادتى ، (ينظر إلى الساعة) يبدو لى أننى ثرثرت وانحرفت عن الموضوع

فلأتابع المحاضرة . . حقاً إنكم تفضلون الاستماع إلى رواية حب ، أوقطعة موسيقية ، أو أغنية عذبة (يغنى أغنية مطلعها) : « إننا لا نطرف بصرنا فى عجاج الوغى ! » ، لا أذكر اسم مؤلف هذه الأغنية . . وبالمناسبة أحيطكم علماً بأن زوجتى ألقت على عاتقى فى مدرستها الموسيقية مهام أخر بالإضافة إلى الإدارة . . . فأنا أدرس الحساب والطبيعيات والكيمياء والجغرافيا والتاريخ والآداب وغيرها . .

وتتقاضى زوجتى أجراً خاصاً على الرقص والغناء والرسم ، فى حين أننى أتولى بذاتى تدريس التلميذات تلك الدروس . . أما مدرستنا الموسيقية هذه ، فتقع فى زقاق الكلاب الخمسة ، فى البيت رقم ١٣ ، ويخيل إلىّ أن السبب فى فشلى فى حياتى هو لأننى أسكن فى بيت رقمه ١٣ ، ولأن بناتى ولدن فى اليوم الثالث عشر من أشهر السنة ، ولأن بيتى يحتوى على ١٣ نافذة ما عساى أن أقول لكم ؟ . بإمكان كل شخص منكم يريد مفاوضة زوجتى بصدد إدخال بناته فى المدرسة أن يزورها فى بيتها فى أى وقت يحلو له ، أما برنامج المدرسة ، فيباع عند البواب بثلاثين كوبيكاً (يخرج من جيبه بعض النسخ من ذلك

البرنامج) أتريدون أن نتقاسم هذه النسخ ؟ . . إن ثمن النسخة الواحدة ثلاثون كوبيكاً فمن يرغب فى الشراء ؟ . (سكون) ألا من راغب بينكم . . . لا بأس أبيعكم النسخة بعشرين كوبيكاً . سكون . حقاً إنه لشىء محزن . . . أجل إن بيتى رقمه ١٣ . . لا أفلح فى شىء . . لقد هرمت . . وسخفت . . فها أنا أقف أمامكم محاضراً ، ويبدو لكم أننى مرح ؛ والواقع أننى أود من صميم قلبى أن أصرخ بكل ما أوتيت من قوة ، أود أن أطير إلى أقصى أطراف المعمورة . . آه ، ليس هناك من أبثه شكواى وأذرف الدمع أمامه ، تقولون لى : وأين بناتك ؟ فمن هن بناتى هؤلاء ؟ إننى أحدثهن وهن يقهقهن . . ولزوجتى من البنات سبع . . كلا ، آسف أظن أنهن ست (على عجل) كلا ، هن سبع . . وكبراهن أنا وتبلغ من العمر ٢٧ سنة . . أما صغراهن فيبلغ عمرها سبع عشرة سنة .

سيداتى وسادتى (يتطلع يمنة ويسرة) إننى تعس ، لقد إنقلبت رجلا أحمق ، وتحولت إلى شىء تافه ، أتراءى لكم كما لو كنت أسعد الآباء . . ولكن هل أجرؤ على الظهور بغير هذا المظهر ؟ تصوروا أننى قضيت ثلاثاً وثلاثين سنة مع زوجتى

ولقد كانت هذه الحقبة من الزمن أفضل سنى حياتى . . أى لست أفضلها على الوجه التام ؛ ولكنها تعاقبت مثل لمح البصر، فياليت الشيطان اختطف تلك السنين قبل أن ترانى وأراها . . (يتطلع يمنة ويسرة) يظهر أن زوجتى لم تأتِ بعد ، وما دامت هى غائبة فسأحدثكم بكل شىء عنها . . إننى أخشاها جدًّا . أخشاها عند ما تتطلع فى وجهى بعينيها الملتهبتين . . أما بناتى فلن يتزوجن لأنهن محتجبات فى البيت ولا يحتككن بالرجال ، يضاف إلى ذلك أن زوجتى لا تقيم الحفلات والسهرات فى بيتها. إنها امرأة بخيلة ، سريعة الغضب ، سليطة اللسان ، وهذا ما ينفر منها الناس . . غير أننى أطلعكم على سرٍ (يقترب من كوة الملقن) باستطاعة كل امرئ ان يرى بنات زوجتى فى الأعياد الكبرى عند عمتهن نتاليا سميونوفنا ؛ وهى امراة تعانى آلام الروماتزم وترتدى رداء أصفر نثرت عليه بقع سوداء وكأنها الصراصير ! . . ونتاليا هذه امرأة كريمة لا تبخل علىّ إذا كانت زوجتى غائبة بالقليل من الخمر (ينقف رقبته بأصبعه الوسطى)* وأحيطكم علماً بأننى أسكر من كأس واحدة، وأشعر

* إذا أراد الروسى أن يشرب الخمر عمد إلى النقف على رقبته باصبعه الوسطى

براحة فى النفس يلازمها فى الوقت ذاته حزن أعجز عن وصفه .

لا أدرى ما الذى يدعوننى لتذكرسنى شبابى ، ولا ما الذى يحثنى على الهرب ! . آه لو تعلمون (بصوت عالٍ) كم أتعشق الهرب . . أود أن ألقى بكل شىء وأهرب دون أن أتطلع إلى الوراء . . فإلى أين المفر ؟ لا فرق عندى بين مكان ومكان ، فالمهم هو أن أفرّ من هذه الحياة الرخيصة ، القذرة ، المنحطة ، هذه الحياة التى حولتنى إلى رجل أحمق حقير ، إلى هرم أبله يستحق الرثاء . أريد هجران هذه الزوجة الشريرة الحقود ، التى أذاقتنى مر العذاب خلال ثلاث وثلاثين سنة . . أريد الفرار من دروس الموسيقى والمطبخ ، ومن دراهم زوجتى ، وغيرها من صغائر الأمور . . أريد أن يستقر بى المقام فى مكان ناء فى الخلاء البعيد ؛ فانقلب هناك شجرة أو عموداً أو ألعوبة حقل . وأقبع تحت السماء الواسعة ، وهناك أنسى . . أنسى كل شىء . . .

المعذرة سيداتى وسادتى . . أود ألاّ أذكر شيئاً عن ماضىّ أود أن أنزع عنى هذا الفراك القديم القذر الذى لازمنى منذ ثلاثين سنة خلت (ينزع عنه الفراك) إليك عنى أيها الفراك . . (يدوسه بقدميه) إليك عنى . . إننى رجل مسن فقير حقير

أكل عليّ الدهر وشرب مثل هذه الصديرة (يعرض ظهره للجمهور) . . لا أريد شيئاً بتاتاً إننى أسمى وأشرف من أى طلب كان . لقد كنت يوماً فتى ذكياً ، تلقيت علومى فى الجامعة ؛ فراودتنى أحلام جمة وراودتها واعتبرت نفسى شخصاً مستكملاً شروط الرجولة . وأما الآن فلا أريد شيئاً سوى الهدوء والراحة (ينظر يمنة ويسرة ويرتدى الفراك)

سيداتى وسادتى ...

إننى لأرى زوجتى بين الستائر ، فهى تنتظرنى هناك (ينظر إلى الساعة) لقد انقضى الوقت فرجائى إليكم إذا سألتكم عن المحاضرة أن تقولوا لها إنها كانت موفقة . . وإن المغفل كان خطيباً مفوهاً (ينظر يمنة ويسرة ويسعل) إنها تتطلع إلى ناحيتى (يرفع صوته) أجل . . ولما كان التبغ يتضمن ذلك السم المريع الذى حدثتكم عنه الآن ، فإننى لا أنصح أحداً بالتدخين ؛ وأمنى نفسى بأن محاضرتى هذه (حول ضرر التبغ) ستأتى بالفائدة المرجوة . . لقد قلت كل شىء . (ينحنى ويخرج بخيلاء)

(يُسدل الستار)

القصص

رسالة إلى جارٍ عالم

جارى العزيز مكسيم . . جُد عليّ بالمعذرة لنسيانى بقية اسمك، ولا تؤاخذنى ، أنا الهرم العتيق والمخلوق الغبى ، لجرأتى على إزعاجك بهذا الكتاب الذى ينطوى على الثرثرة ، والسخف .

مضت سنة كاملة على تفضلك بسكنى هذا الجزء من العالم ، مجاوراً لى — أنا الذبابة الحقيرة — لكننى لم أتعرف إليك طوال تلك السنة ، كما أنك لا زلت تجهلنى تماماً ، فهل تأذن لى الآن ، أيها الجار العزيز ، بأن أتعرف إليك ، بواسطة هذه الرسالة ، وأن أصافح يدك العالمة ! . . وأرحب بمقدمك من بطرسبورغ ، إلى منطقتنا الرِّيفية هذه ، التى لا تليق بمقامك .

لا أذيع سراً ، إن قلت لك : إننى كنت دائم التفكير ، فى كيفية الوصول إليك ، لأنَّ العلوم هى أُمنا المبجلة ، وهى والمدنية صنوان ، وهذا ما دعانى لأن أحترم ذلك الرَّهط من

الناس ، الذين ذاع صيتهم ، وأحيطوا بهالات المجد ، وأكاليل الغار ، وتحلّوا بالأوسمة والأوشحة ، وراحت أسماؤهم تدوى كالرعد فى جميع أرجاء العالم المرئى ، وغير المرئى .

إننى أحب الفلكيين والشعراء والكتاب والطبيعيين والكيماويين وغيرهم من كهنة العلم الذين تعتبرُ نفسك أحدهم بفضل ما قدمتهُ من براهين واقعية وما توصلت إليه من نتائج وثمرات وما وضعته من مصنفات ومؤلفات إبان جلوسك بين أدواتك وموازينك وكتبك الأجنبية المحلاة بالصور المغرية . .

لقد زارنى مؤخراً فى أملاكى ، أو فى أنقاضى وخرائبى ، جارى السيد جيراسيموف ، ولما تناولنا الحديث عنك ، هاجم آراءك بصدد منشأ البشر ، وغير ذلك من مظاهر العالم المرئى ، وثار على جوك الفكرى النيّر ، وعلى أفقك الذهنى الرائق ، إلاّ أننى لم أوافقه على اعتراضاته ، لأننى أحيا بالعلم وأتغذى بلبانه ، ذلك العلم الذى هيأته العناية الإلهية للجنس البشرى ، ليتمكن بمعونته من استخراج المعادن واللآلىء من بطون الأرض.

ومع ذلك فالمعذرة يا جارى العزيز إذا أقدمت — أنا الحشرة التى لا تكاد تراها العين — ودحضت بعض آرائك . .

أفادنى جيراسيموف ، أنك وضعت كتاباً عرضت فيه مسائل على درجة عظيمة من الأهمية ، تدور كلها حول كيان الإنسان الفطرى الذى عاش قبل الطوفان . . لقد تكرمت وذكرت فى كتابك هـذا أن الإنسان تحدّر من فصائل المارموزيت ، والأورانغ أوتانغ ، وهلمّ جرا . فهل لك أن تعذرنى إن خالفتك فى هـذه النقطة الهـامة ، وأدليت لك بحجج توقفك عند حدك ؟ . .

إعلم أننا — نحن بنى الإنسان — سادة الكون ، وأنبه جميع الأحياء التى تدب على الأرض، فلو كان مردّنا إلى القردة الجاهلة البلهاء ، لكان لنا أذناب ، وأصوات وحشية ، ولكان النَّوَرُ يطوفون بنا فى المدن والقرى ، فيتلهى بعضنا برؤية بعض ونحن نرقص ، أو نجلس القرفصاء فى أقفاصنا الحديدية !

قل لى يا جارى العزيز : هل تكتسى أجسامنا بشعر القردة ؟ . . وألا نتدثر بملابس حُرم منها ذلك الحيوان ؟ . . ثم . . هل كان بمقدورنا أن نحب المرأة لو فاحت منها روائح كالتى تفوح فى حديقة الحيوانات ؟ . . فلو كان أسلافنا قد تحدروا من القردة ، فهل من المعقول أن يُدفنوا فى مقابر مسيحية ؟ . .

إن جدّى الأكبر أمفروسى الذى عاش فى أيام السيادة البولونيّة ، دفن إلى جانب الراهب الكاثوليكى واكيم شوستاك ، ولم يدفن بوصفه قرداً ! . .

أستمحيك العذر ، لأننى تدخلت فى شؤونك العلمية ، وفرضت عليك آرائى الهمجية الخرقاء ، هذه الآراء ، التى إذا اطلع عليها العلماء والمثقفون ، فسرعان ما تدخل إلى معدهم قبل رؤوسهم ! . . ولكن ما عساى أن أعمل ، وأنا لا أقدر على الصمت إذا مارأيت العلماء لايفكرون كما ينبغى عليهم أن يفكروا.

وأحاطنى «جيراسيموف» علماً ، بأن لك نظرية خاطئة بصدد القمر أيضاً . آمل ألاّ تهزأ منى — أنا الرّجل الهرم — إذا ما لمستَ سخفاً فيما أكتبه لك .

أجل ! تفترض أنت أنَّ القمر تسكنه قبائل بشرية تنتشر فى جميع أنحائه ، لكننى أجرؤ وأدحض افتراضك هذا بقولى : لو أن القمر مأهول ، لسترت بيوته ، ومزارعه عنا نوره الساحر الأخاذ ! . . ولانقطعت عنا الأمطار، وآل مصيرنا إلى الهلاك ، لأن المطر يسقط من علٍ على الأرض ، وليس على العكس ، ولوقع سكانه على الكرة الأرضية ، وهذا أمر لم يحدث قط . .

ثم ألا يغمرنا القمر بأقداره لو كان مسكوناً ؟ . . وهل يتمكن ساكنوه من البقاء على سطحه إن أحسوا وجوده ليلاً فقط وافتقدوه نهاراً ؟ . . ثم هل تسمح حكومات الأرض للناس بسكنى القمر، ولا تخشى من أن يصبح مأوى للعصاة والمجرمين ؟..

وقال لى «جيراسيموف» أيضاً : إنك ذكرت فى مؤلفك الثمين أن فى الشمس ، وهى أعظم كوكب منير ، كلفاً أو بقعاً سوداء ، غير أننى أنفى ذلك نفياً قاطعاً . وأسألك ، كيف تمكنت من رؤية تلك البقع ، أنت عاجز عن التطلع إلى قرص الشمس ؟ . . ثم ما الفائدة من تلك البقع ؟ ومن أية مادة مائعة تتكون ؟.. وألا تجففها حرارة الشمس ؟ ! يخيل إلى أنك تعتقد أيضاً بوجود أسماك تسبح فى تلك البقع ! سامحك الله . .

أى جارى العزيز . هل لك أن تعذرنى — أنا الغبىّ — لأننى حاولت تحديد بعض المسائل العلمية بمثل هذه الترهات ؟ ألا اغفر لى مواقفى هذه ، وتأكد بأننى قد كرست حياتى لخدمة العلم فغدت أجنحته بمثابة ستار يقوم ما بين عينى ، ونزوات المال .

إن كل اكتشاف يكتشفه العلماء ، يسبب لى آلاما كالآلام الناتجة عن وخز المسمار فى الظهر ! . . وبالرغم من جهالتى — أنا

الملاّك القديم — فإنني أتابع أعمالى فى حقلَىْ العلوم والكشف ، وأصنعها بيدى ! . . وأملا رأسى التافه ، وجمجمتى المتوحشة ، بمجموعة من الأفكار الهامة ، والآراء العظيمة .

إنّ أمنا (الطبيعة) هى سفر جليل علينا أن نطالعه ونشاهده ! . . أخبرك أننى توصلت إلى اكتشافات عديدة بمجهودى الخاص ، اكتشافات لم يسبقنى إليها أحد . . وأقول ، غير متبجح ، إننى حصلت على معارفى بجهدى وعرق جبينى ، لا بثروة والدى ، فثروة الآباء كثيراً ما تقضى على الأبناء بما توفره لهم من جاه عريض ، ومساكن ذات ستة طوابق ، وخدم ، وأجراس كهربائية . فهاك ما اكتشفه عقلى الرخيص :

اكتشفت أنّ شمسنا الكبيرة — المتدثرة بثوب من الأشعة النارية — تطلع على الكون فى أحد الأصباح ، ومرة فى السنة فقط ، بمجموعة نفيسة من الألوان المتناسقة ، فتخلع عليه بريقاً عجيباً ، يأخذ بمجامع القلوب . . ثم توصلت إلى اكتشاف آخر : يتساءل الإنسان كثيراً عن سبب قصر النهار فى فصل الشتاء ، وطول الليل فيه ، فى حين تنعكس الآية فى فصل الصيف . . .

فتفسير ذلك ، أن النهار يقصر شتاء لأنه يتقلص من البرد ،

مثل كل الأشياء المرئية ، وأن الليل يطول ، لأنه يتمدد بفعل نيران المواقد ، ومصابيح البيوت والشوارع ! .

واكتشفت أيضاً أن الكلاب فى فصل الربيع تأكل النباتات مثل الخراف . . وأن القهوة تؤذى أصحاب الأمزجة الدموية من الناس، فهى تحدث فى رؤوسهم دواراً ، وفى عيونهم غبشاً . . .

وتوصلت إلى اكتشاف أشياء كثيرة أخر ، مع أننى لا أحوز شهادات ثانوية أو جامعية .

تعال إلى بيتى — يا جارى العزيز — فعسى أن نكتشف شيئاً معاً ، وندرس الآداب معاً ، وأتلق عليك دروساً شتى فى الرياضيات .

قرأت منذ أمد غير بعيد أن أحد العلماء الفرنسيين وجد أن هيئة الأسد لا تشبه أبداً ملامح الإنسان ! . . وهذه نظرية لها خطورتها ، أترك التحدث عنها إلى أن نلتقى فى القريب العاجل . فتكرم وأحضر إلى بيتى ، ولك أن تحضر غداً مثلاً .

حقاً إننا الآن صائمون ، ممتنعون عن أكل اللحوم ، لكننا سنهيئ لك على كل حال أكلاً متواضعاً ، وأعلمك أن ابنتى نتاشينكا ترجوك أن تجلب لها معك بعض الكتب العميقة الأفكار ، فهى فتاة متحررة تعتقد أنها تنفرد فى العقل

والإدراك ، وأنّ كل ماحولها من الناس ليسوا إلا جهلة أغبياء .

سيزورنى بعد أسبوع أخى إيفان ، فهو رجل طيب القلب ، لكنه ملكىّ النزعة ، ولا يميل إلى العلوم .

وسيحمل رسالتى هذه إليك خادمى تروفيم ، وسيسلمك إياها فى تمام الساعة الثامنة مساء ، فإن جاءك متأخراً ، فاعلم أنه عرّج على خمّارة ، واصفعه على وجهه صفعة أستاذ قدير !..

لست أنا أول من يبتكر عادة التزاور بين الجيران ، ولا آخرهم ، ولذا ، ألحّ عليك لتزورنى فاحضر ، واجلب معك كتبك وأدواتك ، لقد كان بودى أن آتى بنفسى إليك ، لكننى جدّ خجول ، وتنقصنى الجرأة الأدبية . .

أخشى أن أكون — أنا الرجل الرّجس — قد أزعجتك برسالتى هذه ، فمعذرة .

وتفضل بقبول احترامات جاويش الفيلق القوزاقى المتقاعد ، والمتحدر من صلب الأشراف » .

جارك
واسيلى سيمى بولاتوف

تُريد النوم

كان الوقت ليلاً . . .

وكانت الخادمة ڤاركا ، وهى فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها تهز سرير طفل مولاها ، وتغنى له أغنية بصوت خافت أشبه بالهدير ، تقول فى مطلعها :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة

وكان فى إحدى زوايا الغرفة أيقونة، عُلق فوقها قنديل أخضر ترك زجاجه ظلاً داكناً على السقف ، وامتد فى الغرفة أيضاً حبل نُشرت عليه لفائف الطفل وسروال أسود كبير وقد خلعت هذه الأشياء على الموقد ، وسرير الطفل والفتاة معاً ظلاً طويلاً ، وكان كلما اهتز القنديل اهتز معه ظله على السقف ، وتحرك ظل اللفائف والسروال . وكان الهواء فى الغرفة محتبساً ، فانبعثت منها رائحة الحساء ممتزجة برائحة مصنوعات من الجلود .

طال الوقت على الطفل وهو يبكى ويصرخ حتى بُح صوته وخارت قواه . أما ڤاركا فعبثاً كانت تحاول النوم ، لقد أغمضت عينيها ، وتدلى رأسها على صدرها ، وخُيل إليها أن

وجهها قد جف وتحجر، وأن رأسها صغر حتى غدا حجمه كحجم رأس الدبوس ، ومع ذلك كانت تغنى بصوت خافت هو أشبه بالهدير :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة

وكان للأصوات الصادرة عن صراخ الطفل ، وصرير سريره وهدير فاركا وشخير رب البيت وصفير الجُدجُد فى جدران الموقد، أن تآلفت مع بعضها فغدت تشبه الموسيقى الليلية المهدهدة ، التى يحلو للمرء الاستماع إليها وهو مستلق على فراشه ، غير أن هذا اللون من الموسيقى إنما يثير الأعصاب ، ويضغط على النفس ، ويطرد النعاس ، ويقهر النوم .

كان القنديل يهتز ، وكان ظله وظل اللفائف والسروال يترجرجان ويندسان فى عينى فاركا الجامدتين ، شبه المغمضتين فينعكسان فى رأسها المثقل بالنعاس على شكل أحلام يكتنفها الغموض من كل جانب .

تراءت لفاركا غمائم سوداء ، تطارد الواحدة الأخرى فى كبد السماء ، وتصرخ كما يصرخ الأطفال، ثم ما عتمت الريح أن هبت ، فاختفت الغمائم فجأة . وظهرت للفتاة طريق مغطاة بطبقة

من الأوحال الكثيفة ، ازدحمت فيها عربات النقل ، وتدافع الناس بالمناكب وهم يحملون أمتعتهم على ظهورهم ، وكانت هناك أشباح تتقدم القوم ، أو تسير خلفهم ، وترامت على جانبي الطريق أحراج التفت برداء من الضباب الرطب ، ثم ظهر للفتاة أن هؤلاء الناس والأشباح يسقطون على الأوحال دفعة واحدة فتتقدم هي نحوهم وتسألهم : ما السبب في ذلك ؟ فيجيبونها : نريد النوم ! . نريد النوم ! . ويستغرقون في نوم عذب ، بينما الغربان والعقاعق ، تقف على أسلاك البرق وتحدث صراخاً أشبه بصراخ الأطفال وهدفها من ذلك إيقاظ النيام ! . .

وتهدر فاركا وهي في حالة من اللاوعي :

أهدهدك أيها الطفل   وأغني لك أغنية جميلة

ثم تراءى لها أنها في كوخ يسوده ظلام حالك احتبس فيه الهواء ، وبلغ مسمعيها صوت والدها المتوفى « أفيم ستيبانوف » وهو يتلوى على فراش المرض ، وقد حانت ساعته ، إنه لا يقوى على النطق بكلمة واحدة لكنه كان يستنشق الهواء ، ويخرجه من بين أسنانه مجزءاً . . آ . . آ . . آ . . .

وتراءت لها أمها « بيلاجيا » وقد هرعت إلى بيت من كانت

تخدم عندهم لتخبرهم أن «أفيم» يلفظ النفس الأخير ، فطال أمد غيابها ، وآن لها أن تعود ، ثم هاهى تسمع صوت وقع أقدام... إنه طبيب كان فى ضيافة مولى أمها ، فلما جاءته مستنجدة أرسله برفقتها ليعود أفيم

وتراءى لفاركا أن الطبيب يدخل الكوخ دون أن ترى له وجهاً فى الظلام ، ثم سمعته يسعل و يقول : أوقدوا النار !

فأجابه المريض : آ . آ . . آ . .

وأسرعت بيلاجيا إلى الموقد وراحت تتلمس علبة الثقاب ، ولما لم تعثر عليها أخرج الطبيب علبة من جيبه وأشعل عوداً منها .

وهنا ، سمعت الفتاة أمها تقول لأفيم : صبراً يا شيخى صبراً ؟ وخرجت من الكوخ و بعد برهة وجيزة عادت و بيدها شمعة أضاءت أرجاء الكوخ ، فظهر أفيم مسجًى على الأرض ، ولخديه لون مثل لون الزهر ، ولعينيه بريق خاطف ، ونظرة حادة .

قال الطبيب مخاطباً أفيم : ما الذى دهاك ؟ تشجع ! وانحنى عليه ؛ وما إن تفرّس فى وجهه حتى قال : أمن زمن طويل وأنت تعانى هذا المرض ؟

فأجابه أفيم هامساً : وما الذى تراه يا سيدى ؟ هل حانت ساعة مفارقتى لعالم الأحياء ؟

قال : طب نفساً يا أفيم ، سنعمل على شفائك بإذن الله .

— شكراً لك يا سيدى . ولكن ما الفائدة من العلاج إذا ما حل ملكُ الموت ؟

فحص الطبيب المريض لمدة ربع ساعة ، ثم نهض وقال : لا بد من نقله إلى المستشفى على عجل . إن علته تتطلب إجراء عملية جراحية ، هيا إلى مستشفى المدينة .

قالت بيلاجيا : أيها الطبيب إننا لا نملك وسيلة لنقله .

قال : لا بأس عليك سأتصل الآن بمولاك وأسأله أن يتكرم بنقل زوجك على عربته .

وتراءى للفتاة أن الطبيب يخرج من الكوخ ، وتنطفىء الشمعة، وتسمع صوت أبيها مرة ثانية يقول مرتعشاً: آ . . آ . . آ . .

ثم تأتى العربة ، ويدخل جماعة إلى الكوخ ، ويلفون المريض بالأحزمة ويرحلون به .

ويسفر الليل عن صباح رائق ، وتذهب بيلاجيا مبكرة إلى المستشفى لتعرف ما حل بزوجها ، ويخيل إلى الفتاة أن طفلاً فى

مكان ما يبكى . . . وأن هناك من يغنى له بصوتها و يقول :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة

ثم ها هى أمها تعود ، وترسم إشارة الصليب على صدرها ، وتتحدث بصوت خافت ، أخذوه ليلاً ، وعند الصباح توفاه الله فانتقلت روحه إلى الملكوت السماوى . . حيث الراحة الأبدية .

و يتراءى للفتاة أنها تركت الكوخ ، وذهبت إلى الغابة المجاورة تبكى أباها ، و إنها لكذلك إذ بها تفاجأ بضربة شديدة على ظهرها ، طوحت بها على شجرة الصنوبر ، ولما تطلعت إلى الوراء مذعورة وجدت نفسها أمام مولاها صانع الأحذية يقول لها : خسئت أيتها اللعينة.. تنامين والطفل يبكى الساعات الطوال؟

وقرص أذنها . فاهتز رأسها . . واهتز السرير .

وغنت أغنيتها ، ورقص ظل القنديل الأخضر على السقف ، وترجرج ظل السروال واللفائف ، وعاد إلى مخيلتها منظر الطريق المغطاة بطبقة من الأوحال الكثيفة ، والناس الذين يحملون أمتعتهم على ظهورهم وهم يتدافعون ، والأشباح التى تفترش الأرض وهى تغط فى سبات عميق .

شاهدت فاركا هذا المنظر نطاب لها النوم، وودت لو يتاح لها أن

ترقد إلى جانب تلك الأشباح ، غير أن الهذيان نقلها على حين غرة إلى حالة ثانية من الرؤى فوجدت نفسها تسرع فى سيرها إلى جانب أمها بيلاجيا ووجهتهما المدينة ، سعياً وراء العمل؛ ولما صادفت أمها أحد المارة ، مدت له يدها مستعطية وقالت : حسنة لله ! . .

وهنا تضطرب فاركا ، فتسمع صوتاً مألوفاً يقول لها بشدة وصرامة : هاتى الطفل . . هاتى الطفل . . تنامين أيتها الخسيسة؟

فتنتبه فاركا مذعورة ، وتجيل النظر فيما حولها . فيتبين لها أن كل ما شاهدته لم يكن غير هذيان . . فلا طريق هناك ، ولا أب وأم ، ولا مارة ولا أشباح ، وإنما هى مولاتها تقف فى وسط الغرفة ، وقد جاءت لترضع صغيرها .

وبينما كانت السيدة البدينة ذات الكتفين العريضتين منهمكة بطفلها ، انتصبت الفتاة فى مكانها جامدة واجمة ، تنتظر بفارغ الصبر انتهاء مولاتها من إرضاع الطفل . وكانت السماء فى تلك الساعة ، تميل إلى الزرقة ، فاصفر نور القنديل ، وأخذ ظل السروال واللفائف يختفى ويتلاشى شيئاً فشيئاً ، فهذه العلامات إنما تؤذن بقرب انبلاج الصباح .

دفعت ربة البيت الطفل إلى الفتاة ، وقالت لها وهى تزرر

صديرتها : هاك الطفل ، ضعيه فى سريره ، إنه لايفتر عن البكاء ، لاشك فى أنك أسأت معاملته .

أضجعت ڤاركا الطفل فى سريره وجعلت تهزه كسابق عادتها وكان ظل القنديل والسروال واللفائف يضمحل بالتدريج ، فأحست الفتاة بالراحة لخلاصها من أثره المزعج ، إلا أنها كانت تشتهى النوم كأعز أمانيها ، فأسندت رأسها إلى السرير ، وأخذت تهزه هزاً عنيفاً لـكى تطرد النوم من عينيها المتعبتين ، ورأسها المثقل .

وإن هى إلا دقائق ، حتى سمعت مولاها يقول :

— ڤاركا . . أشعلى النار فى الموقد ! . .

وكان هذا الأمر إشارة إلى أنه قد آن لها أن تنهض ، وتبادر إلى العمل .

فهبت الفتاة ، وأسرعت الخطى إلى الحوش تجمع الحطب ، وكانت تقفز من مكان إلى آخر فرحة جذلة . ففى الحركة ما يبعد عنها شهوة النوم ، وفى إشعال النار فى الموقد ما يبعث الدفء فى جسمها ، فينبسط وجهها المتحجر ، ويصحو فكرها المتبلد .

وفى هذه الأثناء ، قالت ربة البيت : ڤاركا هيئى الشاى ! . .

ولم تكد الفتاة تضع الفحم فى الموقد وتذكى فيه النار ، حتى قال لها رب البيت :

— فاركا ، نظفى الحذاء . .

فجلست على الأرض تنظف الحذاء ، فساورها سلطان النوم، واستولت عليها رغبة جامحة لتدخل رأسها فى هذا الحذاء الكبير البعيد الغور ، وترقد فيه ولو ساعة من الزمن ، وإذا بالحذاء ينمو وينتفخ ، ويستوعب الغرفة كلها . ثم ثابت الفتاة إلى رشدها ، وألقت بالفرشاة جانباً ، وجعلت ترج رأسها وتفرك عينيها ، وتحملق فى الأشياء حتى لا تتضخم فى نظرها ، ولا تتزحزح من مكانها .

ثم سمعت صوتاً يقول لها : فاركا اغسلى السلالم ! . .

فتلبى الفتاة الطلب ، وتغسل السلالم ، ثم تكنس الغرف ، وتشعل النار فى مواقد أخرى ، وتذهب إلى حانوت مولاها وترتبه ، وهكذا كانت تجد وتعمل بلا انقطاع غير واجدة لنفسها دقيقة واحدة للراحة والاستجمام .

لكن فاركا لم تستصعب شيئاً أكثر من عملها فى المطبخ، فإذا ما وقفت تقشر البطاطا شعرت بأن قوة تجذب رأسها نحو

الطاولة ، وأن حبات البطاطا تتحرك أمامها وتقفز ، وأن السكين تتململ فى يدها وتسقط على الأرض ، هذا وربة البيت البدينة تتبختر فى المطبخ وتصرخ فى وجهها ، وتسمعها قارص الكلام .

ثم ينقضى النهار ، وتتطلع الفتاة إلى النوافذ فترى الظلام ينشر ستاره على البلدة ، فتضغط على صدغيها وتبتسم مسرورة ، دون أن تجد لهذا السرور سبباً ، وكل ما كانت تحسه هو أن العتمة تداعب عينيها الناعستين ، وتعدها بنوم هنىء عاجل .

وبعد أن تناول القوم العشاء ، بدأت السهرة وجاء الضيوف فنادى رب البيت الفتاة قائلا : فاركا ضعى النار فى الموقد ، فتشعله ثم تقف على قدميها ساعة كاملة محدقة بالضيوف منتظرة الأوامر ، فيلتفت إليها مولاها ويقول : فاركا أسرعى واشترى لنا ثلاث زجاجات من النبيذ ! . .

فتثبُ من مكانها وتخف إلى تلبية طلب مولاها معللة النفس بأن الحركة تطرد النعاس ، وحينما تعود يبادرها مولاها بقوله : فاركا آتينا بزجاجة الفودكا على وجه السرعة .

وبعد أن غادر الضيوف المنزل ، أطفأت الفتاة الأنوار ، وذهب كل من فى البيت إلى فراشه ، وكان آخر أمر تلقته الفتاة

من مولاتها : ڤاركا هزى سرير الطفل ! . .

وعاد الجُدجُد إلى الصفير ، كما عاد انعكاس القنديل الأخضر يتأرجح على السقف ، وظلُ السروال واللفائف ، يغمز عينى الفتاة شبه النائمتين ، ويثقل رأسها . وعادت هى بدورها إلى الهدير :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة

لكن الطفل لا يعبأ بأغنية ڤاركا ، ولا بهزها لسريره ، فيتابع بكاءه وصراخه ، فتقع الفتاة فى الهذيان من جديد ، فترى الطريق الموحلة ، والناس والأشباح ، وأمها بيلاجيا ، ووالدها أفيم ، ترى كل شىء وتفقه كل شىء ، باستثناء أمر واحد استعصى عليها إدراكه وهو : ماهية تلك القوة التى تقيدها من يديها وقدميها وتشدد الخناق عليها ، وتحول دونها والعيش الهنىء ؟ . .

أجالت الفتاة النظر حولها باحثة عن تلك القوة الخفيـة . فتطلعت إلى إنعكاس القنديل ، وأنعمت النظر فى ظل السروال واللفائف ، وأرهفت السمع إلى صراخ الطفل . . و بعد أن قضت فترة ألمية فى البحث والتفتيش ، إذ بفمها ينفرج بابتسامة

الرضى . لقد عثرت على ذلك الخصم اللدود الذى ينكد عليها حياتها . . إنه الطفل !.

قهقهت ڤاركا ، وساءلت نفسها باستغراب : كيف لم يدر بخلدى من قبل هذا الأمر التافه ؟ . . وخيل إليها أن الجدجد ، وانعكاس القنديل وظل السروال واللفائف ، كلها تضحك منها وتعجب كيف لم تفقه ذلك إلاّ الساعة ؟

وعلى ذلك ، غدت ڤاركا أسيرة تصور مريع كاذب ، فنهضت عن كرسيها ، وعلى شفتيها ابتسامة عريضة ، وسارت فى الغرفة ، وهى خاضعة لفكرة تسرها وتدغدغها ! .

قهقهت الفتاة ثانية ، وغمزت بعينيها ، وهددت الظل بأصبعها وتسللت إلى السرير ، وانحنت على الطفل ! . .

وبعد أن تم لهـا ما أرادته ، خيم السكون على البيت ، فانطرحت على الأرض تقهقه بملء شدقيها ، وإن هى إلا ثوان حتى استغرقت فى نوم عميق ، هادئ ، وكأنها قد فارقت الحياة !. .

من مذكرات حالم

في التاسع من شهر مايو أخذت إجازتي السنوية لمدة ثمانية وعشرين يوماً ، وسألت أمين صندوق دائرتنا أن يقرضني مبلغ مئة روبل ، وعقدت النية على أن أقضي تلك المدة في حياة بذخ واسعة النطاق ، تجعلني أعيش بذكراها ، وبذكراها فقط خلال عشر من السنوات .

أتعرف كيف تكون تلك الحياة ؟ إنها لا تكون بذهابك إلى المسرح الصيفي لمشاهدة أوبريت على ضوء القمر ثم عودتك إلى البيت في الصباح نشوان . . . وهي لا تعني ذهابك إلى المعارض ، ومن ثم إلى حلبة سباق الخيل ، حيث تأمل أن يأتيك الربح وإنما هي أن تجلس في القطار وتتجه نحو الهواء الطلق المشبع بعبق البنفسج ، وزهر الكرز . . . هناك حيث حبات الندى الماسية تداعب نظرك ببياضها اللطيف وبريقها الأخاذ ، حيث الأراضي الفسيحة والسماء الزرقاء ، حيث تنبسط أمامك الأحراج الخضراء ، وتكون في عشرة الطيور ، وتستمع إلى خرير المياه المنسابة في الجداول ، هناك فقط تدرك ماهية

الحياة . أضف إلى ذلك مقابلتين أو ثلاثاً مع صاحبات قبعات القش الواسعة ، والقفازات البيضاء . . أقر بأنني حلمت بذلك كله بعد أن نلت الإجازة ، وغمرني أمين الصندوق بلطفه وكرمه فأسرعت إلى بيتي وأخذت أتأهب للسفر إلى الريف .

عملت بنصيحة أحد الأصدقاء ، واستأجرت في قرية «بيريريفو» غرفة في بيت السيدة صوفيا بافلوفنا كنيغينا ، وقد جرت عملية الاستئجار بأسرع مما كنت أتوقع .

بحثت عن بيت السيدة كنيغينا حال وصولي إلى القرية ، فاهتديت إليه دون كبير عناء ، ولما وطئت قدماي ردهة البيت الخارجية ، دهشت لما شاهدت فيها من فرش حسن يدل على النعمة وسعة العيش . وقد أثارت دهشتي أكثر من الفرش . تلك الصبية المليئة الجسم التي كانت تجلس إلى جانب النضد وتشرب الشاي . . . وإذ وقع نظرها علي واقفاً مشدوهاً قالت : أتريد شيئاً ؟ قلت : المعذرة يا سيدتي . إنني . . يبدو لي أنني أخطأت الهدف ، إنني أبحث عن بيت السيدة كنيغينا .

قالت : أنا هي بالذات ، فما الذي تريده ؟

مادت بي الأرض لدى سماعي جوابها هذا ، لأنني اعتقدت

أن أرى في صاحبات البيوت والفيلات نسوة طاعنات فى السن مقعدات ، تنبعث منهن رائحة القهوة ، لكننى هنا — أنقذونا يا ملائكة السماء ، على حد قول هاملت — أمام امرأة حسناء ، رائعة فاتنة . .

قلت لها أريد غرفة فى بيتك هذا لقضاء إجازتى السنوية .

قالت : آه إن هذا لما يسرنى جداً ، تفضل واجلس ، لقد كتب لى صديقك بذلك ، ألا تريد شاياً؟ . وهل تحبه مع المربى أم مع الليمون ؟

هناك نوع من النساء — والشقر منهن خاصة — يكفى أن تجلس معهن دقيقتين أو ثلاثا حتى تظن أنك تعرفهن منذ أمد بعيد ، وأن بيتهن إن هو إلا بيتك .

وهذا عين ما حدث لى مع صوفيا بافلوفنا ، فما إن شربت عندها الكأس الأولى من الشاى حتى عرفت منها أنها غير متزوجة ، وأنها تعيش على الفائض ، وتتوقع زيارة عمتها لها ، وعرفت أيضاً الأسباب التى حملتها على تأجير غرفة فى بيتها الريفى هذا . وخلاصة هذه الأسباب أنه يصعب على امرأة أن تدفع بمفردها مبلغ مئة وعشرين روبلا إيجاراً سنوياً ، وإنه لما

يخيف امرأة أن تظل فى منزل ريفى وحدها ، فربما هاجمها لص فى الليل على حين غرة ، أو ربما دخل عليها فلاح مرعب فى رائعة النهار . وعلى ذلك ليس هناك من يلوم صوفيا بافلوفنا إن هى أجرت غرفة بمنزلها لأحد من الناس ، رجلا كان أو امرأة .

وعلقت صوفيا على كلامها هذا وهى تلعق المربى : ولكننى أفضل مجاورة الرجال ، فهم أقل مشاكل وأبعث على الطمأنينة . .

وصفوة القول لم تمر ساعة من الزمن حتى تصافيت مع صوفيا بافلوفنا وأصبحنا صديقين حميمين .

ثم قلت لها : تحدثنا عن كل شىء مهم ، وأهملنا الأهم ، فكم تريدين أجراً للغرفة ؟ . سأظل عندك مدة ثمانية وعشرين يوماً ، وسأتناول الغداء طبعاً ، والشاى ، وغيره . .

قالت : وجدت موضوعاً تتحدث فيه ، ادفع ما تستطيع دفعه إننى لا أؤجر الغرفة لاعتبارات مالية ، وكل ما أرمى إليه ، هو أن أرى الغرفة مأهولة . . أتستطيع دفع خمسة وعشرين روبلا ؟

قبلت الشرط وبدأت حياتى الريفية . واللطيف فى هذه الحياة أن نهارها يشبه نهارها ، وليلها يماثل ليلها ؟ وكم من لذة يجدها المرء فى هذه الأيام والليالى المتواترة المتشابهة ؟

أستميحك العذر أيها القارئ العزيز . . . إن أنا عانقتك من شدة الفرح . . لقد كنت أستيقظ صباحاً غير مفكر بتاتاً فى أعباء الوظيفة ؛ فأشرب الشاى مع المربى ، وفى الساعة الحادية عشرة أزور صاحبة البيت لأحيها تحية الصباح، وأشرب عندها فنجاناً من القهوة مع المربى اللذيذة الطعم ، ثم نأخذ نثرثر إلى أن يحين موعد الغداء .

وأى غداء شهى تعده صوفيا بافلوفنا . . . تصور نفسك خائراً من الجوع، ثم يقدم لك كأس من النبيذ المعتق، ولحم مشوى مع المقبلات ، ويتبع ذلك حساء الخضار بالزبدة ، ثم غيره وغيره . . . وبعد أن تنتهى من غدائك تضطجع فى سريرك ، وتطالع رواية مسلية ، بينما صاحبة البيت تروح وتغدو إلى جانب باب الغرفة وتقول لك : لا تنزعج . . . نم ! . . . نم ! . .

وتنهض بعد القيلولة فتشرب الشى مع المربى ، وعندما يأتى المساء تتعشى ، وإذ يأوى الناس إلى بيوتهم ، ولا تعود تسمع فى القرية إلا زقزقة العصافير يتخللها أحياناً صراخ مالك الحزين ، أو صفير قطار آت من بعيد، يبلغ مسمعيك بكل مشقة تخرج أنت وصوفيا بافلوفنا إلى الغابة القريبة فتسرحان فيها حتى

ساعة متأخرة من الليل ، فتارة تلجان الدّغل ، وتارة أخرى تنقلان الخطى على متاريس الخط الحديدى ، وإذا ما أحست الشقراء المكتنزة الجسم برعشة من برد المساء تشبثت بك ، وحولت إليك بين الفينة والأخرى وجهها الناصع البياض وقد عكس القمرُ عليه أشعته الفضية .. فيا له من منظر خلاب بديع! ..

ولم ينقض أسبوع على إقامتى عند صوفيا بافلوفنا حتى حدث ما تتوقعه أيها القارئ، وحدوث مثل هذا الأمر لا مفر منه لأية قصة لها وزنها ... إننى لم أطق الصمت وفاتحت صوفيا بحبى لها ... فأصغت إلى غير مكترثة، بل استمعت فى شىء من البرودة، وكأنها توقعت ذلك منذ البداية ولوت شفتيها بلطف كما لو كانت تريد القول : وما الداعى لكثرة التحدث فى هذا الصدد ؟

ولّت أيام الإجازة كما تولى الثانية الواحدة ، فأخذت أرتب حوائجى فى الحقيبة وأودع النزل وصاحبته .وذاع المستوحش المتألم ، وكانت صوفيا تجلس على المقعد تكفكف الدمع ، فاقتربت منها وهدأت من روعها واعداً إياها بأن أتردد عليها فى بيتها القروى هذا فى أيام الأعياد ، وأن أزورها فى موسكو فى فصل الشتاء وقلت: متى نتحاسب يا منى القلب، وما هو المبلغ المطلوب منى؟

قالت وهى تغص بالبكاء : نتحاسب فيما بعد ! . .

قلت : وما الداعى لهذا التأجيل ، فالمثل يقول . . الصداقة صداقة ودع المال جانباً . . إننى لا أود العيش على نفقتك فلا تتعبى نفسك يا صوفيا ، وخبرينى كم تريدين منى من الروبلات ؟

أجهشت صوفيا بالبكاء وقالت وهى تسحب درج النضد : هناك مبلغ تافه . . بوسعك أن تدفعه فيما بعد . . ثم نقبت فى الدرج وأخرجت منه كشفاً وقدمته لى .

قلت : وأخيراً ، هذه هى قائمة حسابى ، لقد أحسنت عملا . . ووضعت نظارتى على عينى وألقيت على الكشف نظرة عجلى . . ما هذا ؟ ! هذا ليس حسابى يا صوفيا . . إن هذا الكشف يتضمن مبلغاً قدره ٢١٢ روبلاً و ٤٤ كوبيكاً ! . . يخال إلىّ أنك قدمت لى حساب غيرى .

قالت : كلا ياحبيبى ! هذا كشف حسابك ، فافحصه جيداً . .

ولكن كيف تجمع علىّ كل هذا المبلغ ؟ إننى أوافق على دفع خمسة وعشرين روبلاً للغرفة كما اتفقنا ، وأوافق أيضاً على دفع ثلاثة روبلات للخادم ، وأما الباقى فلا يدخل فى حسابى بتاتاً .

تطلعت إلى صوفيا بافلوفنا بعينين باكيتين مستغربتين وقالت:

إننى لا أفهمك يا شقيق الروح ! ... ألا تثق بى ؟ . فاحسب إذا أردت ... ألم تشرب الخمر قبل الأكل ؟.. وألم تحتس الفودكا فى أثناء الطعام ؟ . . أونسيت المربى مع القهوة والشاى والتوت البرى والخضار ؟.. أمّا القهوة فلم نتفق عليها سلفاً وكنت تشربها مرّات عديدة فى النهار ومع ذلك فالأمر تافه وبوسعى أن أخصم لك اثنى عشر روبلا .. ولتدفع لى مئتى روبل فقط ! ..

— لكننى أرى فى الكشف مبلغ خمسة وسبعين روبلاً ولم تذكرى فى أى باب أُنفقت ؟

— أنسيت فى أى باب أُنفقت؟ حقاً إنها لمداعبة لطيفة منك؟

تطلعت فى وجه صوفيا طويلاً ، فكان صادقاً صافياً ، تعلوه علائم الاستغراب ... فانعقد لسانى فى فمى ، ولم أنطق بكلمة واحدة ، فقدمت لها مئة روبل وحرّرت كمبيالة بمئة أخرى ، وحملت حقيبتى على كتفى ، ووليت وجهى شطر محطة سكة الحديد

أيها السادة ألا يقرضنى أحدكم مئة روبل ؟ !

صبي شرير

سار إيفان إيفانتش لايكين ، وهو شاب لطيف المحيا ، إلى جانب أنَّا سيميونفنا زامبليتسكايا ، وهي فتاة لها أنف مرتفع الأرنبة ، وكانا يتجهان إلى شاطئ البحر ، وإذ بلغاه ، جلسا على مقعدٍ لا يبعد إلا خطوات من المياه ، تظلله بعض شجيرات الصفصاف الكثيفة اليافعة . . إنه لمكان رائع حقاً ، فلو أتيح لكم وجلستم فيه لاستترتم عن العالم ، ولما رآكم سوى الأسماك والعنكبوت ، والبريق المتراكض على صفحة الماء . . وكان الشابان يحملان أدوات صيد الأسماك ، من عصىٍّ طويلة ، وصنارات ، وأنبوبة زجاجية تتزاحم فيها الديدان ، وما كادا يجلسان حتى بدآ يصيدان .

ثم بادر لايكين رفيقته الحديث وهو يتلفت يمنة ويسرة : إنني جد مسرور في نهاية الأمر . . لأننا غدونا بمفردنا ، أود أن أحدثك يا أنَّا سيميونفنا عن أشياء كثيرة . . فلما شاهدتك لأول مرة . . انتبهي ! . . سمكة تقضم صنارتك ! . . أدركت وقتئذ قيمة الحياة . . وعثرت على معبودتي التي يجب عليّ أن

أ كرس لها حياتى الشريفة المثمرة . . انتبهى ! . . سمكة تقرض صنارتك ! . . أجل ! حين شاهدتك أحببتك بكل قواى . . انظرى الصنارة ترتعش ! . . أناشدك أيتها العزيزة أن تطمئنى قلبي . . أيمكننى أن أعتمد على . . كلا ، ليس على حب متبادل إننى لا أستحقه ، بل ولا أجرؤ على التفكير فيه . أيمكننى أن أعتمدعلى . . اسحبي الصنارة ! . .

ورفعت أنّا يدها إلى أعلى وجذبت الصنارة . . وإذا بسمكة فضية تلمع فى الهواء ، فما إن وقع نظرها عليها حتى صرخت تقول : رباه . شبوط . . آه . . آه أسرع . . لقد أفلت ! . .

وهكذا أفلت الشبوط ، وقفز على الحشائش ، ثم قفز قفزة أخرى وإذا به يعود إلى موطنه الطبيعى ، ويتخبط فى المياه قليلاً ثم يغوص . .

وأسرع لايكين فى أثر السمكة ، وأمسك سهواً بيد أنّا سيميونفنا بدلاً منها . . ووضعها على فمه ، دون أن يعى ما يفعل ، فاهتزت الفتاة ، وحاولت التخلص ، ولكن محاولتها جاءت متأخرة ، واحتجاجها اختنق فى حلقها ، لأن الشفاه التقت عفواً

في قبلة حارة ، أعقبتها قُبل أخرى . . ثم كان القَسَمَ ، وكان التأكيد . . فيا لها من دقائق سعيدة ! . .

والشيء بالشيء يذكر . ليس في هذه الحياة الزمنية سعادة مطلقة . فالسعادة عادة تحمل في ذاتها سماً تسمم به نفسها ، أو يأتيها هذا السم من الخارج ، وهذا ما حدث للفتى والفتاة إذ ما كادا يتعانقان حتى بلغ مسمعيهما ضحك مزعج ، فتطلعا إلى المياه مرتبكين وإذا بصبي عاري الجسم يقف في المياه حتى الخاصرة ، ويرمقهما بنظرات خبيثة ويضحك ، ولم يكن هذا الصبي سوى التلميذ كوليا شقيق أنا سيميونفنا . .

وقال لهما الصبي : آ . آ . . آ . . رأيتكما تتعانقان ، انتظرا سأقول للماماشا ! . .

فأجابه لابكين وقد احمر وجهه خجلاً : اسمع يا كوليا ، أنت صبي شريف ومن النذالة أن تراقب غيرك . ثم من الحطة واللؤم والسفالة ، أن تنقل ما تراه إلى غيرك ! . . فأملي فيك بوصفك صبياً شريفاً نبيلاً أن . .

فقاطعه الصبي النبيل قائلاً : أعطني روبلاً وإلا بحت بما رأيت . .

فأخرج من جيبه روبلاً وقدمه إلى كوليا فتناوله هذا وضغط عليه فى راحته المبتلة وصفّر ، وابتعد سابحاً . .

وفى اليوم التالى ابتاع لايكين من المدينة أقلاماً ملونة وكرة وقدمها إلى كوليا ؛ كما أن شقيقته أهدته كل ما لديها من علب فارغة ، ثم قدما له معاً سلسلة فى طرفها رأس كلب ؛ ويبدو أن هذه الهدايا المتوالية لاقت هوى فى نفس الصبى الشرير . . فطفق يراقب الفتى والفتاة ، ويشدّد عليهما الخناق . فحيثما التقيا كان هو لهما بالمرصاد ، لا يفارقهما لحظة واحدة .

وحدث مرة أن اغتاظ لايكين من مضايقة كوليا وقال له وهو يقضم أسنانه غضباً : يا لك من وقح . . إنك مخلوق صغير ، لكنك لئيم كبير ! . .

وانقضى شهر يوليو كله وكوليا مواظب على تعكير صفو المحبين المسكينين ، وكان يهددهما دائماً بالوشاية بهما ، ولا يردعه عن ذلك إلا الهدايا المتواصلة . وأخيراً أخذ يحدثهما عن ساعة جيب فوعداه بها مرغمين .

وبينما كان ثلاثتهم يتناولون الغداء مع بقية الأهل ، قهقه كوليا على حين غرة ، وغمز لايكين بعينه وسأله : أأقول ؟ ! .

فاحمر وجه لايكين خجلاً وارتبك ارتباكا شديداً حتى إنه وضع القوطة فى فمه مع قطعة الخبز . أما أنا سيميونفنا فما كان منها إلا أن نفرت من مكانها وهرعت إلى غرفة مجاورة تاركة الأهل فى حيرة من أمرها .

وظل لايكين وأنا عرضة لمضايقة الصبي وكثرة مطالبه إلى أن هَلَّ شهر أغسطس فتقدم الشاب من أبوى الفتاة طالباً يدها ، إذ حالفه التوفيق ونال موافقتهما فرح فرحاً عظيما ، وكان أول ما فعله أن عدا إلى الحديقة باحثاً عن الصبي كوليا الشرير فما إن عثر عليه حتى فرك أذنه ، وكانت أنا فى تلك الآونة تبحث عن كوليا فى الحديقة أيضاً ، فأسرعت إليه وفركت أذنه الثانية .

وللقارئ أن يتصور مدى الغبطة التى استولت على نفسى المحبين وهما يصغيان إلى بكاء كوليا وتوسلاته وهو يقول لهما : عزيزىّ . . حبيبىّ . . لن أفعل . . آخ . . آخ . . سامحانى ؟!

وقد أقر الزوجان فيما بعد بأنهما لم يتذوقا ، طيلة أيام حبهما ، سعادة كتلك التى غمرت نفسيهما وهما يفركان أذنى الصبي الشرير ! . .

ڤانكا

فانكا جوكوف صبي في التاسعة من عمره ، مضت عليه ثلاثة أشهر وهو يعمل أجيراً عند صانع الأحذية المعلم إلياخين في موسكو ، وفي عشية عيد الميلاد ، كان الصبي يتقلب على فراشه قلقاً مضطرباً يطلب النوم ولا يأتيه .

وإذ انبثق الفجر ، وذهب معلمه مع أسرته إلى الكنيسة ليؤدوا الصلاة ، أسرع فانكا إلى الخزانة ، وأخرج منها دواة ، ومسكة تقبض على ريشة يعلوها الصدأ ، فوضعها على مقعد خشبي ، وركع على ركبتيه إلى جانب المقعد ، ثم نشر عليه ورقة بالية ، وهم بالكتابة .

وقبل أن يخط الكلمة الأولى ، تطلع إلى الباب والنافذة وجلاً ، ثم رمق صورة القديس بطرف عينه ، وأجال النظر في الرفوف التي تكدست عليها قوالب الأحذية ، وهو يصعد النفس متقطعاً .

وشرع يكتب : جدي العزيز . . كونستانتين ما كاريتش هأنذا أكتب لك كتاباً أحييك فيه تحية عيد الميلاد .

وأسأل الله أن يمنحك الخير العميم ، وأن يطيل حياتك ، إذ لم يبق لى سواك بعد أن فقدت أبى وأمى ».

وحوّل فانكا نظره إلى النافذة ، وكان نور الشمعة يتلألأ عليها ، فتخيل جده الذى يعمل حارساً ليلياً فى بيت السيد جيفاروف ، منتصباً أمامه ، وكان جده هذا ، رجلا قصير القامة ، نحيف الجسم ، فى الخامسة والستين من عمره ، إلا أنه ما فتىء رشيقاً نشيطاً ، لا تفارق ثغره الابتسامة ، ففى النهار يرقد فى المطبخ ، أو يداعب الطاهيات ، وفى الليل يلتف بفروته المهلهلة ويدور حول منزل مولاه ضارباً الأرض بعصاه ، يتبعه كلباه « كاشتانكا » و « فيون » ، وهذا الأخير أسود اللون ، طويل الجسم ، قريب الشبه بابن عرس ، دقيق النظر ، مدلل محبوب ، ويتمتع بسمعة طيبة بين أربابه والغرباء ، مع أنه كان يخفى تحت لطفه وتواضعه حقداً وخبثاً غريبين ، وليس أقدر منه فى التسلل إلى حيث تدفعه حاسة الشم ، كما أنه ماهر جداً فى التعلق بأرجل الناس ، وسرقة الدجاج من الفلاحين . .

فطالما رُكل وجلد عقاباً له على وقاحته ، حتى إن بعضهم علقه

من عنقه مرتين ، وبالرغم من ذلك كله ، كان « فيون » ينهض وكأن شيئاً لم يحدث له !

تصور ڤانكا جده واقفاً حسب عادته عند بوابة المنزل ، موجهاً نظره إلى نوافذ الكنيسة الحمراوية اللون ، وقد انكمش على نفسه من شدة البرد ، فراح يضرب الأرض بحذائه الغليظ ويفرك يديه ، ويسعل ، ويمازج الطاهيات ، والخادمات ، ويقرصهن فى أيديهن مداعباً مماجناً ، ثم يُخرج من جيبه علبة السعوط ويعرضها عليهن متسائلاً : أتردن الاستنشاق ؟ فتأخذ النسوة القليل من السعوط ويستنشقنه ، وسرعان ما ينهمكن فى العطس ، وجدّ ڤانكا يضحك مسروراً ويصرخ : هلكت من الصقيع .

ثم يضع السعوط عند أنف الكلبة « كاشتانكا » فتعطس ساخطة مستاءة ، ويضعه عند أنف الكلب « فيون » فيرى هذا أن من الكياسة والتواضع ألا يعطس ويكتفى بأن يلوى ذنبه . وكان الطقس إذ ذاك جميلاً ، والهواء ساكناً نديًّا . وإذ يقبل الليل وتغرق القرية فى لجته ، تبدو البيوت بسطوحها البيضاء ، والمداخن تبعث الدخان أعمدة . . والأشجار وقد

اتشحت برداء فضى ، وتدلت عروقها تحمل ذرات الصقيع ، والسماء تعج بالنجوم التى تغامز بعضها فرحة مغتبطة ، والمجرة بدت جلية واضحة ، وكأنها غُسلت عشية العيد ، وفُركت بالثلج ! . .

تنفس فانكا قليلاً ، وتابع كتابة رسالته إلى جده فقال :

« اقتادنى معلمى أمس من شعرى إلى الحوش ، وانهال على ضرباً بالسير لأننى هززت طفله عفواً فغفا . وحدث يوم الأحد الفائت أن طلبت منى معلمتى أن أنظف لها سمكة ، فبدأت بتنظيفها من ذنبها ، فخنقت على ، وانتزعتها من يدى ، وزجت رأسها فى فمى . .

« إن غذائى فى هذا البيت ، يتألف من خبز فى الصباح ، وبرغل عند الظهر ، وخبز فى المساء ، ولا أعرف للشاى والحساء طعماً ، أما نومى ففى الممر حيث أكون عرضة للبرد القارص .

« وأخبرك يا جدى أن أجراء معلمى يهزؤون بى ، ويرسلوننى إلى الخمارة لكى أحضر لهم الفودكا ، ويسألوننى أن أسرق لهم الخيار من بيت معلمى ، وهذا يضربنى بكل شىء يقع فى يده ، لأقل هفوة تبدو منى .

« أى جدى العزيز . . . ارحمنى بالله عليك ، وخذنى من هذا البيت إليك ، فليس عندى أية حيلة للخلاص ، خذنى من هذا المكان ، أنا أقبل قدميك وأدعو لك دائماً ، وإن لم تفعل ، فإننى لا محالة هالك » .

لوى فانكا فمه . ومسح عينيه بقبضته القذرة ، وغص بالبكاء ، ثم واصل الكتابة :

« وسأفرك لك يا جدى الدخان ، وأسأل رضاك ، وإن خالفت لك كلمة فاضربنى ، وإن تبين لك أننى لن أجد عملاً لديك ، فائذن لى بالعمل فى مسح أحذية متعهد القرية ، أو أن أرعى الماعز بدلا من فيدكا .

« أجل يا جدى العزيز ! ليس لى من منقذ سواك . لقد حاولت الفرار مرة إلى قريتك ؛ لكننى عدلت عن ذلك ، لأننى لا أملك حذاء أقى به قدمى من الصقيع . . خذنى يا جدى وكن على ثقة بأننى إذا ما بلغت الرشد فسأقابل جميلك بالمثل ، وسأعمل على إعاشتك ، ولا أدع أحداً يسىء إليك ، وإن توفاك الله ، فإننى سأصلى لروحك كما أصلى لروح أمى .

« إن موسكو لمدينة كبيرة ، وبيوتها فخمة وخيولها كثيرة ،

لكننى لا أجد فيها خرافاً ، وكلابها غير مؤذية ، وأطفالها لا يطوفون بالأحياء فى ليالى الأعياد ، ولا يسمح لهم بالاشتراك فى التراتيل الكنسية .

« ورأيت مرة فى واجهة حانوت ، صنانير بعصيها ، يستطيع المرء أن يصطاد بها أية سمكة كانت ولو بلغ وزنها الرطل . وشاهدت فى بعض المخازن أسلحة مختلفة الأشكال بديعة الصنع ، جميلة المنظر ، والله يعلم كم تساوى من مئات الروبلات . . وشاهدت فى بعض حوانيت اللحامين عدداً كبيراً من الدُرّاج، والأرانب ، ودجاج الأحراج ، والعجيب أن الناس لا يستفهمون أبداً عمن اصطاد هذه الطيور ! . .

« جدى العزيز . أرجوك أن تتذكرنى وقت أن ينصب السادة شجرة عيد الميلاد ، واقتطف لى منها جوزة مذهبة ، واحفظها فى صندوق أخضر . والسيدة أولغا إيغناتيفنا لا تعارضك إذا علمت أن الجوزة لى » .

* * *

وجّه الطفل نظره مرة أخرى صوب النافذة وعاودته الذكريات ، وقت أن كان يذهب مع جده لجلب شجرة عيد الميلاد ، فيالها

من أيام طيبة ! كانا يذهبان معاً إلى الغابة . وسط الثلوج ، فيشعل جده غليونه ، ويستنشق الدخان طويلاً ، ويضحك من حفيده الذي يرتعش من البرد ، بينما الشجيرات الفتية المكتسية بالصقيع تقف جامدة لا تدرى من منها سيكون نصيبه الموت . . وإذ يمر بهما أرنب منطلق كالسهم ، يصرخ جده بأعلى صوته : أمسك ، أمسك . . آه يا ذنب الشيطان ! . .

وبعد أن يقطع جده الشجرة ، يجرها إلى بيت سادته : وهناك يقبل الكل على تنظيفها وترتيبها ، وتكون أكثرهم اهتماماً بها السيدة أولغا إيغناتيفنا ، حبيبة فانكا .

كانت أم فانكا تخدم فى هذا البيت ، وكانت السيدة أولغا تقدم لطفل مخدومتها اللبن ، وتعلمه القراءة والكتابة والعدّ حتى المائة ، والرقص أيضاً ، وحين وافى أمه الأجل أحالت السيدة أولغا الطفل اليتيم إلى العمل مع جده فى المطبخ ، ومن ثم نقل إلى موسكو ليعمل عند صانع الأحذية « المعلم إلياخين » .

وتابع فانكا كتابة رسالته إلى جده وقال :

« احضر إلى موسكو ياجدى العزيز ، أتوسل إليك من أجل المسيح أن تنقلنى من هذا المكان ، أشفق على هذا اليتيم التعس.

إن كل من فى هذا البيت يضربنى، وأنا أشتهى الطعام ، وأكاد أهلك من الضجر ، ولا أنفك عن النحيب ، وذرف الدموع . وحدث مؤخراً ، أن ضربنى معلمى على رأسى بقالب الحذاء ، فوقعت على الأرض ولم أستطع النهوض ، إلا بكل مشقة آه . . لقد ضيعت حياتى ! . إنها لأسوأ من حياة الكلاب ! . .

« سلامى إلى كل من هيلين ، و إيغور الأكتع ، والسائق ساشا ، وأرجوك ألا تعطى أحداً « مزيكتى » .. احضر يا جدى وابق لفيدك المطيع إيفان جوكوف » . . .

وطوى فانكا الرسالة ، ووضعها فى مغلف كان ابتاعه بكوبيك واحد .. و بعد أن أعمل فكره قليلا ، غمس الريشة فى الدواة ، وكتب على الغلاف :

« إلى قرية جدى ! »

ثم حك رأسه بطرف الريشة ، وأضاف إلى العنوان :

« كونستانتين ما كاريتش »

كان سرور فانكا عظيماً لأن أحداً لم يزعجه فى أثناء كتابة رسالته هذه ، فهبَّ من مكانه ، واختطف قبعته ، ووضعها على رأسه ، وهرع إلى الشارع ، فى قميصه ، ساهياً عن لبس معطفه .

كان رواد حانوت اللحام الذين قابلهم فانكا بالأمس قد أحاطوه علماً أن الرسائل تلقى عادة فى صناديق البريد ، ثم تجمع منها وتوزع إلى جميع أنحاء العالم ، على زحافات تجرها خيول مطهمة ، ترن فى أعناقها الأجراس ، ويقودها سواقون سكارى وهكذا أقبل فانكا على أول صندوق للبريد ، وأدخل رسالته الثمينة فى شقه . . .

. .

وعاد الصبي إلى البيت ، واستلقى على فراشه تهدهده الأمانى العذبة ، وبعد ساعة من الزمن ، أغمض جفنيه ، واستسلم إلى سلطان الكرى ، فشاهد فى نومه جده يجلس على سطح الموقد وقد تدلت قدماه ، وأمسك بيده رسالة فانكا يقرأها على طاهيات البيت وخادماته . . بينما الكلب « فيون » يسير إلى جانب الموقد ، وهو يهز ذنبه . . .

فى الحمّام

كان سيدٌ بدين يغتسل فى الحمّام، و إذ لمح من خلال الضباب رجلاً طويلاً نحيفاً ، له لحية يهودية ، ويعلق على صدره صليباً صاح فيه قائلاً : أيها الحامى ؟ . . ايتنى بالماء الساخن . فأجابه الرجل : ليس من شأنى جلب المياه الساخنة ياسيدى ، فإننى لست بحمامى ، و إنما أنا حجّام ، فهل تود استعمال أقداح الحجامة ؟... ارتاح السيد البدين لهذا السؤال ، وألقى نظرة عجلى على وركيه الحمراوين ، وأجاب : هات أقداح الحجامة ، ولعل فى استعمالها بعض الفائدة . . فأسرع الحجّام إلى غرفة الاستراحة . وعاد بأدواته ، ولم تمض خمس دقائق ، حتى كانت عشرة أقداح عالقة على صدر السيد وظهره .

و بينما كان الحجّام يضع القدح الحادى عشر ، قال لزبونه : أتذكر يا سيدى وقت أن زرتنا يوم السبت الماضى وقد طلبت منى بعد أن اغتسلت أن أنزع الثآليل عن أصابع قدميك ؟ . . أنا الحجام ميخايلو . . أتذكر حين سألتنى عن الفتيات الخاطبات ؟ فأجابه : أجل أذكر ذلك ، وما الذى تريده ؟ . . قال :

لا أريد شيئاً ، لكنني أود إطلاعك على ما أضمره لك من ملامة يا سيدى . . رغم ما فى ذلك من تعرض لوقوعى فى الخطيئة وأنا مقبل على تناول القربان ، فما أود أن أبوح به إليك يا سيدى هو أن فتياتنا فى الماضى كن يطمحن فى الزواج من رجل قوى ، صارم ، ثرى ، متدين . وأما فتيات هذه الأيام فينتهجن طرقاً معوجة شائكة . إنهن يبحثن عن الرجال المتعلمين فقط . قدم لهن رجالا متعلمين ، والويل لك إن عرفتهن إلى رجال من التجار أو الموظفين ! .

والمتعلمون يا سيدى على أصناف . فمنهم من يبلغ أعلى المناصب ، ومنهم من يظل طيلة حياته يحبر الأوراق ثم يموت فقيراً معدماً غير مدخر ثمناً لنعشه . ومن هؤلاء الناس ، وعددهم لا يستهان به ، شاب متعلم يعمل فى دائرة البرق ، تراه يحذق كل الأمور حتى اختلاق البرقيات ! .. لكنك إذا نظرت إليه ، لا يسعك إلا أن تتألم وتأسى لبؤسه ، وهو من زبائن هذا الحمّام الذين يغتسلون بالماء دون الصابون !

وهنا قاطعه رجل بصوت جهورى فيه بحة ، وكان يجلس على المصطبة في الجوار . وقال :

— عامل البرق هذا فقير لكنه شريف ، وإننا لنفخر بمثل هؤلاء الناس ونعتز ، فالعلم مع الفقر دليل على سمو النفس ، أفهمت ذلك أيها الجاهل ؟

تطلع ميخايلو بطرف عينه إلى مصدر الصوت فرأى رجلاً هزيلاً ، برزت عظام جسمه بروزاً واضحاً فبدأ صدره وظهره وكأنهما مؤلفان من جلد وأضلع فقط ، وكان شعره الطويل يتدلى على وجهه ، فغطاه ولم تظهر منه سوى عينين سددتا إلى الحجّام وهما تحملان كل ما فى النفس من حقد وازدراء .

فتمتم ميخايلو قائلا : أأنت منهم ! أأنت من أصحاب الشعر الطويل ؟ ! . . ومن ذوى الأفكار ؟ . . يا للفظاعة لقد تكاثر هؤلاء القوم فتعذر اقتناصهم كلهم . . هه . . إن الأحاديث المسيحية تزعج هذا الهيكل العظمى . . إنه يتحمس للمتعلمين ؟ .

ثم تلفت الحجّام إلى زبونه وقال له : إن فتيات اليوم يملن إلى مثل هذا الرجل . أرأيت أمراً أبشع من هذا الأمر ؟ لقد دعتنى فى الخريف الماضى ابنة أحد القسس وقالت لى : ميشيل — وربات البيوت اللائى أخدمهن فى زينتهن ينعتننى بهذا الاسم — هل لك أن تبحث لى يا ميشيل عن عريس من أصحاب الأقلام ؟!

ولحسن حظها كنت أعرف أحدهم واسمه بورفيرى إميليانيتش كان يقبع دائماً فى إحدى الخمارات ويخيف روادها بنشر أسمائهم فى الصحف . وكان كلما أتاه صاحب الخمارة ليقبض ثمن الفودكا، همس بورفيرى فى أذنه قائلا : أتطلب منى دراهم ؟ ألا تعرف مَن أكون ؟ . لا تنس أننى قادر على أن أعلن عنك فى الصحف أنك من كبار المجرمين ! . ولما كان بورفيرى هذا شاباً شبه عار ، رث الثياب ، سهل علىَّ إغراؤه بمال ابنة القسيس . أطلعته على رسمها ، واقتدته إليها بعد أن استعرت له ثياباً جديدة . غير أن الحظ لم يواته ، فلما رأته الآنسة أشاحت بوجهها عنه قائلة : إننى لا أرى فى محيّاه أمارات الحزن والألم ! . . والواقع أن ابنة القسيس نفسها لا تعرف مَن مِن الرجال تريد .

وعاد الرجل صاحب الصوت الذى فيه بُحة ، وعلّق على حديث ميخايلو قائلاً : إنك تفترى على الصحافة أيها الخسيس . فأجاب الحجام : أتنعتنى بالخسيس ؟ . . إنه لمن حسن طالعك أننى مقبل على تناول القربان وإلا لأسمعتك كلاماً جارحاً . . ألعلك من طبقة الكتاب أيضاً ؟ . . قال : كلا ، لكننى أطلب منك ألا تتحدث عما لا تدرك كنهه . . لقد كان الكتّاب فى روسيا

كثيرين، وقدموا لبلادهم خدمات جليلة، بل إنهم ثقفوا العالم قاطبة؛ ولذا يجب علينا أن نذكرهم مفتخرين بهم لا شاتمين؛ وإنني أعني بهؤلاء الكتاب لا الملمانيين فحسب بل والروحيين أيضاً. فأجاب الحجام: إن الكتّاب الروحيين لا يعنون بأمور كالتي تدافع عنها.

قال: حقاً إنك لا تفقه ما تتفوه به، إن ديمترى روستوفسكى، وإينوكينتى خرسونسكى، وفيلاريت موسكوسكى، وغيرهم من رؤساء الكنيسة ساهموا مساهمة فعالة في نشر العلوم والمعارف.

فنظر ميخايلو بطرف عينه إلى خصمه ثانية ثم حوّل وجهه نحوه بسرعة وصاح فيه: يبدو لي أنك من أولئك ياسيدى! من ذوى الأفكار!.. وليس من العبث أنك قد أطلت شعر رأسك!.. أجل إننا أدرى بهذه الأمور، وسنريك الآن من تكون!؟

ثم نهض الحجّام وقال لزبونه: دع يا سيدى الأقداح على جسمك، وسأعود إليك على وجه السرعة.. وخرج ميخايلو يجر وراءه سرواله المبتل، وذهب توًّا إلى الباب الخارجى،

حيث كان يجلس رجل قزم يبيع الصابون ، خاطبه قائلاً : سيخرج من الحمام الآن رجل طويل الشعر ، فعليك أن تراقبه، إنه يحرض المستحمين ، أفهمت ؟ . . إنه من ذوى الأفكار . . أسرع فى طلب نازار زاخاريتش ! . . فأجابه القزم : أخبر الصبية بالأمر . فالتفت ميخايلو إلى الصبية الواقفين عند ألبسة المستحمين ، وقال لهم : سيخرج من الحمّام الآن رجل طويل الشعر ، إنه يبث فى الناس روح التمرد ! . . تتبعوا أثره وأسرعوا فى إخبار صاحبة الحمام لكى تبعث فى طلب نازار زاخاريتش ليحقق معه ! . . إنه رجل خطر ، يتلفظ بعبارات مخيفة . . إنه من ذوى الأفكار ! . .

فما إن سمع الصبية هذا الكلام حتى ارتسمت على محيّاهم علامات الارتباك ، وقالو للحجّام : أين هو هذا الرجل ذو الشعر الطويل ؟ . إننا لم نر بين الزبائن رجلاً ينطبق عليه وصفك هذا ، فالذين نزعوا ألبستهم هنا هم ستة أشخاص : تتريان ، وتاجران ، ووجيه ، وشمّاس .. فلعلك تقصد صاحب الشعر الطويل أبانا الشماس ؟ فأجاب ميخايلو : إننى أعنى ما أقوله ، فلا تحاولوا تضليلى أيها الشياطين . . ثم نظر إلى ألبسة الشماس ،

ولبس رداءه الكهنوتى ، فساورته الشكوك وسأل الصبية : بمَ تميزون صاحب هذه الألبسة ؟ فأجابوه : إنه نحيف ، أشقر الشعر ، له لحية كثة ، ويسعل كثيراً . . فامتقع لون الحجّام لدى سماعه هذا الجواب ، وراح يوبخ نفسه قائلاً : إننى هاجمت شخصية قدسية لها مكانتها فى الكنيسة فيا للخطيئة . . وما عسى أن أعمل الآن وأنا مقدم على تناول القربان . . المغفرة يا إلهى لقد أخطأت وعلىّ أن أذهب إلى أبيـــنا الشماس أسأله السماح .

تألم ميخايلو لما حدث له تألماً شديداً ، وعاد أدراجه إلى داخل الحمام بخطوات غير متوازنة ، فشاهد الشماس وقد أفَج رجليه إلى جانب الصنبور وهو يصب الماء الساخن بالطاس على جسمه ، فاقترب منه وخاطبه بصوت باكٍ : « أسألك السماح أيها الشمّاس ؛ من أجل المسيح سامح هذا الشقى ! »

فالتفت إليه الشماس مستغرباً وقال : علام أسامحك ؟ . .

فزفر الحجّام زفرة طويلة ، وجثا عند قدمى الشماس وقال :

— لقد ظننت . . أن فى رأسك أفكاراً ! . .

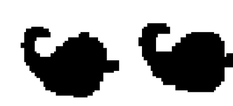
اقرأ

تدخل فى عامها الخامس

١٩٤٣ — ١٩٤٧



صدر منها ٥٠ كتاباً فى
مختلف ألوان الأدب والعلم
ونالت استحسان القراء وتقديرهم
فى جميع البلاد العربيـــة



هدفها بثّ رسالة الفكر فى الجمهور
مع العمل على توجيه الشعوب العربية
إلى طريق الخير والحق والجمـــال

اقرأ

المؤلفات التي ظهرت في هذه السلسلة

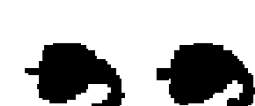
١٥	بايرون	للسيدة أمينة السعيد
١٦	دمشق	للأستاذ محمد كرد على
١٧	شكسبير	للأساتذة محمد فريد أبو حديد وزكى نجيب محمود وأحمد خاكى
١٨	قنديل أم هاشم	للأستاذ يحيى حقى
١٩	سيدة القصور	للأستاذ على بك الجارم
٢٠	الملك فاروق*	للأستاذ كريم ثابت بك
٢١	أبو نواس	للأستاذ عبد الحليم عباس
٢٢	جحا فى جانبولاد	للأستاذ محمد فريد أبو حديد
٢٣	صوت أبى العلاء	للدكتور طه حسين بك
٢٤	لافوازييه	للأستاذين عبد الحميد يونس وعبد العزيز أمين
٢٥	قصة البنسلين	للدكتور مصطفى عبد العزيز
٢٦	العشاق الثلاثة	للدكتور زكي مبارك
٢٧	بغداد مدينة السلام	للأستاذ طه الراوى
٢٨	بوشكين	للأستاذ نجاتي صدقى
٢٩	النار والنور	للأستاذ أمين إبراهيم كحيل
٣٠	قطر الندى	للأستاذ محمد سعيد العريان
٣١	الغزالى	للأستاذ طه عبد الباقى سرور

إلى رجال الغد وأولياء أمورهم

تظهر قريبا

أولادنا

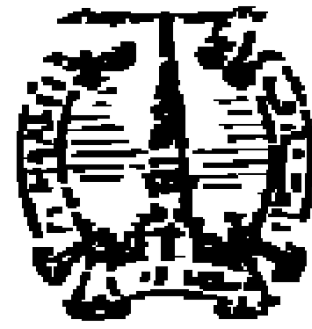
مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النموّ
المتعة والثقافة وسمو النفس .



تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك



مطبوعات حديثة

الحـــرية (٢٠ قرشاً)

تأليف جون ستيوارت ميل وتعريب طه السباعى باشا

كتاب وضعه مؤلفه دفاعاً عن الحرية الشخصية ، وتأييداً لمبدأ الاستقلال الفردى . ويعد دعوة حارة تهيب بالأفراد إلى بذل نصيبهم من المجهود فى الحياة بالقلب وباللسان وباليد . وقد عنى سعادة المعرب بالترجمة إلى حد الإتقان والـكمال .

تاريخ أوروبا فى العصر الحديث (جنيه واحد)

تأليف هربرت فيشر

وتعريب الأستاذين أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع .

مرجع من أهم المراجع فى تاريخ أوربا الحديث ألفه علم من أعلام المؤرخين فى العصر الحديث كان أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة أكسفورد ووزيراً لمعارف بريطانيا . وقد جاءت هذه الترجمة دقيقة الأداء متينة الأسلوب فى ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير.

المسند للإمام أحمد بن حنبل (ثمن الجزء ٨٠ قرشاً)

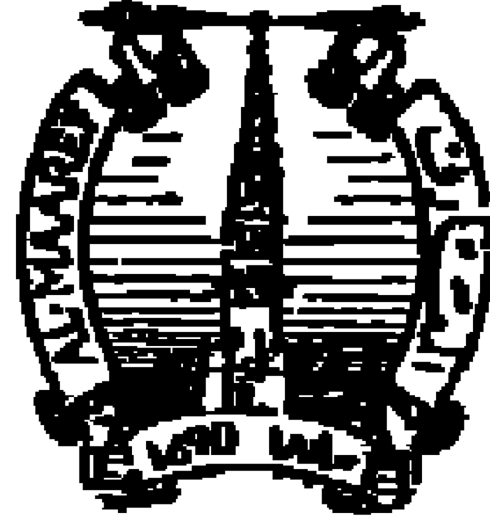
شرح الأستاذ أحمد محمد شاكر

الكتاب الذى جعله مؤلفه إماماً للناس يرجعون إليه فى تعرف السنة وهو كالأصل لكتب الحديث ، ومؤلفه إمام المحدثين وحجتهم . وقد عنى الشارح ببيان درجة كل حديث من الصحة والضعف ، مع التعليل الدقيق الوافى على أدق قواعد علماء الحديث وأصحها . وألحق به فهارس وافية على نحو مبتكر . ظهر الجزء الأول فى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٩٤٦ فى طبعة فاخرة فى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير .

صور من التاريخ العربى (٢٥ قرشاً)

تأليف الأستاذ نقولا زيادة

فى التاريخ العربى زوايا مهجورة لو أنصفها الناس لأصابوا منها خيراً كثيراً وهذا الكتاب يقع فى ٣١٢ صفحة هو ثمرة جهد واسع بذله مؤلفه فى سبيل الكشف عن تلك الزوايا المهجورة من تاريخنا العربى .



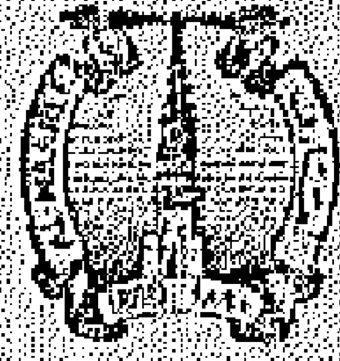
دار المعـــارف

للطباعة والنشر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

المحل الرئيسى بالقاهرة	:	٧٠ شارع الفجالة
فرع الإسكندرية	:	٢ ميدان محمد على
مكتب السودان	:	شارع السردار بالخرطوم
مكتب فلسطين وشرق الأردن	:	شارع مأمن الله بالقدس
مكتب لبنان وسوريا	:	شارع المعرض ببيروت





روضة الطفل

مجموعة من القصص المشوقة المفيدة
مزينة بالصور المطبوعة بالألوان

أرنبـــو والكنز
كتكت المدهش
عيد ميـلاد فلة
فرفر والجـــرس

• ثمن القصة ٧ قروش •

تصـــدرها

دار المعارف بمصر

بمعاونة حضرات
أمينة السعيد ويوسف مراد وسيد قطب